أفعى

إسكس

أفعى إسكس

سارة بيري

«واحدة من أبرز الروايات التاريخية التي لا تُنسى في
السنوات العشر الأخيرة» جريدة الصنداي تايمز

Qindeel | قنديل

THE ESSEX SERPENT

SARAH PERRY

أفعى إسكس

سارة بيري

ترجمة: ديوان آرابيا

© 2019 Qindeel Printing, Publishing & Distribution

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

موافقة «**المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-10- 01-6158735 تاريخ 2019/2/3

ISBN: 978 - 9948 - 38 - 836 - 4

Cppyright © Sarah Perry 2016

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2019

الطبعة الأولى: نيسان / إبريل 2019 م – 1440 هـ

إشادة برواية «أفعى إسكس»

«أفعى إسكس، رواية مشوِّقة، وعملٌ أدبي يتسم بالذكاء الشديد، ولغتها ساحرة، فهي أحد مؤلفات الكاتبة صاحبة الموهبة الفذة سارة بيري».

- الروائية سارة واترس

«روايةٌ تبعث في النفس السرور، وتحلِّق بك في آفاق من المتعة، حيث لا شيء يُشبِع الشهية الجامحة، وحيث تمتزج الرغبة بالإيمان وسط المستنقعات، بَيْدَ أن وشائج الصداقة هي المعجزة. تمتلك سارة بيري موهبةً نادرة، تتمثَّل في قدرتها على إبداع عبارات نثرية لا مثيل لها، أو بعبارةٍ أخرى: هي كاتبة تدرك معنى الحياة».

- الروائية جيسي بورتون

«لقد أحببت هذا الكتاب، إذ يبدو منذ الوهلة الأولى، عملاً روائياً روحانيّاً وعاطفيّاً يتسم بالحكمة، فأفعى إسكس رواية رائعة تدور أحداثها حول أمور الحياة؛ كالحب والإيمان، والعلم والدين، والأسرار والألغاز، والتقلُّبات المعقَّدة وغير المتوقَّعة، التي تنتاب القلب الإنساني، فهي رواية فريدة، بما تحتويه صفحاتها من معلومات، عن مجموعةٍ من أكثر الأماكن والمناظر الطبيعية جمالاً وإثارةً للذكريات التي قرأت عنها، بل ويبدو أن ثمة ضياءً يشِع

من بين كلماتها، لذلك، ما إن انتهيت من قراءتها، حتى عاودت قراءتها مجدداً».

– الكاتبة هيلين ماكدونالد

«إنني لأتساءل: تُرى لو كان تشارلز ديكنز وبرام ستوكر، اجتمعا معاً لتأليف رواية عظيمة عن العصر الفيكتوري، هل كانت ستتفوَّق على رواية أفعى إسكس؟ لا يمكننا معرفة ذلك بالطبع، ولكن مع انطلاقها في جولتها الثانية فقط، يبدو أن سارة بيري قد توَّجت نفسها واحدة من أفضل كُتَّاب الأدب القصصي في بريطانيا حالياً».

– الكاتب جون بورنزيد

«إنها رواية عظيمة، تموج بمشاعر دافئة، تثري معانيها حكمة بالغة، سطرتها الكاتبة بأسلوب رشيق، إذ تجسد رواية»أفعى إسكس»، المتعة الخالصة من البداية وحتى النهاية. إنني لم أرغب حقّاً في الانتهاء من قراءتها».

– الروائية الإنجليزية ميليسا هاريسون

«إنها رواية مبهجة وفاتنة، أسرتني كما يأسر الوحش المذكور في طيَّاتها فريسته».

– الروائية كاثي رينتزنبرينك

«رواية تستنفر بداخلك أجمل ما فيك، لتصبح إنساناً أفضل».

– جاستين جوردان – صحيفة الجارديان

إشادة برواية أنا ومن بعدي الطوفان

قال عنها **جون بورنزيد**، الكاتب في صحيفة الجارديان: «سطَّرت أنامل بيري تشويقاً غيبيّاً، بل ويمكن للمرء حتى القول، إنه تشويق يتعلَّق بالبيئة، وتدفعنا شخصيات روايتها إلى الاهتمام بهم، كاهتمامنا بشخصيات إحدى روايات توماس هاردي، على سبيل المثال، بَيْدَ أن شخوصها الدرامية الرئيسة - مثل هاردي- تتجاوزها أحداث الدراما التي تتكشَّف رويداً رويداً، في ما حولهم من أرض وهواء، بل وأبرزها في الماء المحيط بهم، ومع اقتراب النهاية، ينتاب القارئ الأريب شعور بأنه أمام موهبة جديدة وفريدة في التأليف، تستفيد منها صاحبتها بالفعل بذكاء ورويَّة، تنقص العديد من الروائيين المخضرمين».

كما قالت **كاثرين بليث** في صحيفة صنداي تليغراف: «إنها إحدى الروايات الرائعة، رغم سوداويتها، حيث تتناول بيري الاستبداد بلغة دقيقة وراقية، وهذه السمة الساحرة، تستدعي إلى الأذهان كتابات سيبالد، وإن غلب عليها طابع الغلظة، وهو أمر ليس جيداً فقط، باعتبار الرواية باكورة أعمالها، بل إنه أكثر من رائع، ولذا، أعِدَّ لنفسك مشروباً بارداً وتمتَّع بموهبة كاتبة جديدة ومذهلة».

وكتبت **ليسلي مكدويل**، في صحيفة غلاسكو هيرالد: «خلق ظهور بيري الأول، أجواء يسودها شعور بالغرابة والتوتر، فتتمثَّل المتعة الحقيقية في الرواية، في تصويرها العميق والمقنع لمفهوم الأسرة».

عبَّرت **كريستيان أبليارد** عن رأيها في صحيفة الديلي ميل قائلةً: «عملٌ روائي أصيل لا يُنسى، إذ برعت الرواية في ضم توليفة من الشخصيات المتأنِّقة والفاتنة والشريرة، فنحن أمام كاتبة لا تخطئ العين موهبتها».

المترجم

لـم يكـن هـذا الكتـاب كسـابقيه، فبيـن أيدينـا روايـة اسـتثنائية بلغـة رصينـة، وتعتمـد علـى الخيـال أكثـر مـن الواقـع، حتـى لـكأنَّ القـارئ يسـبح بيـن مسـتنقعات مدينـة إسـكس، وضفـاف نهـر بـلاك ووتـر، بحثـاً عـن أفعـى إسـكس التـي حيـرت النـاس فـي المدينـة، وجعلـت القـس ويليـام رانسـوم، يدعـو النـاس إلـى التمسـك بالروحانيـات، موصيـاً إياهـم بضـرورة العـودة إلـى الإيمـان، وفـي المقابـل، تأتـي كـورا سـيبورن، التـي تحـاول أن تبحـث عـن تفسـيرات علميـة واضحـة للظواهـر الطبيعيـة.

التزمنـا بالـروح العامـة للروايـة، دون كبيـر ابتعـاد عـن النـص الأصلـي، بـل حافظنـا علـى الأسـماء بلغتهـا الأصليـة، معرِّبيـن حروفهـا فـي معظـم الأحيـان، حتـى نشـرك القـارئ فـي الأحـداث والأجـواء المعيشـية عبـر أجـزاء الروايـة الأربعـة، واحتفظنـا بالتسلسـل الـوارد فـي الروايـة للأحـداث، دون اختصـار أو إطنـاب.

نرجـو أن نكـون وفِّقنـا فـي ترجمـة الروايـة، التـي وسَـمتها مؤلفتهـا بأنهـا تسـتوحي العصـر الفيكتـوري، بتعقُّـد تركيباتـه، وجزالـة ألفاظـه.

إلى ستيفن كروي

«إذا ألححتَ عليَّ كي أفصح لك عن سبب وقوعي في حبِّه، فلا يسعني سوى القول إنني قد أحببته.. وفقط».

ميشيل دي مونتين- كتاب الصداقة

عشيَّة رأس السنة

كان ثمة شابٌّ يسير بجوار ضفاف نهر بلاك ووتر، تحت سنا قمر الشتاء البارد المكتمل. لقد عبَّ شراباً في السنة المنقضية لتوِّها حتى الثمالة، فالتهبت عيناه، وشعر بألم حاد في معدته، كما استبدَّ به التعب بسبب الأضواء اللامعة والصخب من حوله، فقال: «سوف أنزل إلى الماء»، ثم حيَّا أقرب شخص إليه بطبع قبلة على وجنته، قائلاً: «سوف أعود قبل قرع الأجراس»، ونظر شرقاً إلى أمواج المدِّ المتقلِّبة، وحتى خارج مصب النهر البطيء والمظلم، وإلى طيور النورس البيضاء التي كانت تلمع فوق الأمواج.

كان الجو بارداً، وكان لا بد أن يشعر بذلك، إلا أنه كان ثملاً للغاية، ويرتدي معطفه الجديد الثقيل، الذي تتدلَّى ياقته على مؤخِّرة رقبته، وكان يشعر بتأثير الشراب، فلم يستطع حراكاً، ولم يستطِع تحريك لسانه كذلك. «سوف أستمتع بالسباحة قليلاً، فقد يشعرني ذلك بالحرية»، ثم أخذ يهبط أسفل الطريق، ووقف وحيداً على الشاطئ، حيث تنتظر الجداول الغارقة في الطين الأسود قدوم المد.

كان في ما مضى يرفع صوته بالغناء في كنيسته الجميلة، مردِّداً أغنية: «سوف أنال كأس العطف»، ثم يضحك، فيجيبه

شخص آخر بضحكةٍ مماثلة. حلَّ الشاب أزرار معطفه وتركه مفتوحاً، غير أن ذلك لم يكن كافياً، فقد كان يودُّ أن يشعر بلفح الريح الحاد على بشرته. اقترب أكثر نحو الماء، ثم أخرج لسانه ليلامس الهواء المالح: «نعم، سوف أستمتع بالسباحة»، كان يردِّد ذلك لنفسه، بينما يلقي معطفه في المستنقع. لقد فعلها من قبل، على أي حال، عندما كان صبياً، وبرفقته صحبة جيدة، إنها التصرفات الصبيانية الجريئة من استمتاع بالسباحة عند منتصف الليل، بينما نودِّع عاماً مضى لتوِّه، ونستقبل عاماً جديداً. لقد انخفض المد، وسكنت الريح، ولم يعد نهر بلاك ووتر يثير خوفه، فقط أعطِه كأساً وسيتجرَّع ماءه، بما فيه من ملح وأصداف ومحار وكل شيء.

وعلى حين غرَّة، تغيَّر شيء ما، أو تبدَّل، فإذا بسطح النهر تغيَّر عند المصب، وبدا (بينما هو يتقدَّم إلى الأمام)، أن ثمة كائناً ينبض أو يخفق، ثم يتحوَّل بعدها إلى سطح أملس، فتخفت حركته، ليهتزَّ بعدها مضطرباً متراجعاً عند لمسه. أخذ يدنو شيئاً فشيئاً، فلم يكن قد انتابه الخوف بعد. غادرت طيور النورس النهر، الواحد تلو الآخر، ليطلق طائر النورس الأخير صرخة فزع مدوِّية قبل أن يغادر.

يعلن الشتاء عن قدومه كلطمةٍ على رقبته، ويشعر به يخترق قميصه، متسلِّلاً إلى عظامه، لذلك تلاشت متعة الشراب، وانتابه شعورٌ بعدم الراحة وسط هذه الظلمة، أخذ يبحث عن معطفه، ولكن حجَب السحاب ضوء القمر، فلم يبصر شيئاً. تباطأت أنفاسه بسبب الهواء المليء بالغبار، وشعر فجأة بأن قدميه قد ابتلَّتا من المستنقع، كما لو كان شيء ما في الخارج أزاح الماء عن موضعه. «لا شيء، إنه لا

شيء»، هكذا حدَّثته نفسه، بينما كان يشحذ همَّته وشجاعته، ولكن ها هو الأمر يتكرَّر مرةً أخرى.. لحظة سكون يتابه خلالها شعورٌ بالفضول، كما لو كان ينظر إلى صورة، تعقبها حركة غير منتظمة وهائجة، لا يمكن أن تكون مجرد تأثير القمر على حركة المد والجزر. إنه يظن أنه يرى، بل هو متأكد أنه يرى حركةً بطيئة لكائن عريض ومحدَّب، ومغطَّى بحراشف خشنة وملتوية، سرعان ما اختفى.

ارتعدت فرائصه من الخوف وسط الظلام، ثمة ما يشعر به، يقبع منتظراً اللحظة المناسبة، إنه عنيدٌ وبشع، وُلِد في الماء، بعينين مسلَّطتين دائماً نحوه، وهناك في أعماق البحر يرقد في سبات عميق، وها هو يصعد إلى السطح في النهاية. يتخيَّله وهو يعانق الموج، بينما يعبُّ الهواء عباً بشغفٍ شديد. سيطر عليه الهلع، وكاد قلبه أن يتوقَّف، وفي لحظة صار متهماً ومداناً، وأُحضر إلى المحاكمة لإصدار الحكم. يا له من آثِم! أي خواء أسود يشعر به بين ضلوعه! إنه يشعر أن الخير قد سُلِب منه، ونُزِع من قلبه، ولم يعد لديه ما يقوله دفاعاً عن نفسه. مدَّ بصره إلى الخارج، حيث نهر بلاك ووتر الأسود، وها هو ذاك الكائن مجدداً، يشقُّ السطح، ثم تخفت حركته، نعم، لقد كان هذا موجوداً طوال الوقت، متربِّصاً يتحيَّن الفرصة، وها هو قد اكتشفه في نهاية المطاف. يشعر بهدوء يشوبه الفضول.. لا بدَّ أن تُطبَّق العدالة، ولذا، أقرَّ بذنبه عن طيب خاطر. إنه مجرد شعور بالندم، وليس هناك خلاص، وسوف يلقى جزاءً وفاقاً.

ولكن ما لبثت الريح أن هدأت، وجذبت السحب التي حجبت الضياء، فتبدَّى وجه القمر الخجول، ورغم أنه ضوء

خافت، فهو يبعث على الراحة دون شك، وهناك على أي حال معطفه على مقربة منه، وإن تلطَّخت أطرافه بالوحل، وعادت طيور النورس إلى الماء، فشعر بسخافةٍ شديدة، وتعالت من الممر فوقه أصوات ضحكات أحدهم: «إنها فتاة وصديقها يرتديان ملابسهما الاحتفالية»، لوَّح إليهما بيديه منادياً: «أنا هنا! أنا هنا! ها أنا ذا»، دار ذلك بخلده محدِّثاً نفسه: «إن المستنقع هنا أفضل من منزلي، فقد تباطأ المد، ولا شيء يبعث على الخوف. هل يمكن أن يكون وحشاً؟»، أخذ يسخر من نفسه، وقد أدارت فرحة إرجاء تنفيذ العقوبة رأسه، إذا كان ثمة شيء هناك، فلن يكون سوى سمك الرنجة والماكريل!

لا شيء مخيف في نهر «بلاك ووتر»، لا شيء يدعو للندم، إنها فقط لحظة من لحظات تشوُّش التفكير في الظلام، بسبب إسرافه في تناول الشراب، لقد أتاه الماء ليقابله مرةً أخرى، إنه ليس أكثر من رفيقه القديم ثانيةً، ولكي يثبت لنفسه ذلك، دنا من الماء أكثر، مبلِّلاً حذاءه الطويل، فمدَّ ذراعيه صائحاً: «ها أنا ذا!»، فتجيبه أصوات طيور النورس: «إنها مجرد غطسة سريعة»، كما يظن «من أجل الأيام الخوالي»، وبينما كانت الضحكات تنساب من فمه، كان يتحرَّر من قميصه.

يتأرجح بندول الزمن من عام إلى آخر، ومع ذلك، لا يزال الظلام يكسو وجه البسيطة.

الجزء الأول

أخبار غريبة من إسكس

يناير

1

بلغت الساعة الواحدة في ذلك اليوم الكئيب، إذ سقطت الكرة الزمنية في مرصد غرينتش. كان الجليد يكسو خط الطول الرئيس، وعند مبنى تجهيزات الصنادل العريضة المتجهة أسفل نهر التيمز المزدحم، حيث حدَّد ربابين السفن الوقت وحالة المد، ثم بسطوا أشرعتهم الحمراء، عكس اتجاه الريح الشمالية الشرقية. كانت إحدى شحنات الحديد تتجه نحو مسبك وايت تشابل، حيث قُرعت الأجراس خمسين مرة، كما لو كان الوقت ينفد. للوقت قيمته خلف أسوار سجن نيو جيت، غير أنه بلا قيمة عند الفلاسفة الذين يهدرونه على المقاهي الواقعة بشارع ستراند. يُضَيِّع الوقت من يتمنَّون لو يصير الماضي حاضراً، أما من يتمنون أن يكون الحاضر ماضياً، فهم يحتقرونه. تقرع أشجار البرتقال والليمون أجراس كنيسة سانت كليمنت، أما أجراس مبنى ويستمنستر، التي تدقُّ معلنةً وجود انقسام في الرأي بين أعضاء البرلمان، فإنها أجراس مصطنعة.

إن الوقت في بورصة المبادلات في لندن، يساوي المال، حيث يقضي الرجال أوقاتهم بعد الظهيرة في تحطيم آمالهم في تحقيق أهدافهم المنشودة. أما في مكاتب هولبورن بارز،

فقد سبَّب الترس ذو الأسنان المدبَّبة الطويلة للساعة الرئيسة، شحنة كهربائية، تحرَّكت على أثرها دقات ساعات العشرات من الكادحين. رفع جميع الموظفين أعينهم إلى أعلى، بعيداً عن سجلاتهم، وتنهدوا، ثم عاودوا النظر إليها مجدداً، وهناك عند شارع تشارينج كروس رود، بدل الزمن العربات التي تجرها الخيول، إلى أساطيل الباصات والسيارات المسرعة، وفي أجنحة مستشفى بارتس ورويال بورو، تمر الدقائق كساعات بسبب الألم، وفي كنيسة ويزلي، يغنُّون «رمال الوقت تغوص»، ويتمنَّون لو أنها تغوص أسرع، بينما على بعد ياردات قليلة، كان الثلج يذوب فوق المقابر في حقول بانهيل.

في حانة لينكولن، ألقى محامو شركة ميدل تامبل للمحاماة، نظرة على التقويم الخاص بهم، وشاهدوا قانون التقادم ومدته تنتهي، أما داخل الغرف بمدينة كامدن وولويتش، كان الوقت قاسياً على المحبين، الذين كانوا يتساءلون: «كيف مضى بهم الوقت سريعاً وتأخَّر؟»، ولكن بمرور الزمن، يترفَّق الوقت بجراحهم المعتادة، وعبر المدينة في الشرفات والمباني، وفي المجتمع الراقي أو الفقير أو الطبقات الوسطى يمضي الوقت، ويصير هباءً منثوراً، أو يطول، أو يتمنى أحدهم أن ينقضي سريعاً، وفي جميع الأحوال، تمطر عليهم السماء أمطارها الثلجية دائماً.

أما في ميدان يوستن وبادنغتون، فقد فتحت محطات مترو الأنفاق أبوابها لاستقبال الركاب الذين يشبهون في تدفقهم المواد الخام التي تتعرَّض للانصهار الشديد، لتُعالَج بعدها، ثم تُصب في قوالب، وفي عربة مترو الخط الدائري المتجه غرباً، تُظهر الأضواء المتقطّعة نهر التيمز، حيث لا يوجد

شيء مفرح للحديث عنه، وفي الممر، تبعثرت حبات الفاكهة التالفة خارج إحدى الحقائب. كانت رائحة المطر تنبعث من معاطف الأمطار، ومن بين الركاب، وبينما كان مختفياً تحت ياقته المرفوعة إلى أعلى، كان الدكتور لوك غاريت يردِّد: «أجزاء قلب الإنسان: البطين الأيسر، البطين الأيمن، الوريد الأجوف العلوي»، ويعدُّهم على أصابعه، متمنياً أن يبطئ ابتهاله ضربات قلبه المضطربة.

حدَّق فيه الرجل الجالس إلى جواره باندهاش، ثم هزَّ كتفيه وأشاح بوجهه عنه. قال غاريت من بين أنفاسه: «الأذين الأيمن، الأذين الأيسر». كان معتاداً أن يحملق فيه الغرباء، إلا أنه لم يجد مبرراً للإفراط في تقبُّل نظراتهم. كانوا يدعونه بـ «القصير»، لأن طوله بالكاد يتجاوز أكتاف الرجال الآخرين، كما كان له مشية لافتة للنظر، متبخترة، تجعلك تشعر أنه سيقفز من على إفريز النافذة دون سابق إنذار. كان من الممكن أن ترى من خلال معطفه نوعاً من الطاقة المتفجّرة في أطرافه، وكان حاجباه بارزين فوق عينيه، كما لو كان يمكنهما بالكاد احتواء فطنة عقله. كان حاجباه أسودين طويلين غير متساويين، يشبهان طرفي جناح الغراب، وأسفلهما كانت ترقد عيناه الداكنتان. كان لوك يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، ويعمل جراحاً، وكان ذا عقلية متمرّدة متعطّشة للمعرفة.

انطفأت الأنوار، وأضيئت مجدداً، ودنا غاريت من وجهته أكثر. كان يجب أن يصل في غضون ساعة، لحضور جنازة أحد المرضى، ولم يكن ثمة شخص آخر على الإطلاق، يرتدي ملابس الحداد بلا أدنى اكتراث مثله.

كان مايكل سيبورن قد قضى نحبه قبل ستة أيام، بسبب سرطان الحلق، وتحمَّل هذا المرض العضال ومتابعة الطبيب له دون اهتمام، ولم يكن المتوفَّى يشغل بال غاريت الآن، ولكن أرملته التي يظن، مبتسماً، أنها ربما تمشّط شعرها غير المصفَّف في تلك اللحظة، أو تبحث عن أحد الأزرار وقع من ردائها الأسود الأنيق.

كانت مشاعر الفاجعة التي تكابدها كورا سيبورن، من أكثر الأشياء التي رآها غرابةً، لكنه علم بعد وصوله إلى منزلها في شارع فوليس، أن ثمة خطأً ما، ففي هذه الغرفة مرتفعة السقف، ساد شعور مؤكَّد بالقلق، ليس له أدنى علاقة بالمرض. كانت حالة المريض آنذاك لا تزال جيدة نسبياً، برغم ارتدائه رباطة عنق مزدوجة كضمادة، وكانت رباطة العنق دائماً حريرية وباهتة اللون، وعليها بعض البقع الطفيفة، وبالنسبة إلى شخص متأنّق كهذا الرجل، من المستحيل تخيُّل حدوث ذلك دون قصد، ما دفع لوك إلى الشك بتعمُّده جعل زوَّاره يشعرون بعدم الارتياح، ونجح سيبورن في إعطاء انطباع بطول القامة، بأن يظل نحيلاً للغاية، وكان يتحدَّث بصوت خافت هادئ، حتى إنه كان من الضروري الاقتراب منه لكي تسمعه، فقد كان صوته كالهمس، لطيف المعشر، وأظفاره زرقاء. تحمَّل سيبورن استشارته الأولى بهدوء، ورفض الاقتراح بإجراء عملية جراحية، قائلاً، بينما يلمس رباطة العنق الحريرية التي يرتديها فوق رقبته: «أعتزم مغادرة العالم كما جئته؛ بلا ندوب».

قال لوك متطوّعاً لمواساته: «ليس ثمة داعٍ للمعاناة».

«أعاني!». كان من الواضح أن الفكرة راقته، فأجابه مايكل سيبورن قائلاً: «إنها تجربة مفيدة بلا شك»، ثم أردف قائلاً، كما لو كانت الأفكار تتداعى الواحدة تلو الأخرى بشكلٍ طبيعي: «أخبرني: هل قابلت زوجتي؟».

استرجع «غاريت» لقاءه الأول بالسيدة كورا سيبورن، رغم أنه لم يكن يثق بذاكرته جيداً في هذا الشأن، إذ تكوَّنت ذكرى لقائه بها، في ظلال الأحداث التي توالت بعد ذلك، وصلت الزوجة في تلك اللحظة، كما لو كان أحدهم قد استدعاها، ووقفت عند العتبة تتفحَّص زائرها، ثم خطت فوق السجادة، وتوقَّفت لتقبيل جبهة زوجها، ووقفت خلف مقعده ومدَّت يدها إلى الأمام قائلة: «أخبرني تشارلز أمبروز، أنه لا طائل وراء الاستعانة بأي طبيب آخر. لقد أعطاني مقالتك عن حياة إجناز سيملويس، فإذا كانت مهارتك في إجراء العمليات، تضاهي مهارتك في الكتابة، فسوف يُكتب لنا الخلود جميعاً»، كان من الصعب مقاومة هذا الإطراء الهادئ البسيط، ولم يكن في وسع غاريت أن يفعل أي شيء سوى الضحك والانحناء فوق اليد الممدودة إليه. كان صوتها عميقاً، رغم أنه لم يكن هادئاً. ظن غاريت في بادئ الأمر، أنها تتمتَّع بلكنة بدوية، يتميز بها هؤلاء الذين لم يعيشوا فترة طويلة في مدينة واحدة، ولكنها كانت تعاني فقط من إعاقة بسيطة في الحديث، أمكنها التغلُّب عليها بإطالة نطق بعض الأصوات الساكنة. كانت ترتدي زياً رمادياً بسيطاً، وتنُّورة من قماش لامع، تشبه رقبة الحمامة. كانت طويلة، لكنها ليست نحيلة، وذات أعين رمادية.

وفي الشهور التي تلت ذلك، استطاع غاريت أن يدرك

قليلاً، حقيقة ذلك الشعور بعدم الراحة الذي يسود أجواء شارع فوليس، حيث يختلط الهواء برائحة خشب الصندل واليود. لقد كان لمايكل سيبورن تأثيرٌ ضارٌّ، ليس له علاقة تذكر بالنفوذ المعتاد للمرء، حتى في أشد حالات مرضه. كانت زوجته مستعدة دائماً بملابسها الأنيقة والشراب الجيد، وبلغت رغبتها الشديدة في تعلُّم كيفية إدخال الإبرة في الوريد، مبلغاً، كان ليدفعها إلى حفظ كُتيّب عن واجبات المرأة عن ظهر قلب، حتى آخر جزء فيه، ولكنه لم يلحظ قط، أدنى عاطفة بين كورا وزوجها، بل كان يشك في بعض الأحيان، أن لديها رغبة حقيقية في تعجيل وفاته، وخشي في بعض الأحيان، أن تنتحي به جانباً، حين يستعد لإعطاء الحقنة لزوجها، وتقول له: «زد الجرعة قليلاً، زدها قليلاً»، وإذا انحنت لتقبيل وجه القديس الجائع الراقد فوق الوسادة، فإنها تفعل ذلك بحذر شديد، وكأنها تظن أنه سوف يرجع إلى الوراء، بدلاً من ذلك، ويقضم أنفها. استعانت أسرة مايكل سيبورن بالممرّضات، لتغيير أغطية الأسرَّة والمحافظة على نظافتها، ولكن نادراً ما كانت تستمر إحداهن لأكثر من أسبوع، وكانت آخرهن (فتاة بلجيكية تتصف بالورع)، مرَّت بجانب لوك في الطرقة، فهمست له بالفرنسية: «إنه شيطان»، كاشفة له عن معصمها، رغم عدم وجود شيء عليه. كان الكلب فقط الذي لم يعرف له اسم، هو المخلص الوحيد الذي لم يبتعد أبداً عن السرير، ولا يخاف سيده، أو أنَّه أَلِفه أكثر من غيره.

بمرور الأيام، توطَّدت علاقة لوك غاريت بفرانسيس نجل عائلة سيبورن الصامت، ذي الشعر الأسود، ومع مارثا مربّيته

كذلك، التي كانت تحيط خصر كورا سيبورن بذراعيها، في إيماءة تنم عن التملُّك لم تعجبه، وسرعان ما استُبعِد التقييم السريع لحالة المريض (فعلى أي حال، ماذا يمكن القيام به؟)، واصطحبت كورا لوك في ما بعد لفحص سن أحفورية تلقَّتها عن طريق البريد، أو للاستفسار منه عن معلومات مستفيضة حول طموحاته في تطوير جراحة القلب، وقد كان لوك يُخضِعها للتنويم المغناطيسي، موضحاً كيف كان يُستخدَم هذا الأسلوب إبان الحرب، لتخفيف أثر بتر أطراف الجنود. لقد كانوا يمارسون لعبة الشطرنج، التي كانت تنتهي باكتشاف كورا أن خصمها قد حشد قوَّاته ضدها، ووجد لوك نفسه غارقاً في الحب حتى أذنيه، ولم يسعَ للبحث عن علاج لهذا المرض.

لقد كان يدرك دائماً، أن ثمة طاقةً تشِعُّ بداخل كورا، وتتوق إلى الانطلاق نحو الخارج، وفكَّر أنه عندما تأتي لحظة نهاية مايكل سيبورن، سوف تطلق قدماها شراراً أزرق فوق الأرصفة، ولقد حانت لحظة النهاية، وكان لوك حاضراً، ومايكل يعاني سكرات الموت، ويتأوَّه بصوتٍ عالٍ، كما لو كان المريض قد نسيَ في آخر لحظاته كل شيء عن فن الموت، ولم يعبأ إلا بإطالة حياته لبضع لحظات، وفي النهاية، لم يتغيَّر موقف كورا، فلم تمر بحالة حداد، ولا شعرت بالراحة، فقط تهدَّج صوتها مرةً واحدة، عندما أُبلِغت أنه قد تم العثور على الكلب ميتاً، ولكن لم يكن من الواضح، ما إذا كانت على وشك الضحك أو البكاء، وقد وقَّعت شهادة الوفاة، وأصبح كل ما تبقَّى من مايكل سيبورن في مكان آخر، ولم يكن هناك سبب وجيه يدفع غاريت للذهاب في طريقه

نحو شارع فوليس، ولكنه كان يستيقظ كل صباح، ولا يدور بخلده سوى أمر واحد فقط، لذا، كان وصوله إلى البوابات الحديدية متوقَّعاً.

وصل القطار إلى المحطة، وما لبث أن اختفى غاريت وسط المارة على الرصيف، وحاصره الحزن حينها، وعلى الرغم من أنه لم يكن يشعر بالحزن على مايكل سيبورن، ولا على أرملته، فقد كان أكثر ما يزعجه، هو أن ذلك اللقاء قد يكون آخر لقاءاته بكورا، وأن المرة الأخيرة التي تقع عليها عيناه، ستكون عندما يستدير إلى الخلف، بينما تُقرع أجراس الحداد، ولكن مع ذلك حدَّث نفسه قائلاً: «مع هذا، يجب أن أكون هناك، ليتني أرى غطاء التابوت مشدوداً!»، وبعد تخطِّيه حواجز محطة القطار، كان الجليد قد ذاب على الأرصفة، بينما أخذ قرص الشمس يتلاشى خلف الأفق.

جلست كورا سيبورن أمام مرآتها، مرتدية زيّاً يناسب هذا اليوم، حيث ارتدت حلقاً ذهبياً مرصعاً باللؤلؤ في كلتا أذنيها، فسبَّبت هذه الفصوص لها ألماً؛ إذ كان لزاماً عليها أن تثقب أذنيها مرة أخرى، وقالت: «ما دام الأمر يقتصر على ذَرْف الدموع، فهذا كافٍ». كان وجهها شاحب اللون، ولم تكن قبَّعتها السوداء تناسبها، ولكنها كانت تحتوي على حجاب وريشة سوداء، ما جعلها إلى حد ما ملائمة لأجواء الحداد، ولم تتمكَّن من إحكام غلق أزرار طرف الكم الأسود جيداً، فظهرت بشرة يديها كشريط أبيض بين حافة القفاز والكم، وكانت فتحة عنق الفستان أضيق قليلاً مما كانت تفضّله، فأظهرت عظمة الترقوة، وعليها ندبة لطيفة الشكل بطول الإبهام وعرضه. كانت هذه الندبة، صورة طبق الأصل من

الأوراق الفضية التي تزيّن الشمعدان الفضي المحيط بالمرآة الفضية، التي ضغطها زوجها في جسدها، كما لو كان يُغرِق خاتمه في بركة من الشمع، فكّرت كورا في إخفائها، لكنها أحبتها بعد ذلك، حين علمت أنها أصبحت مثار حسد كثيرين في بعض الدوائر الاجتماعية، التي تظن أن لديها وشماً.

ابتعدت عن المرآة، وبدأت تتفحَّص الغرفة. بالطبع، سوف يصاب أي زائر لغرفتها بالحيرة عندما يراها، إذ سيرى السرير الوثير المرتفع، والستائر الدمشقية التي تتميَّز بها غرف نساء الطبقة الراقية، ومن ناحية أخرى، سوف يرى حفريات خاصة بالباحثين، أما الركن الأبعد من الغرفة، فكان مزيَّناً بورق الحائط المزخرف بالنباتات، والخرائط الممزَّقة من الأطلس، وقصاصات الأوراق المكتوب عليها الاقتباسات بحروف سوداء كبيرة (إياك أن تحلم بينما تتولَّى القيادة! ولا تهمل النظر إلى البوصلة!)، ويوجد على رفّ الموقد عشرات الأصداف المتحجّرة، التي تراصت تبعاً لحجمها، تعلوها صورة بإطار مذهَّب لماري آن وكلبها يتابعان شظايا متساقطة لصخر لايم ريجيس. هل أصبح كل شيء ملكها الآن، هذه السجادة وهذه الكراسي وكأس الكريستال التي لا تزال تفوح منها رائحة الشراب؟ لقد كانت محقَّة في ظنها، ما جعلها تشعر بأن شيئاً من الرشاقة والخفَّة يتسلَّل إلى أطرافها، كما لو كانت قوانين نيوتن لا تنطبق عليها، ووجدت نفسها تحلّق عالياً في السقف، واستطاعت كبح جماح هذا الشعور بطريقة لائقة، ولكنها كانت مدركة حقيقة هذا جيداً، فلم يكن ذلك شعوراً بالسعادة، ولا بالكمال، ولا حتى الرضى، بل هو شعور بالارتياح. لا شك أنها كانت تشعر بالحزن أيضاً، وكانت

تشعر بالامتنان لذلك، فقد كان محل احتقار عندما شارف على النهاية، كما كان له دور أيضاً في تشكيل شخصيتها، ولو جزئياً، وهل هناك خير يُرجى من شعور بالاحتقار الذاتي؟.

«حسناً.. لقد شكّلني على هواه». ردَّدت كورا تلك الكلمات، وقد أخذت ذكرياتها تتطاير كالدخان المتصاعد من لهب الشموع. عاشت كورا مع والدها حتى سن السابعة عشرة، بمنزلٍ في أعالي المدينة، فقد توفّيت والدتها منذ فترة طويلة (ولكن ليس قبل أن تضمن ألا تكون التعاسة على يد الباحثين عن الجمال والفتيات الفرنسيات، مصيراً لابنتها)، إلا أن والدها، الذي كان المستأجرون التابعون له يزدرونه، لم يكن يدري كيفية التصرُّف في ثروته المتواضعة، التي ذهبت أدراج الرياح، فتوقَّف عن ممارسة الأعمال التجارية، ولكنه أعاد ثروته بمساعدة مايكل سيبورن. قدَّم الأب ابنته كورا، التي تتحدَّث اللاتينية، حافية القدمين، بكل فخر، فأمسك الزائر بيدها، وأعجب بها، ثم وبَّخها بسبب وجود ظفر مكسور بأحد أصابعها.

تكرَّرت زيارات مايكل سيبورن، حتى باتت زياراته أمراً متوقعاً، كان يُحضِر لها كُتباً تافهة، وبعض الأغراض الصغيرة عديمة الفائدة، كان يسخر منها، واضعاً إبهامه في راحة يدها، ويظل يدلّكها إلى أن تحمر وتؤلمها، ويبدو أن وعيها بأسره قد انحصر في تلك البقعة التي كان يلمسها، وفي ظل وجوده، بدت برك مدينة هامبستيد، وطيور الزرزور وقت الغسق، وأثر ظلف الخروف في الطين الرخو، جميعها أموراً تافهة بلا معنى، وازدادت خجلاً، بسبب ملابسها البالية غير المنمَّقة، وشعرها غير المصفَّف.

ذكر مايكل ذات مرة قوله: «إنهم يستخدمون قطرات الذهب المنصهر في اليابان، لإصلاح الإناء المكسور. تخيَّلي الوضع؛ حين تدعينني أحطّمك لأداوي جراحك بالذهب». كانت كورا آنذاك في السابعة عشرة من عمرها، يزينها صِباها، فلم تشعر بنصل سكّينه يخترق حياتها، فضحكت، وضحك هو الآخر، وفي عيد ميلادها التاسع عشر، استبدلت بصوت تغريد العصافير، مراوح من الريش، وبصوت صفير صرصور حقل الأعشاب الطويلة، سترةً على شكل خنافس منقَّطة ذات أجنحة. زيَّنت كورا شعرها بعظام فك الحوت المثقوبة بالعاج، والمعلَّقة بالشعر بعظم ظهر السلحفاة. أصبح حديثها فاتراً، حتى تتجنَّب زلات اللسان، ومن ثم صارت تتجوَّل هنا وهناك بلا هدف. منحها مايكل خاتماً من الذهب صغيراً للغاية، تبعه بخاتم آخر صغيراً أيضاً في السنة التي تليها، ومع ذلك، لم يتغيَّر ذلك المقاس الصغير.

استيقظت الأرملة من حلم يقظتها، على وقع خطوات تدنو منها، وقد كانت تلك الخطوات بطيئة، تشبه صوت طقطقة الساعة على وجه التحديد، فنادت قائلة: فرانسيس، ثم جلست بهدوء تنتظر.

قبل وفاة والده بعام، وبعد ستة أشهر تقريباً من بداية ظهور مرضه، أثناء تجمُّعهم على مائدة الإفطار (عندما اعترض شيء ما في حلقه مرور خبز محمَّص)، انتقل فرانسيس سيبورن، إلى غرفة في الطابق الرابع من المنزل، في أبعد مكان من الممر.

لم يكن لأبيه أي اهتمام بالترتيبات المحلية، حتى ولو لم يساعد في ذلك الحين على إقرار قانون الإسكان في البرلمان،

فقد اتخذت أمه القرار كاملاً، ومعها مارثا، التي عُيِّنت مربية له عندما كان طفلاً، ولم ترغب قط في الرحيل؛ لذلك، كان من الأفضل إبعاد فرانسيس، لأنه كان يشعر بالقلق ليلاً، وتكرَّر ظهوره عند الباب، ومرة أو مرتين عند النافذة، ولم يسبق له أن طلب ماء، أو أبدى رغبته في الراحة، كما يفعل أي طفل آخر، فقط كان يقف على العتبة ويمسك أحد الطلاسم الخاصة به، حتى يؤرق القلق أحدهم، فيستيقظ من نومه.

وبعد فترة وجيزة من انتقاله إلى ما وصفته كورا بالغرفة العلوية، لم يعد شغوفاً بجولاته الليلية، وأصبح يسعده جمع أي شيء يثير شغفه (لم يذكر أحد على الإطلاق كلمة «سرقة»)، مهما كان، وكان يرتب تلك الأشياء حسب سلسلة من الأنماط المعقَّدة والمحيِّرة، تتغيَّر في كل مرة تقوم فيها كورا بزيارة من تلك الزيارات التي تقوم بها الأمهات لغرف أبنائهن؛ كانت تلك الأنماط تتسم بالجمال والغرابة، على نحوٍ أثار إعجابها، كما لو كانت من عمل ابن شخص آخر.

ولأنه كان يوم الجمعة؛ يوم جنازة والده، ارتدى فرانسيس ملابسه بنفسه. كان في الحادية عشرة من عمره، ومن ثَم أصبح بإمكانه تمييز أحد طرفي القميص من الآخر، وفائدة تهجئة حروفه، (من الضروري أن يكون للقميص ياقة واحدة وزوجان من الأكمام). لقد كانت وفاة والده كارثة حلَّت به، بيد أنها ليست أسوأ من فقدانه أحد كنوزه في اليوم السابق (ريشة حمامة، عادية للغاية، ولكن لا يمكنها أن تلفَّها دورة كاملة دون أن يتهشَّم عمودها الفقري). عندما علم بالخبر، لاحظ أن والدته لم تكن تبكي، بل كانت جامدة المشاعر ومضطربة نوعاً ما، كما لو كانت تقف وسط صاعقة برق،

وكان أول ما بدر إلى ذهنه: «لا أدري لماذا تحدث لي تلك الأمور»، ولكن اختفت الريشة، ووافت والده المنية، بل ويجب عليه الذهاب إلى الكنيسة!. لقد أسعدته الفكرة، ولإدراكه أنه طيب المعشر دمث الخلق، رغم ما مر به من ظروف، قال فرانسيس: «التغيير أمر جيد مثل الراحة».

وفي الأيام التالية لاكتشاف جثة مايكل سيبورن، كان الكلب هو الأشد معاناة، إذ كان يجلس منتحباً عند باب غرفة المريض، حيث لا يمكن لأحد مواساته؛ ربما كان العناق ليواسيه، إلا أن أحداً لم يستطِع أن يغوص بيده عبر فرائه الزلِق، لذا، صاحَب دفن الجثة (حيث قالت مارثا: «ضعوا بنساً فوق جبهته، فلا أظن أن القديس بيتر سوف يزعج نفسه بفعل ذلك..»). نحيب وعويل، والآن مات الكلب بالطبع، وهذا ما اعتقده فرانسيس، بينما كان يربّت بارتياح على حشوة من فراء أحد أكمام معطف والده، وهكذا لم يجد من يُعزّي الآن إلا نفسه.

لم يكن فرانسيس على درايةٍ كاملة بشعائر دفن الموتى، لكنه اعتقد أنه من الأفضل أن يأتي إلى الجنازة مستعداً. كان للمعطف الذي يرتديه عدد من الجيوب، وضع في كل منها شيئاً غير مقدَّس، لكنه مناسب تماماً، كما كان يعتقد، لهذه المهمة. نظارات زجاجها متصدّع، يحول دون رؤية الأشياء بوضوح، بجانب لفة فراء (كان يأمل أنها لا تزال تحوي حشرة البرغوث أو القراد، أو إذا كان محظوظاً للغاية، شيئاً من الدماء)؛ ريشة غراب زرقاء الطرف، وكان أفضل ما لديه، قصاصة من القماش مزَّقها من ثوب مارثا، لاحظ أنها ملطَّخة ببقعة تشبه جزيرة ويت، إضافةً إلى حجرٍ يحتوي على ثقب مثالي في مركزه، وبعد أن ملأ جيوبه وتحسَّسها وعدَّها، نزل

للعثـور علـى والدتـه، وفـي كل خطـوة مـن الخطـوات السـت والثلاثيـن إلـى غرفتهـا، كان يقـول: «موجـود هنـا اليـوم وسـيرحل غـداً، موجـود هنـا اليـوم وسـيرحل غـداً».

«فرانكـي».. كـم بـدا صغيـراً! بـدا الهـدوء علـى صفحـة وجهـه الـذي لا يحمـل شـبهاً كبيـراً بأحـد الوالديـن، باسـتثناء عينـي والـده المائلتيـن إلـى السـواد. كان قـد مشَّـط شـعره، ورفعـه إلـى الأعلـى، عكـس فـروة رأسـه، لذلـك أثـار مشـاعرها تجشُّـمه كل هـذه المشـقة، كـي يبـدو بمظهـر أنيـق أمامهـا، فرفعـت يديهـا لاحتضانـه، إلا أنهـا هـوت فارغـة، فقـد وقـف أمامهـا يتحسَّـس جيوبـه، وتسـاءل: «أيـن هـو الآن؟».

«سـينتظرنا فـي الكنيسـة»، هـل يجـب عليهـا أن تضمَّـه بيـن ذراعيهـا؟ ينبغـي القـول إنـه لـم يبـدُ علـى ملامحـه أنـه فـي حاجـة ماسـة إلـى مـن يواسـيه.

قالـت كـورا: «فرانكـي، إذا كنـت ترغـب فـي البـكاء، فيمكنـك ذلـك بـلا خجـل».

قـال «فرانكـي»: «إذا أردت أن أبكـي فسـأفعل، وإذا كنـت أريـد أن أفعـل أي شـيء، سـأفعله!».

لـم توبّخـه علـى ذلـك، لأنـه لـم يذكـر سـوى الحقيقـة فـي واقـع الأمـر. ربَّـت مـرة أخـرى علـى كل جيوبـه، فقالـت برفـق: «لقـد جلبـت معـك كنـوزك».

«نعـم؛ أحضـرت كنـوزي»، وفـي كل مـرة كان يتحسَّـس فيهـا جيوبـه كان يقـول: «لـديَّ كنـز لـكِ وآخـر لمارثـا، وآخـر لوالـدي، ولـي أنـا أيضـاً».

«شكراً لك، فرانكي». كان كل منهم يشعر بالضياع! ولكن ها هي مارثا، تضيء بحضورها الغرفة، كما تفعل دائماً، لتبدِّد التوتُّر الذي خيم على أجوائها، وما كان له أن يتبدَّد لولا ظهورها. مسحت برقَّة على رأس فرانسيس كما لو كان أي طفل آخر، ولفَّت ذراعها القوية حول خصر كورا، بينما كانت تفوح منها رائحة الليمون.

قالت مارثا: «هلمُّوا إذن، إنه لم يكن يرضى أبداً أن نتأخَّر».

ودقت أجراس كنيسة سانت مارتن، حداداً على المتوفَّى في الساعة الثانية، فعمَّ صوتها أرجاء ميدان الطرف الأغر، وكان فرانسيس، الذي يتميَّز بحدة السمع، يضغط بيديه على أذنيه مرتدياً قفَّازه، ورفض عبور العتبة، حتى تتوقَّف أصوات الأجراس، وتنفَّس الحضور الصعداء، ملتفتين إلى رؤية الأرملة التي حضرت متأخرة مع ابنها، وظلُّوا يقولون: كم تبدو وجوههم شاحبة! يا لها من ملابس مناسبة تماماً! وماذا هناك أيضاً؟ انظروا إلى هذه القبَّعة!

تابعت كورا كيف سارت الأمسية بلا اهتمام، وهناك في صحن الكنيسة، حيث حجب مذبح الكنيسة جثمان زوجها المسجَّى داخل تابوته، الذي وضع فوق ما يشبه منضدة تقطيع اللحم بمحل الجزار، والذي لا تتذكَّر رؤيته كاملاً بهذا الشكل من قبل، لقد رأت بضع لمحات خاطفة، بل ومذعورة أحياناً، لبشرته البيضاء التي كست في رقَّة ونعومة تلك العظام الجميلة.

وهالها أنها لم تكن تعرف شيئاً عن حياته العامة، وإن دارت بين أروقة (كما تخيَّلت)، غرف متشابهة في مجلس العموم، وفي قاعات المجالس، وفي النادي الذي لم تتمكَّن

قط من الذهاب إليه، لأنَّها لسوء الحظ أنثى! ربما تعامل زوجها بلطف في مكان آخر، نعم.. ربما فعل ذلك، وربما كنت موضعاً لتصفية الحسابات، بسبب القسوة المبرَّرة التي كان ينبغي أن يمارسها في مكان آخر. كان هناك نوع من النبل في ذلك، إذا فكَّرت في الأمر على هذا النحو. نظرت إلى يديها، كما لو كانت تتوقَّع أن تسبّب لها الفكرة ندوباً.

أطلّ لوك غاريت هناك عند الشرفة العالية، التي يسودها الظلام، وقد بدت وكأنها تحوم في الهواء العليل فوق الأعمدة التي تحملها. قصير، اعتقدت كورا ذلك: انظروا إليه! أحسَّت بقلبها يهفو إلى صديقها، ويختلج بين ضلوعها. لم يكن معطفه ملائماً لتلك المناسبة، شأن مئزره كجراح، كما كانت على يقين بأنه شرب حتى الثمالة قبل قدومه بوقت طويل، وأن الفتاة التي تجلس بجانبه، قد تعرَّف إليها حديثاً؛ ولن تتحمَّل ميزانيته ثمن عاطفتها الباهظ، ورغم الظلمة، أتاها في لمح البصر، ما أثار ضحكها. شعرت مارثا بما يجري أيضاً، فقرصتها، حتى قِيل في ما بعد؛ أثناء صب كؤوس الشراب في «هامبستيد» و»بادنغتون» و»وستمنستر»، إن أرملة سيبورن قد علا نحيبها في اللحظة التي نعاه فيها الكاهن قائلاً: «إنه حتى وإن لقِيَ حتفه، لا يزال حيّاً لم يمت؛ كان ذلك جميلاً، كما تعلم، بشكل ما».

جلس فرانسيس إلى جوارها، وظل يهمس ضاغطاً إبهامه، وأغلق عينيه بإحكام، ما جعله يبدو بمظهر الطفل البريء مرةً أخرى، فوضعت كورا يدها فوق يده. كانت يده تناسب يديها تماماً، وكانت شديدة الدفء، إلا أنها أبعدت يدها بعد برهة، وأعادتها فوق ركبتها مرة أخرى.

بينما انتشر الكهنة بملابسهم السوداء، كالصخور بين المقاعد، كانت كورا تقف أعلى درجات السلم، لتحية جمع الأبرشية الذي عاملها أفراده بلطف ودماثة خلق. يجب أن تعتبر أن لها أصدقاء في المدينة، فهي وطفلها الوسيم، موضع ترحاب على مائدة أي عشاء تختار الذهاب إليها، فهم يذكرونها في صلواتهم. ناولت كورا، مارثا، العديد من بطاقات الدعوات، وكثيراً من باقات الزهر الصغيرة، وكثيراً من الكتب الصغيرة، لتسجيل الذكريات وعيّنات أثواب محشوَّة قد يخطئها المارة حين تقع أعينهم عليها، ظنّاً منهم أنه يوم زفاف، ولو أنه كذلك، لبدا زفافاً حزيناً.

لم يكدْ المساء قد حلَّ بعدُ، حتى كان الثلج الكثيف قد غطّى درجات السُلَّم، التي أخذت تتلألأ أسفل ضوء المصباح، وخيَّم الضباب على المدينة بكاملها، وحبسها داخل خيمة شاحبة اللون. ارتجفت كورا من البرد، فدنت منها مارثا، حتى تشعر بالدفء المنبعث من هذا الجسد المكتنز، الذي يرتدي أفضل ثاني معطف يمتلكه، وقف فرانسيس على مسافة بعيدة، واضعاً يده اليسرى في جيب سترته، وأخذ يملِّس بيده اليمنى فوق شعره. لم يبدُ على سيماه أنه بائس أو مكروب، وإلا كانت إحدى المرأتين جذبته ليقف وسطهما، وتتمتم بعبارات الطمأنينة لتهدئة روعه، وهو ما كان من السهل حدوثه، لو أنه كان يلتمسه، إلا أنه بدا رابط الجأش ومتقبّلاً للأمر.

قال د. غاريت: «فلترحمنا يا إلهي!»، عندما غادر آخر المُعزّين الذين اعتمروا قبّعاتهم السوداء، وقد انتابهم شعورٌ بالراحة لانتهاء الأمر، حتى يتمكّنوا من العودة إلى تسليتهم

الليلية، وشؤونهم الصباحية، فسرعان ما تحوَّل إلى الجانب الجاد الذي لا يُقاوَم من شخصيته، فجذب يد كورا التي اختبأت أسفل القفاز، قائلاً: «أحسنتِ يا كورا.. لقد أبليت بلاءً حسناً، أيمكنني اصطحابك إلى المنزل الآن؟ هيا تعالي معي، فأنا أتضوَّر جوعاً، ولا بد أنكِ جائعة أيضاً، يمكنني الآن التهام حصان ومهرته من شدة الجوع».

قالت مارثا، التي لم تكن تتحدَّث إلى الدكتور غاريت، دون أن تظهر انزعاجها قائلةً: «أنت لا تستطيع ذلك». «القصير» كان هو الاسم الذي أطلقته مارثا عليه، على الرغم من أن الجميع نسي ذلك الآن. لقد كان وجوده في المنزل الواقع في شارع فوليس، في البداية واجباً، ثم تحوَّل الأمر إلى تفانٍ، إلا أنه كان مصدر إزعاج لمارثا، التي انتابها شعورٌ بأنَّ تفانيها غير كافٍ، فقد تخلَّص من رفيقته، ووضع منديلاً أسود بجيب معطفه.

فقالت كورا: «إن أكثر شيء أود فعله الآن، هو المشي لمسافةٍ طويلة». سارع فرانسيس، الذي اكتشف ضجرها المفاجئ، ورأى فيه فرصة للفوز بشيء ما، جاء مسرعاً إلى جوارها، ووقف عند قدميها، مطالباً إياها بالعودة إلى المنزل مستقلّين مترو الأنفاق. لم يأتِ طلبه كرغبة طفولية، إذا تحقَّقت ستكون مصدر سعادة له، كما كان معتاداً في ما مضى، بل كإقرار بحقيقة واقعة. قال غاريت، الذي لم يكن قد تعلّم بعد اللجوء إلى التفاوض في مواجهة إرادة الصبي التي لا تلين، قائلاً: «لقد تحمَّلت ما يكفيني ليوم واحد»، وأشار إلى سيارة أجرة كانت تمر ليستقلها.

أمسكت مارثا بيد الصبي: «ستأتي معي يا فرانكي، ستكون السيارة دافئة، وأنا لا أستطيع أن أشعر بأصابع قدميَّ»، إلا أنه فاجأها برفضه، لأنه مندهش من جرأتها المفاجئة: «ولكنك يا كورا بالتأكيد لا تقدرين على المشي كل هذا الطريق، فالمسافة تصل إلى ثلاثة أميال على الأقل!».

ردّ الدكتور غاريت قائلاً: «ثلاثة أميال ونصف»، وكأنه من رصف أحجار الرصيف. «دعيني أسير معكِ يا كورا». أبدى سائق سيارة الأجرة إيماءة تدل على نفاد صبره، فتلقَّى ردّاً بذيئاً، وأردف غاريت قائلاً: «يجب ألا تفعلي ذلك، لا يمكنك الذهاب بمفردك..».

«يجب ألا أفعل؟ أم لا أستطيع؟»، سألته كورا وهي تخلع قفازيها، في إشارة لا تنم عن مقاومتها للبرد، بقدر ما تنم عن الضعف. أعطت القفاز إلى غاريت قائلةً: «أعطني قفازك، لا أدري لماذا يصنعون القفازات، أو حتى لماذا تشتريها النساء. يمكنني السير، وسأفعل، فلقد ارتديت الملابس المناسبة استعداداً للمشي، أترى؟»، رفعت حاشية فستانها، لتكشف عن حذاء طويل الرقبة، لا يناسب سوى تلميذ بالمدرسة.

كان فرانسيس قد ابتعد عن والدته، ولم يعد مهتماً بما قد يؤول إليه مصير الأمسية؛ فقد كان لديه الكثير للقيام به، في غرفته العلوية، حيث توجد بضعة أشياء جديدة (يربت، ويربت بيديه)، تستلزم عنايته. لذا، استلَّ يديه من يد مارثا منطلقاً نحو المدينة، وودَّعتهم مارثا، التي رمقت غاريت بنظرةٍ ملؤها الشك والريبة، بينما نظرت إلى صديقتها بنظرة رثاء، قبل أن تختفي وسط الضباب.

«دعني أذهب وحدي». هكذا قالت كورا وهي تسحب قفازها المستعار، الذي كان بالياً، حتى إنه بالكاد كان يُدفئها أكثر من قفازها الذي تقتنيه. «إن أفكاري متداخلة، وسوف يستغرق تبيُّنها السير ميلاً أو أكثر». قالت كورا ذلك، بينما كانت تلامس طرف المنديل الأسود، الذي تدلَّى من جيب غاريت، ثم أضافت قائلة: «فلتأتِ غداً عند القبر، إن شئت، لقد قلت: إنني سأذهب بمفردي، ولكن ربما كان ذلك هو بيت القصيد؛ أن نظل دائماً وحدنا مهما كانت الصحبة».

«يجب أن يرافقك موظَّف ليسجل ما تفيض به قريحتك من حكمة»، هكذا قال القصير، ساخراً، تاركاً يدها تسقط في الهواء، ثم انحنى بصورةٍ مبالغ فيها، ورجع إلى السيارة الأجرة، صافعاً الباب، وقد تعالت ضحكاتها.

لم تستدر كورا التي كانت تتعجَّب من قدرته على تغيير حالتها المزاجية إلى النقيض تماماً، نحو المنزل، بل سارت في اتجاه شارع ستراند، فقد كانت تود العثور على المكان الذي يتحوَّل فيه مجرى نهر فليت نحو باطن الأرض، حيث يمكنك في أحد الأيام الهادئة، سماع خرير مائه وهو ينطلق صوب البحر.

ظنت كورا، التي وصلت إلى شارع فليت، أنها إذا اشرأبت بقوة وأصغت عبر الهواء الضبابي، فسوف تسمع هدير النهر وهو يجري في مقبرته الطويلة، إلا أنها لم تجد سوى صخب المدينة، الذي لا يمكن لأي صقيع أو ضباب أن يثنيه عن العمل أو المتعة، كما أن أحدهم أخبرها ذات مرة، أن مجرى النهر لم يعد يعدو الآن أكثر من كونه قناة للصرف الصحي، لا تملؤها مياه الأمطار التي تتسرَّب من منطقة هامبستيد هيث،

بـل ملأهـا البشـر الذيـن يحتشـدون علـى ضفافـه، وقفـت كـورا لفتـرة، حتـى شـعرت بألـم فـي يدهـا بسـبب البـرودة، وبـدأت شـحمتا أذنيهـا، حيـث موضـع ثقبَـي القـرط، ترتجفـان. تنهَّـدت متجهـةً صـوب المنـزل، وقـد جـال فـي خاطرهـا أنهـا قـد تركـت وراءهـا ذاك الشـعور بعـدم الارتيـاح، الـذي صاحـب صـورة البيـت الأبيـض المرتفـع فـي شـارع فوليـس، فـي مـكان مـا تحـت مقاعـد الكنيسـة السـوداء.

كانـت مارثـا، التـي انتظـرت عـودة كـورا بفـارغ الصبـر (بعـد مـرور أكثـر مـن سـاعة، وقـد ظهـرت بقـع النمـش أسـفل بـودرة التجميـل البيضـاء التـي وضعتهـا علـى بشـرتها، وقـد انزلقـت قبَّعتهـا السـوداء)، التـي تعـوِّل كثيـراً علـى الشـهية، كدليـل علـى العقـل السـليم، تراقـب صديقتهـا بسـرور، وهـي تـأكل البيـض المقلـي والخبـز المحمَّـص، عندمـا قالـت: «سـأكون سـعيدة عندمـا ينتهـي الأمـر، كل هـذه البطاقـات والمصافحـات؟ لقـد سـئمت آداب المـوت!».

فـي غيـاب أمـه، صعـد الطفـل، الـذي هـدَّأه متـرو الأنفـاق، إلـى الطابـق العلـوي، دون أن ينبـس ببنـت شـفة، حامـلاً كوبـاً مـن المـاء، ونـام وفـي يـده لـب تفاحـة، وقفـت مارثـا عنـد بـاب غرفتـه، وتأمَّلـت مـدى سـواد رموشـه، مقارنـة ببيـاض وجنتيـه، وشـعرت أن قلبهـا قـد رقَّ لـه. رأت مارثـا بعضـاً مـن فـراء الكلـب البائـس، قـد وجـد طريقـه إلـى وسـادته، فتخيَّلـت أنهـا لا بـد أن تعجَّ بالقمـل والبراغيـث، فانحنـت فـوق الصبـي لتلتقطهـا، وتتركـه ينعـم بنـوم آمـن، ولكـن لا بـد أن رسـغها لمـس غطـاء الوسـادة؛ فاسـتيقظ الصبـي فزِعـاً، حتـى إنـه اسـتغرق وقتـاً ليتنفـس ويتركهـا؛ وعندمـا رأى الفـراء فـي يدهـا، أطلـق صرخـة غضـب دون أن يتكلَّـم، مـا

جعلها تُسقِط لفيفة الفراء الناعمة من يدها، وتركض خارجةً من الغرفة، وبينما كانت تهبط الدرج، حدَّثت نفسها قائلة: «كيف لي أن أخاف منه؟ ما هو إلا ولدٌ يتيم الأب!»، وكانت تميل إلى العودة والتصميم على أن يسلّمها هذا التذكار الكريه، بل وربما الرضوخ لقبلة منها، ولكن حينئذٍ، أدخل أحدهم مفتاحاً في قفل الباب، محدِثاً جلبة، وظهرت كورا، التي دخلت تلتمس الدفء، وألقت قفازيها، ومدت ذراعيها لتعانق مارثا.

في وقتٍ متأخر من تلك الليلة، وقفت مارثا، التي كانت آخر من يخلد إلى النوم، عند باب غرفة كورا، فقد اعتادت خلال هذه السنوات القليلة الماضية، أن تطمئن بنفسها على أن جميع أمور صديقتها على ما يرام. كان باب غرفة كورا موارباً؛ أصدرت قطعة الحطب التي كانت تحترق في المدفأة، صوت طقطقة لدى احتراقها، وعند عتبة الباب، تساءلت مارثا: «هل أنتِ نائمة؟ هل يمكنني أن أدخل؟». لم تتلقَّ إجابة، فدلفت إلى الغرفة لتطأ بقدميها السجادة السميكة باهتة اللون. على طول رفّ المدفأة، تناثرت بطاقات الزيارة، وبطاقات الحداد بحوافّها السوداء، وكتابتها الدقيقة؛ وكانت هناك باقة من زهور البنفسج المربوطة بشريط أسود، قد سقطت فوق المدفأة. انحنت مارثا لتلتقطها، ولكن بدت الزهور، كما لو كانت تفر منها، لتختبئ مجدَّداً خلف أوراقها التي اتخذت شكل قلوب. أوقفت مارثا الزهور في كوب صغير به ماء، ووضعتها بحيث يمكن لصديقتها أن تراها بمجرد استيقاظها، ثم انحنت لتقبّلها. غمغمت كورا وتقلَّبت، إلا أنها لم تستيقظ؛ عندها، تداعت إلى ذهن مارثا ذكرى مجيئها إلى شارع فوليس أول مرة، لشغل وظيفتها، عندما توقَّعت أن تقابل ربة منزل متعجرفة، لا

يشغل بالها سوى النميمة والموضة، وكيف أثبتت المرأة ذات الشخصية المتغيِّرة، التي وجدتها عند الباب، أن الصواب قد جانبها في ذلك. اكتشفت مارثا، التي أسرَتها كورا وفتنتها، أنه ما إن تعتاد شخصية لكورا، حتى تظهر لها كورا أخرى جديدة، فتارةً تبدو كطالبة يملأها العجب بذكائها، وتارةً أخرى تبدو كصديقة تربطها بها سنوات من الألفة؛ وتارةً كامرأة تقيم ولائم عشاء فاخرة وباهظة، وتقسم على أنه بمجرد أن يرحل آخر ضيف، فسوف تحلُّ شعرها، وتتمدَّد ضاحكة بجوار النار.

حتى صوتها كان محل إعجاب تشوبه الحيرة؛ حيث يحمل في نبراته بعض الجذل، وأثر إعاقة طفيفة، يظهران عندما تكون متعبة، بالإضافة إلى بعض الحروف الساكنة التي تشكِّل مصدر متاعب لها، فحقيقة أن وراء هذا السحر الذكي (الذي لاحظت مارثا بامتعاض، أنه يمكن تشغيله وإيقافه مثل صنبور الحمام)، كانت هناك جروح بادية للعيان، جعلتها أقرب إلى القلب. كان مايكل سيبورن يعامل مارثا بعدم اكتراث، شأنها شأن حامل القبَّعات الموجود في الردهة، لم يكن لها أي أهمية في رأيه، حتى إن عينيه لم تكن تلتقي عينيها فوق الدرَج، ولكن مارثا التي تراقب الأمور، ولا تفوتها شاردة أو واردة، سمعت كل إهانة مهذبة، ولاحظت كل كدمة مخفية، واستطاعت بشق الأنفس، أن تمنع نفسها من التخطيط لجريمة قتل، كان ليسعدها أن تُشنق لارتكابها، فبعد أقل من عام على وصولها إلى شارع فوليس، أثناء الساعات القليلة التي لا يغمض فيها جفن لأحد، جاءت كورا إلى غرفتها، وأيّاً كان ما قيل لها أو فُعل بها، فقد جعلها ترتجف

بعنف، رغم أن الليلة كانت دافئة؛ وكان شعرها الكثيف غير المرتب مبتلاً، ودون أن تتكلَّم، رفعت مارثا الغطاء الذي كانت تتدثَّر به، وأخذت كورا بين ذراعيها؛ وضمَّت ركبتيها لتطوِّقها بالكامل، وأحكمت يدها حولها، حتى شعرت برجفتها تتسلَّل إليها، ولم تستطع أن تنفك عنها؛ فقد بدا جسد كورا ضخماً فتيّاً، وشعرت مارثا بضلوعها تتحرَّك في ظهرها الكَنِز، وببطنها الناعم الذي كانت تلمسه قبالة ذراعها، وبعضلات فخذيها القوية، لقد بدا الأمر أشبه بالالتصاق بحيوان لن يوافق أبداً على أن يرقد ساكناً هكذا مرة أخرى. استيقظتا، وقد احتضنت إحداهما الأخرى في لين ودعة، شعرتا براحة تامة، وافترقتا على عناق.

أثلج صدرها الآن، أن ترى كورا قد توجَّهت إلى سريرها، ليس في حزن وحداد، بل مع عادتها القديمة في تفقُّد ما أسمته بـ «دراساتها»، كما لو كانت فتًى يتأهب للكلية. إلى جوارها على السرير، كان هناك ذلك الملف الجلدي الذي كان يخصُّ أمها، والذي فقدت علاماته بريقها الذهبي، الذي خُطَّت به، وكانت له (كما أصرت مارثا)، رائحة الحيوان الذي صُنِع من جلده، كما كانت هناك أيضاً دفاتر ملاحظاتها، مكتوبةً بخط صغير واضح، وهوامش مغطَّاة، وبين الصفحات وُضِعت سيقان مضغوطة لأعشاب وحشائش، بالإضافة إلى خريطة لجزء من خط الساحل، يحمل علامة كُتِبت بالحبر الأحمر، فيضٌ من الأوراق انتشر حولها، وقد غشيها النوم وهي متشبِّثة بصدَفة دورست المتحجِّرة، إلا أنها أطبقت يدها عليها بشدة أثناء نومها، حتى تهشَّمت وتفتَّتت إلى أجزاء، تاركةً يدها ملطَّخةً بالطين.

فبراير

1

«أعني: انظر إلى زهرة الياسمين على سبيل المثال». أزال دكتور لوك غاريت الأوراق من على مكتبه، وكأن ثمة براعم بيضاء تتفتَّح أسفل الأوراق، فإذا به يكتشف أنها حقيبة تبغ معدَّة للفّ سيجارة، وأضاف قائلاً: «إن الأريج رائع للغاية؛ حتى إنك تجده مستساغاً ومنفّراً في آنٍ واحد؛ لذا، يجفل منه الناس ليدنوا منه مرة أخرى، ثم يعزفوا عنه بعدها، فهم في حيرة من أمرهم، ولا يدرون ما إذا كان مثيراً للاشمئزاز أم مغرياً! آه لو استطعنا فقط الاعتراف بامتزاج مشاعر الألم والمتعة، ليس كطرفي نقيض، بل كشعور واحد؛ حينئذٍ قد ندرك في النهاية..». عندئذٍ، انقطع حبل أفكاره، وظل يبحث عنه.

أجابه الرجل الذي كان يقف بجوار النافذة وهو يرتشف مشروبه، متلطّفاً، وقد اعتاد منه هذه المحاضرات: «لقد ذكرت في الأسبوع الماضي فقط، أن حالات الألم كافة شر، وأن حالات المتعة كافة خير. إنني أتذكر كل حرف من كلماتك؛ لأنك ردَّدتها على مسامعي مراراً وتكراراً، بل ودوَّنتها لي كيلا أنساها. ربما تكون في حوزتي الآن»، ثم ربت على جيبيه ساخراً، ثم علت الحمرة وجهه، إذ لم

يستطع قط أن يملك ناصية السخرية. كان جورج سبنسر يجسّد جميع الخصال التي لا يملكها غاريت، فقد كان ممشوق القوام، ثريّاً، وسيماً، تبدو على ملامحه سمات الخجل، عميق المشاعر، سريع الفكر. من يعرفون الرجلين منذ أيام الدراسة، كانوا يمزحون بقولهم: إن سبنسر هو جانب القصير الطيب (ضميره)، وانفصل عنه بشكل ما، وإن القصير يركض حوله دائماً، محاولاً مجاراته.

جلس غاريت بارتياح أكثر في مقعده ذي المسندين، قائلاً: «بالطبع، يبدو الأمر متعارضاً تماماً وغير قابل للتبرير على الإطلاق، ومع ذلك، فإن أفضل العقول يمكنها الإيمان بفكرتين متناقضتين في آنٍ واحد». عبس وجه غاريت، ما جعل عينيه تتواريان تقريباً أسفل حاجبيه الكثيفين الأسودين، وأهدابهما الأشد سواداً، فأمسك بنظارتيه وأخذ يجففهما، فنظر قائلاً: «دعني أشرحْ لك الأمر..».

«أود ذلك: إلا أنني مرتبط بموعد عشاء مع بعض الأصدقاء».

«ليس لديك أي أصدقاء يا سبنسر، حتى أنا لا أحبك، انظر: لا طائل وراء نكران حقيقة أن التسبُّب في الألم أو الشعور به من تجارب البشر، الأكثر إثارة للاشمئزاز. قبل أن نكتشف أسلوب إفقاد المريض وعيه، كان الجراحون يشعرون بالغثيان من هول ما يوشكون على فعله. كان الرجال والنساء ذوو العقول الراجحة، يفضلون أن تقل أعمارهم عشرين عاماً ولا يجرون جراحة -أنت نفسك كنت ستفعل الشيء ذاته- وكذلك أنا أيضاً! ولكن مع هذا، من المستحيل

تحديد المعنى الفعلي للألم، أو كيف يكون الشعور الحقيقي بالألم، أو ما إذا كان ما يؤلم شخصاً، هو نفسه ما يؤلم غيره، فالأمر يتعلَّق بالخيال، أكثر من تعلُّقه بالجسد، لذا؛ هل أدركت مدى أهمية التنويم المغناطيسي هنا؟». قال غاريت ذلك، وقد ضاقت عيناه، بينما كان ينظر إلى سبنسر، ثم أردف يقول: «إذا أخبرتني بأنك قد أُصِبت بحروق وتشعر بالألم، فكيف لي أن أعرف ما إذا كانت الأحاسيس التي تصفها تتشابه مع الأحاسيس التي قد تنتابني إذا أصابني الألم نفسه؟ كل ما يسعني قوله بكل ثقة، هو أن كلينا قد مرَّ باستجابة ملموسة لعامل تحفيزي متطابق، في الحقيقة، يستطيع كلانا الصراخ، ورشَّ الماء في بركة مياه شديدة البرودة لبعض الوقت، ولكن كيف لي أن أعرف أن الشعور الذي يراودك، إذا راودني أنا أيضاً فلن يدفعني إلى الصراخ لسبب آخر؟». واستطرد يقول؛ مكشّراً عن أنيابه: «هل الأمر مهم؟ هل سيغيّر ذلك في العلاج الذي يصفه الطبيب شيئاً؟ إذا بدأت تشك في حقيقته - أو بالأحرى قيمته - كيف يمكنك مقاومة الرغبة في توفير الرعاية أو حجبها؛ طبقاً لإجراء ما تُقر أنت نفسك أنه جزافي؟».

وبعد أن فقد اهتمامه بما يقول، توقَّف غاريت عن الحديث، وبدأ يلملم الأوراق المبعثرة من الأرض، ويصنّفها إلى ملفات مرتَّبة «الأمر لا يهم، على الأقل في ما يتعلَّق بجمع الأغراض العملية، وكل ما هنالك، أن الفكرة خطرت على بالي فحسب؛ أن بعض الأمور تحدث لي، وأود الحديث عنها، وليس عندي من أتحدث إليه. لا بد لي من الحصول على كلب».

أخرج سبنسر، الذي لاحظ أن صديقه قد غمرته الكآبة، سيجارة، متجاهلاً دقات عقارب ساعته، ثم جلس على كرسيه متفقّداً الغرفة؛ التي بدت في غاية النظافة، فلم تستطع شمس الشتاء شديدة البخل، أن تعثر على ذرة غبار واحدة بالداخل. احتوت الغرفة على كرسيين ومنضدة وصندوقَي تعبئة مفتوحين، يمكن الاستغناء عنهما بوضعهما في مكان آخر. كان يبدو أن الستارة المصنوعة من القماش الطويل، المثبتة على النافذة، قد تقلَّصت وبهت لونها من كثرة التنظيف، كما كانت مدفأة الغرفة التي بُنيت من الحجر الأبيض لامعة. كان ينبعث من الغرفة رائحة نفاذة من الليمون والمطهّرات، وهناك فوق المدفأة، وُضعت صورة للطبيبين إيجنز سيملويس وجون سنو، داخل إطار أسود. عُلِّقت فوق المكتب الصغير لوحة رُسِمت عليها أفعى ملتفَّة على شيء، وتخرج لسانها لتختبر ما حولها (مُوقَّعة: لوك غاريت في الثلاثين من عمره)، كان هذا الرسم يرمز إلى أسكليبيوس (إله الطب)؛ الذي فُصِل عن رحم أمه يوم محرقتها الجنائزية، لينشأ ويترعرع ويصير إله الشفاء. كان الطعام والشراب الوحيد الذي رآه سبنسر على الدرج المطلي باللون الأبيض، يقتصر على المشروبات الرخيصة ومقرمشات محلات جاكوب. ألقى سبنسر نظرة على صديقه؛ مدركاً المعركة المألوفة بين شعوره بالإحباط والمحبَّة، الذي يثيره صديقه بداخله.

يتذكَّر سبنسر جيداً أول اللقاءات التي جمعت بينهما في قاعات محاضرات مستشفى «رويال بورو» التعليمي، التي أثبت فيها غاريت أنه تفوَّق على معلميه نظرياً، وفي الفهم، رافضاً وصايتهم عندما كان يدرس في مجال تشريح القلب

والجهاز الدوري، لذلك؛ عندما أصبح يرتكب أفعالاً صبيانية، وغلب عليه طابع الحماس، شكَّ معلّموه بتعمُّده السخرية، الأمر الذي لطالما تسبَّب في طرده من المحاضرة. كان سبنسر؛ الذي أدرك أن السبيل الوحيد لإخفاء ذكائه المحدود، والتغلُّب على ذلك؛ هو الدراسة بجد، وتفادى غاريت، إذ لم يكن من الخير أن يُرى في صحبته، فضلاً عن ذلك، كان ينتابه شعور بالخوف من البريق الأسود المشع من كلتا عينيه. ذات مساء، عندما قابله بعد مُضي وقت طويل على مغادرة العاملين للمعمل، وغلق الأبواب، ظن في البداية أنه في كرب عظيم، فقد جلس على أحد المقاعد التي احترقت بسبب موقد بنسن، وقد حنى رأسه مُحدِّقاً النظر في شيء ما بين يديه الممدودتين.

قال سبنسر: «غاريت.. أهذا أنت؟ هل أنت بخير؟ ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر؟».

صمت غاريت ولم يجِبه، ولكنه أدار رأسه إليه؛ فإذا به يجد وجهاً سقط عنه قناع الابتسامات الساخرة، الذي عادةً ما يرتديه صاحبه، وبدلاً من ذلك، ابتسم له ابتسامة عريضة بعذوبةٍ شديدة، جعلته يظن أنه من المؤكد قد أخطأ، فهي ليست لصديق؛ ولكن أومأ غاريت قائلاً: «انظر! تعالَ وشاهد بعينك ماذا صنعت!».

كان أول ما خطر على بال سبنسر، أنه ربما شارك غاريت في مشروع للأشغال اليدوية والزخرفة، إذ لم يكن ذلك بالأمر الغريب؛ حيث كانت تجري منافسات بين الجراحين الخريجين كل عام، للفوز بلقب صاحب أفضل أنواع الغرز

على مربع أبيض مصنوع من الحرير، بل إن البعض منهم طلب ممارسة هذه التجربة على نسيج العنكبوت. كان الأمر الذي لفت انتباه غاريت؛ هو نموذج رائع يشبه المروحة اليابانية المصغَّرة المحبوكة بدقةٍ عند المقبض، لا يتعدَّى مقاسها حجم إصبع الإبهام، وقد استعملت في حياكتها اللونين الأزرق والقرمزي فوق لون أصفر باهت، ما جعله بالكاد يتمكَّن من رؤية مكان مرور الخيط في الحرير. مال سبنسر إلى الأمام، حتى يمعن النظر؛ فوضحت رؤيته وتغيَّرت، وأدرك تماماً ماهية الأمر، فوجد أنها شريحة مقطوعة بإتقان من البطانة الداخلية لمعدة بشرية مقطَّعة إلى شرائح رقيقة، كورقة رفيعة حُقنت بالحبر، لمتابعة الأوعية الدموية التي وضعت بين شريحتي زجاج. لا يمكن لرسام أن يضاهي الدوائر والانحناءات الموجودة بالأوعية والشريان بلا نمط محدَّد على الإطلاق، ولكن ظنَّ سبنسر أنه يرى صورة شجرة فروعها عارية من الأوراق في فصل الربيع.

«يا للروعة!» قالها سبنسر وهو ينظر إلى عين غاريت؛ فتشاركا نظرة ملؤها البهجة، لقد كانت غرزة لم تنفصل أبداً.

«هل فعلت هذا؟».

«نعم فعلت. ذات يوم، عندما كنت صغيراً، رأيت صورة لشيء ما يشبه هذه الشريحة، رسمها الفنان إدوارد جينر، على ما أعتقد، فأخبرت والدي أنني يوماً ما سوف أرسم واحدة خاصة بي، لكن أشك أنه صدقني يومها، ولكن ها نحن ذا، وها هو الرسم. لقد اقتحمت المشرحة، ولكنَّك لن تبوح بذلك لأحد؟».

أجاب سبنسر في ذهول: «كلا ـ لن أفعل أبداً!».

«أعتقد أن أغلبنا يظن ـ وأنا أيضاً بالطبع ـ أن ما يوجد تحت الجلد يستحق النظر إليه أكثر مما هو موجود خارجه. اقلب جلدي من الداخل إلى الخارج، وسوف أظل رجلاً وسيماً!»، وضع غاريت الشريحة في صندوق من الورق المقوَّى وربطها بخيط لحمايتها، ثم وضعها في جيبه بوقار كقسيس، وقال: «سوف آخذها إلى أحد المزارعين، وأطلب منه أن يضعها فوق قطعة من الأبنوس، هل الأبنوس باهظ الثمن؟ أو يضعها فوق خشب الصنوبر، أو البلوط ـ إنني أعيش على أمل أن يأتي يوم أعرف فيه شخصاً يراها جميلة مثلما أراها أنا. هلا احتسينا شراباً؟».

ألقى سبنسر نظرة على كتب التدريبات التي جلبها من حجرته، ثم على وجه لوك، وخطر له للمرة الأولى أن غاريت خجول بلا شك، بل وربما يشعر بالوحدة أيضاً، فقال: «لم لا؟ إن لم أكن سأجتاز الامتحان، فربما لن أهتم».

ارتسمت على وجه غاريت ابتسامة عريضة، قائلاً: «أتمنى أن يكون معك بعض المال، فأنا لم أضع شيئاً في جوفي منذ البارحة»، ثم تقدَّمه نحو الممر ساخراً من نفسه، أو ربما من سبنسر، أو ربما من مزحةٍ قديمة خطرت على باله.

كان من الواضح أن غاريت لم يعثر بعد على من يعطيه عمله اليدوي، فها هي الشريحة ـ بعدها بسنوات ـ قابعة داخل صندوقها، وموضوعة بقداسة فوق رف المدفأة، بعد أن اسودَّ الورق المقوى بفعل الزمن. قلّب سبنسر سيجارته بين إصبعيه وقال: «هل رحَلَتْ؟».

فكَّر غاريت بالتظاهر بأنه قد أساء الفهم، رافعاً رأسه إلى أعلى، ولكنه كان يعرف نفسه أفضل من ذلك، فأجاب عابساً: «كورا؟ لقد رحلت الأسبوع الماضي، لقد أسدلت الستائر في شارع فوليس، ووضعت الأغطية فوق قطع الأثاث لحمايتها من الأتربة. حسناً، أعلم ذلك، لأنني ألقيت نظرة؛ كانت قد رحلت حين وصلتُ أنا». كانت الساحرة العجوز مارثا هناك، ولم ترد إعطائي العنوان قائلة: «إن كورا في حاجة إلى أخْذ قسط من الراحة والهدوء، وقد سمعت منها ذلك، وسوف يصلني منها خبر في الوقت الذي يناسبها».

قال سبنسر متلطّفاً: «إن مارثا تكبرك بعام واحد، اعترف يا غاريت بأن الراحة والهدوء خصلتان لم تنعم بهما قط».

«أنا صديقها!».

«نعم، ولكنك لست هادئ الطبع لطيف المعشر. أين ذهبت؟».

«كولشيستر. كولشيستر! ماذا هناك في كولشيستر؟ الخراب ونهر وفلاحون يسيرون بأقدام مكفَّفَة، ووحل!».

«لقد كانوا يبحثون عن حفريات في الساحل: قرأت عن هذا الموضوع. كانت النساء الذكيات يرتدين القلادات المصنوعة من أسنان القروش المطلية بالفضة. ستسعد كورا هناك أيَّما سعادة؛ كتلميذ بالمدرسة، حين تغرق في الوحل حتى ركبتيها. ستراها قريباً».

«ما الجيد في قريباً؟ ما الجيد في كولشيستر؟ ما الجيد في الحفريات؟ لم يكد يمضي سوى شهر واحد. كان ينبغي

أن تكـون فـي حالـة حـداد (فـي هـذه اللحظـة لـم تلتـقِ عينـا الرجليـن).. لا بـد أن تعيـش مـع أُنـاسٍ يحبونهـا».

«إنهـا تعيش مع مارثـا، ولا أحد يحبُّهـا أكثر منهـا». لـم يذكر سبنسر فرانسيس- الـذي لطالمـا نـال منه في لعبـة الشـطرنج- إذ لـم يبـدُ مـن المعقـول الإشـارة إلـى أن الصبـي يكِـنُّ لوالدتـه الحب. دقَّت ساعته بصـوت أعلى، وشـاهد وجه غاريت وقـد استشـاط غضباً، وبينمـا سرح تفكيـره في العشـاء الـذي كان معدّاً فـي انتظـاره، والشـراب وأجـواء البيـت الدافـئ الـذي يفتـرش أرضـه السـجاد، قـال سبنسـر، وكأن الفكـرة خطرت ببالـه للتـو: «قصـدت أن أسـأل: مـا مبلـغ التقـدُّم الـذي أحرزتـه فـي ورقتـك البحثيـة؟». كان لتأثيـر الإشـارة إلـى احتمـالات الحصـول على الموافقـة الأكاديميـة أمـام غاريـت، المفعـول ذاتـه لتقديـم عظْمـة نيئـة إلـى كلـب، فهـذا هـو الشـيء الوحيـد الـذي يمكـن أن يلهـي تفكيـره بعيـداً عـن كـورا سيبورن.

«الورقـة البحثيـة؟» خرجـت الكلمـة مـن فمـه كطعـام لـم يستسِـغ مذاقـه، ثـم بعـد أن هـدأت ثائرتـه ردَّ قائـلاً: «بشأن إمكانية اسـتبدال الصمـام الأورطي؟ نعـم علـى مـا يـرام»، دون أن يرفـع بصـره إليـه، واسـترجع فـي ذاكرتـه بسـهولة نصـف دسـتة مـن الأوراق المكتوبـة بخـطٍ أسـود كثيـف، وحتـى كومـة مـن دفاتـر الملاحظـات «يـوم الأحـد هـو الموعـد النهائـي، ربمـا يكـون مـن الأفضـل استئناف عملي البحثي! هـلا خرجـت مـن فضلـك؟». اسـتدار واتَّـكأ علـى مكتبـه، وبـدأ يبـري قلمـاً مـن الرصـاص، مسـتعيناً بشـفرة حلاقـة، وبينمـا هـو كذلـك؛ بسـط صفحـة عريضـة مـن الـورق، كانـت تحتـوي علـى شـرح مسـتفيض لجـزء مـن القلـب البشـري، رُسِمَت عليـه علامـات غامضـة بالحبـر الأسـود؛

وأجزاء من نصوص شُطِبت وأعيد كتابتها باستخدام مجموعة من علامات الاستفهام، وأثناء ذلك؛ لفت انتباهه وجود شيء ما كُتِب في الهامش؛ ما أثار غضبه، وبدت عليه بوادر الانزعاج، فبدأ يسبُّ؛ في حين بدأ بمحوه.

سحب سبنسر ورقة نقدية من جيبه، ووضعها على الأرض في صمت، بحيث يظنُّ صديقه أنها سقطت منه سهواً فنسيها، وخرج مغلقاً الباب خلفه.

2

كانت كورا سيبورن تتمشَّى برفقة مارثا في كولشيستر، ممسكة بذراعها، حاملتين معهما مظلَّة تحمي كلتيهما، حيث كانتا تجوبان ضفاف النهر والقلعة، على أمل رؤية طيور الرفراف والغربان. لسوء الحظ، لم تريا طيف طائر الرفراف «ربما سنراها أثناء قيامنا برحلة نهرية، مارثا، هل علينا أن نقتفي أثرها؟». كانت جدران القلعة سميكة، بسبب الصخور الوعرة التي كان يشبك سروالاهما فيها أثناء السير. قالت كورا: «إنه أثرٌ جيد، ولكن كنت أود لو أرى مشنقة، أو أحد المجرمين المعلّقين على أسوار القلعة؛ وقد نقرت الطيور عينيه».

قالت مارثا، التي لم يكن لديها طاقة للاهتمام بالماضي، وكانت تتطلَّع قُدُماً إلى المستقبل المشرق، الذي سيتحقَّق بعد بضع سنوات: «ثمَّة معاناة إذا كنتِ ترغبين حقّاً في العثور عليها»، ثم أومأت تجاه رجل مبتور القدمين، وقد اتخذ مجلسه في الجهة المقابلة أمام أحد المقاهي، ما يولّد شعوراً بالذنب لدى السائحين المتخمين بالطعام. لم تُخفِ مارثا سرّاً عن عدم ارتياحها لانتزاعها من منزلها في المدينة، فقد منحتها ضفائرها الكثيفة الجذابة، وذراعاها القويتان، مظهر الفتاة التي تعمل في صناعة الألبان شديدة الولع بالقشدة.

لـم تتوغَّـل كثيـراً شـرق بيشـوبس جيـت مـن ذي قبـل، وكانـت تعتقـد أن حقـول إسـكس التـي تغطيهـا أشـجار البلـوط مشـؤومة، وأن منـازل إسـكس المطليـة باللـون الـوردي، لا يسـكنها سـوى البُلهـاء، وممـا أثـار دهشـتها، أنـه يمكـن احتسـاء القهـوة فـي مثـل هـذا المـكان المنعـزل، ولـم يضاهِ تلـك الدهشـة، سـوى شـعورها بالاشـمئزاز مـن المـذاق القابـض للمشـروب الـذي قُـدّم إليهـا، وكانـت تتحـدَّث بـأدبٍ جـم مبالـغ فيـه، وهـو أسـلوب لا يُسـتخدَم إلا مـع الأطفـال الحمقـى، ومنـذ أن رحلـوا عـن لنـدن منـذ أسـبوعين- أُنقِـذ فرانسـيس مـن الذهـاب إلـى المدرسـة، مـا كان مصـدر راحـة للمدرسـين. كانـت مارثـا توشـك علـى حـب المدينـة الصغيـرة، لِمـا كان لهـا مـن أثـر طيـب فـي نفـس صديقتهـا التـي ابتعـدت عـن لنـدن، وتركـت الحِـداد، وصـارت تبـدو أصغـر عشـر سـنوات، وغمرهـا شـعور بالمـرح ثانيـةً. إنْ عاجـلاً أو آجـلاً، كانـت ستسـأل كـورا بلطـفٍ عـن المـدة التـي تعتـزم أن تقضيهـا فـي غرفتيهمـا اللتيـن تقعـان فـي شـارع هـاي سـتريت، حيـث لا تفعـلان شـيئاً سـوى السـير حتـى تصابـا بالإرهـاق، إضافـةً إلـى قـراءة الكتـب، ولكنهـا اكتفـت فـي الوقـت الحالـي بالشـعور بالرضـى حيـال رؤيـة كـورا سـعيدة.

بعـد أن ضبطـت كـورا المظلـة التـي لـم تكـن أكثـر مـن قنـاة تقـوم بتسـريب ميـاه المطـر إلـى ياقـة معطفيهمـا، تتبَّعـت يـد مارثـا حيـث أشـارت. كان الرجـل المُقعَـد يتصـرَّف أفضـل بكثيـر ممـا تفعلانـه فـي التعامـل مـع الطقـس، وكان يبـدو مـن علامـات الرضـا، التـي ارتسـمت علـى وجهـه بعـد تفقُّـده محتويـات قبَّعتـه المقلوبـة، أنـه جنـى إيـرادات وفيـرة فـي يـوم عمـل جيـد. كان الرجـل يجلـس علـى مـا اعتقـدت كـورا أنـه دكَّـة حجريـة، ولكنهـا

عندما ألقت نظرة عن كثب، وجدته يجلس فوق حجر بناء ساقط على الأرض. بلغ عرض الحجر ما لا يقل عن ثلاث أقدام، وكان طوله قدمين، وما تبقَّى من إحدى العبارات اللاتينية التي كُتبِت على الجانب الأيسر منه بجوار أطراف الرجل المتسوِّل، وفور رؤيته المرأتين اللتين كانتا ترتديان معطفيهما المترفين، وهما تراقبانه عبر الشارع، بالغ في ادّعائه البؤس، ولكن سرعان ما تخلَّى عن تلك التعابير المبالغ فيها بوضوح، واستبدلها بتعبيرٍ يدل على المعاناة النبيلة، في إشارةٍ منه إلى أنه على الرغم من ممارسته مهنة بغيضة، فلا يمكن اتهامه بالتقاعس. أفلتت كورا؛ التي كانت تعشق المسرح، ذراعها من ذراع مارثا، وسارت خلف حافلة كانت قد وقفت عند موطئ قدميه بشكل خطير، حيث كان يحتمي بإحدى الشرفات المسطَّحة.

«مساء الخير». مدَّت كورا يدها إلى حقيبتها، ألقى الرجل ببصره نحو السماء؛ التي كانت تميل إلى الزرقة الشديدة والصفاء المدهش، ثم قال: «لا يبدو أنه مساء خير!»، فأجابته: «ولكن ربما يكون كذلك؛ سوف أعطيك هذا». أضاء الضوء الباهر المبنى الذي خلفه؛ الذي رأت كورا أنه مهدَّم، وكأن ثمة انفجاراً حدث به، غير أن ثمة جزءاً على يُسراها ظلَّ على حالته المعمارية، كما أراده المهندس الذي بناه بشكلٍ أو بآخر. إنه مبنى متعدّد الطوابق، ربما كان منزلاً كبيراً أو داراً للبلدية، ولكن كان الجزء الواقع على الجهة اليمنى متهدّماً وهابطاً لعدة أقدام في الأرض، ومنعه من السقوط عبر الرصيف، حاجز من الأعمدة والألواح، ولكن لا يمكن الوثوق بمتانتها، واعتقدت كورا أنها تستطيع سماع

صرير الحديد فوق الصخور من جراء المرور عليها. ظهرت مارثا إلى جانبها، وأخذت كورا يدها بصورة تلقائية، ولم تكن على يقين هل تأخذ خطوة للخلف أم ترفع تنُّورتها وتلقي نظرة عن قرب؟ إنها الرغبة ذاتها التي دفعتها إلى تكسير الأحجار، بحثاً عن الأصداف المتحجّرة؛ حتى دفعتها أدخنة متفجّرات الكوردايت إلى الخروج؛ كان يمكنها رؤية غرفة لا تزال مدفأتها سليمة، وسجادة بالية قرمزية اللون، تتدلَّى من فوق حافة الأرضية المكسورة، في ما يشبه اللسان، وهناك إلى أعلى، أحاطت شجيرة بلوط بالدرَج، واستعمر فطرٌ باهت اللون، يشبه العديد من الأيادي عديمة الأصابع، ذلك السقف المصنوع من الجبس.

«مكانك سيدتي!». انتفض الرجل وجرَّ قدميه عبر مقعده الحجري، وجذب طرف معطف كورا: «لماذا تريدين فعل ذلك؟ كلا، تراجعي قليلاً، على ما أعتقد.. تراجعي إلى الوراء قليلاً أيضاً. أنتِ في أمان الآن، ولا داعي لتكرار ذلك مرة أخرى».

تحدَّث الرجل بلهجة آمرة؛ كما لو كان حارساً للبوابة، ما دفع كورا للشعور بالخجل الشديد من نفسها، وقالت: «آسفة، لم أكن أقصد إزعاجك، اعتقدت فقط أني رأيت شيئاً يتحرَّك.. ربما كان طائر السنونو المنزلي، فلا داعي للانزعاج مطلقاً». نسي الرجل للحظة سلوكيات مهنته، فعدَّل هيئة وشاحه، ثم أردف قائلاً: «توماس تايلور في خدمتك.. لا أعتقد أنكِ زرتِ المكان من قبل؟».

«لم يمضِ على وجودي سوى بضعة أيام قليلة، كنت أجلس أنا وصديقتي»، أشارت كورا إلى مارثا التي وقفت

على مسافة قصيرة منهما تحت مظلَّتها متيبّسة الجسد لاستيائها مما يحدث: «إذا كنتِ ستبقين لفترة، فأعتقد أنه ينبغي أن أوجّه إليك التحية»، فكَّرت كورا والرجل المُقعَد في منطق هذه العبارة، وعندما لم يجدا بها أي منطق، تركا الأمر عند ذاك الحد.

قال تايلور:»ربما أتيتِ من أجل الزلزال«، مشيراً إلى الحطام خلفه. كان يبدو كما لو كان مُحاضراً، يلقي نظرة أخيرة على الملاحظات التي أعدَّها، فأشارت كورا؛ التي كانت مستعدة دائماً إلى التعلُّم، إلى أنها جاءت لأجل هذا السبب، وأضافت قائلةً: «هل يمكنك أن تخبرنا المزيد؟ إذا كان لديك الوقت لذلك؟».

لقد حدث الزلزال (على حد قوله) منذ ثمانية أعوام؛ حسب تقديره، في تمام الساعة التاسعة و18 دقيقة بالتحديد. كان صباحاً صافياً، كأفضل ما يكون الصباح في أيام شهر أبريل التي يذكرها المرء، وهو ما اعتُبِر نعمةً في ما بعد، إذ كان أغلب السكان خارج منازلهم. كانت أرض إسكس تهتزُّ، كما لو كانت تحاول زعزعة جميع مدنها وقُراها، ولمدة 20 ثانية لا أكثر، حدثت سلسلة من الاضطرابات التي توقَّفت فجأة، كما لو كانت تلتقط أنفاسها؛ لتعاود الكَرَّة من جديد. أما في الخارج، وعند مصب نهر كولن وبلاك ووتر، أرغى البحر وأزبد، واندفعت أمواجه بشدة لتضرب الشاطئ، وحوَّلت جميع السفن إلى حطام، أما كنيسة لانجنهو المعروفة بأنها مسكونة بالأشباح، فقد ضربها الزلزال؛ حتى تحوَّلت إلى حطام، كما صارت قرى ويفنهو وأبرتون مجرد أنقاض. شعر الناس بذلك في بلجيكا؛ حيث كانت أكواب الشاي تتخبَّط

وتسقط من فوق المنضدة، وهنا في إسكس، سقط وعاء من على المائدة فوق طفل تركوه نائماً في مهده أسفل المنضدة، كما سقط رجل كان ينظّف واجهة ساعة دار البلدية من على السُلَّم، وانفصلت ذراعه عن جسده. لقد اعتقدوا في مدينة مالدون، أن شخصاً قد فجَّر ديناميتاً لإرهاب المدينة، وظلُّوا يركضون في الشوارع وهم يصرخون. أما كنيسة فيرلي؛ فقد تعرَّضت لدمار لا قبل لنا بإصلاحه، ولم يكن يدخلها المصلُّون بل الثعالب، فلا تُرى مقاعد الكنيسة، بل حُطامٌ تعلوه الحشرات، وحلَّ البوار في البساتين، ولم تثمر أشجار التفاح في ذلك العام.

عندما فكَّرت كورا في الأمر، تذكَّرت العناوين الرئيسة التي حملت بين طياتها أمراً مدهشاً (من كان يظن أن منطقة إسكس الصغيرة المتواضعة، التي تخلو من المناظر الطبيعية تقريباً، كان يمكن أن ترتجف وتتحطَّم!). «يا للهول!» قالت بفرح:»هذه جميع صخور الحقبة القديمة تحت أقدامنا، فكّر في الأمر فقط، هذا الجزء من العالم، تأسَّس منذ خمسمئة مليون عام، وعندما هزَّ كتفيه فقط، أسقط الأبراج فوق الكنيسة!».

قال تايلور وهو يتبادل مع مارثا نظرة خاطفة، توحي بقدرٍ من الفهم: «لا أعرف شيئاً عن ذلك. على كلٍّ، لقد تضرَّرت كولشيستر، مثلما ترين، رغم عدم وجود خسائر في الأرواح»، وأشار مرة أخرى بإبهامه إلى الخراب الهائل، ثم استطرد قائلاً: «إذا كنتِ تفكّرين في دخول تلك الأماكن المهدَّمة، ينبغي لكِ التحلّي بالحذر، وانتبهي إلى ساقيَّ، لأنهما لا تبعدان أكثر من 15 ياردة»، ثم جذب قماش سرواله، وطوى القطعة الخالية بقوَّة، فبدت الشفقة جليَّة على وجه كورا،

التي انحنت ووضعت يدها على كتفه قائلةً: «آسفة جدّاً، لأنني كنت السبب في تذكُّرك ما حدث، رغم أنَّك لن تنساه أبداً، وأنا في غاية الأسف لذلك حقّاً»، مدَّت يدها وتناولت حقيبتها، متسائلة كيف يمكنها أن تجعله يدرك أن مساعدتها له ليست بدافع الشفقة، بل إنها سدادٌ لدين.

أردف تايلور قائلاً: «حسناً الآن»، بعد التقاطه العملة المعدنية، وكأنه قد أسدى لها صنيعاً، وتابع: «هنالك المزيد!»، فتحوَّل من أسلوب المُحاضِر إلى رجل الاستعراض، ثم قال: «أيمكنني القول إنكِ قد سمعتِ عن حكاية أفعى إسكس، التي نشرت الذعر والهلع بين أرجاء مدينة هنهام وورمينغفورد في يوم من الأيام، ثم لم نسمع عنها شيئاً بعد ذلك؛ حتى شوهدت مرة أخرى؟»، أجابت كورا بسرور أنها لم تسمع عنها قط، فأكمل تايلور حديثه قائلاً بحزن: «آه»، «أتساءل إذا كان يتعيَّن عليَّ عدم إزعاجك بهذه القصص، فالنساء طبيعتهنَّ رقيقة»، ثم حدَّق في وجه زائرته، فأدرك أنه لا يمكن لامرأة ترتدي مثل هذا المعطف أن تخاف من وحوش، وبدأ في السرد قائلاً: «حسناً، حدث الأمر في عام 1669، إبَّان جلوس ابن الملك الخائن على العرش، لم يكن أحد يستطيع أن يسير لمسافة ميل دون أن يجد لافتة تحذير مثبّتة على شجرة بلوط أو فوق بوابته»، تحت عنوان «أنباء غريبة»، «كانوا يكتبون محذّرين من أفعى ضخمة لها أعين بحجم الخراف، خرجت من مياه إسكس، ووصلت إلى غابات البتولا والحدائق العامة!».

ظل تايلور يمسح العملة بكُم ثوبه حتى سطع بريقها، واستطرد قائلاً: «تلك كانت سنوات أفعى إسكس، سواء كانت ضخمة وقوية، أو مصنوعة من خشب وقماش، أو

من هذيان المجانين، أُبقِيَ الأطفال بعيداً عن ضفاف النهر، وبحث الصيادون عن مهنة أخرى أفضل! إلى أن اختفت الأفعى كما ظهرت، وعلى مدى مئتي عام، لم نختبئ أو نسمع عنها شيئاً البتة، إلى أن وقع الزلزال، فتحرَّر كائن ما تحت الماء، كائن ما أُطلق سراحه، أحد الزواحف الضخمة المخيفة، مثلما يقولون، فهو أقرب إلى تنّين منه إلى أفعى، يستطيع العيش على الأرض كما في الماء، ويشمّس أجنحته في اليوم المشمس. لقد فقدَ أول رجل رآه من قرية بوينت كلير عقله، وجُنَّ جنونه، ومات في المصحَّة في أقل من ستة أشهر، تاركاً وراءه دزينة من الرسومات التي رسمها بقطع الفحم التي تُستخدَم من أجل الموقد...».

ردَّت كورا قائلةً: «أنباء غريبة! وأشياء أغرب في السماء والأرض... أخبرني هل التُقِطَت أي صورة للأفعى على الإطلاق، وهل فكَّر أحد في الإبلاغ عن الأمر؟».

هزَّ كتفيه مستهجناً، وقال: «لا أدري، فأنا أعوّل على هذا الأمر كثيراً، فسكان إسكس يحرصون أشد الحرص على هذا النوع من الأحداث، مثل الأحاديث التي تدور حول ساحرات تشيلمسفورد، وشبح الكلب الأسود وهو يقوم بجولاته عندما يملُّ من اللحم في مقاطعة سوفولك».

تفحَّصهما تايلور لبعض الوقت، إلى أن بدا عليه فجأة الضجر من صحبتهما، فأدخل العملة في جيبه، وربَّت عليها مرتين ثم قال: «حسناً، لقد كسبت قوت يومي الليلة، وأكثر من ذلك. سأعود إلى المنزل سريعاً لأتناول وجبة شهية»، ثم نظر بامتعاض إلى مارثا، التي اختلج نفاد صبرها بحركة مظلتها،

وقال: «أعتقد أنه من الأفضل أن تنطلقي إلى وجهتك، انتبهي إلى التشقُّقات الموجودة في الأرصفة، كما قد تحذّرك ابنتي، فإنك لا تدرين ماذا يوجد بين تلك الشقوق». لوَّح إليهما من بعيد، مع إيماءة كبيرة؛ تناسب رجل دولة يصرف وزيراً من حضرته، عند سماع صوت زوجين شابين يضحكان في الهواء الرطب، فاستدار واستجمع تعابير الاستعطاف مجدَّداً على وجهه.

قالت كورا وهي تعود إلى جانب مارثا: «في مكان ما هناك، حيث كل شيء تحت الأنقاض والغبار، يوجد زوجان من حذائه، وربما عظام الساقين اللتين فقدهما».

«أنا لا أصدّق أي كلمة مما قال، انظري، ها قد بدأت الأضواء تسطع، وقد تجاوزت الخامسة. يجب أن نعود ونرى فرانكي». كان ذلك صحيحاً، لقد تركوا فرانكي في السرير، ملفوفاً بإحكام، متصلّباً كالمومياء، في رعاية مالك البيت الذي ربَّى ثلاثة أبناء، ويرى أن كورا كائن مطيع، يمكن التغلُّب على البرودة التي تشعر بها بإعطائها الحساء. تقبَّل فرانسيس، الذي أخطأ في مواجهة رجل لم يكن ينظر إليه من دون أدنى شك فحسب، بل وبالكاد بأي شيء من الاهتمام، عطفه الشديد، الذي لم تقدّمه له والدته قط، فقد شوهد يعطي المالك أحد كنوزه (قطعة معدنية من البيريت؛ التي كان يأمل أن تكون مشابهةً للذهب)، وسرعان ما راق له أن يقرأ قصص شرلوك هولمز. تساءلت كورا، كيف لها أن تقلق على ابنها (عندما بدأ التعب والحبوب يظهران على وجهه المشرق، فانفطر قلبها عليه)، ولكن بدا عليها الارتياح لانفصالهما القسري، كل منهما عن الآخر، فقد جلب العيش في هاتين الغرفتين

الصغيرتين، كل طقوسه الصغيرة إلى بابها، فعدم اكتراثه لغضبها أو حماسها، أمر لا يمكن غضُّ الطرف عنه، إلا أن اليوم الذي قضته بحريَّة عند برج القلعة، ورؤية نباتات الصفصاف على ضفاف نهر كولن، كانا مصدر فرحة غامرة، لم تود أن تنتهي أبداً، غير أن مارثا التي تتمتَّع بذكاءٍ وقدرة على قراءة الأفكار التي تجول برأس كورا، حتى قبل أن تتشكَّل، قالت: «لكن انظري، لقد طال الوحل جزءاً من معطفك، وابتلَّ شعرك بكامله، لنجد مقهى وننتظر حتى ينتهي المطر». هزَّت رأسها في اتجاه سقيفة تقطر منها حبات المطر، ويظهر من تحتها نافذتان تظهر منهما قطع من الكعك.

قالت كورا مؤقتاً: «إلى جانب ذلك، سيكون قد خلد إلى النوم الآن، ألا تعتقدين ذلك؟ كما أنه يستشيط غضباً عندما يوقظه أحد...».

وبكل انصياع، اتجَّهتا عبر الأرصفة الرطبة التي أكسبتها أشعة الشمس الخافتة، القليل من الإشراق، إلى أن وصلتا إلى ظل السقيفة، عندئذٍ سمعت كورا صوتاً مألوفاً ينادي:

«أؤكد أنكِ السيدة سيبورن!»، أمعنت النظر إلى الشارع المعتم، ثم قالت: «هل شاهدنا أحدهم؟».

شعرت مارثا بالاستياء لدى ظهور مزيدٍ من المتطفّلين في وقتهم الخاص، فشدَّت على حزام حقيبتها قائلة: «من يمكن أن يتعرَّف إليكِ؟ نحن هنا منذ أقل من أسبوع: ألا يمكن أن يغفلوا عنكِ فحسب؟».

فجاء الصوت منادياً: «كورا سيبورن، بشحمها ولحمها حية ترزق مثلي».

صاحت كورا فرحة، وقفزت من على الرصيف رافعة ذراعيها قائلة: «تشارلز! تعالَ! تعالَ إليَّ!»، كانت رؤية تشارلز وكاثرين أمبروز؛ اللذين جاءا إليها من تحت مظلتين ضخمتين ملأتا الشارع؛ أمراً غير متوقَّع. لقد صار تشارلز؛ الذي كان زميلاً لمايكل سيبورن في ما مضى، وتقلَّد مناصب في وايت هول؛ التي لم تفهمها كورا قط، والتي كانت تعطيه نفوذاً يفوق نفوذ رجل السياسة، ودون تحمل أي مسؤوليات، أحد معالم شارع فوليس المعتادة. كان أخفى سطوع صدريَّته، ونهمه لكل الأشياء ذكاءً وفطنة، لم يدركهما أغلب الأشخاص، إلا إن كورا اكتشفت تلك الخصال فيه منذ لقائهما الأول، ما جعله بشكلٍ أو بآخر عبداً لها. كان تشارلز رجلاً مخلصاً تماماً لزوجته؛ الّتي كانت ضئيلة الحجم، بينما كان هو ضخماً، ووجدت أنه مسلٍّ بلا أدنى ملل. كان كلاهما سخياً، ومحبّاً للخير، ويهتمُّ بحياة الآخرين، وعندما أصرَّا على أنه ما من طبيب آخر يمكنه معالجة مايكل سيبورن المريض غير غاريت، كان من المستحيل رفض ذلك.

ضمَّت كورا خصر صديقتها في لطفٍ، وقالت: «تعرفين أنني كنت أفضّل أن نكون أنا وأنتِ وكتبنا فحسب، ولكنهما تشارلز وكاثرين أمبروز، لقد سبق لكِ مقابلتهما، وقد أحببتِهما ـ لا، حقّاً، لقد أحببتهما، تشارلز!». انحنت كورا انحناءة مثيرة للسخرية للغاية، كان يمكن أن تكون أكثر رقيّاً، لو لم يكن إصبع القدم الذي مدَّته قد غُرِسَ في حذاء رجل ملطخ بالوحل، وأردفت قائلةً: «بالطبع تعرف مارثا؟»، وقفت مارثا منتصبة القامة، وندَّت عنها إيماءة تنمُّ عن عدم الترحيب، وتابعت كورا حديثها قائلةً: «وكاثرين أيضاً، لم أكن أعرف

أنك تعرفين أن إنجلترا تمتدُّ إلى أبعد من بالمر جرين: هل أنت تائه؟ هل تودُّ أن أُعيرك خريطتي؟». نظر تشارلز أمبروز باشمئزاز إلى الحذاء الموحل والمعطف الخشن من طراز هاريس؛ الذي صُمّم بحيث يكون عريضاً للغاية عند الكتفين، وعند يديها القويتين ذات الأظافر المقضومة.

ثم قال: «أود أن أقول لكِ إنه من دواعي سروري أن أراكِ، على الرغم من أنني لم أرَ قط أي شخص أشبه بملكة بربرية عازمة على النهب والسلب على هذا النحو، هل من الضروري أن تحاكي قبائل الأيسينيين لمجرد أنكِ في أراضيهم؟». لم تشعر كورا بالإهانة، فهي التي رفضت ارتداء أي شيء ضيق على خصرها، وتمرّر يديها بين خصلات شعرها لتدخله في قلب قبَّعتها، ولم ترتدِ مجوهرات منذ أن انتزعت اللآلئ من أذنيها بقوة منذ شهر. «أنا متأكدة أن الملكة بوديكا ستخجل أن يراها الناس بهذا الشكل، فهلا دخلنا المقهى لاحتساء القهوة وانتظار انقشاع السحب؟ أنتِ جميلة بما يكفينا نحن الاثنين». دسّت يدها في ذراع كاثرين أمبروز، وغمزت كلتاهما للأخرى، فشاهدت ظهر تشارلز المخملي يدلف إلى المقهى بتأنُّق يثير الإعجاب.

توقَّفت كاثرين عند العتبة، واضعةً وجه المرأة الشابة بين راحتي يديها، وأدارته نحو الضوء وهي تسأل كورا قائلة: «ولكن كيف حالك في الواقع يا كورا؟». تأمَّلت كاثرين وجهها ذا العظم البارز والعينين الشبيهتين بالأردواز. إلا أن كورا لم تُجِب، لأنها خشيت أن تشي بسعادتها المخجلة، فاستنتجت كاثرين الإجابة التي كانت تشكُّ في معاملة مايكل سيبورن لزوجته أكثر ممَّا كانت تتخيَّل كورا، ثم وقفت على

أطراف أصابعها؛ لتطبع قبلة على وجنتها. تظاهرت مارثا بالسعال، فاستدارت كورا وانحنت لالتقاط حقيبة سفرها القماشية، هامسةً في أذنها قائلة: «نصف ساعة أخرى فقط، أعدك»، ثم حثَّت صديقيها على الدخول.

«حسناً، ماذا تفعلان هنا؟ لقد ظننت أنكما مرتبطان بوايت هول وكينسينغتون؛ حتى إنني تخيلت أنكما قد تبخَّرتما عند حدود المدينة!»، فحصت كورا الطاولة بارتياح. طلب تشارلز من فتاة لطيفة ترتدي مئزراً أبيض، إحضار ما لا يقل عن اثنتي عشرة قطعة من الكعك؛ الذي تفضّله كورا شخصيّاً، وكمية كبيرة من الشاي. من الواضح أنها تفضّل جوز الهند؛ إذ كانت هناك حلوى الماكارون والغُريّبة المنقّطة ومحليات من الكعك مغمورة في مربى التوت ملفوفة في رقائق جوز الهند، وفي هدوء، أكلت كورا التي مشت عدة أميال ذاك الصباح، القطع التي تعلو كعك المادلين.

أجابت مارثا، وفي عينيها لمعة حادة تعمَّدت إظهارها: «نعم. ماذا تفعلون هنا؟».

أجابتها كاثرين أمبروز: »نزور بعض الأصدقاء»، وهزَّت كتفيها بأناقة من تحت معطفها الصغير، محدّقة بالديكور الداخلي المعتم؛ الذي يفوح بشيء من الدهشة. كان يبدو جلياً أن شكل قطعة القماش الخضراء المطرزة التي سقطت على حجرهما قد سرَّها، فتلاعبت بها وهي تكبت ابتسامتها قائلة: «فلأي سبب آخر سوف يأتي الناس هنا؟ فلا مجال للتسوُّق، ولا يوجد حتى متجر شامل. أتساءل من أين يحصل السكان المحليون على شرابهم وجُبنهم؟».

قال تشارلز، وهو يناول زوجته طبقاً عليه كعكة صغيرة تعلوها بعض المثلَّجات: «أعتقد من أشجار الكروم والأبقار». لم يسبق أن شوهدت كاثرين وهي تتناول الكعك من قبل، إلا أنه كان يحب أن يغريها من آن إلى آخر، ثم تابع حديثه قائلاً: «نحاول إقناع العقيد هوارد بالترشُّح للانتخابات البرلمانية القادمة، من المقرَّر أن يتقاعد و...».

«إنها لأخبار جيدة حقّاً»، أنهت كورا الحديث وهي تردِّد إحدى عبارات تشارلز المميَّزة. جلست مارثا بجانبها، وقد بدأ التوتر يعلو وجهها قليلاً، وربما كانت تستعد لإلقاء إحدى خطبها اللاذعة عن الصحة العامة، أو عن الحاجة إلى إصلاح الإسكان. (كانت هناك رواية أمريكية مغلَّفة في حقيبة ورقية زرقاء، داخل الحقيبة القماشية، تتناول أكثر الشروط التي أقرَّها الجميع لإقامة حياة جماعية في المدينة الفاضلة المستقبلية، وقد انتظرت مارثا أسابيع كي تُنشر باللغة الإنجليزية، لذا؛ كانت تتمنَّى العودة إلى المنزل وإجراء دراسة عنها). رغم تقدير كورا لضمير صديقتها الحي، فقد بلغ الضجر منها مبلغاً؛ جعلها تعزف عن رؤية اندلاع معركة في أثناء احتساء أقداح الشاي. أضافت كورا كعك المادلين إلى طبق كاثرين، ولكنه أُبعِد حين وضعت مارثا الخريطة على غطاء المائدة.

«هل تسمحون لي؟»، بسطت كاثرين صفحاتها حتى ظهرت كولشيستر باللونين الأبيض والأسود، مع المواقع المميزة المهمة التي وضعت عليها علامات مصحوبة بالصور، وضعت كورا دائرة حول متحف القلعة، وكانت بقعة شاي قد لطَّخت برج القديس نيكولاس.

قالت كاثرين: «نعم، ظننَّا أننا سنصل إلى العقيد قبل أن يصل إليه الآخرون؛ إنه لم يُخفِ طموحاته قط، إلا أنه لم يفصح كذلك عن اتجاهاتها، وأعتقد أن تشارلز قد أقنعه أن ثمة تغييراً في الحكومة سيحدث أثناء الانتخابات القادمة؛ ويقول: إننا يجب أن نثق في ذلك، بل ونراهن عليه، فالرجل العجوز يتمتع بعنفوان شاب في نصف عمره، ولديه الاستعداد للانطلاق، ومع ذلك، فقد يستمر رئيس الوزراء الأكبر سنّاً في منصبه». لم يكن ثمة داعٍ لذكر اسم جلاد ستون؛ الذي كانت تنظر إليه أسرة أمبروزً على أنه يمثل نموذجاً تجتمع فيه خصال قديس غريب الأطوار، ومع ذلك محبوب. لقد قابلته كورا ذات مرة - كانت تقف متصلّبة الجسد إلى جوار زوجها الذي كان ينشب أنامله المدبَّبة الحادة في الجزء العلوي من ذراعها؛ حين انحنى جلاد ستون انحناءة خفيفة لتحية مجموعة من الضيوف - وهالها الذكاء الحاد المتوحّش الذي كانت تشعّه عيناه أسفل الحاجبين الكثيفين المُهملين، وبحاجة إلى التهذيب. كان من الواضح، إثر البرودة التي حملها صوته وهو يوجّه التحية إلى مايكل سيبورن، أن رجل الدولة كان يحتقر زوجها ويكرهه كرهاً شديداً، وعلى الرغم من تحية جلاد ستون الباردة لها، فقد كانت تشعر دائماً، وفي السنوات التي تلت ذلك، بأنه حليف لها.

قالت مارثا، وقد بذلت أقصى جهدها لإحراج نفسها: «إنه لا يزال يطارد المومسات، أليس كذلك؟»، إلا أن تشارلز كان أبعد ما يكون عن أن يصاب بدهشة من حديثها، وابتسم ابتسامة عريضة؛ وهو يلمس حافة قدح الشاي.

سارعت كاثرين قائلةً: «كفى حديثاً عنا، ماذا تفعلين في

كولشيستر يا كورا؟ لو كنتِ ترغبين في السفر والاستمتاع بالبحر، كان في وسعك استخدام منزلنا في مدينة كنت، أما هنا؛ فلا شيء يذكر سوى الوحل والسير لأميال، بل إن منظر المدينة قد يسبّب اكتئاباً حتى للمهرج نفسه، إلا إذا كنتِ تفكرين في تفتيش القلعة بحثاً عن زوج جديد، لا أستطيع أن أعرف مصدر جاذبية هذا المكان!».

«دعيني أشرح لكِ». قالت كورا ذلك؛ وقد جذبت الخريطة تجاهها، وأشارت بطرف السبابة- لاحظت كاثرين أنه لم يكن نظيفاً جدّاً- إلى خط يمتد إلى الجنوب من كولشيستر نحو منبع نهر بلاك ووتر، واستطردت قائلةً: «كان رجلان يسيران عند حافة منحدرات ميرسي، وكادا يلقيان حتفهما بسبب انهيار الصخور، ولقد كانا من الذكاء؛ بحيث قرَّرا إلقاء نظرة على الأنقاض؛ فوجدا بقايا أحفورية- بضع أسنان هنا وهناك والكروبوليت (البراز المتحجر) المعتاد بالطبع- إلى جانب نوع صغير الحجم من الثدييات التي نُقلت إلى المتحف البريطاني لتصنيفها: من يدري أي نوع من أنواع الأجناس الجديدة التي اكتشفوها!».

نظر تشارلز إلى الخريطة بحذر، فرغم كل ما كان يبدو عليه من مظاهر ليبرالية ومحاولاته المستميتة للاستمتاع بالمتع الدنيوية؛ فقد كان محافظاً في دخيلة نفسه، ولم يكن ليحتفظ بأعمال داروين أو لايل في مكتبه؛ خوفاً من أن تكون حاملة للعدوى التي يمكن أن تنشرها بين الكتب الأخرى الصحية. لم يكن تشارلز رجلاً ورِعاً بصفةٍ خاصة، إلا أنه كان يشعر بأن وجود إيمانٍ عام يرعاه ربٌّ كريم، يوفّر الحماية لنسيج المجتمع ويمنع تمزُّقه إرباً. إن فكرة عدم وجود أي نبل في

البشرية، وأن بني جنسه ليسوا شعباً مختاراً شملته العناية الإلهية، كانت تزعجه وتؤرّقه في الساعات التي كانت تسبق انبلاج الفجر، وكما يفعل دوماً في جميع الأمور التي تزعجه، فقد تجاهل الأمر حتى يزول من تلقاء نفسه، بل والأدهى من ذلك، أنه كان يلوم نفسه لعشق كورا لعالمة الجيولوجيا ماري آننغ، فلم تكن كورا تبدي أدنى اهتمام بالتنقيب بين الصخور والوحل، حتى وجدت نفسها تجلس ذات يوم بإحدى حفلات العشاء التي تقيمها أسرة أمبروز، إلى جوار رجل عجوز، تحدَّث مع آننغ ذات مرة، ووقع في غرام ذكراها منذ ذلك الحين، وبعد أن سمعت كورا جميع قصصه عن ابنة النجار التي زادت قوَّتها بعد تعرضها لإحدى صواعق البرق، وأولى حفرياتها التي عثرت عليها في سن الثانية عشرة، والفقر، واستشهادها بعد إصابتها بمرض السرطان، وقعت في حبها كذلك، وظلت لشهور منذ ذلك الحين لا تتحدَّث عن أي شيء آخر؛ سوى صخور اللياس والبازهر، فإذا كان هناك من يأمل في أن تخفت حدة شغفها، فإنهم لا يعرفون كورا، ما سبَّب له شعوراً بالضجر.

وبينما كان ينظر إلى آخر قطعة حلوى الماكارون قال: «لا شك أنه من الأفضل أن الأمر قد أصبح في أيدي الخبراء في الوقت الحالي: فلم نعد في العصور المظلمة، كي نعتمد على غريبي الأطوار الذين يرتدون التنُّورات ويجوبون الأماكن وهم يحملون مطرقة خفيفة وفرشاة، فثمة كليات وجمعيات ومنح وما إلى ذلك».

«حسناً؟ ماذا تتوقَّع مني أن أفعل؟ الجلوس في المنزل وإعداد خطط للعشاء، وانتظار وصول زوجَي الأحذية

الجديديـن؟». ظهـرت الحالـة المزاجيـة لكـورا التـي كانـت تستشـيط غضبـاً رويـداً رويـداً، فـي تصلُّـب عينيهـا الرماديتيـن، وتطايـر الشـرار منهمـا.

«بالطبـع لا!». أضـاف تشـارلز؛ الـذي ظـن أنـه يمكـن أن يضـع حـدّاً لتلـك النظـرات: «إن أي شـخص يعرفـك، لـن يتوقَّـع منـك ذلـك، ولكـنَّ ثمـة أمـوراً مهمـة الآن يمكنـكِ أن تقضـي وقتـكِ وتسـتخدمي عقلـكِ فـي الاهتمـام بهـا، وليـس بقايـا الحيوانـات التـي لا قيمـة لهـا وهـي حيـة، ناهيـك عـن كونهـا نافقـة!»، وفـي دلالـة واضحـة علـى يأسـه، أشـار إلـى مارثـا: «ألا يمكنـكِ الانضمـام إلـى جمعيـة مارثـا ـ أيـاً كان اسـمها ـ وتحاوليـن إيجـاد حـل لمشـكلة السـباكة فـي منطقـة وايـت تشـابل، أو أن تهتمـي بالأيتـام فـي بيكهـام، أو بالانضمـام إلـى أي جمعيـة أخـرى مـن تلـك الجمعيـات التـي تذهـب إليهـا هـذه الأيـام؟».

«نعـم كـورا، أليـس فـي وسـعك فعـل ذلـك؟»، أجابـت مارثـا وهـي مقطبـة الجبيـن لتشـارلز؛ الـذي تعلَـم بإحباطـه إزاء تمتُّعهـا بضميـر سياسـي حـي، بقـدر إحباطـه مـن حـذاء كـورا الطويـل الملطَّـخ بالوحـل، بينمـا ترمقـه بنظـرات إعجـاب مـن عينيهـا الزرقاويـن.

«لا تعنـي شـيئاً!». أجابـت كـورا، بينمـا كانـت تلتقـط أنفاسـها اسـتعداداً لإلقـاء خطـاب عـن أهميـة بقايـا حيواناتهـا المحبوبـة، ولكـن وضعـت كاثريـن يدهـا البيضـاء البـاردة فـوق يديهـا، وكأنهـا نسـيت مـا دار فـي أثنـاء الدقائـق القليلـة الماضيـة؛ قائلـةً: «وأنـت تعتزميـن أن تذهبـي إلـى هنـاك وتعثـري علـى وحـش خـاص بـك؟».

«نعم، سأفعل، وسترين! لقد كان مايكل ـ وبمجرد أن ذكرت اسمه بدأت ترتبك وتتحسَّس الندبة الموجودة على رقبتها لا شعوريّاً ـ يظن أن ما أفعله مضيعة للوقت، وأنه من الأفضل لي قراءة مجلة «السيدة» The Lady؛ لمعرفة شكل التنورة التي يجب أن أرتديها للذهاب إلى فندق سافوي». أبعدت كورا طبقها باشمئزاز، وأردفت قائلةً: «حسناً، يمكنني أن أفعل ما يحلو لي الآن، أليس كذلك؟»، ونظرت في عينَيْ كل منهما، فقالت كاثرين: «طفلتي الحبيبة، نعم بالطبع يمكنك ذلك، ونحن فخورون بكِ للغاية، أليس كذلك يا تشارلز؟». حينئذٍ أتاها رده في صورة إيماءة تنم عن التواضع:»بل والأكثر من ذلك أنه يمكننا مساعدتك: إنني أعرف الأسرة المناسبة لمساعدتك!».

أجاب تشارلز متشككاً:»حقاً؟»، فقد كان الصديق الوحيد الذي يعرفه في كولشيستر؛ هو العقيد هاورد المصاب بالكوليرا، وكان على يقين أن رؤيته لكورا كفيلة بأن توجه الضربة القاضية إلى صحته المتهالكة.

قالت كاثرين:»تشارلز! عائلة رانسوم ذات الأطفال الرائعين، والمنزل الفظيع، وستيلا التي تحمل زهور الأضاليا».

هنا أشرق وجه تشارلز من فكرة عائلة رانسوم؛ إذ كان ويليام رانسوم أخاً مخيّباً للآمال لنائب ليبرالي، كانت عائلة أمبروز متيَّمة به. كان مخيّباً للآمال، لأنه قرَّر في سن مبكرة ألا يربط فكره المتقد بقانونٍ أو برلمانٍ، أو حتى بخدمة طبية، ولكنه كرّس هذا الفكر للكنيسة، والأسوأ من ذلك، أن الطموح الطبيعي الذي يرافق العقل السليم عامةً، كان ناقصاً

إلى حدٍّ كبير؛ لدرجة أنه وافق على قضاء الخمسة عشر عاماً الماضية، في رعاية قطيعه الصغير في قرية منعزلة عند مصب نهر بلاك ووتر، وتزوَّج شقراء صغيرة، وكان شغوفاً بأطفاله، وقد مكث تشارلز وكاثرين هناك ذات مرة، بعد أن أخفقت رحلة إلى هارويتش، وكُرّست في نهاية الأمر إلى حضن عائلة رانسوم؛ إذ أمسكت كاثرين بحزمة من بذور الأضاليا؛ التي تعد بإنتاج الزهور السوداء، والتفتت إلى كورا.

وقالت كاثرين: »دعيني أخبركِ أنكِ لن تقابلي عائلة أفضل منهم؛ فهم عائلة رانسوم الموقرة، وستيلا الصغيرة؛ التي لا تزيد على كونها جنية أسطورية، بل وتفوقها جمالاً، وهم يقطنون في ألدوينتر، السيئة مثلما تبدو، إلا أنه في الليالي المضيئة، يمكنكِ النظر مباشرة إلى بوينت كلير، وفي الصباح تشاهدين مراكب التيمز؛ بينما تغادر محمَّلة ببضاعتها من المحار والقمح. إنها العائلة الوحيدة التي يمكنها أن تريك الطريق حول الساحل هناك. لا تنظري إليَّ هكذا يا عزيزتي، تعرفين تمام المعرفة، أنكِ لا تستطيعين أن تمضي قُدماً من دون خريطة«.

قال تشارلز: »إنه شاطئ غريب، وقد تحتاجين إلى كتاب تفسير العبارات الشائعة، وثمة بوابات دائرية ومساحات وأفدنة من أراضي المد والجزر؛ التي يطلقون عليها الأراضي المالحة«. ثم لعق السكر من سبابته، وفكر في طلب حلويات أخرى، وأردف قائلاً: «كان ويل قد أطلعني ذات مرة على فناء كنيسة ألدوينتر، وعلى القبور التي يسمونها بالمحطَّمة: يعتقد القرويون أنكم إذا ما متم من السل، فستغرق الأرض في التوابيت».

حاولت كورا التغلب على عبوسها جراء تعاملها مع بعض

القساوسة في الأرياف الصغيرة؛ مثل عائلة كالفن وزوجته شديدة البخل! حيث لم تستطع التفكير في الأسوأ، واستدلَّت من صرامة مارثا الجالسة بجانبها، أنها تبادلها الشعور نفسه، ولكن لا يزال من المهم الحصول على بعض المعلومات الجغرافية عن إسكس، والأهم أنه ليس من الضروري أن يكون رجل الدين جاهلاً بالعلم الحديث؛ فمن بين كتبها المفضلة، أطروحة لكاهن مجهول في إسكس عن عصور الأرض القديمة، حيث حظي الكتاب بشهرة واسعة بمفاهيمه المقدَّمة عن حساب تاريخ الخلق من نسل العهد القديم.

بدأت حديثها قائلةً: «ربما ينجح ذلك مع فرانسيس، وقد تحدَّثت مع لوك غاريت بشأنه كما تعلم، ولا أعتقد أن ثمة مشكلة في ذلك»، ثم احمّر وجهها خجلاً، لأنه لم يخجلها أحد مثل ابنها. لقد كانت مدركة تماماً أن عدم ارتياحها لحضور فرانسيس، أمرٌ شائعٌ بين أغلب من قابلوه، لذا؛ يستحيل أن تبرئ نفسها؛ فعزلته وهواجسه يجب أن تكون هي المسؤولة عنهما، وإلا فعلى من تلقي باللائمة؟ كان غاريت هادئاً على غير العادة، ويتكلم بصوت خافت قائلاً: «لا يمكنكِ تأديبه، أو حتى تشخيص ما يعانيه، ولا يوجد تحليل دم لغرابته، ولا مقياس موضوعي لحُبك أو حُبه». ثم تراجع واعترف قائلاً: ربما استفاد من التحليل، ورغم ذلك؛ يصعب إجراء تلك الفحوصات على الأطفال الذين لم يكد وعيهم أن يتشكل. لذا؛ لم يكن بوسعها القيام بشيء سوى أن تواصل مراقبته قدر استطاعتها، وأن تحبه بقدر ما يسمح لها.

تبادلت عائلة أمبروز وكاثرين النظرات، وقالت كاثرين على عجل: «أرى أن أفضل شيء يفيده هو الهواء النقي، ألا

تدعين تشارلز يكتب للقس وتقدمين له نفسكِ؟ فألدوينتر تقع على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا، وأنا أعرف أنكِ تمشين أكثر من ذلك، ويمكنكِ على الأقل قضاء وقت بعد الظهيرة هناك؛ حيث تقدم لكِ ستيلا الشاي».

قال تشارلز: «سأكتب إلى ويليام وأعطيه عنوانك. أعتقد أنكِ تقيمين لدى عائلة جورج، أليس كذلك؟ أنا متأكد أنكما سرعان ما تصيران أصدقاء، وستعثرين على أكوام من حفرياتك البائسة».

قالت مارثا: «نحن نقيم بفندق ريد ليون، حيث تظن كورا أنه يبدو حقيقيّاً، وقد خاب أملها حين لم تعثر على قش على الأرضية، وعنزة مربوطة في الحاجز». قالت في نفسها بازدراء، رانسوم الموقَّر، كما لو كان بعض القساوسة متبلدي العقل وأطفالهم ذوي الوجنات السمينة، يمكن أن يثيروا اهتمام صديقتها كورا! إلا إن إظهار اللطف لصديقتها، دائماً ما يكسبها ولاءها، فنقلت كورا آخر قطعة كعك من طبقها إلى طبق تشارلز، وقالت بإخلاصٍ: «لقد استمتعت برؤيتكما مرة أخرى، هل تعتقدان أنكما قد تعودان إلى إسكس قريباً قبل أن نرحل؟».

«ربما»، ثم استطرد متنهداً في يأس: «وحينئذٍ؛ نتوقَّع اكتشاف فصائل جديدة كليةً، ثم تشريحها، ونستعد إلى رؤية جناح سيبورن في متحف القلعة»، وأومأ لزوجته بالمغادرة، وعندما وصل إلى معطفه وهمَّ أن يلبسه، توقَّف وهو يدخل يديه في الكم، ثم قال: «أوه»، والتفت بابتسامة عريضة إلى كورا، وأردف قائلاً: «كيف نسينا إخبارك بذلك؟ هل سمعتِ

عن ذاك الوحش المخيف الذي زرع مخافة جميع الآلهة بين السكان المحليين كافةً؟».

ضحكت كاثرين قائلةً: «لا داعي للسخرية يا تشارلز، إنها مجرد لعبة همسات صينية تمادت قليلاً».

تجاهل أمبروز زوجته وهو يصارع سترته، واستطرد قائلاً: «والآن، إليكِ لغزاً عن العلم، بدايةً، ضعي تلك القبعة المخيفة جانباً واستمعي؛ قبل ثلاثمئة سنة أو ما يقرب من ذلك، أقام تنين في هينهام، على بعد عشرين ميلاً في الشمال الغربي من هنا. يمكنكِ أن تسألي في المكتبة، وسيعرضون لكِ المؤلفات التي جمعوها من البلدة، وتقارير من شهود عيان من المزارعين وصورة لتنينٍ ضخمٍ بأجنحةٍ من الجلد، وابتسامة مسنَّنة، وقد اعتاد أن يرقد تحت أشعة الشمس ويكسّر منقاره (منقاره، انتبهي!) ولم يُلقِ له أحد بالاً، إلى أن تعرَّضت ساق صبي للكسر، ثم اختفى بعدها بمدة وجيزة، إلا أن الشائعات لم تختفِ قط؛ ففي كل مرة عندما تفسد المحاصيل أو يحدث كسوف شمسي، أو يحدث غزو من الضفادع، يرى شخص ما في أي مكان ذلك الوحش على ضفة النهر، أو مختبئاً في القرية الخضراء؛ حتى تُسمَع عبارة: لقد عاد مرة أخرى»، بدا تشارلز منتصراً، وكأنه ألَّف قصة الوحش من أجلها، لذا؛ اضطرت كورا آسفة إلى إفساد فرحته بقولها: «أوه يا تشارلز، أعلم ذلك، لقد سمعت عن هذا! فقد ألقيت علينا محاضرة حول زلزال إسكس- أليس كذلك يا مارثا؟، وكيف أطلقت الهزة سراح كائن ما هناك عند مصب النهر، وهذا كل ما يمكنني فعله لمنع نفسي من التوجُّه إلى هناك الآن، مصطحبة دفتراً وكاميرا لكي أراه بنفسي!».

واسَت كاثرين زوجها بقبلة، وقالت في هدوء: «كتبت إلينا ستيلا رانسوم وأخبرتنا عن كل ذلك؛ ففي يوم رأس السنة الجديدة، وُجِد رجلٌ رقبته مكسورة في مياه ألدوينتر المالحة. كان ثملاً على ما أظن، ووقع في المد والجزر، إلا أن القرية بكاملها ثارت لتلك الحادثة؛ إذ وقع هناك العديد من المشاهد قبالة الساحل، وقد أقسم البعض أنهم رأوه يتحرك في نهر بلاك ووتر في منتصف الليل، وبريق القتل يتوهَّج في عينيه. هناك يا تشارلز، كنت محقّاً: هل سبق لك أن رأيت أي شخص متحمساً إلى هذا الحد؟».

تقلقلت كورا كطفلٍ في مقعدها، وسحبت خصلة من شعرها ثم قالت: «تماماً مثل تنين البحر لماري آننغ، كل تلك السنوات الماضية! وكل ستة أشهر، تنشر صحيفة تحدّد طرق الوصول إلى الحيوانات المنقرضة؛ التي قد لا تزال حية إلى الآن، وأماكن وجودها، تخيَّل! فقط تخيَّل، إذا كان علينا أن نواجه أحدها في مكانٍ موحش للغاية كإسكس! وتخيَّل ما قد يعنيه ذلك: دليلاً إضافيّاً على أنه عالم قديم نعيش فيه، وأننا مدينون للتطوُّر الطبيعي، لا لشيء يتعلَّق بالألوهية».

قال تشارلز: «في الحقيقة، لا أعرف شيئاً عن هذا، لكنه سيثير اهتمامك بلا شك، وإذا زرتِ ألدوينتر، فلا بد أن تطلبي من عائلة رانسوم أن تريك أفعى إسكس، فأحد المقاعد في الكنيسة الأبرشية، تعتليه أفعى مجنَّحة تشق طريقها إلى أعلى المسند، رغم أنه منذ المشاهدات الأخيرة، كان الكاهن الصالح يهدّد بإزالته بإزميلٍ».

ردَّت كورا: «هذا يحسم الأمر. اكتب رسائلك مثلما

يحلو لك، فسنعاني من انتباه آلاف القديسين من أجل تنين بحري واحد، أليس كذلك يا مارثا؟»، ثم تركتا تشارلز يدفع الحساب، وتخلَّصتا من النصائح الهائلة التي أرضى بها ضميره. خرجت النساء إلى هاي ستريت، وقد هدأ المطر، وأظهرت أشعة الشمس الخافتة؛ طيف سانت نيكولاس في مرماهم. أشارت كاثرين إلى واجهة فندقها البيضاء العريضة، ثم قالت: «سأذهب إلى الطابق العلوي، وأحضر بعض الصحف المُعنوَنة، وأحذّرهم أنكِ ستجلبين المشكلات بأفكار لندن ومعطفكِ المخزي»، ثم قطعت جزءاً من كُم كورا وتابعت حديثها: «ألا يمكنكِ أن تفعلي شيئاً حيال هذا يا مارثا؟».

بما أن نصف متعتها في اختيار مثل هذا المظهر البالي، يكمن في اشمئزاز صديقاتها، رفعت كورا ياقتها عكس الرياح، وأمالت قبعتها كالصبي، وألصقت إبهامها في حزامها، ثم أردفت قائلةً: «الرائع في كونكِ أرملة؛ هو أنكِ في حقيقة الأمر غير مجبرة على أن تكوني امرأة أكثر أنوثة بعد اليوم، وها هو تشارلز قد أتى، ويمكنني أن أقول من خلال مظهره هذا، إنه بحاجة إلى شرابه المسائي، شكراً جزيلاً لكما»، وقبّلتهما، ثم ضغطت على يد كاثرين بقوة، حيث ودَّت أن تقول أكثر من ذلك، وأن توضح كيف أن سنوات زواجها قد أفسدت تطلُّعاتها إلى السعادة؛ المتمثلة في الجلوس، حتى أصبح احتضان فنجان الشاي دون التفكير في ما ينتظر خلف الكواليس في شارع فوليس؛ ضرباً من المعجزات، ودَّعَت كورا تشارلز وكاثرين باسمةً، ثم خطت مسرعةً عبر الطريق المؤدي إلى ريد ليون؛ متسائلة عما إذا كان وجه فرانسيس هو ما رآته على النافذة، وهل سيُسرُّ لرؤيتها أم لا؟.

تشارلز أمبروز
نادي غاريك
دبليو سي
20 فبراير

عزيزي ويل،

أثق أنك بصحة جيدة، وأتمنى ألا يمر وقتٌ طويلٌ قبل أن أراك ثانية. لقد طلبت مني كاثرين أن أخبر ستيلا أن زهرات الأضاليا الخاصة بها بحالة جيدة، ولكنها قد تحولت إلى اللون الأزرق بدلاً من الأسود، أظن أن هذا قد يكون بسبب التربة.

لقد كتبت لك لكي أعرّفك إلى صديقة رائعة لنا، أظن أنها سوف تستفيد كثيراً من مقابلتكما، وهي أرملة مايكل سيبورن، الذي توفّي في بداية هذا العام (ربما تتذكّر عندما صلَّينا من أجل عودته إلى صحته الجيدة، ولكن على ما يبدو أن الإرادة الإلهية قد أرادت له مكاناً آخر).

لقد عرفنا مدام سيبورن منذ سنوات عديدة، وعليه؛ يمكنني القول بأنها امرأة ليست عادية. أنا أراها امرأة استثنائية، حقّاً هي تتمتَّع بذكاء ذكوري! فهي بارعة، ومهتمَّة إلى حدٍّ ما بعلم الطبيعة، وعلى حسب ما قالته لي كاثرين، فإن التعمُّق في هذا العلم هو أحدث موضة منتشرة بين مجتمع النساء،

وهو أمر ليس بسيّئ، ويبدو أنه يجلب لها السعادة، بعد أن قضت وقتاً طويلاً في حزنٍ شديد.

وقد أتت مدام سيبورن مؤخراً إلى إسكس مع ابنها ورفيقة أخرى؛ من أجل دراسة طبيعة الساحل في تلك المنطقة (شيء ما يتعلَّق ببقايا حفريات الطيور الموجودة في رصيف والتون، على ما أعتقد)، وكانت إقامتها في كولشيستر. لقد أخبرتها بالطبع عن أسطورة أفعى إسكس، وتلك الشائعات المتعلقة بعودتها، كما أخبرتها عن تلك النقوش بكنيسة القديسين، وكانت مفتونة بما سمعته للغاية، وعزمت على زيارة هذه الأماكن.

إذا جاءت إلى ألدوينتر (ومن معرفتي بكورا، فأنا أظن أنها من ستتولى تنظيم رحلتها!)، ربما تود أن تستقبلها أنت وستيلا؟ فقد سمحت لي بأن أفصح عن تفاصيل عنوانها الحالي؛ الذي أرفقه بهذه الرسالة.

مع أطيب التمنيات،

تشارلز هنري أمبروز

3

أعـاد القـس المبجَّـل ويليـام رانسـوم، خـادم أبرشـية ألدوينتـر، وضـع الرسـالة فـي الظـرف، ثـم أسـندها على حافـة النافـذة. إنـه لا يسـتطيع أن يتذكَّـر تشـارلز أمبـروز، دون أن ترتسـم الابتسـامة علـى وجهـه، فقـد كان رجـلاً يعشـق تكويـن الصداقـات، وعـادةً مـا يُظهِـر مـودة حقيقيـة تجـاه الآخريـن، ومـن ثـم لـم يكـن اهتمامـه بأرملـة مفاجئـاً لـه علـى الإطـلاق، وعلـى الرغـم مـن تلـك الابتسـامة التـي ارتسـمت علـى وجهـه، فلـم تكـن الرسـالة مستسـاغة بالنسـبة إليـه، ولـم يكـن انزعاجـه نابعـاً مـن عـدم ترحيبـه بالقادميـن الجـدد تحديـداً، ولكـنَّ جملـة أو جملتيـن كانتـا سـبب ارتيـاب راعـي الكنيسـة، وهمـا (نسـاء المجتمـع)، و(الـذكاء الذكـوري). اسـتطاع القـس ويليـام أن يرسـم ملامـح هـذه المـرأة فـي ذهنـه، كمـا لـو كانـت صورتهـا قـد أُرفِقـت بالرسـالة بالفعـل، فهـي امـرأة فـي المراحـل الأخيـرة مـن عمرهـا، تتزيَّـن بقمـاش التفتـا، ولديهـا حمـاس غيـر ناضـج تجـاه العلـوم الجديـدة. أمـا ابنهـا؛ فهـو بـلا شـك تخـرَّج فـي أكسـفورد أو كامبريـدج، وقـد يجلـب معـه بعـض العـادات المنحلَّـة التـي قـد تضفـي بعـض الإثـارة علـى الحيـاة فـي كولشيسـتر، أو سـتجعله غيـر مناسـب علـى الإطـلاق للاندمـاج فـي مجتمعهـا المتحضّـر، وربمـا عاشـت علـى نظـام غذائـي مـن البطاطـا المسـلوقة والخـل، علـى أمـل أن نظـام بيـرون الغذائـي قـد

يُخلصها من السليوليت الذي تعاني منه، كذلك من المؤكد أن لديها ميولاً أنجلو كاثوليكية، وقد تأسَّف بشدة لعدم وجود صليب مزخرف على مذبح جميع القديسين، وفي غضون خمس دقائق، تخيلها وهي تصطحب كلباً صغيراً هزيلاً.

كان عزاؤه الوحيد، هو أن ألدوينتر ليست بالمكان المدهش الذي يمكن تخيُّل زيارته من سيدة مجتمع، ولا حتى أرملة تعيسة، ففي كل ربيع، تشهد ألدوينتر وصول عدد قليل من علماء الطبيعة؛ لتوثيق زيارة سرب من الطيور البحرية التي تمر بالمستنقعات المالحة، ولكن حتى هذه الطيور تميل إلى أن تكون أكثر أنواع الطيور كآبة، التي يمكن تخيُّلها على الإطلاق، فهي تتميَّز بريشها داكن اللون؛ الذي لا يمكن تمييزه عن المنطقة المحيطة، حيث كانت هذه الطيور تمر في كثير من الأحيان دون أن يلاحظها أحد.

لا يوجد بألدوينتر إلا نُزُل واحد فقد ومتجران، وعلى الرغم من أن مسطحاتها الخضراء القروية تُعد الأطول أحياناً، إن لم تكن الأكبر من حيث المساحة في إسكس، فلا يوجد بها أي مميزات؛ حتى بالنسبة إلى السكان الأصليين، وبغض النظر عن تحف الكنيسة، التي كانت في حقيقة الأمر تمثل شيئاً من الإحراج لكل من شغل منصباً بها، فإن العنصر الوحيد الذي قد يجذب انتباهك في نطاق مسافة خمسة أميال، هو هيكل ليفياثان المائل إلى السواد، ويظهر عندما يرسو مصب نهر بلاك ووتر عند انخفاض المد، حيث يزين أطفال القرية كل حصاد؛ كنوع من الطقوس الوثنية المرفوضة. ينتهي خط القطار بعد سبعة أميال في اتجاه الغرب، حتى إن المزارعين لا يزالون يعتمدون على المراكب في نقل الشوفان

والشعير إلى المطاحن بسانت أوسيث، في الطريق إلى لندن لبيعها. ربما كان أفضل ما يقال عن ألدوينتر، هو أنها لم تكن منطقة ثرية أو جميلة، كما أنها ليست فقيرة جدّاً، فلم يكن من طبائع إسكس أن تخضع لأي تغيير بائس أو أي انهيار، وعندما تعرض جون بارليكورن لتهديد الواردات الرخيصة، حاول واحد أو اثنان من المزارعين المستأجرين أن يجربا شيئاً جديداً؛ حيث زرعوا كراوية وكزبرة، وقد تقاسموا تكلفة استئجار ماكينة دراس، لم تساعد على زيادة إنتاجهم بدرجة مذهلة، ولكنها أيضاً ساعدت في بث أجواء احتفالية رائعة في القرية، حيث يتجمَّع الأطفال حوله لتأمُّل حجمها وصوتها المدوّي والدوامات البخارية الناتجة عن استخدامها.

شعر ويل بمزاج سيئ يخيّم عليه، وهو يقاوم الرغبة في إلقاء الظرف في الموقد، وأخفاها خلف ورقة قدمها إليه ذلك الصباح جون، أصغر أبنائه، وكانت عبارة عن رسم لتمساح له مجموعة من الأجنحة، وقد تكون رسمة لفراشة كبيرة تأكل عثة. كانت والدته مقتنعة تماماً أنه يتمتع بموهبة فريدة، ولكن ويليام لم يكن مقتنعاً بذلك، فقد تذكر طفولته التي قضاها في ملء كتبه برسومات المحركات والأجهزة شديدة التعقيد، حتى إنه كان ينسى الغرض منها من صفحة إلى أخرى، ولكن ما الذي جناه من ذلك؟

لم يكن التهديد الذي تشكله أرملة لا يبدو أنها تسبب المتاعب على الإطلاق، هو الأمر الذي عكر مزاجه، ولكنها الأزمة التي أحاطت بالأبرشية، وهدأت مؤخراً. لقد شاهد رسومات جون، وبدت له أنها تصور تنين بحر مجنحاً يقترب من القرية، فمنذ أن اكتشفت حالة غرق في مستنقعات بلاك

ووتر في بداية السنة الجديدة لرجلٍ عارٍ، التوى رأسه تماماً، وبدت نظرة الرهبة في عينيه المفتوحتين، لم تعد أسطورة أفعى إسكس مجرد وسيلة لتخويف الأطفال وتهذيبهم، بل إن هناك اعتقاداً بأنها تتجوَّل في شوارع المدينة، ففي ليالي الجمعة في وايت هاير، كان السكارى يدَّعون أنهم رأوا هذه الأفعى، بينما لم يعد الأطفال الذين يلعبون عند منطقة الملاحات، في حاجة إلى إقناع لِحثّهم على العودة إلى ديارهم قبل حلول الظلام، وكذلك لم يتبقَّ لدى ويل أي ذرة من المنطق تساعده على تبرير أن هذا الرجل الغريق لم يكن ضحية شيء سوى الشراب والمد والجذر.

قرر أن يحاول تغيير مزاجه عن طريق التجول في محيط الأبرشية، وأن يجول بنظره بين المارة قليلي العدد أثناء سيره، محاولاً قدر استطاعته، تفنيد الشائعات المنتشرة حول تنين البحر المجنح أينما أثيرت، فأخذ قبعته ومعطفه، وسمع همساً عند باب حجرة الدراسة «لا يسمح للأطفال بالدخول، ومع ذلك لم يتوقَّفوا عن محاولة تحريك مقبض الباب للدخول»، وقد خارت قواه بسبب عيشه على الخبز والمياه لليلة الرابعة عشرة، ثم هرب عبر النافذة كعادته.

بدت ألدوينتر في ذلك اليوم اسماً على مسمًّى؛ حيث يستقر الصقيع على الأرض الصلبة، بينما يصل شجر البلوط الأسود إلى السماء. أدخل ويل يديه في جيوبه وانطلق. كان المنزل المبني من الطوب الأحمر خلفه، جديداً، في اليوم الذي خطا فيه عتبته لأول مرة، وظهرت ستيلا وهي تمشي ببطء فوق الممشى المغطى بالبلاط ببطنها المنتفخة، بينما ظهرت جوانا وهي تمسك حيواناً أليفاً لا يكاد يرى (أنواعاً

جديدة لم نسمع عنها قط) بسلسلة طويلة، أما النوافذ الكبيرة التي كانت تغطي كلا الطابقين، فقد كانت تعطي نفس تأثير الأبراج البارزة المصفوفة على جانبي الباب الأمامي، والتي كان يعلوها مصباح حديديّ مغطى بالزجاج الملوَّن، الذي يضيء كل يوم بعد الظهيرة لمدة ساعة واحدة. كان هذا المنزل هو أكبر منزل في الشارع الذي يمر عبر القرية، ويؤدي إلى جنوبي كولشيستر، وينتهي عند الرصيف الصغير؛ حيث ترسو بارجة واحدة، وكانت إطلالة هذا المنزل تجمع بين الجمود والبريق، حاله كحال جميع مناطق القرية. لم يتوقع ويل أن يوجد أحد يَفتنه هذا البيت الذي كان يتمتَّع بخصوصية جيدة وحديقة كبيرة؛ بما يكفي لترك الأطفال يمرحون بها لساعات، ولكنه ذكَّر نفسه بما أنعم الرب عليه، فعلى الأقل، امتلك أحد أقرانه منزلاً، بدا وكأنه منغرس في الأرض، حيث كانت تنبت به فطريات تنمو بحجم الإنسان؛ لتصل حتى الزوايا العليا لغرفة الطعام.

وبعد أن وصل إلى شارع يسمى هاي لاين، يرتفع قليلاً فوق مستوى سطح البحر، اتجه ويل يساراً؛ ليمر عبر أرض مشتركة، حيث يرعى عدداً قليلاً من الغنم تحت أشجار البلوط في ألدوينتر، قيل عنها ذات مرة إنها تابعة لمحمية القوات الموالية للخائن تشارلز، وقد بدت سوداء للغاية، كما لو كانت قد حُرِقت حتى تفحَّمت، وقد طويت فروع الشجر بسبب تأثير ثقلها، وزاد التواؤها كلما اقتربت من الأرض، ثم ارتفعت مرة أخرى، بحيث تظهر الشجرة في الربيع، كما لو كانت محاطة بالشتلات، وقد شكَّلت الفروع المنحنية إلى أسفل، مقاعد يجلس عليها من يحبون الاستمتاع بأشعة

الشمس في الصيف، وبينما يمشي ويل، مدت امرأة تنورتها الحمراء أمامها، وأخذت ترمي بعض الفتات للطيور، أما خلف شجر البلوط، في الطريق الممتد وراء جدار مخروطي الشكل، كان هناك برج جميع القديسين متوسط الارتفاع، الذي اعتاد زيارته دائماً، وفي الواقع، يجب عليه أن يجلس هناك لبرهة من الوقت حتى تهدأ أعصابه، ولكن قد يكون هناك شخص ما يجلس في الظل، منتظراً المباركة أو التقريع.

في العام الماضي، ومع ظهور أسطورة أفعى إسكس (التي أطلق عليها اسم «الأزمة»، نظراً إلى ما تردَّد عنها من شائعات)، ازدادت الادّعاءات بشكل كبير. كان هنالك شعور صامت، على الأقل في حضوره، أنهم جميعاً خاضعون لعقاب مستحَق بلا شك، لا يمكنهم معرفة سببه إلا بمساعدته، ولكن كيف يمكنه تهدئة روعهم، دون أن يقر بمنطقية خوفهم المفاجئ؟ لم يستطع القيام بذلك، لم يسعه إلا أن يخبر جون؛ الذي عادة ما يستيقظ في الليل قائلاً: «سنذهب أنا وأنت معاً للقضاء على هذا المخلوق الذي يعيش أسفل سريرك». ما بني على خداع، مهما كان لطيفاً، لن يصمد أمام الضربة الأولى. كان هناك وقت كافٍ في اليوم التالي للحِكم والمواعظ، وعندما أشرقت شمس يوم الرب، شعر حينها برغبة ملحَّة في أن يذهب إلى منطقة الملاحات، ويملأ صدره بهذا الهواء الذي كاد يفتقده.

ومروراً بوايت هاير «عزيزي مانسفيلد، هذا مستحيل بالنسبة إلى أي رجل، أظن أنك تعرف ذلك!»، والبيت الصغير الأنيق الذي ينبعث منه بخور مريم عبر النافذة «إنها بخير.. شكراً لك، لقد ذهبت عنها الإنفلونزا، نشكر الرب»،

إلى المكان الذي ينحدر فيه طريق هاي لاين إلى الرصيف، وصولاً إلى مدخل بلاك ووتر المحاط بالحجارة؛ التي يبدو أنها تظل طوال الموسم، حتى يأتي الربيع. جلس هنري بانكس، الذي كان يتحرك ببارجته في مهارة هبوطاً وصعوداً، ناقلاً الحمولة التي يحملها من الذرة والشعير إلى الوجهة التي يقصدها، وبينما كان واقفاً على سطح البارجة يحاول ضبط الأشرعة، وقد شحب لون يديه الباردتين، وعندما رأى ويل، صاح به قائلاً: «ما زال لا يوجد أي أثر لها، أيها القس، لا أثر لها»، بينما يسحب قارورة في أسف. مرت بضعة أشهر منذ أن فقد بانكس قارب التجديف الخاص به، ولم يحصل على تأمين القارب؛ على أساس أنه فشل في تحريكه بسرعة في اتجاه الرصيف، ربما لأنه كان في حالة سُكر وقتها، وقد شعر بانكس أيامها بظلم عميق، وكان يخبر كل من يرغب في الاستماع له، أنه قد تم سرقة القارب من قبل صائدي المحار القادمين من طريق ميرسي، وأنه عاش حياته رجلاً صادقاً دائماً، كما عهدته جريسي، ترى، هل ما زالت على قيد الحياة؟ رحمها الرب، كلا؟ قال ويل: «آسف على ذلك، بانكس»، ثم أردف قائلاً: «لا شيء يصعب تحمُّله أكثر من الظلم. لا تقلق، سأكون حذراً، أستأذنك»، ورفض أن يحتسي مشروباً، مشيراً بأناقة إلى طوق العنق، ثم انطلق سائراً عبر الرصيف، وكانت المياه المنخفضة دائماً على يمينه، وكان أمامه على منحدر خفيف، صف من شجر الرماد المكشوف، حيث يبدو كما لو كان كثير من الريش رمادي اللون عالقاً على الأرض، وظهر وراء هذا الرماد آخر منزل في ألدوينتر؛ الذي لطالما كانوا يطلقون عليه نهاية العالم، حسبما يتذكر. كانت جدرانه منحنية ومرتبطة معاً بالطحالب والفطريات،

وعلى مر السنين، كان يتم إضافة هذه الطحالب حسب درجة ميل الجدران، وضمها معاً حتى تضاعف حجم تلك الجدران، وبدت وكأنها مخلوق حي يتغذَّى على الأرض الصلبة، وقد تم تسييج قطعة الأرض المحيطة من ثلاث جهات: بينما كانت الجهة الرابعة في مواجهة أعشاب المستنقعات الملحية مباشرةً، وبدايةً من هناك وحتى الجزء الباهت من الأرض، يتراكم الطين بجداول المياه التي تلمع تحت ضوء الشمس.

كلما اقترب ويل من المنزل الذي يُطلق عليه «نهاية العالم»، بدأ يظهر ساكنه الوحيد تقريباً، وكأنه طيف في مواجهة جدران المنزل؛ الذي يبدو كما لو كان قد أنشئ بفعل تعويذة سحرية. كان طراز المنزل منعكساً على مظهر السيد كراكنيل، فكان معطفه الأخضر شبيهاً بأعشاب الطحالب الرطبة تماماً، ولحيته المائلة إلى اللون الأحمر بدت كالبلاط الطيني المنحدر من السقف، وكان يحمل حيوان الخلد رمادي اللون بيده اليمنى، كما كان يحمل مطواة في يده اليسرى وهو يصيح: «تحرك خطوة إلى الوراء قليلاً أيها القس، حتى يظل معطفك بحالته الجيدة»، أطاعه ويل، وهو يتأمل العشرات من حيوانات الخلد المعلَّقة بطول السور، ولكنها كانت مسلوخة جميعها، وجلودها كانت معلقة من الخلف كالظلال، وكفوفها الباهتة كانت مثل أيدي الأطفال. تفحَّص ويل أقرب جسم إليه «يا لها من كميات كبيرة، القطعة مقابل بنس واحد؟»، وعلى الرغم من هيمنة الرجل وسيطرته التامة على الحيوانات، فقد كان قادراً على إبداء إعجابه بالسادة الذين يرتدون سترات مخملية، كذلك كان يتمنَّى أن تنتهي حرب إنهاك المزارعين بألطف الوسائل.

«بنس واحد لكل قطعة، هذا صحيح، والكثير من العمل النشط أيضاً»، يقول كراكنيل وهو يزيح جسد هذا المخلوق جانباً، ثم قطع ببراعة جزءاً من المعصم والكاحل.

«قضيت عشرين سنة في ألدوينتر، وما زالت بعض عاداتكم تصيبني بالدهشة، ألا توجد طريقة أفضل لإبعاد حيوانات الخلد عن المحاصيل، بدلاً من إخافتها وسلخها؟».

صاح كراكنيل في عبوس: «لديَّ غرض ما في نفسي، وأنت تعرف ذلك أيها القس؛ ثمة غرض في نفسي!»، وبينما علت وجهه ابتسامة، بدأ يمرّر سبابته بين اللحم والجلد؛ ليختبر مدى سهولة تقسيمها، ثم قال: «أنا لا أنتظر الحصول على شلن كامل، فلم أرَ أي شلن في الآونة الأخيرة، لذلك أنا سعيد بهذا البنس كثيراً، وسأسعد به كلما وقع في طريقي»، ثم توقف قليلاً، وألقى نظرة مباشرةً في جيوب ويل، ثم واصل مهمته التي كان يقوم بها قائلاً: «وها أنت تقف هناك، أيها الرجل الرباني، وتسألني ما إذا كان لديَّ غرض!».

فرد ويل: «لقد شعرت بذلك، كما لو كان فطرياً». كان صوت تمزيق لحم هذه المخلوقات أشبه بصوت تقطيع الورق. رفع كراكنيل يديه ليتفقَّد ما قام به، وبدا فخوراً بمهارته، وقد انبعث البخار من الجسم العاري الساخن، وتصاعد في الهواء البارد.

«إخافتهم، نعم نعم»، قالها، بينما بدأ مزاجه يتعكَّر، وحاول أن يشغل نفسه بضبط السلك الطويل الذي يمرّره في أنف الحيوان الوردي، من ثقب إلى آخر، ثم ربطه ثلاث مرات حول السور، ثم قال: «يقول إخافتها، إن ما يجري هناك،

لـم ولـن يعـرف حتـى فـي وقـت لاحـق، وعلـى كلٍّ، فلـن ننعـم بالراحـة أبـداً، عندمـا نسـمع صـوت بـكاء الأطفـال ومعاتبتنـا». ارتعشـت يـداه الممسـكتان بالسـلك قليـلاً، ولاحـظ ويـل الأمـر ذاتـه بالنسـبة إلـى شـفته السـفلى. كان دافعـه الأول الـذي نبـع مـن التدريـب بدرجـة أكبـر مـن الغريـزة، هـو أن يقـول بعـض كلمـات الراحـة والتخفيـف، ولكـن مـا حـدث أن هـذه الكلمـات زادت مـن حالـة التهيُّـج والتوتُّـر السـائد، لذلـك، استسـلم الرجـل الكبيـر فـي السـن هـو أيضـاً للخـدع التـي انتشـرت بيـن القريـة بكاملهـا! فقـد فكَّـر فـي ابنتـه، وتخيلهـا وهـي تركـض إلـى المنـزل وتبكـي فـي رعـب، ممـا قـد يتسـلَّل إليهـم مـن أعلـى النهـر، والملاحظـات التـي تـم تجميعهـا فـي الصنـدوق، وتطلـب مـن القـس أن يعـظ النـاس بالتوبـة مـن الذنـوب؛ التـي تسـبَّبت فـي ظهـور هـذا العقـاب.

قـال ويـل بنبـرة يغلّفهـا حـس الفكاهـة «سـيد كراكنيـل»، دعـه يـرَ أنـه ليـس هنـاك مـا نخشـاه سـوى الشـتاء الطويـل، وتأخُّـر موسـم الربيـع، ثـم أردف «سـيد كراكنيـل، قـد لا أكـون شـخصاً يليـق بالكنيسـة الأسـقفية فـي نظـرك، ولكننـي أسـتطيع تحديـد مـا إذا كان مـا أسـمعه معلومـات خاطئـة أم لا، ولا أظـن أن أطفالنـا فـي خطـر أكبـر مـن أي وقـت مضـى! أيـن دهـاؤك؟ مـاذا فعلـت بـه؟»، ثـم بـدأ يربّـت علـى جيـوب الرجـل الآخـر قائـلاً: «أنـت أكيـد لا تقصـد أن تقـول إنـك قـد قمـت بتعليـق هـذه المخلوقـات المسـكينة، فقـط لتصـد أفعـى البحـر فـي بـلاك ووتـر؛ التـي تكثـر الشـائعات عنهـا!».

ارتسـمت ابتسـامة خفيفـة علـى وجـه كراكنيـل وهـو يقـول: «إنـه مـن اللطيـف أن تلاحـظ دهائـي أيهـا القـس، لأننـي لـم أكـن أعتـرف قـط بأننـي أتمتَّـع بـأي قـدر مـن هـذا الدهـاء فـي أي وقـت

من الأوقات»، ثم ربت كراكنيل على ظهر الحيوان في وله وقال: «لذلك، أقول دائماً إن توخي الحذر هو أسلم وأفضل حل، وعلى كلٍّ، فأي شخص أو مخلوق قد يفكر بالاقتراب من نهاية العالم هنا، فأنا واثق بأن هذه المخلوقات الصغيرة لن تسمح له بذلك»، وأشار بإبهامه إلى الجزء الخلفي من مسكنه، حيث يعيش زوجان من الماعز المربوط؛ الذي جز دائرة من العشب «لديَّ هنا يأجوج ومأجوج رفيقاي، كما تعلم، ويوفّران أيضاً الأجبان والحليب الذي تفضّله السيدة رانسوم، فلن أخاطر أبداً بخسارتهما، لا! لن أبقى وحدي!». ظهرت الرعشة مرة ثانية، ولكن هذه المرة، شعر ويل أنه على أرض ثابتة، فقد وقف بجانب كراكنيل ثلاث مرات، خلال ثلاث سنوات، أمام ثلاث مقابر: مقبرة زوجته، ثم أخته، ثم ابنه.

ربّت ويل على كتف الرجل العجوز قائلاً: «لا، لن تُترَك وحدك، فأنا لديَّ عائلتي التي أحاول حمايتها، وأنت أيضاً لديك عائلتك التي تحميها، وكل راعٍ مسؤول عما يرعاه».

«ربما، وأشكرك على ذلك، لكنني لن أطرق باب كنيستك غداً للسبب ذاته، لقد عزمت على ذلك أيها القس، تذكَّر كلماتي تلك، فأنا لن أقتنع مهما حدث».

بدا على وجهه تعبير طفولي عنيد، وكان هذا التعبير أفضل بكثير من ظهور بوادر البكاء على وجهه، وهو ما كان يدفع ويل لبذل قصارى جهده لكيلا يضحك، وبدلاً من قول إنه مدرك لعاقبة ذلك بكل أسف، جاوبه قائلاً: «تقول إنك قد اتخذت قرارك، فلا يحق لي أن أقف بين رجل وكلمة قالها».

همَّ ويـل ليذهـب فـي اتجـاه منزلـه، منطلقـاً بمحـاذاة ميـاه منطقـة الملاحـات؛ بعـد أن هـدأت الشـمس، وفيمـا وراء المسـتنقع الملحي، كانـت ألدوينتـر لا تطل علـى بعـض القرى الأخـرى علـى الضفـة البعيـدة للبـلاك ووتـر، ولكنهـا تطـل علـى أفـق أوسـع، حيـث يلتقـي المصـب ببحـر الشـمال. رأى ويـل أضـواء سـفينة صيـد متجهـة إلـى المنـزل، وجـال فـي خاطـره أنـه ربمـا كانـت تشـعر سـتيلا بالتعـب فـي مثـل هـذا الوقـت، فحتمـاً هـي مشـغولة بالأطفـال، وكيـف أنهـا ترفـع السـتار، وتنظـر فـي اتجـاه شـجر البلـوط، تتأمـل قدومهـا إليهـا، وتذكَّـر أيضـاً صـوت الأطفـال علـى بـاب حجـرة دراسـته، مـا جعلـه يشـعر بالنفـور المفاجـئ مـن المنـزل؛ الـذي يبـدو منغمسـاً فـي قطعـة الأرض، ثـم تذكَّـر كراكنيـل فـي سـاحة القبـور، وهـو يلقـي بكتـل التـراب علـى تابـوت صغيـر مصنَّـع مـن شـجر الصنوبـر، فتوقـف لبرهـة عنـد البوابـة. قـال كراكنيـل: «لحظـة أيهـا القـس، فلـديَّ شـيء مـن أجلـك»، واختفـى كراكنيـل فـي أحـد جوانـب المنـزل، ثـم ظهـر بعـد لحظـة، ممسـكاً بـزوج لطيـف مـن الأرانـب مضيئـة العينيـن التـي اصطادهـا حديثـاً، ثـم قدَّمهـا إلـى ويـل قائـلاً: «تحياتـي للسـيدة رانسـوم؛ التـي تحتـاج إلـى أن تتغـذَّى جيـداً، لتقـدر علـى سـنوات الحمـل وتربيـة الأطفـال، التـي أخبرتنـي السـيدة كراكنيـل يومـاً أنهـا تصيـب المـرأة بالوهـن».

وقـد بـدت عليـه السـعادة وهـو يعطيـه الهديـة، وأخذهـا ويـل بامتنـان، وهـو عاجـز عـن الشـكر، وأخبـر كراكنيـل أنهـم سيعدُّون الفطيـرة المفضلـة لجـون، وبـدا ويـل وكأنـه أراد أن يعطـي كراكنيـل شـيئاً فـي المقابـل، فقـام بتعليـق الأرانـب فـي حزامـه، علـى عـادة المـزارع الأنيـق، وقـال: «سـيد كراكنيـل، فلتخبرنـي بمـا

رأيتـه، لأننـي لا أعـرف مـن أصـدّق، أو متـى، فقـد غـرق رجـل مسـكين، ولكـن أيضـاً لا ننكـر أن الغـرق ليـس بأمـر عجيـب، أو نـادر الحـدوث فـي الشـتاء. أخبرونـي عـن الماعـز التـي قُطِّعـت أحشـاؤها، لكننـي أعلـم أنـه علـى الثعالـب أن تسـعى للحصـول علـى قوْتهـا هـي أيضـاً، وأمـا بالنسـبة إلـى الطفـل الـذي قالـوا عنـه إنـه اختفـى بيـن عشـية وضحاهـا، فقـد وجـدوه فـي الصبـاح فـي الخزانـة يـأكل مـن حلـوى والدتـه، وبانكـس الـذي يجلـب الأنبـاء الغريبـة؛ التـي تتعلَّـق ببارجتـه مـن سـانت أوسـيث ومادلـون، أنـت وأنـا نعلـم جيـداً أنـه كـاذب، أليـس كذلـك؟ وهنـاك الهمسـات التـي نسـمعها فـي مداخـل ومخـارج المنـزل، وأنـا أتذكَّـر مـا قيـل عـن الطفـل الـذي وقـع مـن القـارب فـي بوينـت كلير، ولكـن مـن يأخـذ طفـلاً رضيعـاً إلـى البحـر فـي تلـك الأيـام القصيـرة البـاردة؟ أخبرنـي أنـت إذا كنـت قـد شـاهدت بنفسـك مـا يدعـو للخـوف، ربمـا أصـدق حينهـا». ثبـت ويـل نظـره فـي عينـي الرجـل العجـوز، اللتيـن بدتـا تتحاشـيان النظـر فـي عينيـه هـو الآخـر، حيـث نظـر إلـى الأفـق الواسـع خلـف كتفيـه.

ولأنـه يعلـم قيمـة الصمـت، توقـف ويـل عـن الحديـث، وفـي هـذه اللحظـة، تنهَّـد كراكنيـل، وحـاول أن ينشـغل بالسـكين وهـو يقـول: «الأمـر لا يتعلـق بمـا رأيـت، ولكنـه يتعلـق بمـا أشـعر بـه، فمثـلاً أنـا لا يمكننـي رؤيـة الأثيـر، ولكـن يمكننـي أن أشـعر بـه عندمـا يدخـل ويخـرج مـن جسـمي، وأعتمـد عليـه. أنـا أشـعر أن هنالـك شـيئاً مـا فـي طريقـه إلينـا، وسـيأتي عاجـلاً أم آجـلاً، ولتتذكَّـر كلماتـي هـذه، فقـد حـدث ذلـك مـرة كمـا تعلـم، وسـيحدث مـرة ثانيـة. إن لـم يكـن فـي حياتـي أنـا، فسـوف يكـون فـي حياتـك أنـت، أو فـي حيـاة أولادك، أو أحفـادك، ولذلـك، أنـا

أهيئ نفسي للأسوأ أيها القس، وإن جاز لي أن أتجرَّأ للحظة، فإنني أنصحك أن تقوم بذلك أنت أيضاً». تذكَّر ويل الكنيسة ونقوش الأساطير القديمة المنحوتة بها، وتمنى (ولم تكن المرة الأولى التي يتمنى فيها ذلك)، لو كان باستطاعته أن يلتقط المطرقة، ويدمّر كل هذه النقوش في صباح وصوله.

رد ويل قائلاً: «أحترمك كثيراً بقدر كبير يا سيد كراكنيل، وسأظل أكنُّ لك هذا الاحترام، ربما يمكنك أن تعتبر نفسك حارس ألدوينتر، هنا في»نهاية العالم»كما يطلق عليه، كما يمكنك أن تضع منارة في حديقتك الخاصة للتحذير، ولكن تذكَّر دائماً أن الله يرعاك ويراك ويضيء وجهك، سواء كنت تريد ذلك أم لا!»، ثم استدار ويل يساراً، بعد أن ألقى كلماته المباركة، متجهاً إلى منزله.

بدا له أنه يخطو خطوات سريعة، كما لو كان يسابق الليل، على أمل أن يصل إلى باب بيته قبل حلول الظلام. أما بخصوص الكائنات المخيفة التي ينتظرها كراكنيل، وما بدا عليه من خوف، فقد جعلوه يتوقَّف قليلاً، ليس لاعتقاده أن هنالك كائناً ما في بلاك ووتر ينتظره، ولكن ويل شعر بأنه قد فشل، وأنه مسؤول عن استسلام الأبرشية لمثل هذه الخرافات الأسطورية. لا أحد يستطيع أن يحدد حجم هذه الخرافات، أو شكلها، أو حتى أصولها، ولكن يبدو أن هناك إجماعاً على أنها تفضّل النهر والفجر. لم يكن هنالك أي شاهد على أي هجوم من أي نوع، ولكن في الأسابيع التالية منذ نهاية الصيف، لا يُلقى اللوم إلا على هذا الكائن المجهول وغير المرئي؛ على كل طفل مفقود أو كل قطعة تُرى من أحشاء الحيوانات، حتى إنه سمع أن بول؛ هذا الكائن المسمَّم

في مياه فيتل ويل، هو ما تسبّب في انتشار المرض، وفي وقوع ثلاث حالات وفاة في ليلة رأس السنة، وبعد مقاومته لاقتراح ستيلا، في ما يتعلَّق بأن يتحدَّث مباشرة من منبر الوعظ بخصوص هذا الأمر، اختار بدلاً من ذلك أن يرفض الاعتراف بهذه المشكلة، حتى بعد أن اكتشف أن كل صباح من يوم الأحد، يجتمع الناس على أحد المقاعد الخشبية بالكنيسة أمام نقوش ونحوت هذه الأفعى، لكي يضعوا أمامه اللحم والعظام في رعب، ودون النطق بكلمة واحدة.

وفي جنح الليل، واصل ويل سيره، واستدار مرة لكي يرى القمر الأبيض منيراً بوجهه غير الصافي، وقد ازدادت سرعة الرياح؛ حتى تحرَّكت سيقان الخيزران التي كانت تترك شعوراً حزيناً، وشعر ويل بحركة ما سريعة خلف أضلاعه مباشرة تركض مثل الخوف، فضحك قائلاً: «كم كان من السهل أن تدير وجهك عن كل شيء سوى الظل، وربما يكون من الحكمة، الاستفادة من ذلك في التعامل مع الأزمة، إذا ثبت أنه من المستحيل تجاهلها، فهنالك بعض الأشياء التي تجعل القلب يدق إلى الأبد أكثر من الخوف». ظهرت أضواء ألدوينتر في الأفق، وفي مكان ما في هذا الأفق، تنتظره عائلته، بأجسادهم المتأنقة، والدافئة، والمعطَّرة بالصابون، يتميزون بغمازات لطيفة في الوجنة، كما امتاز بذلك هو الآخر عندما كان صبياً؛ الأمر حقيقي تماماً، ولا يمكن إنكاره، ولا للحظة واحدة، فلا يمكن أن يخيّم عليهم هذا الظل، وشعر بسعادة عارمة ثم صاح (ملاحقة الظل لي بمثابة تحذير أو تحدٍّ، إذا كان هنالك كلب بري طليق؟)، وركض نصف ميل حتى وصل إلى منزله. كان جون في

انتظـاره، يقـف علـى قـدم واحـدة عنـد البوابـة فـي ملابسـه البيضـاء، وعندمـا رأى ويـل صـاح: «كنـت أعـرف ذلـك!»، ثـم انكـب بوجهـه على معطف أبيـه، متحسسـاً ملمس فـراء الأرنـب علـى عنقـه: «لقـد فعلتهـا! لقـد أحضـرت لـي حيوانـاً أليفـاً!».

كورا سيبورن
فُندق ريد ليون
كولشيستر
14 فبراير

صديقي القصير!

كيف حالك يا عزيزي؟ هل تشعر بالدفء؟ وهل تأكل جيداً؟ ماذا عن جرحك، هل التأم، هل شفيت؟ كم كنت أود الاعتناء بذلك الجرح وتطبيبه، أكان جرحاً غائراً عميقاً؟ عليك أن تأخذ حذرك جيداً، وتكون أكثر يقظة وانتباهاً يا عزيزي. كم أشتاق إليك كثيراً وأتوق إلى رؤيتك!

نحن جميعاً في أحسن حال وبخير، ومارثا تبعث لك السلام، لن تصدّق هذا، أليس كذلك؟ فرانسيس لا يرسل تحياته إلى أحد على الإطلاق، ولكنني لا أعتقد أنه لا يمانع في رؤيتك مرة ثانية، إذا كنت تنوي المجيء، وهذا ما نتطلّع إليه جميعاً ونتمناه. هل ستأتي؟ أعلم أن الجوَّ به لسعة برودة، لكن هواء البحر جميل، يبعث النشاط في العروق، وإسكس ليست بذلك القدر من السوء، كما يصفونها.

لقد انتقلت إلى مقاطعة والتون أون ذا نيز، وخرجت إلى شاطئ سانت أوسيث، ولم أستطع العثور على تنين البحر

الـذي أحلـم بـه إلـى الآن، ولا حتـى السوسـن أو زنبـق البحـر! ولكنـك تعرفنـي جيـداً، أننـي لا أخضـع ولا أستسـلم بتلـك السـهولة، عـلاوة علـى أن ذلـك الرجـل الـذي يمتلـك متجـر الأجـزاء الصلبـة هنـا، يظـن أننـي مخبولـة وحمقـاء جـدّاً، فلقـد باعنـي اثنتيـن مـن المطـارق الجديـدة، ونوعـاً مـن الأحزمـة مـن جلـد الغـزال لتعليقهمـا. تقـول مارثـا: إننـي لـم أكـن أبـداً بتلـك الغرابـة وذلـك القبـح؛ لكنـك تعلـم علـم اليقيـن، أننـي لطالمـا كنـت أرى الجمـال لعنـةً، وأنـا سـعيدة جـدّاً بالكـف والتخلـي عـن هـذا المبـدأ تمامـاً. أنسـى أحيانـاً أننـي امـرأة، علـى الأقـل نسـيت أن أنظـر إلـى نفسـي وأفكـر فيهـا كامـرأة، بـل يبـدو أن كل صفـات الأنوثـة لا تمـتُّ إلـيَّ بصلـة الآن. لسـت متأكـدة مـاذا علـيَّ أن أفعـل أو أتصـرَّف، لسـت أدري، ولا أظـن أننـي سـأعرف ذلـك.

وبينمـا نتحـدث عـن الأشـخاص البارزيـن، لـن تصـدق أبـداً مـن باغتنـا ودنـا منـا فـي هـاي سـتريت، عندمـا كنـا نبحـث عـن مـكان مناسـب لننتظـر بعيـداً عـن الأمطـار؟

تشـارلز أمبـروز، وكان يبـدو تمامـاً كالببغـاء بيـن سـرب مـن الحمـام، يتمايـل فـي معطفـه القطيفـة المخملـي! إنـه مصمّـم علـى أننـي بحاجـة إلـى صديـق فـي إسـكس، ليقينـي مـن حـدوث أي كسـر لأطرافـي علـى السـهول الطينيـة هنـاك، أو مـا هـو أسـوأ مـن ذلـك (فهـو يقـول: إن الوحـوش تهـدّد نهـر بـلاك ووتـر، ولكننـي سـأخبركِ بذلـك عندمـا أراك لاحقـاً فـي مـا بعـد)، فلقـد هدَّدنـي بـأن يضعنـي تحـت نظـر ومراقبـة بعـض القساوسـة الريفييـن، وعلـى الرغـم مـن أنـه أغرانـي لمجاراتـه؛ لمجـرد الاسـتمتاع بالصدمـة التـي سـتنتاب ذلـك العجـوز المسـكين، جـراء مـا

يدور في ذهنه من أفكار، فإنني في الحقيقة أفضل أن يتركني وشأني. ألن تأتي يا عزيزي؟ أشتاق إليك وأفتقدك كثيراً، لا أحب أن أمكث هنا من دونك، ولست أدري لماذا.

تحياتي،

كورا

لوك غاريت
طريق بنتونفيل
إن 1

كورا

تحسَّـنت يـدي كثيـراً، أشـكرك. لقـد كانـت الإصابـة مفيـدة، فلقـد فحصـت أطبـاق بتـري جديـدة، واسـتفدت بتكويـن بعـض المسـتنبتات البكتيريـة الجديـدة، أعتقـد أنـك كنـت سـتحبينها، فقـد كانـت ألوانهـا زرقـاء وخضـراء.

ربمـا أسـتطيع المجـيء مـع سبنسـر الأسـبوع القـادم. أراك بخيـر لاحقـاً. أوقفـي المطـر إن اسـتطعتِ.

لوك

ملاحظة: تقنيّاً، كان هذا عيد الحب. لا تنكري ذلك.

4

علـى بعـد خمسـة أميـال شـرقي كولشيسـتر، سـارت كـورا تحـت المطـر، وقـد انطلقـت دون أن تقصـد وجهـة معينـة، ودون أن تفكـر فـي كيفيـة عودتهـا إلـى منزلهـا، لقـد أرادت فقـط أن تخـرج مـن الغرفـة البـاردة فـي ريـد ليـون، حيـث قـام فرانسـيس بقـص وسـادته وعـد ريشـها. لـم تسـتطع، لا هـي ولا مارثـا، أن تشـرحا لمـاذا لـم يكـن عليـه أن يفعـل مـا فعـل (نعـم فيمكنـك الدفـع مقابـل الحصـول عليهـا، وبعدهـا تصبـح لـي)، وبـدلاً مـن أن تسـتمع بعـدّ ابنهـا فـي صبـر إلـى مئـة وثلاثـة وسـبعين، بينمـا انغلـق البـاب بالفعـل، أخـذت كـورا معطفهـا وركضـت إلـى الطابـق السـفلي، وقـد سـمعت مارثـا حديثهـا وهـي تقـول: «سـوف أكـون بالبيـت قبـل حلـول الظـلام.. لـديَّ مـا يكفينـي مـن النقـود، وسـوف أجـد مـن يوصلنـي إلـى المنـزل»، فعـاد الولـد إلـى التـأوُّه مـرة أخـرى.

وفـي غضـون نصـف سـاعة، اختفـت معالـم كولشيسـتر وراءهـا، وقـد سـارت شـرقاً، تحـاول أن تقنـع نفسـها أن بإمكانهـا أن تصـل إلـى نهـر بـلاك ووتـر قبـل أن يصيبهـا التعـب، وقـد تجوَّلـت حـول أطـراف القريـة، لـم تـرد أن يراهـا أو يتحـدث إليهـا أحـد، ولذلـك فضَّلـت أن تسـلك المسـارات الجانبيـة علـى طـول حافـة خشـب

البلوط. كانت حركة المارة بطيئة ومشتَّتة، فلم يلاحظها أحد، وعندما هدأت الأمطار، تعمَّقت أكثر بين الأشجار، وهي تحوّل وجهها إلى السماء الخالية التي كانت رمادية اللون، لا يشوبها أي سحب متداخلة أو شقوق زرقاء اللون، وكذلك خلت من أي علامة تدل على أن الشمس سوف تسطع، فكانت كأنها ورقة بيضاء، وكانت فروع الأشجار العارية التي تصل إليها سوداء. كان المنظر كئيباً، ولكن كورا لم تكن ترى إلا كل جميل فقط، فقد مدَّت الأشجار أوراقها مثل أثواب القماش الأبيض، وقد سقطت الأوراق الرطبة تحت أقدامها، في كل مكان، كانت هناك الطحالب المضيئة، وقد التفَّت الأشجار على أقدامها في كومات كثيفة من الوبر الأخضر، وكذلك الفراء الناعم المنتشر على الفروع المكسورة والملقاة عبر الطريق. تعثَّرت كورا مرتين في الكومات التي كانت مكوَّنة من قصاصات من الصوف الأبيض والريش الرمادي المنتشر على الحواف، فتذمَّرت.

كانت مقتنعة بأن كل شيء أسفل تلك السماء البيضاء، قد تمَّ صنعه من المادة ذاتها، ليست كلها حيوانات، كذلك ليست مجرد أرض جرداء، حيث قطعت الفروع من جذورها وتركت مكانها شقوقاً لامعة، ولذلك، فهي لن تتفاجأ إذا رأت قطعاً من شجر البلوط والدردار أثناء سيرها. ضحكت وهي تتخيَّل نفسها جزءاً من هذه الفروع، تستند إلى جذع وهي تستمتع إلى زقزقة طائر يقف على ذراعها، وتساءلت عما إذا كان باستطاعتها رؤية الفطريات الخضراء الزاهية تنتشر بين جلد أصابعها.

هل كان هذا الجمال موجوداً دائماً، هذه الأرض السوداء الرائعة؛ التي غرقت فيها حتى كاحليها، هذه الفطريات المرجانية

الملوَّنة المنتشرة على الفروع المتشابكة عند قدميها؟ هل كانت الطيور تغني دائماً، هل كان المطر خفيفاً هكذا؟ وانتابها شعور كأنها كانت تسكن هذه المنطقة، بالفعل هي تظن ذلك، وأن هذه الأرض لم تكن أبداً بعيدة عن باب منزلها. ظنَّت كورا أنها ربما عاشت أوقاتاً أخرى، ضحكت فيها وحدها بين هذه الأشجار الرطبة، أو صاحت في إحدى المرات بين أشجار السرخس الناعمة، ولكنها لا تتذكَّر أيّاً من ذلك.

فهي لم تكن سعيدة دائماً خلال الأسابيع القليلة الماضية، في بعض الأحيان، تذكَّرت حزنها، ولأوقات طويلة، كان عليها فيها أن تعلّم نفسها مرة أخرى كيف لها أن تتنفَّس، فقد كانت تشعر بهوَّة بداخلها. لقد كان ذلك نوعاً من الإحساس بالاستنزاف، كما لو أنها قد تقاسمت قلبها مع رجلٍ ميت، فراح يتعرَّض للتلف والتضرُّر ببطء؛ جراء سوء الاستخدام، في هذه الدقائق الباردة، لم تتذكَّر سنوات الضيق التي لم تنجح فيها -ولو لمرة واحدة- في فهم مزاجه، أو تتجنَّب ما يثير جراحه، ولكنها تذكرت أشهُرَهم الأولى معاً، والتي كانت آخر أيام شبابها. حقّاً، لقد أحبَّته كما لم يحب أحد محبوبه من قبل، لقد كانت صغيرة للغاية على تحمُّل ذلك، كطفل يثمل من رشفة صغيرة من الشراب. لقد طُبِعت صورته أمام ناظريها، كما لو كانت قد نظرت إلى الشمس، وأغلقت عينيها لتجد بصيصاً من النور يبزغ من الظلام. لقد كان كئيباً، فحين كانت محاولات الهزل والمزاح تُضحِكه، كانت تشعر وكأنها إمبراطورة تقود جيشاً، لقد كان صارماً وانعزاليّاً للغاية؛ لذلك، كانت أول لحظة يعانقها فيها، بمثابة انتصار في معركة. لم تكن تعلم آنذاك، أنها حيل شائعة لمحتال استدرجها بوجهه

الليّن؛ ليدمّرها في ما بعد، وفي السنوات التي تلت ذلك، كان خوفها منه يشبه إلى حد بعيد حبها له، وكان مصحوباً بنفس خفقان القلب، ونفس الليالي الحزينة، ونفس الترقُّب لوقع خطواته في الردهة، فقد كانت تشمل على وقع ذلك أيضاً، فلم يمسّها أي رجل آخر؛ ولذلك، لم يكن بمقدورها أن تقول كيف كان غريباً أن تكون عرضة للألم بمزيج من المتعة والسرور اللذين عاشتهما؟ لم يحبها أي رجل آخر، لذلك، لم تكن قادرة على أن تحكم ما إذا كان تردُّده بين القبول والرفض على نحو مفاجئ أمراً طبيعيّاً، كما يفعل المد والجزر، أم أن هذا مُتوقَّع من شخص عنيد مثله. بمرور الوقت، بدا لها أنه يجب عليها الانفصال عنه، ولكن ذلك تأخَّر كثيراً.

في هذه المرحلة، لم يكن فرانسيس صبوراً على أي شيء، حتى وإن كان الأمر يتعلَّق بساعة تناول الغداء، وأي تغيير قد يعرّض صحته للخطر، علاوة على ذلك، فإن وجوده، حتى مع عاداته المزعجة وغضبه غير المفهوم، قد منح كورا الإحساس الوحيد في الحياة؛ الذي لم تشعر بأي غموض أو ارتباك حياله، فقد كان هو ولدها، وكانت تعرف واجبها حياله، كما أنها أحبَّته، ولكن راودتها الشكوك في بعض الأحيان إزاء مبادلته إياها الحب.

توقَّفت الرياح الخفيفة، وساد السكون غابة البلوط، عادت كورا امرأة في العشرينيات، وعاد طفلها صغيراً يبكي، وقبضتا يديه مضمومتان. كانوا يريدون أن يأخذوه منها، ويلفُّوه في قطعة من القماش الأبيض، إلا أنها صرخت، ولم تسمح لهم بذلك، فقد كان يزحف من بطنها حتى ثديها ـ دون أن يبصر ـ ليرضع بقوة، ما أثار تعجُّب القابلة التي قالت: «يا له

من طفل ماهر وذكي!». ظلت نظرات الأم والرضيع تتلاقى لساعات، وظلت عينا الصغير على أمه باهتمام، «في هذه الليلة، التي اكتست سماؤها باللون الأزرق الداكن الضبابي، أصبح عندي حليف لن يتركني أرحل»، كان ذلك لسان حالها ذاك اليوم. مرَّت الأيام، وشعرت بأنها منقسمة إلى نصفين، فذا جرح لن يشفَى على الإطلاق، ولن تندم هي على ذلك مطلقاً، فبسببه عايش قلبها أحاسيس جديدة، وكثيراً من المشاعر المتناقضة. لقد أحبته حباً جمّاً، وأبدت الكثير من التصرفات البسيطة الدالة على الحب الشديد، والانبهار بقدمه الرائعة، وجلده الذي يشبه غطاء الوسادة الحريري الرقيق، فقد أمضت ساعات في مداعبة قدم الصغير بمقدم إصبعها، لتراه يبسط أصابع قدميه ابتهاجاً، كان يتمتَّع وينعم بأكبر قدر من السعادة كان بمقدورها منحه إياها. كانت يده المعقوفة مثل صدفة تدفئها الشمس، تضعها الأم بين شفتيها، فقد كانت معجبة به للغاية، ومندهشة أن تحتوي هاتان اليدان والقدمان على هذا الجمال، لكن لم يستغرق الأمر سوى بضعة أسابيع، قبل أن يسدل الستار على هذا المشهد، فقد تلبَّد أفق تلك العلاقة بالغيوم، حسب اعتقادها أحياناً، فإذا أرضعته بدا أن ذلك يسبب له الألم، أو على الأقل يغضبه بشكل لا يطيقه، وإذا أمسكته قاوم وقفز؛ حتى جرح جفنها بظفر إبهامه الصغير الحاد. لقد ولَّت أيام الحب، وباتت عودتها درباً من المستحيل، وفي ظل حيرتها إزاء هذا الرفض الثاني لحبها، بدأت في حجب هذا الحب بدافع من الخجل. كان إخفاقها مصدراً لمتعة مايكل، الذي قال بعد ذلك: «إنه لأمرٌ مبتذل، أن يكون المرء موضع اهتمام من طفله»، وأنه كان من الأفضل ترك الطفل للمربيات والمعلمين. مرت

سنوات وعرفت طباعه وأسلوبه، وكذلك فعل هو، فإذا حملت علاقتهما بعض الدفء واللامبالاة؛ كالذي شهدته بين أمهات آخرين وأبنائهم، فإن ذلك يعد مقبولاً بما فيه الكفاية، وهذا ما ينطبق عليهما.

أثناء سيرها، وعلى الرغم من أن الأمطار الباردة والتربة السوداء، كانت لتصيبها بالكآبة والغم، فلم تستحضر أحزانها كأرملة. أحسَّت بحشرجة في حلقها، ما لبثت أن تحوَّلت إلى ضحكة مدوّية يعوِزها الحياء، أفزعت الطيور الصامتة، وأخرجتها عن صمتها. بالطبع شعرت بالخجل من ذلك، ولكنها اعتادت أن تعيش بهذا الشعور، وتأكَّدت حينئذٍ أنها أخفت سعادتها المتنامية عن الجميع، باستثناء مارثا. عندما فكَّرت في صديقتها (الجالسة متجهّمة الوجه في مقهى للهروب من آخر هواجس فرانكي، أو تقضي الوقت في استمالة مالك فندق ريد ليون)، هدأت ضحكتها، ورفعت كورا ذراعيها قليلاً إلى الأعلى، متخيّلة رؤية صديقتها آتية صوبها تحت الأشجار التي تقطر بماء المطر، في المساء تستلقيان ظهراً لظهر تحت لحاف خفيف، مع ثني ركبتيهما محتميتين بذلك من البرد، وأحياناً تتبادلان ما تتذكَّرانه من ثرثرة، ومن القيل والقال، أو تقول إحداهما للأخرى: «طاب مساؤك»، وأحياناً أخرى تبقيان مستيقظتين، وتهدهد إحداهما الأخرى وتطويها بذراعيها. إن بساطة هذا الأمر، هو ما منح كورا القوة عندما كانت تدفعها جميع الأمور الأخرى إلى الرحيل، وإذا كانت مارثا تخشى أنه لم يعد لها حاجة في الوقت الحالي؛ لأن كورا أصبحت تقف على أرض أكثر صلابة، فهي كانت مخطئة في ذلك.

بعد أن أوشكت كورا على قطع الميل الثامن من سيرها وأصابها التعب، وجدت نفسها على مرتفع صغير، حيث بدأت الأشجار تصير أقل كثافة، وقلَّ الرذاذ، وأصبح الهواء أكثر نقاءً، ومن دون أن يمر أي ضوء للشمس من خلال المظلَّة، توهَّج العالم بالألوان، وكانت التباب المائلة إلى الاحمرار؛ التي خلَّفتها السراخس في العام الماضي، تتلألأ في كل مكان، ومن فوقها كانت أشجار الخيزران تتألق ببراعم الزهور الصفراء. كان هناك قطيع هائم من الغنم، لديه بقع من اللون الأرجواني تتناثر على أجسام أفراده، الذين كانوا ينظرون إلى أعلى نظرة خاطفة، ثم حوَّلوا نظرهم بعيداً. كان الطريق الذي وقفت عليه من طين إسكس الذكي، وعلى بعد مسافة قريبة أسفل المنحدر، كانت هناك شجرة ساقطة مغطَّاة بطبقة سميكة من الطحالب زاهية اللون. كان التغيير في المشهد، كأنه تغيير في الارتفاع: لقد حبس أنفاسها، وتوقَّفت للحظة لكي تؤقلم نفسها عليه، وأثناء ذلك الصمت، وصل إلى مسامعها صوتٌ غريب، كان كأنه طفل يبكي، لكنه طفل كبير بما يكفي لأن تعرفه أكثر. لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، فقط همهمة مختنقة تشبه صهيل الخيل، أعقبها صمت استمر لوهلة، ثم بدأ من جديد، ثم صاحبه صوت آخر، كان عبارة عن صوت رجل ـ دندنة متأنية وعميقة ـ ولا يفهم منها أي كلمات، إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالضبط (أنصتت أكثر) الآن... الآن... الآن، وبعد أن توقَّف ذلك الصوت لبرهة، أحسَّت برجفة في قلبها، وإن ادَّعت بعد ذلك أنها لم تكن خائفة قط، انبعث صوت الرجل مرة أخرى، ولكن في هذه المرة، كانت نبرته أعلى وأخشن. لم تستطع تخمين الكلمات، وكان لسان حالها في خضم اندفاعها المضطرب: «أوه، عليك

اللعنة! عليك اللعنة!»، ثم انبعث صوت يشبه اصطدام جسم ثقيل بآخر ليّن، وصوت آخر كأنين مكتوم.

وبدأت في رفع معطفها الذي كان أطول مما ينبغي، من على الأرض، فقد صار رمادي اللون بسبب الطين في طرفه، وسارت خلف الصوت. كان الطريق الطيني يؤدي إلى أعلى المرتفع الصغير، ثم إلى الأسفل مرة أخرى، بين شجيرات خضراء حائلة اللون، تتدلّى منها بذور سوداء تخرفش وهي سائرة، وعلى بعد مسافة قريبة أسفل منها، رأت هكتاراً من تلك السراخس خمرية اللون مفتوحاً أمامها، وبه بعض الغنم تثغو على الأرض، وعلى يسارها كانت هناك بحيرة ضحلة، تطلُّ عليها شجرة بلوط عارية من الأوراق، وكان ماؤها ثخيناً بسبب الطين، وكانت مياه الأمطار تملؤها؛ ولم يكن هناك أي أشجار خيزران تنمو، ولم يكن هناك طيور على التبَّة. لقد كان المكان بلا أي ملامح، في ما عدا أنه على أقرب تبَّة كان هناك رجل منحنٍ يتفحَّص باهتمام كائناً غير واضح، وكانت تصدر منه حركات محمومة، وصاح صيحة ضعيفة أخرى. صدمها صوته وأشعرها بالتقزُّز، وكان هناك شيء مألوف في الحركات البائسة الحثيثة؛ التي كانت تصدر منه، حتى إنها لما استجمعت قواها، وأرادت أن تطلق عبارة أرادتها أن تخرج بلهجة آمرة «توقَّف عن هذا! توقَّف!»، فإذا بها تخرج مجرد زمجرة.

ربما يكون الرجل قد سمعها، وربما لا، فلا هو رفع رأسه، ولا توقَّف عما كان يفعل، وانخفض صوته مرة أخرى وتحوَّل إلى الهمهمة العميقة الغريبة التي سمعتها أول مرة، غير أنه بدا لها الآن مرعباً؛ بسبب أنه كان هادئاً جدّاً وهو يسبّب كل هذا الألم في اعتقادها، وعندما اقتربت أكثر، رأت

أن قدميه مغروستان بقوة في الوحل، ورأته من ظهره يلبس معطفاً داكن اللون، تتناثر عليه بقع الطين، وحتى من تلك المسافة، رأت أنه رثُّ الهيئة وخشن المنظر. لقد كان كل شيء يخصُّه قذراً ويثير الامتعاض، بدءاً من قماش ملابسه السميك المبتل، إلى خُصلات الشعر المجعَّد المبتلَّة، التي تدلت على ياقته، وصاحت قائلة «ما هذا الذي تفعله؟ توقَّف!». عند ذلك التفت إليها بنصف استدارة، ورأت أن طوله لم يكن يزيد على المتوسط بكثير، وأنه ضخم الجسم. كانت بقع الطين على وجهه تشي بالانطباع أن لديه لحية، ومن بين تلك القذارة، رأت عينين تحملقان بها. ربما كان في عمر الستين، وربما كان في العشرين. كان قد شمَّر كمّيه إلى مرفقيه، وكان ساعداه مكتنزين بالعضلات، وكما لو أنه قرر أنها لن تساعده ولن تعوقه، فقد هز كتفيه وعاد إلى ما كان يفعل. لا شيء يغيظ كورا أكثر من أن يتم تجاهلها، فأطلقت صرخة غاضبة، وركضت الياردات القليلة المتبقية، وعندما وصلت إلى حافة المياه، رأت جسماً يحاول التحرُّك تحت يد الرجل، وكان هذا الجسم لشاةٍ تحاول محاولات خرقاء لإنقاذ نفسها من المياه الضحلة، وحينئذٍ شعرت كورا بارتياح غامر، فمهما كان الرعب الذي تخيَّلته، فلم يكن هذا ما انتظرته.

أدارت الشاة عينيها ببلاهة إلى القادم الجديد، ثم أطلقت ثغاء. كان نصفها الخلفي حتى وسطها مسوداً بسبب الطين، وبسبب الحركات المحمومة التي كانت تقوم بها برجليها الخلفيتين، غاصت إلى عمق أكثر قليلاً. كان الرجل قد عقد ذراعه اليمنى تحت قائمتها الأمامية اليسرى وحول ظهرها، وكان يحاول بيده اليسرى أن يمسك بفأسه، وهي أفضل

وسيلة للسيطرة عليها، ولكن قدمه لم تستطع الثبات بسبب زلاقة الأرض. أخافت تلك الحركة الحيوان، فأغمض عينيه للحظة، كما لو كان قد استسلم لنهايته، وأطلق ثغاءً وعاد إلى محاولة التخلُّص، وطوَّح بقائمته الأمامية اليسرى وضرب الرجل على خده، فصرخ، وتفاجأت كورا بالجرح الملطَّخ بالدماء تحت القناع الطيني.

أفاقها الدم من سباتها، فقالت: «دعني أساعدك»، فأطلق زمجرة مكتومة، معلناً موافقته، وقد فكَّرت كورا أن الرجل محدود الذكاء، وتساءلت بينها وبين نفسها، كيف يمكن أن تحكي هذه القصة إلى صديقاتها لتسليتهم. مرة أخرى، أصبح الحيوان خائراً، وأطلق أنيناً طويلاً انبعث في الهواء، وأتاح للرجل أن يطبق على قدميه الأماميتين كلتيهما خلف ظهره، وفي أثناء هذه المسكة، غاصا معاً في الوحل، وقال الرجل وهو ينظر بغيظ من فوق كتفيه: «حسناً، هيا! بحقك، لا تكُن أبله تماماً»، قالها بلكنة إسكس البطيئة وحروفها اللينة. مدَّت كورا يدها إلى حزامها الواسع، المصنوع للرجال، وكانت أصابعها متيبّسة وبطيئة، وتحسَّست الإبزيم، بينما انزلقت الشاة إلى أسفل متأوّهة، ثم شدَّت الحزام لتحرّره، ثم لفَّته على ظهر الحيوان، فوجدته معوجّاً من أسفل قدميه، مكوّناً نوعاً من اللجام. أطلق الرجل قبضته وشدّ الحزام من يدها، وشعر الحيوان بفقدان قبضته، وأصيب بالذعر، وتحرك حركة متشنجة، ألقت كورا في الوحل، ولم يُبدِ الرجل أي قلق، فلم يُعِرها اهتماماً إلا بقوله «انهضي»، مشيراً إلى أنها يجب أن تأخذ الحزام، واستأنف مرة أخرى قبضته على خصر الشاة. كانت هناك لحظة طويلة تطابقت فيها قوتاهما

ببطء ضد الوحل الساحب لها، وشعرت كورا بعظام كتفيها المتوترتين من مآخذهما، ثم ظهرت فجأة أرجل الخراف الخلفية فوق سطح الماء، ودفعت نفسها إلى الأمام على الضفة، ووقعت كورا والرجل إلى الخلف، فابتعدت لإخفاء أنفاسها المتقطّعة، ولم تهتم للوحل، والألم في معصميها، كم كان الرجل أحمق، والشاة بهيمة خرقاء، وعلى مسافة ليست بعيدة، بدا رفقاء الشاة حذرين، ولا يظهرون أي اهتمام في انتظار عودة الغائب. كان عليها أن تشعر، أو كما اعتقدت، بانتصار، ولكن بدلاً من ذلك، كانت متعة اليوم قد انتهت، وفقدت ضفاف السرخس رونقها.

عندما رجعت، كان الرجل متعلقاً بكمّه، ضاغطاً به على جرح خده، مرتدياً قبعة مجدولة وردية، لربما كان قد صنعها بنفسه من قصاصات قرمزية، أسدلها على حاجبيه السميكين الغارقين في وحل يكاد يحجب عينيه. قال: «شكراً»، باقتضاب قليلاً، قالها بلكنة تقعُّر الأحرف اللينة، ففكرت آنذاك أنه مزارع، ودون أن تظهر تقبُّلاً لامتنانه، أجابته على مضض، مشيرة إلى الشاة المنهكة: «هل ستكون على ما يرام؟»، وقد قلَّبت شفتيها في الهواء، ولفَّت عينيها مرة أخرى.

هزَّ كتفيه قائلاً: «المفترض، أعتقد».

«أهي لك؟».

«لا، ليست كذلك». أصابت الفكرة حس الدعابة الخامل لديه، وعلت شفتاه ضحكة خافتة.

متشرّد إذن، المسكين! وقد كان من طباعها الدائمة، أن تذكر من حولها بخير؛ حتى يعطوها سبباً لغير ذلك، إلى

جانب أنها قريباً ستصل إلى المنزل لمارثا والشراشف البيضاء النظيفة، ومَن يعلم؟ فلربما اتخذ هذا الرجل سريراً له لاحقاً من السرخس، وليس له رفيق سوى شاه نصف جسدها غارق في الوحل. قرَّرت، وهي تبتسم، أن تستخدم آداب لندن الجيدة في حديثها. «حسناً.. يجب أن أكون بالمنزل. كان جميلاً جدّاً أن ألقاك»، وأومأت إلى أشجار البلوط والقطرات السائبة على أوراقها، والبركة التي لا تزال تتحرَّك فيها الدوامات الصغيرة؛ جراء كفاحهما في إنقاذ الشاة، ثم قالت، وهي تحاول أن تكون لطيفة في وصفها: «إسكس، جزء جميل من العالم».

«هل هي كذلك؟» كان صوته خافتاً بسبب الكم الضاغط على خده من الدم المختلط بالماء الموحل. أرادت أن تسأل عما إذا كان بخير، إذا كان باستطاعته الرجوع إلى منزله بأمان، إذا كان هناك ما يمكنها فعله؛ لكنها كانت أرضه، وليست أرضها. خطر لها حين شهدت أول تكثُّف للظلال عند الغسق، أنها من تحتاج إلى المساعدة هنا، حيث تبعد أميالاً عن سريرها، وليس لديها إلا شعور مبهم حول مكانها، وفي محاولة عادلة للحفاظ على ما شعرت به، قالت: «قل لي: هل أنا بعيدة عن كولشيستر؟ من أين يمكنني أن أستقل سيارة أجرة إلى المنزل؟».

كانت تنقصه الفطنة كي يبدي الإحساس بالمفاجأة، أومأ برأسه نحو الضفة الأخرى، حيث يمكنها إيجاد ممر بين خط البلوط، وخلفه امتداد مفتوح من الأرض. «اتجهي من على الطريق يساراً لنحو خمسمئة ياردة. هناك حانة: سيجلبونها لك»، ثم بحركة استثنائية، كمن يحدّث أدنى منه، التفت خائضاً

في الوحل. كانت كتفاه منحنيتين من البرد، لدرجة أن ثقل معطفه القذر، جعله يبدو أحدب، فلم تستطع كورا منع نفسها من الضحك؛ كعادتها حين تتحوَّل من الغضب إلى الضحك. ربما قد سمع، فقد توقف على الطريق، نصف ملتفت إليها، ثم فَكَّر في أنه لا داعي للحديث معها، وذهب في طريقه.

سحبت كورا معطفها بالقرب منها، وسمعت حولها أصوات الطيور وهي تتجمَّع لتغنّي أغنية المساء، وتحرَّكت الشاة لمسافة ياردة أو اثنتين إلى الضفة، ثم جثت على ركبتيها لنبش الأرض؛ بحثاً عن أوراق العشب.

بدأ الضوء في الخفوت، وارتفعت مسحة ضباب بيضاء جميلة من الأرض الباردة، وغمرت حافة أحذيتها، وبعد انتهاء طريق أشجار البلوط، ينحدر جرف عشبي على جانب الطريق، وبالقرب تقع حانة نصف خشبية، ذات شبابيك منيرة، تبدو وكأنها تدعو المسافرين المارة، ولقد تسبَّب منظر الأجزاء اللامعة، وفكرة أنها لا تزال بعيدة عن منزلها، ولا تعرف الطريق؛ في إصابتها بحالة من الضجر المفاجئ، أشبه بالصدمة، وعندما وصلت إلى عتبة الحانة، ورأت امرأة تتكئ على البار، وتبتسم مرحّبة، وشعرها ملفوف لامع، توقفت كورا لكي تهندم ملابسها، وعندما كانت تملس معطفها، وجدت قصاصة من الصوف الأبيض في إبزيم حزامها، وعليها بقعة دم تلمع تحت ضوء المصباح، كما لو كانت طازجة.

5

جوانا رانسوم؛ التي لم تبلغ الثالثة عشرة بعد، بقوامها الطويل كوالدها، مرتديةً آخر معطف اشتراه لها، قربت يدها فوق النار، واقتربت براحة يدها أقرب ما يمكنها من اللهب، ثم تراجعت برويةٍ؛ محافظةً أمام الجميع على كبريائها، في ذلك الحين كان أخوها جون يراقب بجديةٍ، وأكثر ما كان يود أن يفعله، هو إقحام يديه في جيوبه، إلا أنها طلبت منه عدم فعل ذلك؛ ليجد نفسه في برد قارس، لم يكد يتحمَّله، وقالت له: «سنقدم تضحية»، موجهةً إياه إلى الأرض الفسيحة ما وراء نهاية العالم، حيث تفسح المستنقعات الطريق أمام مصب نهر بلاك ووتر، وحيث ترى البحر ممتداً خلفه، وأردفت قائلةً: «ولأننا سنقدم تضحية، فعلينا أن نتحمل الكثير».

ولقد أخبرته جوانا في وقت مبكر من ذلك اليوم، هامسةً له في الزوايا الباردة، أن ثمة شيئاً فاسداً في قرية ألدوينتر، فهناك الرجل الغريق (الذي قالوا إنهم وجدوه عارياً ومصاباً بخمسة خدوش عميقة في فخذه)، وهناك المرض في منطقة فيتل ويل، وكيف يستيقظ الجميع من أحلام عن أجنحة سوداء مبتلَّة؟ بل وهناك المزيد، فمن الطبيعي أن يكون الليل أقل ظلمة الآن ـ ومن الطبيعي أن ترى تساقط الجليد على

البستان ـ ولِمَ لَمْ تُشفَ والدتهما من السعال الذي يوقظها ليلاً إلى الآن؟ وأين زقزقة الطيور في الصباح؟ ولِمَ لا يزالان يرتجفان برداً في الأسرَّة؟ ربما كان سبب هذا كله، أنهم قد اقترفوا ذنباً، ونسوا هذا الذنب، ولم يكفِّروا عنه أبداً، أو ربما لأن زلزال إسكس قد خلَّف شيئاً طليقاً في بلاك ووتر، أو لأن والدهما قد كذب عليهما (حين قال إنه لا يوجد ما يخشاه، وإنه لا يوجد شيء مخيف هناك، إذن فلِمَ لَمْ يعد يذهب إلى البحر في الظلام؟ ولِمَ يمنعنا من الذهاب للعب على القوارب؟ ولِمَ يبدو منهكاً هكذا؟)، ولكنهما عقدا العزم على أن يتصرَّفا حيال ذلك؛ مهما كان السبب وأيّاً كان المتسبّب، فمنذ قديم الأزل في بلاد أخرى، كان الناس يقطعون الصدور ويخرجون القلوب من الأجساد؛ تضحيةً للشمس كي تسطع؛ في حين لم يكن سطوعها بالتأكيد مطلباً صعباً، حيث كان يمكنهم إجراء تعويذة بسيطة لصالح قريتهم، ثم قالت: «أنا الآن أدركتُ كل شيء»، «أنت تثق بي، أليس كذلك؟».

ووقفا بين أعمدة هيكل السفينة التي ظهرت هناك منذ عقد من الزمان، ولم تُنقل من الشاطئ منذ ذاك الحين، وقد أهلكها الطقس القاسي؛ حتى بليت وتحولت إلى عددٍ من القوائم الخشبية السوداء المقوسة، التي تشبه إلى حد كبير تجويفاً صدرياً مفتوحاً لوحش غارق، حتى أطلق عليها زائروها ليڤياثان (السفينة ـ وحش البحر)، وقد كانت قريبة من شاطئ القرية؛ ولذا، كان الأطفال يلعبون فيها دون توبيخ من الكبار، بيد أنها كانت بعيدة بما يكفي، فلا تكون في مرمى بصر أحد ليرى ما اقترفوا هناك. كانوا في الصيف يعلّقون ملابسهم على أخشابها، وفي الشتاء يوقدون مواقد صغيرة بداخلها، وكانوا

يخشون أن يحترق هيكلها الضخم، ويستاؤون كلما نجت من الاحتراق، وكانت عبارات الحب واللعنات محفورة بأعداد كبيرة على أخشابها بالمُدْيات والعملات المعدنية، ولم تختفِ أبداً. أشعلت جوانا ناراً صغيرة تبعد قليلاً عن حطام ليڤياثان، وكان محاطاً بدائرة من الحجارة، ومستقرّاً على نحو جيد، وقد أحاطته جوانا بمجموعة من طحالب الصخور التي منحت عطراً نقياً، وغرزت في الرمال الخشنة سبعاً من أفضل أصدافها.

نظر جون إلى شقيقته قائلاً: «أشعر بالجوع». قالها بحزن وقتها لقلة حيلته، فقد بلغ جون السابعة من العمر قبل حلول الصيف، وكان اعتقاده الراسخ، أن هذا هو الوقت المناسب لتعزيز شجاعته، لتضاهي سنوات عمره التي تزداد، وقال جون: «مع ذلك لا مانع عندي»، ثم وثب بمرحٍ مرتين حول النار.

وردَّت الفتاة الصهباء ناعومي بانكس، وهي منبطحة على ظهرها فوق ليڤياثان، وهي تنظر مناشدةً صديقتها: «ينبغي أن نشعر بالجوع، لأن هذه الليلة توافق ليلة قمر الجوع، أليس كذلك يا جو؟» وبالنسبة إليها، فإن ابنة ريفيراند رانسوم، كانت تتسم بقوة الملكة وحكمة الإله؛ حتى إنها لو أُمِرَت أن تخطو بقدميها العاريتين في النار؛ لفعلت بكل سرور.

فردَّت جوانا: «هذا صحيح، قمر الجوع، وهو القمر المكتمل الأخير قبل حلول الربيع»، وتخيلت جوانا وهي تعي الحاجة إلى أن تكون صارمة وخيّرة في نفس الوقت، صورة أبيها فوق منبر الوعظ، وقامت بمحاكاة وقفته، ومن دون منصة الإلقاء؛ رفعت كلتا ذراعيها، وأنشدت بصوتها الذي استغرق منها بضعة أسابيع لإتقان الإنشاد: «لقد اجتمعنا

ها هنا في يوم قمر الجوع؛ لتتضرَّع لبيرسيفون أن تفكَّ أغلال هاديس، وأن تعيد الربيع إلى أرضنا الحبيبة». أنشدت ذلك، وهي تتساءل ما إذا كانت قد ألقت الخطاب المناسب، وكانت قلقة قليلاً حول ما إذا كانت ردَّدت الترانيم على نحو سريع، وبطلاقة، بناءً على التعليم الذي أصر والدها على تلقيها إياه، ونظرت نظرة خاطفة إلى ناعومي، فاحمرَّ خد صديقتها، واتسعت حدقتا عينيها، ووضعت يدها على حلقها، وعزَّزت جوانا قولها: «عانينا طويلاً من رياح الشتاء! كثيراً ما أخفت الليالي الظلماء أهوال النهر!». انتحب جون؛ الذي يناقض إصراره على أن يصبح شجاعاً، خوفه من الوحش الذي ربما يكون متربصاً في المياه على بُعد مئات الأقدام لا أكثر. تجهَّمت شقيقته وعلا صوتها قليلاً، قائلةً: «أيتها الآلهة بيرسيفون، استجيبي لنا!»، وأومأت برشاقة لرفقائها الذين ردَّدوا الترنيمة: «أيتها الآلهة بيرسيفون، استجيبي لنا!»، وصلُّوا لعدد من الآلهة راكعين بخشوع لكل اسم منهم، ورسمت ناعومي، التي كانت تدين والدتها بالعقيدة القديمة، بإشارة الصليب بحماس شديد، وعندها قالت جوانا: «والآن يجب أن نقدم التضحية»، انتحب جون مرة أخرى، وركض حول النار مرتين، إذ إنه لا يغيب عن خاطره كيف ربط إبراهام ابنه على المذبح، واستل سكينه ليذبحه.

فنادته جوانا: «عد أيها الفتى الأحمق، لن يؤذيك أحد».

واتجهت ناعومي نحو الطفل، رافعة يديها في صورة مخالب قائلة: «أفعى إسكس هي التي قد تؤذيك»، إلا أنها قوبلت بنظرة توبيخ من صديقتها؛ حتى احمرَّ وجهها خجلاً، وضمت يدي جون بين يديها.

وأردفت جوانا قائلةً: «نقدم لك التضحية بجوعنا»، وتبع قولها قرقرة بطنها (فقد أخفت إفطارها في منديل، وأطعمت به الكلب لاحقاً، وتأمل كذلك في تفويت الغداء)، «نقدم لك التضحية بشعورنا بالبرد»، وتتصنَّع ناعومي أنها ترتجف برداً. «نقدم لك التضحية باحتراقنا، ونقدم لك التضحية بأسمائنا»، وتتوقَّف جوانا لبرهة، لقد نسيَت الطقوس التي قد أعدتها سابقاً، فوضعت يدها في جيبها، وأخرجت ثلاث وريقات، وفي وقت سابق في ذلك اليوم، كانت قد غمست طرف كل وريقة في وعاء التعميد في كنيسة والدها، حيث كانت حذرة من إمكانية رؤيتها في هذا المكان، وجهّزت عدداً من الأكاذيب للدفاع عن نفسها، وجفَّت الأطراف المغموسة على شكل تموُّجات، فأصدرت الوريقات صوت طقطقة مسموعة، حين أعطتها جوانا لرفقائها الذين يشاركونها الطقوس، ثم قالت جوانا بنبرة حزينة واضحة: «علينا أن نلتزم بالتعويذات، لنقدّم جزءاً من طبيعتنا الخاصة. علينا أن نكتب أسماءنا، وعند كتابتها نأخذ على أنفسنا عهداً نقدمه لأي إله يسمعنا، بأننا نقدم أرواحنا أملاً في رحيل الشتاء عن القرية»، وتفحَّصت كلماتها كما سردتها، وسُرَّت بطريقة صياغتها لها، وها قد فوجئت بفكرة جديدة. انحنت والتقطت غصناً مكسوراً، ووضعته في النار ليحترق لوهلةٍ، ثم أخمدت اللهب؛ لتخط اسمها على الورقة بالفحم النباتي، إلا أنه لم يكن قد أُطفئ تماماً، فأحرق الورقة ومزَّقها. أما الآلهة، فقد تحتاج إلى رؤيا سماوية للاستجابة، وليس فقط أحرف اسمها، من كل تلك المسافة البعيدة، ولكن الأثر كان مُرضياً، ثم أعطت العصا لناعومي، التي كتبت على ورقتها حرف النون بخط كبير، وساعدت جيمس على كتابة اسمه،

وكان الصبي مختالاً بخط يده، فتشاجر مع الفتاة، ووكزها بمرفقه، مُصرّاً على كتابة اسمه بمفرده.

وعندما انتهوا، جمعت جوانا الوريقات ومزَّقتها إلى قطع صغيرة، واستطردت قائلة: «الآن، هلموا معي إلى النار. هل تشعر أيديكم بالبرد؟ هل أنهكها الشتاء؟»، ثم خطر ببالها روعة اختيارها للجملة «هل أنهكها الشتاء؟»، وقالت في نفسها: «يا لروعة الصياغة»، ربما تصبح قسّاً مثل والدها عندما تكبر. نظر جون إلى أطراف أصابعه، وجال بخاطره التساؤل عما إذا كانت ستظهر قريباً أولى البقع السوداء لأثر الصقيع، وقال: «أنا لا أستطيع أن أشعر بشيء».

فردَّت ناعومي مبتسمةً: «حسناً، ستشعر بكل شيء»، كان شعر ناعومي أحمر اللون، وكان معطفها باللون نفسه، ولم ترُق يوماً لجون، فاستطردت: «ستشعر بكل خير»، جاذبةً إياه بخفَّة من قدميه، وانضمَّا إلى جوانا حول النار، وقف أحدهم على خيط من طحالب الصخور، ما أصدر صوت فرقعة، تبعها على مسافة منهم انحسار المد في البحر.

وفجأة، قالت جوانا لجون: «الآن عليك أن تكون شجاعاً يا جون، لأن هذا سيؤلمك»، وألقت بفتات الورق في النار، ثم نثرت عليه بعض الملح الذي أخذته من علبة الملح الفضية الخاصة بوالدتها، فتحول لون اللهب إلى الأزرق لبرهة قصيرة، ثم مدّت يديها بثبات فوق النار، وبإيماءة ملحَّة لرفقائها ليقوموا بالمثل، وأغلقت عينيها ولم تفتحهما، وثبَّتت راحة يدها فوق اللهب، فانطلقت شرارة من غصن رطب، فأحرقت أحد أكمام معطف والدها، جفلت جوانا، وشعرت بالقلق على سلامة

بشرة معصم أخيها البيضاء، فجذبت يديه إلى الأعلى بمقدار بوصة واحدة أو يزيد، وقالت له بسرعة: «لسنا بحاجة إلى إيذاء أنفسنا كثيراً، علينا فقط أن ندع أيدينا تتدفّأ بسرعة، وستحترق كما يحدث عندما تخرج من الجليد».

قالت ناعومي، وهي تمضغ كرة من الشعر: «انظروا، يمكنكم رؤية أوردتي»، وكان ذلك صحيحاً، فقد كان يظهر لديها نسيج من الجلد، عميقاً بين أصابعها، وكانت فخورة بذلك العيب، بعدما سمعت ذات مرة أن الملكة آن بولين، كان لديها شيء مشابه، ورغم ذلك تزوَّجت ملكاً، ويظهر وهج متورّد في ضوء النار، يمر عبر جلدها الرقيق، ويظهر وريد أزرق رقيق أو اثنان.

أثار ذلك إعجاب جوانا، ولكنها مدركة لأهمية الحفاظ على اليد المرفوعة، فقالت: «نحن هنا لنقوم بإذلال أجسادنا، يا نومي، لا تفتخري بهذا»، وقد استخدمت كنية طفولتهما؛ لكيلا تشعر الفتاة بالخزي، إلا أن ناعومي قامت بثني أصابعها قائلة بكل جدية: «آه، إنها تؤلم جدّاً، صدقيني. إن وخزتها كنبات القراص».

نظرت الفتيات إلى جون، الذي كانت يداه تتمايلان بشجاعة. شيء ما كان يحدث بوضوح، لأن أصابعه كانت حمراء متقدة، وحتى اعتقدت جوانا أن أطرافها متورِّمة، فإما أن يكون الدخان المنخفض الخارج من النار قد ألهب عينيه، أو أنه كان يحاول ألا يبكي، وقد تاهت بين سياقين: أحدهما أن الآلهة سوف تنظر بعين العطف إلى التضحية من الكاهن الصغير، وبين سياق موازٍ، وهو أن أمها قد غضبت

غضباً مبـرَّراً، ثـم دفعـت الصبـي برفـق، وقالـت: «أيهـا الفتـى السـخيف بالأعلى: هـل تريـد حـرق نفسـك عـن آخرهـا؟»، فـي هـذه اللحظـة، انفجـرت دموعـه المحبوسـة، وفقـط فـي هـذه اللحظـة (أو أن جوانـا قالـت ذلـك فـي مـا بعـد، متجمِّعيـن تحـت طاولـة المدرسـة، وناعومـي تومـئ برأسـها تجاههـا، والجمهـور مرعـوب تحـت قدميهـا)، مـر البـدر المكتمـل مـن سـحابة زرقـاء منخفضـة. كل مـا كان حولهـم، هـو رمـل الحصـى المنقَّـط؛ الـذي يبعث على الغثيان، والبحـر الـذي يزحـف نحوهـم على الأرض السـبخة؛ التـي تتـلألأ عنـد انحسـار المـوج.

«إنهـا علامـة، أتـرى؟». قالـت جوانـا، محركـة يديهـا مـن فـوق النـار، ثـم وضعتهـا بسـرعة علـى حاجـب عيـن ناعومـي المرفوعـة: «نذيـر! إنهـا الإلهـة»، ثـم فكـرت فـي الاسـم «الإلهـة فوبـي، تعالَـي اسـتمعي لشـكوانا!».

استدار جـون وناعومـي إلى القمـر، ونظـرا طويـلاً إلـى وجهـه المسـبل. رأى كل منهمـا فـي القـرص المنقَّـط العالـي، عينيـن حزينتيـن، وفمـاً مقوسـاً لامـرأة غارقـة بالحـزن.

«هـل تظـن أنهـا أجـدت نفعـاً؟». لا تصـدق ناعومـي أن صديقتهـا قـد أخطـأت فـي أمـر خطيـر، مثـل اسـتدعاء الربيـع، وبجانـب ذلـك، شـعرت بالألـم في يديهـا، ولـم تـذُق الطعام منذ تنـاول الخبـز والجبـن فـي الليلـة الماضيـة، ولـم تـرَ كذلـك اسـمها علـى قطعـة معمَّـدة مـن الـورق، ترتفـع فـي وابـل مـن الشـرر، وقامـت بربـط أزرار معطفهـا إلـى أعلـى قليـلاً، وراقبـت الأرض السـبخة المالحـة والبحـر، متوقّعـة قليـلاً أن تـرى شـروقاً مبكـراً، ومعـه قطيـع مـن الطيـور.

قالت جوانا: «أوه نومي، لا أعرف»، وهي تركل الرمال بلا هدف، ثم شعرت بقليل من الخجل بالفعل مما تفعله. كل هذا التمويج بذراعيها وتغني! حقاً، كانت عجوزة جدّاً على كل ذلك. قالت: «لا تسألني»، مدركةً السؤال الإضافي: «لم أفعلها من قبل، أليس كذلك؟»، مستشعرة الذنب، وجثت على ركبتيها بجوار أخيها، وقالت بحدةٍ: «كنت شجاعاً جدّاً، إذا لم ينجح الأمر فلن تكون غلطتك».

«أريد الذهاب إلى المنزل، سنتأخَّر، وسيكون هناك مشكلة، ولن يُترَك لنا عشاء، وهو الطعام المفضل بالنسبة إليَّ».

قالت جوانا: «لن نتأخَّر». «لقد اتفقنا على أن نكون بالمنزل قبل حلول الظلام، ولم يحل الظلام بعد، أليس كذلك؟ لم تُظلم الدنيا بعد»، ولكن الظلام كان على وشك الحلول، واعتقدت أنه بدا قادماً عبر البحر عند مصب النهر؛ الذي اتخذ شكل مادة سوداء وصلبة، يمكنها السير عبرها، إذا اهتمَّت بالمحاولة. لقد عاشت معظم حياتها هنا في طرف العالم، ولم تعتقد لمرة واحدة في عدم ثقتها في أرضها المتغيّرة، تسرَّب الماء المالح عبر المستنقعات، والأنماط المتغيّرة لضفافه وجداوله الموحلة، ومدَّ المصب الذي تتفحَّصه يومياً تقريباً، وهي تجلس مقابل روزنامة أبيها، حيث كل ذلك لا يزعج تماماً مثل أنماط حياة عائلتها. قبل أن تتعرَّف إلى ذلك من الورق، تستطيع أن تجلس على كتفي أبيها، وتشير وتسمّي بفخر فولنيس وبوينت كلير وسانت أوسيث وميرسي، واتجاه كنيسة القديس بيتر أون ذا وول. كانت خدعة عائلية لتدور لها عشرات المرات، وتقول: «سوف تأتي دائماً بمواجهة الشرق تجاه فم البحر».

ولكـن شـيئاً مـا تغيـر فـي دورة طقوسـهم، كان لديهـا دافـع فضولـي للنظـر إلـى الـوراء علـى كتفيهـا، كمـا لـو كانـت تمسـك المـد فـي عكـس اتجاهـه، أو تـرى الميـاه تتفجر،كمـا فعلـت ذات مـرة فـي عيـون موسـى. لقـد سـمعت بالطبـع، الشـائعات بـأن كائنـاً مـا يعيـش الآن فـي عمـق المصـب، وكانـت مسـؤولة عـن أخـذ المصبـاح وكسـر فـرع الشـجرة، ولكنهـا فكَّـرت قليـلاً فـي ذلـك، الطفولـة كانـت مليئـة بحكايـات الرعـب التـي تعطـي تصديقـاً لشـيء علـى حسـاب آخـر مـن دون فائـدة. أرادت أن تـرى مـرة أخـرى الوجـه الشـاحب الحزيـن للسـيدة فـي القمـر، نظـرت إلـى الأعلـى، حيـث كان هنـاك فقـط تجمُّـع للسـحب الكثيفـة المتكدّسـة فـوق المسـتنقع. هـدأت الريـاح، كمـا تفعـل غالبـاً فـي الغسـق، وعلـى الطريـق أعلاهـم، الأرض تتصلَّـب بالصقيـع. يشـعر جـون بوضـوح بعـدم ارتيـاح شـخصي، وقـد نسـي سـنواته المتزايـدة، ووضـع يـده فـي يدهـا، وحتـى ناعومـي التـي لـم يظهـر أبـداً أنهـا خائفـة، تمتـصُّ بقلـق لفيفـة شـعرها، وتقتـرب مـن صديقتهـا. بينمـا يجعلـون طريقهـم الصامـت يمضـي علـى الجمـر المنتهـي مـن نارهـم، ويمضـي علـى ليفياثـان الـذي يرسـو فـي عمـق المـاء لليلـة، تبـادلا النظـر فـوق أكتافهمـا أكثـر مـن مـرة، فـي المـاء الأسـود الزاحـف بقـرب عبـر الوحـل. غنَّـت ناعومـي «خرجـت الفتيـات والصبيـان ليلعبـوا»، غيـر قـادرة علـى التعامـل مـع الحفـاظ علـى الهـزة فـي صوتهـا: «يتوهَّـج القمـر لامعـاً مثـل ضـوء النهـار».

بعـد مـرور وقـت طويـل ـ وبعـد كثيـر مـن الضغـوط ليحكـوا مـا حـدث، إذ كانـوا يشـعرون بالخجـل علـى نحـوٍ غريـب ـ ادَّعـى كل منهـم أنـه رأى شـيئاً غريبـاً سـميكاً يرتفـع مـن المـاء فـي مكـان

معين، فقط حيث تنتهي الأرض السبخة، وينخفض مجرى النهر انخفاضاً حاداً. لم يكن هناك صوت ولا يوجد شيء مخيف، مثل طرف طويل أو عين ملتفَّة؛ الحركة الوحيدة كانت حركة الموج السريعة جداً، ومن دون اتجاه. ادَّعى جون أن الموجة تبدو ضاربة البياض، ولكن جوانا اعتقدت أن القمر كان يطل ويلمع على السطح فقط بنظرتها. نمَّقت ناعومي، التي كانت أول المتحدثين، الأمر بأنه مثل ازدهار الجناح والخطم الذي كان مقبولاً بشكلٍ عام، أنها لم ترَ شيئاً على الإطلاق، وأن شهادتها قد تم رفضها.

قال جون: «كم بقيَ من الوقت حتى نعود إلى المنزل، جوجو؟»، وقد توتر بسبب طول الوقت؛ حتى يسرع عائداً إلى المنزل لأمه، وقد تخيَّل أن العشاء قد برد على المنضدة، وشدَّ على يد أخته.

«لقد أوشكنا على الاقتراب: انظر، هل ترى الدخان الخارج من المدخنة والأشرعة على المراكب؟».

وقد وصلوا الممر، وأسنانهم تصطك، مع قشعريرة مفاجئة وعدم ارتياح، وتوجد في الأعلى مصابيح الزيت موضوعة في نوافذ منزل نهاية العالم، وبها سحر شجرة عيد الميلاد. يمكنهما رؤية كراكنيل يصنع دوائره الليلية، يُدخلون يأجوج ومأجوج في حظيرتهم، ويتوقَّفون عند البوابة لتبشيرهم بليلة سعيدة.

كان يغنّي «أيها الصبيان والفتيات اخرجوا للعب»، ويسمعهم قادمين، ويهزون البوابة للتأكيد: «وعلى أية حال، لاحظت أن هذا وجه القمر المكتمل، الذي لن تحصل على ضوء نهار لامع مثله، وهذا جذب الاهتمام مرة أخرى، وقلَّل

من قيمته شهراً بعد شهر، والذي يُحسب لعتمة النهر. أليس كذلك؟»، وقد سُر بخط الأفكار الذي ابتسم من خلاله، ثم أشار إليهم بالاقتراب أكثر وأكثر، حتى شمُّوا رائحة الرطوبة الترابية الخارجة من جيوب معطفه، ورأوا جثثاً مخططة من حيوانات الخُلد تتدلَّى من كعوبهم.

«ترغب في الذهاب إلى المنزل، أليس كذلك؟»، أومأ كراكنيل لجون، الذي كان صديقاً قديماً له، الذي لن يفوّت عادةً فرصة الجلوس منفرج الساقين بجانب يأجوج أو مأجوج، والدوران حول الكوخ، وبعد أكل العسل مباشرةً من قرص العسل. جون الذي تخيَّل لتوّه أن عشاءه قد أُلقيَ للكلب، تجهَّم، وربما يكون ذلك الذي جعل الرجل العجوز يتجهَّم بالمقابل، ويمسك بأذن الفتى.

«اسمعوا ثلاثتكم... ليس فقط الصبيان والفتيات من يخرجون للعب في هذه الأوقات، والذي أتساءل عنه ليس للمرة الأولى، ولكن ربما ستكون الأخيرة، ولن تسمعوا ندماً مني على هذا السبب؛ أحتاجك بسرعة يا إلهي كما قلت عندما كنت أملك شاحنة مع هذا الكلام... انضموا إلى زملائكم للعب في الشارع، كما قالت الأغنية، لكن هذا زميل لعب غريب، صنعته هناك في المياه السوداء لنهر بلاك ووتر، لا تعتقد بأنني لا أعرفه، ولم أره بنفسي مرتين أو ثلاثاً عندما كان القمر لامعاً».

وقبض على أذن جون بقوة إلى حد ما، فصاح الصبي من الألم. قام كراكنيل بالنظر إلى يده فجأة، كما لو كانت تعمل دون إذنه، ثم ترك جون، الذي قام بفرك وجهه وشرع

في البكاء. حسناً.. حسناً إذن، لم كل هذا الضجيج؟ ربت كراكنيل جيوبه المتعدّدة، ولكنه لم يعثر على شيء قد يرضي طفلاً في حاجة إلى حضن والدته، ووجبة ساخنة. «أتحدث بلطف فقط، بلطف فقط، كما آمل دائماً أن أفعل، ولا أرغب في السخرية أو الزحف أو مشاهدة أي شيء منك أو يخصك». لم يتوقَّف جون عن البكاء بعد، وشعرت جوانا بالخوف لبرهة؛ لأن الرجل العجوز قد يبكي أيضاً خجلاً، ولشيء آخر، تعتقد أنه الخوف، وصلت إلى سياج سلسلة حيوان الخُلد، وربَّتت أكمام معطفه زيتية الملمس مرتين، وبدأت في البحث عن كلمات مهدّئة لتقولها، عندما أصبح كراكنيل صارماً، ورفع ذراعيه إلى أعلى، وصخب قائلاً:«توقَّفي، الآن! ما الذي يحدث هناك؟».

انحنى الأطفال، حيث خبَّأ جون رأسه في خصر أخته، ودارت ناعومي على كعبها ولهثت. كان يقترب منهم على طول الطريق مخلوق مشوَّه قاتم الجسم، ويتحرَّك ببطء، ما يجعل الصوت منخفضاً في أعماق حلقه. لم يكن مخيفاً، وإنما وقف على قدميه الخلفيتين، وكان لديه شكل رجل - وارتكز على ذراعيه - ربما كان يشكّل تهديداً، لكن الضجيج الذي ظهر به بدا مضحكاً إلى حد ما. كان رجلاً، في الواقع، وكان هناك شيء في المشية المتهادية التي كانت مألوفة لنا، وكلما اقترب من الإضاءة من مصابيح كراكنيل، توقَّف، وشاهدت معطفه الطويل الذي يتساقط منه الوحل، ويرتدي أحذيته الثقيلة، وكان يحجب وجهه بقبَّعة مسحوبة إلى حواجبه، وبواسطة وشاح ثقيل، كل شيء عن هذا المخلوق كان مغطًّى بالوحل، الذي ظهر بذلك أسود ورطباً في بعض

الأماكـن، وباهتـاً جافّـاً فـي أماكـن أخـرى، فقـط كانـت هنـاك أجزاء مـن القبَّعـة القـذرة التي أظهـرت اللـون القرمـزي الأصلـي المصنوعـة مـن الصـوف.

«ألا تعرفينني؟ هـل أنـا بمثـل هـذا المنظـر؟»، ارتكـز الرجـل علـى ذراعيـه مـرةً أخـرى، ثـم خلـع القبَّعـة المحبوكـة، وظهـر شـعره المجعَّـد غيـر المصفَّـف، وبنفـس المسـحة الخمريـة، حيـث تلمـع ضفيرتـه الطويلـة فـي ضـوء المصبـاح.

«أبـي، أيـن كنـت؟ مـاذا فعلـت؟ كيـف جرحـت وجنتـك هكـذا؟».

«أيهـا الصبـي جـون، ألا تعـرف والـدك؟». مـع طفـل فـي كل ذراع، ربـت القـس ويليـام رانسـوم الموقَّـر علـى كتـف ناعومـي بلطـف، وأومـأ إلـى كراكنيـل، الـذي قـال: «يـا لهـا مـن نظـرة أيهـا القـس، وإذا كنـت أقتـرح اصطحـاب الأطفـال الصغـار إلـى المنـزل، وإبقاءهـم هنـاك، فسأبشِّـركم بليلـة سـعيدة للجميـع»، قـال ذلـك وهـو ينحنـي لهـم جميعـاً، وبالأخـص لجـون، رجـع الرجـل العجـوز إلـى منـزل نهايـة العالـم وأغلـق البـاب.

«ولمـاذا خرجتـم جميعـاً فـي هـذا الوقـت المتأخـر، هـل لـي أن أسـال؟ علينـا جميعـاً الـرد علـى أمِّكـم لتفسـير ذلـك، أمـا بالنسبة إليك يـا آنسـة بانكس، فبمـاذا سـأخبر والـدك؟ فهـو قلـق علـى ناعومـي، وحثَّهـا علـى الدخـول إلـى المنـزل نحـو كـوخ مـن الحجـر الرمـادي، الـذي يطـل علـى الرصيـف فـي الميناء. نظـرت الفتـاة إلـى أصدقائهـا مـن فـوق كتفهـا، وأسـرعت إلـى الداخـل، وسـمعوا صـوت البـاب وهـو يُغلـق.

«نعـم، ولكـن يـا أبـي، أيـن كنـت؟ مـاذا فعلـت بوجهـك؟ هـل

تحتاج إلى غرزة؟» (قالت ذلك بحماس شديد، بما أن جوانا كان لديها شوق خاص لتستخدم سكين الجراح).

«لا عليكم في ذلك، لماذا يبكي جون، وقد كبر ليصبح مثل التلال!»، شّد ويل قبضته على الصبي الذي حاول وقف آخر تنهُّداته، أما بالنسبة إليَّ، فلقد كنت أقوم بإنقاذ الأغنام، وأخيف السيدات، ويجب أن أقول: «لقد وصلت إلى مسار الحديقة المتقلّب، والحدود التي تُضيء فيها زهور الثلج في الظلام. إنني لم أستمتع كثيراً منذ وقت طويل. ستيلا! نحن في المنزل، ونحن بحاجة إليك!».

مارس

ستيلا رانسوم
بيت كنيسة جميع القديسين
ألدوينتر
11 مارس

عزيزتي السيدة سيبورن/

أكتب آملاً ألا تثير رسالتي استغرابك، فالسيد تشارلز أمبروز، أكَّد لي أنك تتوقعين أن تسمعي خبراً من عائلة رانسوم، التي تقطن ألدوينتر، إسكس، وها نحن نبعث إليك بهذه الرسالة.

لكن أولاً، أرجو أن تقبلوا خالص تعازيَّ أنا وزوجي، في وفاة السيد سيبورن. يصلنا القليل من لندن، ومع ذلك عرفنا بالسيد سيبورن عن طريق تشارلز، وفي بعض الأحيان، من صحيفة التايمز! نعرف عنه أنه كان رجلاً يحظى بتقدير شديد، كما أنني متأكّدة أنه كان محبوباً للغاية. ندعو لكم في صلواتنا، والأهم من ذلك، أنني أعتقد أنني أستطيع أن أتخيَّل أحزان زوجة على خسارة زوجها بهذا الشكل.

والآن، أعود إلى سبب هذه الرسالة. سيكون تشارلز وكاثرين أمبروز هنا يوم السبت المقبل لتناول العشاء، وسنكون سعداء جدّاً إذا انضممت إلينا. أتفهَّم أنَّك بصحبة

ابنك، وبصحبة رفيقة يتحدَّث تشارلز عنها بشغف، وسيسعدنا التقاؤهم أيضاً. ليس الهدف مناسبة محدَّدة، ولكنها ستكون فرصة لرؤية الأصدقاء القدامى، والتعرف إلى أصدقاء جدد.

لقد أدرجت عنواننا في هذه الرسالة، وأؤكّد لك أنه يسهل الوصول إلينا من كولشيستر: أخشى أنه لا يوجد قطار من هناك، ولكنها ستكون رحلة ممتعة كثيراً بسيارة الأجرة. عليكِ البقاء معنا، فلدينا بالطبع غرفة شاغرة، ولن ترغبي في السفر إلى المنزل في وقت متأخر. سأنتظر ردك، وفي هذه الأثناء، يمكنك أن تفكري في الأطباق الشهية التي يمكن أن أعدَّها لامرأة ذات أذواق لندنية!

تحياتي!

ستيلا رانسوم

ملاحظة: كما ترين، لم أستطع مقاومة أن أرسل إليك زهرة الربيع، على الرغم من أنني كنت غير صبورة لأضغط عليها جيداً، ومن ثم تبقَّعت الرسالة. لم أستطِع أبداً تحيُّن الفرصة لإنجاز الأمر بالشكل المطلوب!

- ستيلا.

1

قـام د. لـوك غاريـت بالبحـث فـي غرفتـه فـي فنـدق جـورج فـي كولشيسـتر، وتعلـو وجهـه ابتسـامة تضمـر قـدراً مـن التذمـر. كان مـن الواضـح أن سبنسـر لـم يدّخـر أي نفقـات. بقيـت أناملـه نظيفـة، بعـد أن مسـح بهـا كل سـطح. قـال لـوك: «يمكنني إجـراء عمليـة اسـتئصال الزائـدة الدوديـة هنـا»، بينمـا كان صديقـه يعتقـد أن الهـواء ينقـل المـرض للمـارة، وبعـد تنظيـف الغرفـة بالكامـل، فتـح غاريـت القفـل النحاسـي لحقيبتـه، وسـحب زوجـاً مـن القمصـان المجعَّـدة، والعديـد مـن الكتـب ذات الصفحـات المطويـة، ورزمـة مـن الـورق، ووضعهـا علـى طاولـة التزيُّـن، يعلوهـا ظـرف أبيـض مكتـوب عليـه اسـمه بخـط أنيـق وواضـح.

«إنهـا تنتظرنـا؟»، أشـار سبنسـر إلـى الظـرف: إنـه يعـرف خـط كـورا جيـداً، حيـث إن صديقـه اعتـاد فـي الآونـة الأخيـرة، إطلاعـه علـى جميـع خطاباتهـا، وكان ذلـك الحـل الأفضـل لفهـم معنـى كل عبـارة.

«تنتظرنـا؟ تنتظرنـا! لـم أكـن لأحضـر وأتـرك أعمالـي الخاصـة، لـديَّ الكثيـر لأقـوم بـه، ولسـت فـي وضـع يسـمح لـي للقيـام بذلـك»، سبنسـر، إنهـا تتوسَّـل إليـك قائلـة: «أشـتاق إليـك، عزيـزي». يبتسـم لـه ابتسـامة متوحّشـة، تعلوهـا عينـاه السـوداء البـارزة «تشـتاق إلـيَّ وتناديـني عزيـزي!».

«هـل سـنقابلها الليلـة؟»، قـال سبنسـر هـذا بـلا مبـالاة. كان لديه دوافعـه الخاصـة لهـذا الشـغف الواضـح، ولكنـه أخفـى ذلك حتـى عـن غاريـت، فلـم يكـن راغبـاً فـي إظهارهـا، وبينمـا كان شـارداً في إعـادة قـراءة رسـالة كـورا (وهـو يتفوَّه عزيـزي لنفسـه مرتيـن)، لـم يلحـظ صديقـه أي شـيء، قـال فقـط: «نعـم.. إنهـم فـي ريـد ليـون. سـنقابلهم فـي الثامنـة، عندمـا تـدقُّ الثامنـة، إذا قابلـت كـورا، مـاذا يمكنني أن أفعـل».

«سـأذهب إلى النزهـة. إنـه ليوم جيّـد الطقس للغايـة، والبقـاء فـي الفنـدق ليـس خيـاراً جيـداً، كمـا أننـي أريـد رؤيـة القلعـة، يقولـون إنـه لا يـزال بإمكانـك رؤيـة أنقـاض زلـزال إسكس، هـل سـتأتين؟».

«بالتأكيـد لا. أنـا أكـره المشـي، كمـا أنني أدرس تقريراً لجـرَّاح إسـكتلندي، مقتنـع بأنـه قـادر علـى معالجـة الشـلل مـن خـلال ممارسـة الضغـط علـى العمـود الفقـري، أعتقـد فـي كثيـر مـن الأحيـان، كمـا تعلمـون، أنـه كان مـن الممكـن أن أكـون أفضـل حـالاً فـي إدنبـرة أكثـر مـن لنـدن، هنـاك العديـد مـن الأطبـاء الذيـن يمتـازون بالشـجاعة، والمنـاخ البائـس يناسـبني». لقـد نسـي بالفعـل سبنسـر والقلعـة، يجلـس أمامـه غاريـت متربّعـاً علـى السرير، ناشـراً أمامـه عشـرات الأوراق ذات الخـط المنمَّـق الأسـود، تتخلَّلهـا رسـومات فـي الفقـرات. شـعر سبنسـر بالراحـة قليـلاً، لإمكانيـة استمتاعه ببعـض العزلـة بعـد الظهـر، واسـتكمل ارتـداء معطفـه ثـم غـادر.

كان فنـدق جـورج عبـارة عـن مبنـى أبيـض جميـل، يطـل علـى شـارع هـاي سـتريت الواسـع. يتصـوَّر مُـلَّاك النـزل بوضـوح، أن

لديهم أفضل منشأة على الإطلاق في المدينة، ودلَّلوا على ذلك بواسطة مجموعة من السلال المعلَّقة، التي تتناثر فيها أزهار النرجس البري، وأزهار الربيع المتدافعة. كان الطقس رائعاً، كما لو أن السماء تعوّضنا عن تحرُّرها البطيء من قبضة الشتاء، وكأنما السحب الماطرة همَّت مسرعة في اتجاه مدينة أخرى، في الأمام، كانت قمة سانت نيكولاس متأنّقة، وأصوات العصافير والطيور تصدح في الفضاء، وجد سبنسر -الذي يمكنه التمييز بسهولة بين أصوات العصفور والعقعق- نفسه متحيّراً ومستمعاً بهذا المزيج الساحر من أصوات الطيور، وبالمرح المنتشر في أرجاء المدينة، ومظلاتها المخطَّطة اللامعة المتناثرة فوق الأرصفة، وبراعم الكرز التي تشبه كُم معطفه، واصل سبنسر سيره حتى صادف منزلاً مهدَّماً، يجلس عند عتبته رجل مُقعد، أشبه بحارس خفي، وقد بدا له هذا أيضاً مشهداً ساحراً، حيث يبدو المنزل منظراً داخلياً يحتوي على اللبلاب وشجيرات البلوط، وتسبَّب الشلل في نزع معطفه، ليعرّض جسده إلى الشمس، فبدا كما لو أنه قطٌّ تنعكس عليه تيَّارات الضوء.

تسبَّب هذا المنظر في شعور سبنسر بالحرج من حال الرجل الفقير المحتاج، مقارنةً بعيشه المترف، وأثار روح الكرم لديه، حيث رغب في مشاركة هذا الرجل الفقير بعض المرح، الذي استمتع به في هذا اليوم، وهمَّ بإفراغ جيوبه في قبَّعة الرجل المقلوبة، وأدَّى ثقل وزن العملات إلى انبعاج لباد القبَّعة. رفع الرجل عينيه، كما لو كان يشكُّ أن ما حدث مجرد نكتة، وارتسمت على وجهه ابتسامة، أبانت عن أسنانه تعبيراً عن رضاه التام عن هذه اللفتة الطيبة من سبنسر. «يبدو أنني انتهيت

من العمل لهذا اليوم، أليس كذلك؟»، ثم استند إلى عمود حجري، وقفز إلى العربة الخشبية ذات العجلات الحديدية الأربع، بحركة يبدو كما لو كان قد تدرَّب عليها، وارتدى قفازيه الملونين المصنوعين من الجلد لحماية راحتيه، ثم انطلق ببراعة نحو الرصيف. كانت العربة، كما رآها سبنسر، جيّدة للغاية، وتحتوي على تصميمات عُقدية مميَّزة، إذ إن المحارب السلتي، يمكنه دخول المعركة معتدّاً بمثل هذه العربة، لذلك، مهما كانت درجة الشفقة الطبيعية التي ربما شعر بها سبنسر تجاه هذا القعيد، فإنها قد تنطوي على إهانة.

«ألقِ نظرة إذن»، قالها الرجل وهو يرفع ذقنه، مشيراً إلى الخراب الذي حلَّ بالمنزل، ليُعطي انطباعاً بأنه قد سيطر على جدرانه المتهدّمة. «هذا أسوأ ما في الزلازل، ويُمثّل خطراً على حياة الأشخاص، وقد يتسبَّب في عجزهم إذا سألتني، كما لم يحدث من قبل. هناك نزاع أمام المحاكم؛ بشأن تحديد من يتحمَّل التكاليف»، وفي الوقت نفسه، هناك بومة بيضاء تستوطن غرفة تناول الطعام، وأثناء الحديث عن زوج من ألواح الرخام المتساقطة، التي تحمل بقايا حروف رومانية، تتجمَّع عليها الطحالب، اصطحب الرجل سبنسر إلى عتبة المنزل، وعندما اقترب من المنزل، اكتشف أن جزءاً كبيراً من الجدار الأمامي قد انفصل عن المنزل، تاركاً الغرف والسلالم مكشوفة. لم يبقَ أي شيء، ولم يكن من الممكن الوصول إلى جميع أجزائه ونهبه، كانت الطوابق السفلية فارغة، باستثناء السجاد الهائل، الذي نبت فيه البنفسج من تلقاء نفسه، ونما بشكل كثيف، كفراش يخفي زهوراً زرقاء، وفي الطوابق العليا، بقيت اللوحات والحلي: وكان هناك

جسم فضي يلمع على حافة النافذة، وأعلى الدرج، قد تكون قطع كريستال مصابيح الثريا مصقولة في ذلك الصباح، تحسُّباً للأحداث الليلية.

«يا له من منظر، أليس كذلك؟ انظر إلى ما لديَّ أيها البائس، ماذا عندك؟».

قال سبنسر آملاً في رؤية بومة بيضاء: «يجب عليك حقّاً بيع تذاكر عند باب المنزل، فبالتأكيد، كثير من المارة يريدون إلقاء نظرة».

«إنهم يفعلون ذلك بالفعل سيد سبنسر، لكنهم لا يحصلون على ذلك دائماً». لم يكن هذا صوت الرجل، ولكنه كان صوتاً يحمل كل صفات لكنة إسكس، قادماً من الأسفل، ولامرأة من لندن، ومن المفترض أن سبنسر كان سيعرف على الفور لمن هذا الصوت، وبعد أن أشاح بوجهه عن المنزل المهدَّم، ونظر إلى مصدر الصوت، حاول إخفاء احمرار وجهه، ولكنه لم يستطع.

«مارثا. أنت هنا».

«ها أنت ذا، هل قابلت صديقي القديم؟»، وصلت مارثا إلى الأسفل مبتسمة، وأمسكت بيد الرجل القعيد، هزَّ قبعته الممتلئة جيدّاً، وقال: «هذا يكفي اليوم!»، وبابتسامة وداع، بدأ بجرِّ نفسه إلى المنزل.

«لا توجد بومة بيضاء، إنه يقول فقط لتسلية السياح».

«حسناً، لقد سرَّني ذلك بالتأكيد».

«كل شـيء يسـرك، سبنسـر!»، كانـت ترتـدي سـترة زرقـاء، وعلَّقـت علـى كتفهـا حقيبـة جلديـة، يبـرز منهـا عـددٌ مـن ريـش الطـاووس، وفـي يدهـا اليسـرى كانـت تحمـل مجلـة بيضـاء، وعليهـا رأى سبنسـر «رؤيـة المـرأة الإنجليزية للقضايـا الاجتماعية والصناعيـة»، مطبوعـة بحـروف عريضـة سـوداء، وقـال لهـا ـ وهـو يحـاول أن يبـدو ودوداً لأول مـرة: «رؤيتـك تسـرُّني، علـى الأقل»، كان مـن الممكـن أن تنطلـي هـذه الحيلـة علـى جميـع النسـاء، فـي مـا عـدا مارثـا، فمـا كان منهـا إلا أن رفعـت أحـد حاجبيهـا، وطـوت المجلـة، وضربتـه بهـا علـى ذراعـه.

«كفـى ذلـك: تعالـي والتقـي كـورا، ستكون سـعيدة بحضـورِك. كنـت أظـن أن غاريـت قـد حضـر معـك».

«إنـه يقـرأ عـن الشـلل، مـا الـذي يمكنني أن أفعـل حيـال ذلـك، لكنـه سـينضم إلينـا فـي وقـت لاحق».

«جيـد، أريـد أن أتحـدَّث إليـك عـن شـيء مـا»، ثـم قالـت وهـي تهـزُّ المجلـة: «مـن المسـتحيل أن تكـون جـادّاً بشـأن أي شـيء مـع ذلـك الرجـل فـي الغرفـة. كيـف كانـت الرحلـة؟».

«وبينمـا يـدوّي صـراخ طفـل مـن شـارع ليفربـول إلـى تشيلمسفورد، توقَّـف سبنسـر فقـط، عندمـا تذكَّـر مـا قالـه غاريـت بـأن جسـده سـيفقد كل المـاء، وينكمـش، وقـد يمـوت قبـل أن تصـل إلـى مانينغتـري».

أبـدت مارثـا قـدراً مـن التذمُّـر: «لا أدري كيـف يمكنـك أن تكـون بصحبـة كـورا فـي وجـوده، هـل هـذا هـو فندقـك؟»، قالتهـا، بينمـا تتفقَّـد المنظـر الباهـت لفنـدق جـورج وسـلاله المعلَّقـة. «نحـن فـي ريـد ليـون، بعـد ذلـك بقليـل: لـم أكـن أعتقـد

أننا سنبقى طويلاً، أعجب فرانسيس بالمالك، وهكذا كانت الحياة هادئة في الآونة الأخيرة. كان الريش آخر قصصه المسلية، هل تعتقد أنه كان يحاول أن يصنع لنفسه زوجاً من الأجنحة، على الرغم من عدم وجود الكثير من الحس الملائكي بشأن هذا الصبي؟».

«ماذا عن كورا، هل هي بخير؟».

«لم أرها أبداً أسعد من ذلك، على الرغم من أنها في بعض الأحيان تتذكَّر أنها لا ينبغي أن تكون سعيدة، وترتدي ملابسها السوداء، وتجلس في النافذة، كأنها لوحة فنية حزينة»، وقد مرُّوا ببائعة زهور تغلق متجرها في الليل، وتبيع النرجس مقابل بنسٍ واحد، وباستخدام آخر عملة أو اثنتين من جيوبه، أراحها سبنسر من آخر ما لديها من زهور، وابتاع مجموعة من باقات الزهور الصفراء، وقال: «هيا لنحمل إحساس الربيع إلى كورا. سوف نملأ غرفتها، وننسيها أنها كانت حزينة في أي وقت مضى»، ونظر بسرعة إلى رفيقه خائفاً من أن يتحدث بما يخالفه، ربما كان من الأفضل أن نحترم حداد هذه المرأة المحترمة.

لكن مارثا قالت مبتسمة: «سوف تشكرك على ذلك، فقد قضت الوقت طوال الشهر، تبحث عن مظاهر الربيع، وكانت تعود إلى المنزل متعبة وموحلة وبمزاج سيئ، ثم كانت تعود ثانيةً بعد ذلك بيوم في وقت الظهيرة، كما لو كان هنا من دعاها إلى ذلك».

«هل اكتُشِفَت أي حفريات مؤخراً في إسكس؟ رأيت في الصحف أنه قد تم اكتشاف بعض الأنواع الجديدة على

ساحل نورفولك، بعد عاصفة شتوية، في بعض الأحيان أعتقد أننا يجب أن نسير على أفواج من الأجساد، دون أن ندرك أن جميع مساحات الأرض تكتظ بالمقابر». سبنسر الذي نادراً ما يتحدث عن مغامراته، تورَّد وجهه خجلاً، وانتظر رداً متجهماً، مثلما اعتاد من مارثا، ولكن هذه المرة لم يسِر الأمر على هذا النحو.

قالت: «حفرية من حفريات العلجوم أو اثنتان، لا شيء أكثر من ذلك»، لكنَّ لديها آمالاً كبيرة على أفعى إسكس، ها نحن ذا أمامنا مسافة صغيرة، وحينئذٍ، رأى سبنسر مدخل فندق له إطار خشبي، تتدلَّى فوقه لافتة حديدية مكتوب عليها «ريد ليون»، بخط مزركش.

قال سبنسر: «أفعى إسكس؟»، نظر إلى الأسفل، وكأنه يتوقَّع رؤية أفعى على الرصيف.

«إنها كل ما تتحدَّث عنه هذه الأيام، ألم تكتب إلى القصير، وتخبره؟ لا تزال هناك كثير من الأساطير التي يرويها البسطاء القرويون، حول أفعى مجنحة تخرج من مصبَّات الأنهار، وتهدّد القرويين على الساحل، والغريب أنه قد استقر في ذهنها، أن هذه الأفعى قد تكون من الديناصورات التي يُقال بأنها قد نجت من الانقراض، هل سمعت ذلك من قبل؟». وعندما وصلوا إلى عتبة الفندق، رأوا عبر ألواحه الزجاجية السميكة، ناراً في الموقد، وقد كانت هناك رائحة قوية من الشراب المسكوب، وحفل شواء بعيد عن الأنظار. «ما الذي يمكن أن تتوقَّعه من فقراء البلاد الذين لا يستطيعون القراءة أو الكتابة؟». كان صلفها اللندني يطغى على قمة

سانت نيكولاس، وحتى الزلازل وفندق ريد ليون، وكل ما في المدينة. «لكن كورا شغوفة جداً بذلك، وكانت تقول إنها حفرية حية على الأرجح، ستخبرك بأسمائها، بينما أنا لا أستطيع أن أتذكَّر أبداً، وكورا مصمّمة على استكمال بحثها».

قال سبنسر: «غاريت دائماً يقول إنها لن تهدأ، حتى يتم حفر اسمها على حائط المتحف البريطاني». «أستطيع أن أصدق أن ذلك قد يحدث أيضاً».

وعند ذِكر اسم الطبيب، تذمَّرت مارثا، وفتحت الباب: «اصعد إلى غرفنا بالأعلى لترى فرانسيس، سيتذكرك، ولن يمانع في رؤيتك».

لوك الذي وصل متأخراً، بعد محاولته تجسيد فقرة بشرية بالورق المعجَّن، وجد أصدقاءه جالسين على سجادة رقيقة، وملابسهم مرصَّعة بالريش، وعلى مقعد عند النافذة، كانت مارثا تتصفَّح إحدى المجلات، وتشاهد فرانسيس يخيط ريشاً من النوارس والغربان، بقماش معطف سبنسر، حتى بدا وكأنه ملاك يسقط فازعاً. خرجت كورا بخفة، وريش الطاووس يلتصق بالجزء الخلفي من فستانها، ومحتويات الوسادة تغمر كتفيها. لم يلاحظ أحد دخول القصير، حتى عاد ودخل مرة أخرى بشكل صاخب «ماذا يجري؟ هل أنا في مأوى للمجانين؟ أين جناحي إذن، أو هل يجب أن أبقى أرضيّاً، كورا، لقد أحضرت لك الكتب. سبنسر، أحضر لي شيئاً أشربه، هناك شيء على معطفك».

نهضت كورا والابتسامة تعلو شفتيها، وقبَّلت الضيف الجديد على خديه، وأمسكت بذراعه: «لقد أتيت، هل

كبرت؟ نصف بوصة، لا، هذا كان قاسياً، آسفة، لقد تأخَّرت كما تعلم، فرانكي، قلِ أهلاً (فرانسيس أصبحت لديه عادة جديدة كما ترى، ونتحلَّى جميعاً بالصبر حيالها). هل تتذكر لوك؟»، لم ينظر الولد إلى أعلى، وشعر أن الأجواء تتغير من حوله، فبدأ في استعادة كل ريشة متساقطة من على السجاد بصمت، والعد بشكل عكسي:

«ثلاثمئة وستة وسبعون، ثلاثمئة وخمسة وسبعون، ثلاثمئة وأربعة وسبعون...».

قالت كورا بأسًى: «انتهت لعبتنا الآن، على الرغم من أنه أصبح أكثر هدوءاً طالما وصل إلى إحداها...».

«تبدين مزعجة»، قال لوك؛ الذي كان يود لمس كل النمش الذي ظهر حديثاً على جبهتها.

«هل تمشّطين شعرك؟ يداك متسختان، وماذا ترتدين؟».

قالت كورا: «أردت أن أجرب بعض التحرر لأكون جميلة، لم أكن أكثر سعادة. لا أستطيع أن أتذكر عندما نظرت آخر مرة في المرآة».

قالت مارثا: «بالأمس، كنتِ معجبة بأنفك، مساء الخير دكتور غاريت».

وقيل ذلك متزامناً مع شعور لوك بهزَّة خفيفة بسبب البرد، وقد يكون ذلك محاولة منها لتجاوز عدم حضور المالك، ودون الالتفاف إلى الغرفة المليئة بالريش، حمل فتى من الفندق، صينية من البيرة، ووضعها على خزانة جانبية، ثم تبع ذلك طبق من الجبن واللحم البقري البارد المطهو بالزبد

الأصفر، ورغيف أبيض مجدول، وطبق من الزبد باهت اللون المملَّح، وأخيراً كعك بالكرز، تفوح منه رائحة الشراب، وكان من المستحيل الحفاظ على مزاج سيئ في وجود هذه الوليمة، وابتسم لوك في وجه مارثا، وناولها تفاحة خضراء.

سبنسر، وهو جالس إلى جانب مارثا على المقعد بجانب النافذة؛ لمشاهدة المارة على الأرصفة السوداء الرطبة في الأسفل، أخذ مجلتها، وقال: «كنت ستخبرينني عن هذا، هل لي أن أرى، ماذا كنت تقرئين؟»، قام بتصفح الكتيب الذي احتوى على إحصاءات محيّرة حول زيادة عدد سكان لندن، والعواقب الكارثية للتطهير الحضري.

أخذت مارثا ترمقه، والحقيقة أن بداخلها قدراً من الكراهية تجاهه، وقد حاول تغيير ذلك، وبالتأكيد كان يبدو طيباً بما فيه الكفاية، ولطيفاً، رأته يقوم بمحاولات مع فرانسيس لم يقُم بها أي زائر آخر (كل تلك الألعاب السريعة للعبة الشطرنج، تنتهي بهزيمة سبنسر!)، وأعربت عن إعجابها بجهوده للحفاظ على انضباط القصير، والأهم من ذلك، أن كان يعامل كورا بصداقة مهذبة، لم يحاول مرة واحدة أن يتخطى حدود العلاقة بينهما، لكنها لم ترَ سوى ثرائه ومعطفه المترف، والقليل مما كانت تعرفه عن ظروفه (حيازة المزيد من الممتلكات أكثر مما كان يمكن أن يستفيد منها، والتدريب في مجال الطب، كنوع من الهواية، بينما كانت النساء قانعة بالحساء والفراش)، لذلك، وضعته في قائمة من حسبتهم أعداء في حياتها.

ومن المفارقات، أن جذور الاشتراكية ما زالت في

قلب مارثا، مثلها مثل أي عقيدة موروثة من فترة الطفولة، وحماسها المتقد، وقد كانت القاعات المجتمعية وساحات الاعتصامات مقصدها، وآني بيزنت وإليانور ماركس كانتا دليلها، وكانت الأغاني الشعبية التي تصف معاناة الإنجليز وواقعهم، هي كتاب ترنيمها الخاص، وفي مطبخهم في وايت تشابل، كان والدها بيديه الحمراء من غبار الطوب، وجدلات بصمات أصابعه الناعمة، يَعُد راتبه، ويستقطع منه رسوم النقابة العمالية، ويكتب مشاركاً في العريضة المقدمة للبرلمان، لتعيين حد العمل لمدة عشر ساعات في اليوم الواحد، وكانت أمها تخيط الشيلان والغفائر، برموز الصلبان الذهبية وصور البجع، وكانوا يُقطِّعونَ القماش لصنع لافتات الاعتصام، ويقتطعون من ميزانية المنزل لأخذ حساء اللحم البقري إلى الفتيات المضربات في براينت آند ماي. «كل ما هو صلب يذوب في الهواء»، كما قال والدها، وقد كان يردّد كلام ملهمه: «وكل ما هو مقدس تم انتهاكه! مارثا، لا تُحني رأسك في طريق الأشياء التي كانت وتكون، الإمبراطوريات كلها لا تسقط إلا باللبلاب والوقت. كان يغسل قميصه في حمام الصفيح الصغير، وتحول الماء إلى اللون الأحمر، وصار يغنّي حتى تجف الملابس:»إذا كان آدم يحفر في الأرض وحواء تغزل، فلمَ يستنكف من يسمون أسياداً ونبلاء العمل؟». عندما سارت مارثا من لايمهاوس إلى كوفنت غاردن، لم ترَ نوافذ عالية وأعمدة دوريك، ولكنها رأت عمالاً يكدحون، وبدا لها أن الطوب في المدينة كان أحمر اللون بدماء مواطنيها، وكأنما الملاط ممزوج من غبار عظامهم، يضربون بجذورهم في أعماقها، وكان النساء والأطفال يتدافعون تحت الأقدام، حاملين المدينة على ظهورهم.

إن أخذ مكانها في منزل كورا، كان عملاً من أكثر الأعمال نفعية، لقد أمَّن لها درجة من القبول الاجتماعي، وبأجر معقول، وضعتها بقوة خارج الطبقة التي احتقرتها، وتأصَّلت في داخلها، لكنها لم تتمكَّن من التغلب في المفاوضات على كورا سيبورن، بعد كل شيء، من يستطيع ذلك؟.

توهَّجَ وجه سبنسر الطويل والحزين، وكانت حريصة على إرضاء شغفه، وأرادت أن تشاغبه واختبار شجاعته، وقالت:»كل ما هو صلب يذوب في الهواء«.

قال: «شكسبير؟».

قالت مارثا مبتسمة:»كارل ماركس، أخشى أنه كان حاداً نوعاً ما. نعم، كان هناك شيء أريد أن أخبرك به، لأن الحقيقة المؤسفة، أن سبنسر ومَنْ مثله، مهما احتقرتهم، كانوا مصادر مفيدة للنفوذ والدخل، وفتحت الصفحات، وأشارت إلى خريطة توضح خطط التطوير الجديدة لأفقر مساكن لندن، وقالت إنها ستكون مناطق صحية وواسعة، سيكون للأطفال مساحات خضراء للعب بها، وسوف يكون المستأجرون في مأمن من نزوات المُلَّاك، ولكنها نقرت بازدراء على الأوراق، وقالت، لتأهليهم إلى السكن في هذه المناطق، يجب على المستأجرين إثبات حسن الخلق. «من المتوقَّع أن يعيشوا حياة أفضل منك ومني، ويجب عليهم أكثر من أي وقت مضى، ليستحقوا سقفاً فوق رؤوس أبنائهم، ألَّا يكونوا في حالة سُكْر، أو يقوموا بإزعاج الجيران، أو يقامروا، والله لا يسمح بالكثير من الأطفال من قبل العديد من الآباء، في كثير من الأحيان. أنت، سبنسر، بما تملكه من عقارات وحصص، يمكنك أن

تشرب في أي مكان، وحتى على الميناء، ولن يكون من حق أحد أن يتحدث معك، ولكن إنفاقهم لما يملكون من مبالغ ضئيلة على الشراب الرخيص والكلاب، وعدم توافر مساحة كافية للنوم في سرير جاف بالنسبة إليهم، أمر غير محبَّذ من وجهة نظري».

لم يتسنَّ لسبنسر أن يستوعب تماماً أزمة الإسكان الرأسمالية التي تصدَّرت عناوين الصحف، وشعر باحتقار بالغ لثروته وحالته الاجتماعية، بما يفوق الكلمات التي تلفظت بها، ولكن في غمرة احتقارها هذا، بدت مرغوبة بالنسبة إليه أكثر من ذي قبل، وكما لو أن غضبها عداه، شعر بثورة الغضب تستعر في معدته، وقال: «ماذا ستفعلين، في حال تم إهداؤك أحد تلك البيوت، واكتُشِفْت لاحقاً تكسرين أقداح الشراب فوق رأس جارك في الشارع؟».

أجابته قائلة، وهي تدفع صحنها بعيداً: «سوف تبقى في الشوارع أنت وأطفالك، وهو أمر تستحقه تماماً، نحن نعاقب الفقر»، وأضافت قائلة: «لو أنك شخص فقير وتعيس، وتتصرَّف على النحو المتوقَّع من الفقير والتعيس، فلن يكون أمامك أي فرصة لتحقيق أي مكاسب وعيش حياة أفضل، وسيُحكَم عليك بمزيد من التعاسة والفقر».

لطالما كان مرتبكاً حيال هذه المواقف، فقد كان ينظر بعدم راحة إلى غناه الفاحش، مقارنةً بمن هم أكثر فقراً، وكان يشعر كما لو أن جيوبه امتلأت بالذهب اللامع، وأخذ يبحث عن الكلمات، سواء بالموافقة أو الاستنكار، فكان لا بد من القيام بشيء ما لعلاج الموقف، وطرح الأسئلة، وهلما جرا...،

ولكنها قالت بنبرة مسيطرة «سأقوم بشيء حيال ذلك الأمر»، وبدت كأنما أرادت أن ترجئ الحديث عن أي تفاصيل أخرى حول هذا الموضوع، فرفعت نبرة صوتها قائلة: «الآن كورا، هل أخبرت القصير بشأن قس إسكس المسكين والأفعى؟».

كورا، التي كانت في تلك اللحظة ترقد قرب قدمي لوك، حكت قصتها، وكيف أنقذت الشاة من براثن غول إسكس، وتحدثت عن لقائها تشارلز أمبروز، وكيف علما بوجود الوحش في نهر بلاك ووتر؛ الذي تحرر بسبب الزلزال، وعرضت صوراً فوتوغرافية للبلصور المكتشف في مدينة لايم ريجيس، وأشارت إلى ذيله الطويل وزعانفه التي تشبه الأجنحة، وأضافت: «إنه تنين البحر، وهو الاسم الذي أطلقته عليه ماري أنينج، ويمكنك أن ترى السبب، أليس كذلك؟ ألا ترى السبب؟» وأقفلت الكتاب وهي تشعر بنشوة النصر، وأخبرته كيف خططت للذهاب إلى الساحل، حيث يلتقي نهر بلاك ووتر مع كولن عند المصب، ومن ثم تتدفَّق مياهه في اتجاه البحر، وكيف فرضهما تشارلز أمبروز هم وأسرتهم على رجل دين ريفي غافل وأسرته البسيطة، وبدت ضحكة صديقها الساخرة، كأنها تهدّد بتصدُّع أعمدة السقف السوداء، وتضاعفت حدة المرح، وأشار إلى حذائها وأسفل أظفار أصبعها، والمكتبة الصغيرة التي توجد بجانب حافة النافذة، وما بها من كتب تدعو للإلحاد، وكانت هناك أيضاً رسالة الدعوة العذبة التي أرسلتها ستيلا رانسوم، التي لم يتم كشفها حتى الآن، ونُقِلَت من يد إلى يد، وزهرة الربيع الشاحبة، وتمتمت مارثا بينها وبين نفسها: «يا لها من امرأة عزيزة ستيلا رانسوم»، (وهو أمر توصل إليه الجميع، على

ما يبدو)، ولا بد بأي طريقة حمايتها من كورا، التي سوف تهدّدها أكثر مما قد تفعل أي أفعى بحرية.

قال: «آمل أن يكون القس المبجَّل مخلصاً، فسيحتاج إلى ذلك»، وفقط سبنسر الذي كان يراقب الموقف من مقعده عند النافذة، رأى في مرح لوك الصاخب، إرباك رجل طالما أراد الاحتفاظ بكورا لنفسه، وفضَّل عدم وجود أي صديق أو كاتم سر مقرب منها، وحتى لو كان شخصاً يتابعها مثل كلب ذليل، أو شخص بطيء الفهم.

وبعدها ببرهة، قالت مارثا وهي تراقب سبنسر من عند النافذة، وهو يوجِّه صديقه إلى المسافة القصيرة للوصول إلى فندق جورج «أنا أحبه، لطالما اعتبرته غبيّاً، ولكنني أعتقد حقّاً أنه عطوف».

قالت كورا: «يصعب التفريق بين الشيئين أحياناً، وفي أحيان أخرى، يمكن لهما أن يصيرا نفس الشيء، هل يمكن أن تصحبي فرانسيس لغرفته؟»، «سوف أنظف الريش حالاً؛ حتى لا يعتقد الخدم أننا كنا نقيم قداساً أسود، وبتلك الطريقة نخسر سمعتنا».

2

وقفت ستيلا رانسوم قبالة النافذة ترتدي ثوبها الأزرق. كان المشهد المفضَّل لديها، الطريق الحدودي المُربَّع المغطّى بأزهار الجريس، وما وراء ذلك هاي رود، المكون من مجموعة أكواخ ومحال تجارية، وبرج جميع القديسين الراسخ، وجدران المدرسة المصنوعة من الطوب الأحمر الجديد. لم يسرها شيء أكثر من الشعور بأن كل ما حولها كان صخب الحياة، وأحبَّت بداية الربيع، عندما تسارعت البراعم الخضراء على شجر البلوط في منطقة تشارلز الخائن، وتحرَّر أطفال القرية من الملابس الثقيلة والألعاب الداخلية. تضاءلت بهجتها المعتادة؛ التي لا يمكن كبتها بحلول فصل الشتاء الطويل، الذي لم يكن لديه بريق الثلج، كانت فقط فترة برد موحشة، حتى عيد الميلاد، لم يجعله مُتحمَّلاً، مع ازدياد حرارة الطقس، تراجع السعال الذي أبقاها مستيقظة ليلاً، وكانت البصمات الرمادية تحت أعينها المرهقة قد اختفت. هذا أيضاً سرَّها، فهي لم تكن مغرورة، فقد استمتعت فقط بمظهرها، بنفس الطريقة التي كانت تسرها في زهرة الكاميليا القرمزية، عندما تتفتَّح زهورها السوداء على العشب الأخضر. كان شعرها الأبيض الناصع، ووجهها الذي على شكل قلب، وعيناها الزرقاوان بلون البنفسج، منظراً سارّاً بما فيه الكفاية

في المـرآة، وأمـراً مسـلَّماً بـه. صحيـح أن ويـل لـن يسـتطيع بعـد الآن أن يطـوّق خصرهـا بيديـه الممدودتيـن، ولكنهـا أخـذت ضخامتهـا الجديـدة بمـرح، لقـد كانـت دليـلاً علـى الأطفـال الخمسـة الذيـن حملتهـم، والثلاثـة الذيـن بقـوا.

سـمعتهم فـي الطابـق السـفلي ينهـون عشـاءهم المبكـر، وعندمـا أغلقـت عينيهـا، كانـت تراهـم بوضـوح، كمـا لـو كانـت ذهبـت إلـى المطبـخ. انحنـى جيمـس، بينمـا رسـم آلاتـه الرائعـة، تـم تجاهـل كل الطعـام عندمـا رسـم شـكلاً آخـر مـن التـروس أو الحذافـة، وجوانـا الأكبـر سـنّاً، تميـل بشـدةٍ إلـى جـون، الأصغـر، الـذي كان بـلا شـك يشـرع فـي أخـذ قطعـة ثالثـة مـن الكعكـة. كانـوا مسـرورين لحضـور زوَّار الليـل، (فقـد كانـوا يعشـقون تشـارلز أمبـروز، كمـا فعـل جميـع الأطفـال، لعمـق جيوبـه وألـوان معطفـه)، فقـد سـاعدوا فـي إعـداد طاولـة الطعـام، ووضـع كل قطعـة مـن الفضـة والزجـاج في المنـزل، وكانـوا يصيحـون علـى مناديـل أمهـم الورقيـة التـي خيطـت عليهـا وردة أذن الفـأر؛ التـي لـم يُسـمح لهـم باسـتخدامها. كانـت جوانـا الوحيـدة المسـتيقظة للترحيـب بالضيـوف، ووعـدت بتجميـع مـا يمكـن مـن حكايـات لترويهـا للأطفـال الصغـار علـى الإفطـار، وقالـت: «أعتقـد أن الأرملـة سـتصبح سـمينة كالحصـان الـذي يجـر العربـة، وستتسـاقط دموعهـا فـي الحسـاء»، وأردفـت قائلـةً: «سـيكون ابنهـا وسـيماً وغنيـاً وغبيـاً، وسـيطلب منـي الـزواج، وسـأرفضه، وسـوف يستشـيط غضبـاً».

شـعرت سـتيلا، كمـا فعلـت فـي كثيـر مـن الأحيـان، بالانبهـار مـن الحـظ الطيـب الـذي كانـت تعـرف أنـه هديـة لـم تفعـل شـيئاً لتكسـبها. إن حبهـا لـويل؛ الـذي أصابهـا فجـأة مثل الحمَّـى عندمـا

كانت في السابعة عشرة من عمرها، وكان مرعباً للغاية، لم يهدأ أو يفتر، ولو لفترة وجيزة، خلال السنوات الخمس عشرة من زواجهما، ولقد حذَّرتها أمٌّ محبطةٌ في كل جانب من جوانب الحياة، أنها يجب أن تُبقي توقُّعاتها حول السعادة متدنيةً، فمن المرجَّح أن يطلب الرجل -من غير رغبتها- أن تتحمَّل بشجاعة من أجل مصلحة الأطفال. كان يتعب منها بسرعة، ولكن بحلول ذلك الوقت ستكون ممتنَّة؛ سوف يصبح سميناً، حيث كان رئيساً لأبرشية القرية، ولم يكن غنيّاً أبداً، لكن ستيلا؛ التي كان مجرد وجود ويليام رانسوم، بعينيه القاسيتين وإخلاصه وفكاهته المدفونة بعمق، معجزةً على قدم المساواة مع حفل الزفاف في كانا، لا يمكن أن تمنع نفسها من الضحك على والدتها، وتقبيلها على خدها. شعرت آنذاك، وما زالت تشعر بشفقةٍ حنونة على أي امرأة لم يكن لديها شعور الزواج بحبيبها؛ مثلما تزوَّجت هي ويل. لقد عاشت والدتها فترة كافية ليخيب أملها بسبب فشل ابنتها وخيبة أملها. تعاملت الفتاة مع كل أحداث الزواج بفتور، بما في ذلك فرحة الأم بانتظار وليدها. كانا يسيران في طريق هاي روود في ألدوينتر متشابكي الأيدي، حتى مأساة فقْد طفلين لم تقوّض حُبهما، بل عمّقت أواصر الحب بينهما. اعترفت ستيلا، بين الحين والآخر، أنها ربما كانت أكثر سعادةً في لندن أو سَري، حيث بالكاد تستطيع عبور الطريق دون أن تصنع صديقاً جديداً، لكنها كانت لطيفة، ولا تعرف الملل، حين يتعلّق الأمر بالنميمة، ووجدت غايتها الكافية في ألدوينتر؛ لتعزّز اهتمامها برفيقها، دون أن يُسمَع صوتها وهي تتكلم بالسوء عن شخص.

في غضون ذلك، لم يخرج ويل من حجرة الدراسة منذ الإفطار، وكان من عادته ألا يرى أحداً يوم السبت حتى المساء، عندما احتفظ، بقدر الإمكان، بكأسٍ واحدة من الشراب الجيد. بالنسبة إلى كل المضايقات التي يمارسها الأصدقاء والعائلة في المنفى الطوعي؛ الذي اختاره لنفسه في هذه الأبرشية الصغيرة (كان من المتوقع أن تقضي عليه خلال سنة واحدة)، أخذ واجباته يوم الأحد على محمل الجد، كما لو أنه تلقّى تعليمات في الأدغال المشتعلة. لم يكن لديه ذاك النوع من الدين الذي عاش فقط على القواعد والمبادئ، كما لو كان موظفاً حكومياً. لقد شعر بإيمانه بعمق، فهو يسمو فوق ما دونه، حيث كانت السماء الزرقاء، عبارة عن صحن كاتدرائية محمول على أعمدة جناح الكنيسة المصنوعة من البلوط، فعندما يضعُف الإيمان، كما كان يفعل في بعض الأحيان، رأى السماوات تحتفي بعظمة الخالق، وسمع الحجارة وهي تئن.

بينما يضع علاماتٍ على قراءات الصباح في كتاب الصلاة، ويؤدي الصلاة من أجل سلامة ألدوينتر، وجميع من كانوا فيها، سمع أيضاً صرخة الأطفال في الغرفة عبر الممر. كان ذلك تذكيراً غير مرحَّب به، يوحي بقرب انتهاء وقته في العزلة الهادئة: دقت الساعة السادسة فوق رف المستوقد، وبقيت ساعتان على رنين جرس الباب الذي يقاطع هدوءه.

لم يكن رجلاً بخيلاً بطبعه، رغم أنه لم يشارك زوجته رغبتها الشديدة في أن توجد دوماً بصحبة الآخرين، ولقد أحب ويل تشارلز وكاثرين أمبروز حُباً أكثر من إخوته، وكانت اللقاءات المتكرّرة من أهل الأبرشية القلقين دائماً، مدعاةً

للترحيب، ولطالما أحب رؤية ستيلا، وهي محل إعجاب ممن حولها، وتترأَّس الطاولة بدفئها ولباقتها المعهودتين، بينما تطل برأسها الجميل من تلك الناحية، لتراقب سرور ضيوفها، لكن كيف لأرملة لندن والعجوز التي ترافقها وابنها المدلل، أن يدركوا مثل هذا الأمر؟! هزَّ رأسه وأغلق كراساته بعنف، وقال لنفسه إنه سوف يقوم بواجبه على أي حال، لأنه دوماً ما فعل هذا، ولكنه لن ينخرط في ممارسة سيدة ثرية لهوايتها في الاهتمام بالعلوم الطبيعية، ربما على حساب صحتها الروحية، وفي حال طلبت هي منه أن يرافقها في مخطط أرعن للكشف عما كان مدفوناً في طمي إسكس، أو الكائنات التي لا تزال تحيا في مصب النهر، كانت ستتلقَّى رفضاً مهذَّباً وصارماً.

كان الأمر في الواقع جزءاً من المشكلة، بحسب اعتقاده، حيث رفض دوماً الاعتراف بتمجيد إشاعات أهل البلدة القلقة؛ التي تجسَّدت في اسم وحش أو أفعى، وكانوا يتعرَّضون لتجارب؛ مثل اختبار الذهب في النار، ويخرجون من تلك التجارب وهم أكثر طهارةً، وقال «فلتمجّدوا الإله»، ولكنه شعر بمرارةٍ بعض الشيء، واتجه للبحث عن الشاي.

«أنتِ لست كما توقَّعتك على الإطلاق!».

«ولا أنت أيضاً، أنتِ صغيرة جداً لتكوني أرملة، بل وجميلة جداً!».

في تمام الساعة العاشرة وثماني دقائق، جلست ستيلا رانسوم وكورا سيبورن جنباً إلى جنب، على الأريكة الأقرب إلى المدفأة، وخلال بضع دقائق، شعرت كلتاهما بالود تجاه

الأخرى، لدرجة أنهما اتفقتا على أنه من الخزي البالغ ألا تكونا قد تقابلتا في فترة الطفولة، واعتادت مارثا على مودَّة صديقتها المفاجئة، وفقدانها المفاجئ، ولم تكترث للأمر، وراقبت جوانا بخجل وهي تخلط أوراق اللعب، وبدا وجه الفتاة الجاد والذكي، وضفيرتها الرفيعة، مدعاةً للسرور، واقتربت منها، وأشارت إلى أنه يجدر بهما أن يلعبا لعبة.

قالت كورا؛ وهي تشعر بالسرور من الكذبة الرقيقة: «آه، أنا لست جميلة أبداً»، وأضافت قائلة: «كانت أمي تقول دائماً إن أقصى ما يمكنني تنميته، هو التفكير فيما يأسر الألباب من حكمةٍ، وهو أمر يناسبني جدّاً، ورغم أنه من الصحيح أنني كنت أرتدي ملابس أكثر احتشاماً عن المعتاد، فأنا كنت أخشى دائماً من ألا تدعني أخطو عتبة الباب، إذا رأتني في وقت ما بعد الظهيرة». بدا الأمر صحيحاً على أي حال، لأن مارثا أصرَّت أن ترتدي زيَّها الأخضر الجميل، وكان من الممكن تخيُّل نمو أي نوع من الحشائش أو الطحالب الخضراء في طياته، ونجحت في إخفاء الندبة التي توجد في رقبتها في منطقة الترقوة، بوشاح شاحب اللون، ولمرةٍ واحدة، ارتدت حذاءً يليق بامرأةٍ ناضجة، وقامت مارثا بتصفيف خصلات شعرها مئة مرة، وصفَّفت الجدائل وثبَّتتها بدبابيس الشعر التي كانت موجودة على السجادة.

«ويل سعيد جدّاً بمجيئك، ويزعجه التأخُّر أيضاً، حيث استُدعيَ للتو ليرى أحد رجال الأبرشية ممن يعيشون في طرف القرية، ولكنه لن يغيب كثيراً».

«أنا أتوق إلى مقابلته بشدةٍ!»، كان هذا الأمر صحيحاً

أيضاً، قرَّرت كورا أن تلك السيدة اللطيفة بوجهها الطيب وشعرها الأصفر المائل إلى البياض، لن تكون سعيدةً إذا تشاركت حياتها مع رجل دين أحمق ذي قدم مسطحة، وكانت على أتم الاستعداد أن تحبه وتشاركه حياته، وتستقر على الوسائد بسعادةٍ، وهي تمسك بكأس الشراب». «كان من قبيل اللطف البالغ أن تقومي بدعوة ابني، ولكنه ليس على ما يرام، وأنا لم أُرِده أن يسافر».

اغرورقت عينا السيدة الأخرى بالدموع وهي تقول «آه!»، وهو ما لفت النظر إلى زرقة عينيها، وسرعان ما مسحت عينها وقالت: «إن فقدان الأب أمرٌ بالغ القسوة، أنا حزينة جداً لأجله، وبالطبع، كان يجب أن أعلم أنه لن يرغب في قضاء الأمسية مع الغرباء».

لم تستطع كورا؛ بسبب طبعها الذي يتسم بالأمانة، تحمُّل رؤية الدموع التي تتساقط بسبب الحزن الذي لم يشعر به أحد في واقع الأمر؛ فقالت: «إنه يتحمَّل الأمر بشكلٍ جيد، إنه.... طفل غير عادي، وأعتقد أنه لا يشعر بالأمور بعمقٍ، مثلما قد يخطر ببالك»، ولأنها لاحظت أن مضيفتها شعرت بالارتباك، سرَّها أن تنجو من أي تفسير آخر، بسبب جَلبةٍ قُرب عتبة الباب، وصوت الحذاء على كاشطة الأحذية، فضلاً عن صوت صرير المفاتيح التي تدور في القفل، وقفزت ستيلا رانسوم، ونهضت لتوّها، وقالت متسائلةً: «ويليام، هل هذا كراكنيل؟ هل أصيب بأي مرض؟».

نظرت كورا وشاهدت عند مدخل الباب رجلاً ينحني ليُقبّل سيدةً في مفرق شعرها الفاتح اللون. بدت ستيلا صغيرةً

جدّاً؛ لدرجة أنه بدا أكبر منها، رغم أنه لم يكن أطول قامةً منها. كان الرجل يرتدي زياً أنيقاً ومعطفاً أسود اللون، حيك بشكلٍ جيد على كتفيه، ينُمُّ عن عرضٍ وقوةٍ تتباين بشدةٍ مع منصبه ذي الياقة البيضاء. لم يكن شعره مصفَّفاً أبداً، إلا إذا تم تصفيفه إلى الخلف قرب فروة الرأس، وتساقطت الجدائل البنية الشاحبة التي بدت حمراء بفعل ضوء المصابيح، وبعد أن عانق زوجته أبقى يديه على خصرها بخفةٍ، وبدت أنامله عريضة وقصيرة نوعاً ما، ونظر إلى الوراء ناحية الباب وقال: «لا يا حبيبتي، كراكنيل نفسه لا يشعر بالمرض، انظري من وجدت في طريقي؟». وقف جانباً، ونزع ياقته البيضاء من رقبته وألقى بها على الطاولة، ثم ظهر تشارلز أمبروز وهو يرتدي معطفه القرمزي اللون، وخلفه كاثرين، تختبئ وراء باقة من الزهور المثيرة، وكان عطرها فواحاً، وظنَّت كورا أن الرائحة نفذت إلى معدتها، ولم تفكر بالسبب، إلى أن تذكَّرت آخر مرة رأت فيها أزهار السوسن، عندما كانت حول المنصة التي رقد عليها نعش زوجها.

وفي غمرة موجة الترحيب التي شعرت فيها كورا بالسرور، لأنها لم تكن محور اهتمام الجميع، أخيراً راقبت مارثا والفتاة وهما منخرطتان في لعبة سوليتير، وقالت جوانا فجأة: «الملكة في مرحلة العد»، ورمت ورقة لعب أخرى، وبعدها توقَّفت فترة السلام القصيرة، وأتى الحشد واحتضن كلاً من تشارلز وكاثرين كورا، وربتا على وجنتها، وتأمَّلا جمال فستانها، وصاحا في دهشةٍ وتعجب من عدم وجود الطمي على حذائها، وسألاها: «هل هي في حالٍ جيدة؟»، وتعجَّبا من شعرها النظيف جدّاً واللامع! وها هي مارثا،

وتساءلا عن أحدث مكائدها؟ وها هو فرانكي، هل اعتاد جو الريف؟ وماذا عن تنّين البحر، هل سوف تشاهد كورا اسمها مطبوعاً على صفحات جريدة التايمز؟، ألم يحبوا ستيلا في نهاية المطاف؟ وماذا فعلت مع القس ويل؟.

في تلك اللحظة، جاء صوت هادئ وعميق يشوبه المرح، لكن كورا اعتقدت أنه يفتقر إلى الحماسة، قائلاً: «يجب عليَّ أن أرحّب بضيوفنا يا تشارلز، فهالتك تأسرني، ولا يمكنني إبعاد ناظريَّ عنك». تنحَّى تشارلز أمبروز جانباً، ورفع ذراعه، ووجَّه مضيفتهم نحو الأريكة التي جلست عليها كورا، ورأت فوق العنق الظاهر من القميص الأسود فماً تزايله ابتسامة، وعينين بلون البلوط اللامع، ووجنة بدا أنها جُرِحت جرحاً عميقاً بسبب الحلاقة، وعلى مدار سنوات عمرها الطويلة في الحياة الاجتماعية، كانت دائماً تتباهى بنفسها على تقييمها الفطن للحالة الاجتماعية وطبيعة الشخصية لمن تقابلهم؛ هنا -مثلاً- رجل الأعمال الثري الشاعر بالحرج من نجاحه، وهنا السيدة رثَّة الملابس، ومع هذا تعلّق إحدى لوحات الفنان الفلامنكي فان ديك على الدرَج، ولكن هنا رجل يصعب تصنيفه، مهما حملقت في حذائه اللامع جدّاً، وأكمامه التي جذبها بعض الشيء أعلى ذراعيه، فهو قوي البنية، لدرجة أنه يستحيل تخيُّله كقس يعمل في وظيفة مكتبية، ولكنَّ نظرته المحدّقة، تبدو برصانةٍ لرجل يسعد بالعمل في الزراعة، وابتسامته تبدو بالغة التهذيب، لما تحمله من إخلاص، وعيناه تلمعان بمرح شديد، وكان يتردَّد في صوته (الذي قد سمعته من قبل قرب شوارع كولشيستر ربما، أو في أحد قطارات لندن)، أصداء لكنة أهل مقاطعة إسكس، ولكنه كان

يتحدَّث بنبرة عالِم، ووقفت بكل ما في قواها من رقَّةٍ، بينما كانت معدتها لا تزال متأثِّرة بسبب عطر أزهار السوسن، ومدَّت يدها لتصافحه.

من جانبه، شاهد ويل السيدة الطويلة الجميلة؛ التي بدا أنفها مليئّاً بالنمش، وثوبها المصنوع من نباتات الطحالب الخضراء (الذي أصاب في تخمينه أن قيمته المادية تبلغ ضعف خزانة ملابس ستيلا كلها)، رسم لمعةً في عينيه بوميض أخضر اللون، بينما كان لونها شديد الرمادية، وربطت وشاحاً شفافاً حول رقبتها، (يا للعبث هل اعتقدت فعلاً أن الوشاح سوف يبعث فيها الدفء؟)، وارتدت في إصبع الزفاف خاتماً من الماس، كسر بريقه الضوء حتى انعكس على الحائط، ورغم فخامة ملابسها، كانت تبدو عليها بعض الملامح الصبيانية؛ فلم تكن ترتدي أية مجوهرات سوى الخاتم، ولم يكن وجهها شاحباً، نتيجة لكثرة المساحيق الموضوعة عليها، بل كان متوهجاً عندما لامسته نفحات هواء بحيرات إسكس المالحة، وعندما وقفت، وجد أنها لم تكن حصان العربة الذي تنبَّأت به ابنته، إذ إنها لم تكن نحيلة، بل كانت ضخمة البنية، وتتمتَّع بحضورٍ قوي؛ فحسبما رأى، كان يستحيل تجاهل وجودها مهما حاول الفرد فعل ذلك.

لم يكن متأكِّداً على الإطلاق، سواء كانت تلك الحركة التي قامت بها حينما رفعت يدها، أو إدراكه أن لهما نفس الطول، إلا أنه في تلك اللحظة، عرفها في الحال. لقد كانت هي تلك المرأة العجوز المتسلِّطة؛ التي انبثقت من الضباب ذاك اليوم على طريق كولشيستر، حينما جمعا معاً الأغنام من فخّها الموحل، وأصيب هو بجرح في وجنته. كان متيقّناً أنها

لم تتعرَّف إليه؛ إذ كانت ابتسامتها رقيقة، رغم كونها متعالية بعض الشيء. كان التردُّد الذي انتابه قبل أن يمسك بيدها وجيزاً جداً بالتأكيد، لدرجة أن رفقاءهم لم يلاحظوه، ما جعلها تلقي نظرة أكثر عمقاً على مضيفها. لم يستطع ويل إخفاء بهجته؛ إذ لم يكُف عن الضحك لدى تذكُّره ذلك اللقاء الغريب عند البحيرة، ذات الليلة التي عاد فيها إلى منزله بمعطفه الموحل، فشرع في الضحك مرةً أخرى، وهو يلمس برفقٍ، العلامة الحمراء التي تسبَّب له فيها ذلك الحيوان.

سرعان ما أدركت كورا، السريعة جدّاً في فهم الأجواء المتغيّرة من حولها، إذ حينما وضع يده في يدها؛ التي ربما أحسَّت بشيء ما لدى ضغط قبضته على يدها، ما دفعها مرة أخرى إلى النظر لموضع الجرح على وجنته، والتجاعيد على ياقته، فتنهَّدت قائلةً: «أوه! أهذا أنت!»، فشرعت في الضحك أيضاً، وقد رأت مارثا (وهي تشاهدهما معاً بإحساس جارف من الخوف)، صديقتها ومضيفها يتشبَّث كل منهما بيد الآخر، مع فرحة عارمة لا يمكن تفسيرها. كانت كورا التي تتحكَّم دائماً في تصرفاتها، تحاول بين الفينة والأخرى، أن تكبح جماح نفسها، وتشرح لستيلا المذهولة، ما الذي أغرقهما في نوبة الضحك، ولكنها لم تستطع فعل ذلك. لقد كان ويل، في النهاية الذي ترك يدها، وانحنى انحناءة ساخرة، ممدّداً إحدى ساقيه، ويكأنه في بلاط الملكة، ثم قال: «تسرُّني مقابلتكِ للغاية يا سيدة سيبورن، هل أقدّم لكِ شراباً؟».

قالت وهي تهدّئ نفسها: «أودُّ حقاً كأساً أخرى من الشراب. هلا أعرّفك بصديقتي مارثا؟ فأنا لا أسافر أبداً إلى أي مكان من دونها»، وقد نجحت في كبت الضحك، فضغطت

على شفتيها معاً، لمنع انفجار نوبات أخرى من الضحك، ثم قالت بلطفٍ: «أشعر بالخجل»، وشاهدته بسرور، وهو لم يستطِع كبح جماح فرحته العارمة.

كانت ستيلا تشاهدهما باستمتاع، ولكنها لم تكن حريصة على معرفة الأحداث الخارجية، فقالت: «أفهم من ذلك أنكما قد تقابلتما من قبل».

أفاق صوتها ويل؛ الذي عرفها بكورا قائلاً: «تذكرين في الأسبوع قبل الماضي، كيف عدت إلى المنزل متأخراً مغطًّى بالوحل، لأنني سحبت شاةً من البحيرة، وكيف ساعدتني امرأةٌ غريبة؟ حسناً: ها هي الآن»، ثم التفت إلى كورا، وقال بجديةٍ مفاجئة: «أشعر أنه يجب عليَّ الاعتذار؛ فقد كنت وقحاً، ولا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك حينها».

قالت كورا: «لقد كنت متوحّشاً، لكنك أمتعت أصدقائي للغاية، إلى حدٍّ يجعلني أسامحك تماماً، وها هي مارثا التي لم تصدق أنني ظننتك مخلوقاً خرج من الوحل، وبالتأكيد سيعود إليه مرةً أخرى. أعرّفكِ يا مارثا على القس الموقَّر ويليام رانسوم. سيد رانسوم: صديقتي»، ثم لفّت ذراعها حول خصر مارثا، شاعرة بحاجة مفاجئة إلى ربط نفسها بشخصية تعرفها، وقد وجدت صديقتها تلقي على القس نظرة تقييم سريعة، ومن شبه المؤكد أنها لم تجده كفؤاً.

وفي هذه الأثناء، كان تشارلز يصفّق وكأن الأمر كله قد رُتّب لمتعته، إلى أن داهمته بعض الأمور العاجلة، فوضع يده بشفقةٍ على ذلك المنحنى الهائل من معدته، وقال لستيلا: «لقد سمعت أن هناك طائراً وفطيرة تفاح، أليس كذلك؟»،

فوقـف ويـل ومـدَّ ذراعـه اليسـرى إلـى زوجتـه واليمنـى إلـى مضيفتـه. عندئـذٍ تذكَّـرت جوانـا المهمـة التي كُلِّفت بهـا، فوثبت مـن فـوق أوراق اللعـب، وفتحـت بـاب غرفـة العشـاء. كانـت الإضـاءة تتوهَّـج مـن أنابيـب قُطِّعـت مـن الكريسـتال؛ الـذي انعكس بريقـه على خشـب الطاولـة اللامع، وقـد أزهـرت ورود أذن الفـأر الخاصـة بستيلا علـى مناديـل الطاولـة. كانـت الغرفـة ضيقـة، لـذا؛ بـات مـن الضـروري السير فـي صـفٍّ واحـدٍ وراء كراسـي الطعـام العاليـة الظهـر. لـم يكـن هنـاك شـيء عصـريٌّ أنيـقٌ فـي ورق الحائـط الأخضـر، ولا فـي الرسـومات المائيـة فـوق المدفـأة، إلا أن كـورا اعتقـدت أنهـا لـم تـرَ شـيئاً عائليـاً بسـيطاً هكـذا مـن قبـل، وتذكَّـرت غـرف شـارع فوليـس ذات الأعمـال الجصِّيـة على الأسـقف العاليـة، والنوافـذ الطويلـة التي منـع مايـكل كـورا مـن تعليـق السـتائر عليهـا، وقـد كانـت تأمـل بشـدةٍ ألا تراهـا ثانيـةً. كانـت جوانـا؛ التي ذُهِلَـت مـن تلـك المـرأة الضاحكـة الرائعـة ذات الثـوب الأخضـر، أومـأت بخجـلٍ إلـى بطاقـة كُتـب عليهـا اسـم كـورا، فـي أفضـل كتابـة بخـط جـون.

همسـت لضيفتهـا قائلـة: «شـكراً لـكِ»، ثـم سـحبت كـورا جديلـة الفتـاة برفـق، وقالـت لهـا: «لقـد رأيتـكِ تغلبيـن مارثـا فـي أوراق اللعـب: أنـتِ أذكـى مني بكثيـر!»، (وفـي مـا بعـد، حينمـا أخـذت جوانـا طبقـاً مـن الشـوكولاتة إلى أشـقائها لتحكـي أحـداث الليلـة قالـت: «إنهـا ليسـت كبيـرة فـي السـن، رغـم كونهـا غنيـة، ولديهـا حقيبـة مبيـت ليليـة، صُنِعَـت مـن جلـد التمسـاح؛ ولا أعـرف لمـاذا ذكرتنـي بجـان دارك، وقالـت لجـون أيضـاً «لا تـأكل كل الشـوكولاتة»، وكان لديهـا نبـرة صـوت غريبـة ولكنـة مميـزة. لا أعـرف مـن أيـن أتـت، ولكـن لا بـد أنهـا أتـت مـن مـكانٍ بعيـد»).

كانت ستيلا؛ التي افتتنت بضيفتها أكثر من أي وقت مضى، تشاهد كورا بعينيها اللتين تتوسَّط رموشها الطويلة الشقراء، حيث رسمت لها صورة لسيدة ذات كآبة متعمّدة، وهي تقضم طعامها برفقٍ، وتلوذ بالصمت حيناً، وتلعب في خاتم زواجها، أو تحدّق في وجه زوجها الفقيد بالصورة الموجودة داخل القلادة التي ترتديها. كانت بحق امرأة مثيرة للدهشة، أكثر من كونها امرأة تأكل بأناقة، ولكن في أحيانٍ كثيرة، كانت تعتذر باسمةً عن شهيَّتها، معللةً أنها سارت مسافة 10 أميال، وستفعل الشيء نفسه في اليوم التالي، وفي حضورها؛ انحرفت المحادثة انحرافاً مذهلاً عن مضمون عظة ويل، (أعرف ذلك جيداً، لذلك لن نخاف، على الرغم من أن الأرض قد تحرَّكت، وهلم جرا؟ وكيف تناسب أبناء طائفتك؟ وما مدى براعتك؟)، إلى تشارلز أمبروز ومخطَّطاته السياسية (هل استسلم العقيد هوارد يا تشارلز، هل يمكن للقس الموقر الترحيب بعضوٍ جديدٍ في البرلمان؟)، ثم سكت لحظة كي يستوعب فكرة بحث كورا عن الحفريات في الساحل.

قال تشارلز؛ وهو يخرج قطعة الشوكولاتة من غلافها: «لقد أخبرنا كورا بكل شيء عن أفعى إسكس الموجودة لديكم، كلتا الأفعتين في الواقع».

رد ويليام بهدوءٍ تام: «لا أعرف سوى أفعى واحدة، وإذا كان ضيوفنا مهتمين، فيمكنهم بالطبع أن يأتوا لرؤيته معي في الصباح».

قالت ستيلا: «إنها جميلة»، ثم مالت نحو كورا؛ واستطردت قائلةً: «إنها أفعى ملتفَّة حول ذراع مقصورة الكنيسة الخشبية

بكاملهـا، ذات الأجنحـة المطويـة علـى ظهرهـا، حيـث يعتقـد ويـل أن تلـك الأجنحـة للتجديـف، ويهـدد كل أسـبوع أن يزيلهـا بالإزميـل، لكنـه لـم يجـرؤ علـى ذلـك».

قالـت كـورا: «أود أن أراهـا بشـدة، شـكراً لكمـا!»، خبـت نـار المدفـأة قليـلاً، وحملـت كـورا كأسـها؛ حتـى باتـت قريبـةً مـن صدرهـا، وأردفـت قائلـةً: «أخبرينـي: هـل هنـاك المزيـد مـن الأخبـار عـن المخلـوق الـذي يقولـون إنـه فـي النهـر؟»، نظـرت ستيلا بقلـقٍ إلـى زوجهـا، حيـث تعـرف كراهيـة زوجهـا لـدى ذكـر المتاعـب، واسـتعدت لإحضـار القهـوة.

قـال ويـل: «لا توجـد أخبـار؛ مـا دام لا يوجـد مخلـوق، علـى الرغـم مـن أننـي أخشـى أن أحـد أبنـاء الأبرشـية قـد يعتـرض علـى هـذا الـكلام! فقـد ذهبـت لرؤيـة كراكنيـل»، ثـم التفـت إلـى سـتيلا وتابـع حديثـه قائـلاً: «وحتـى يأجـوج ومأجـوج قـد ماتـا»، فتجهَّـم وجـه سـتيلا وقالـت: «أوه!»، وهـي تقـرّر الخـروج فـي صبـاح اليـوم التالـي، وإحضـار وجبـة للرجـل العجـوز، وتابعـت قائلـةً: «المسـكين كراكنيـل، وكأنـه لـم يخسـر بمـا فيـه الكفايـة»، ثـم ناولـت ضيفتهـا فنجانـاً مـن القهـوة، وقالـت: «إنـه يقطـن بالخـارج علـى طـرف الأهـوار، وقـد دفـن آخـر أفـراد عائلتـه؛ كان يأجـوج ومأجـوج زوجـي الماعـز اللذيـن لديـه، وكانـا خيـلاءه وبهجتـه، وكانـا يمداننـا دائمـاً بالزبـد والحليـب، مـاذا حـدث يـا ويـل؟».

قـال ويـل: «سـمعته يقـول إن وحشـاً مـا ظهـر علـى عتبـة البـاب، وانتـزع إحـدى عنزتيـه مـن ذراعهـا، فـلا أحـد يؤمـن بالأفعـى أكثـر مـن كراكنيـل، ولكـن بالطبـع كان كل مـا فـي الأمـر فقـط، أنهـا انزلقـت مـن حظيرتهـا فـي إحـدى الليالـي، وحوصـرت فـي

الأهـوار إلـى أن سـحبها المـد»، ثـم تنهـد وتابـع حديثـه قائـلاً: «وقـال إنـه وجدهـا مجمَّـدة مـن الرعـب والهلـع، بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى، حتـى ماتـت! أخشـى ألا يوجـد شـيء يسـاعد علـى إخـراج هـذا الأفـكار مـن رأسـهم، كيـف أجعلهـم جميعـاً يـرون أن عقولنـا قـادرة علـى الحيـل الذكيـة، حتـى دون الإيمـان الـذي يسـاعدنا، سـنظل قادريـن علـى رؤيـة تلـك الحيـل، ثـم ثنـى يديـه، وكأنـه يسـتوعب العبـارة، وحـاول مـرةً أخـرى: «أعتقـد أن مـن الممكـن وضـع اللحـم علـى عظـام رعبنـا، والأهـم مـن ذلـك كلـه، عندمـا أخطأنـا فـي حـق الإلـه». أحـس بنظـرة كـورا الثابتـة؛ التـي كانـت مسـلية، وإن لـم تكـن بـازدراء؛ فأخفـى وجهـه وراء البخـار المتصاعـد مـن فنجـان القهـوة.

قالـت كـورا: «وأنـت تظـن أنـه مجنـون، ولا وجـود لمـا حكـى عنـه؟»، لـم تفعـل شـفقة كـورا علـى الرجـل العجـوز أي شـيء للتخفيـف مـن فضولهـا، فقـد كان ذلـك دليـلاً علـى شـيء مـا!

تذمَّـر القـس قائـلاً: «عنـزة ماتـت مـن الخـوف؟ هـذا سـخيف، لا يمكـن لبهيمـة حمقـاء، الشـعور بالخـوف إلـى هـذا الحـد، حتـى لـو تمكَّنـت مـن معرفـة الفـرق بيـن تنّيـن البحـر، أو أيّـاً كان مـا يسـمونه، والأخشـاب الطافيـة علـى الأهـوار. خائفـة حتـى المـوت! لا، كانـت علـى سـاقيها وخرجـت مـن الحظيـرة إلـى البـرد. لا توجـد أفعـى ضخمـة هنـا، غيـر تلـك المنحوتـة فـي الكنيسـة، وسـنتخلَّص منهـا أيضـاً؛ إذا أفسـحت لـي زوجتـي (لمـرة واحـدة) الطريـق!».

قالـت كـورا، المدافعـة دائمـاً عـن الشـيطان: «لكنـك رجـل الـرب الـذي يرسـل بالتأكيـد إشـاراتٍ وعجائـب إلـى شـعبه، هـل

من الغريب جداً بعد كل شيء، أن نظن أنه يختار أن يفعل ذلك مرة أخرى؛ كي يدعونا إلى التوبة؟». لم تستطع أن تكبح نبرة تهكُّم المشكّكين من صوتها، وقد سمعها ويل بوضوح، ورفع حاجبه وقال: «الآن أنتِ لا تصدقين ذلك أكثر مني. إلهنا هو رب العقل والأمر، وليس العقاب الإلهي في الليل! هذا ليس أكثر من همسات الصينيين في قرية فقدت بصيرة الإخلاص لخالقها، ومن واجبي أن أرشدهم إلى الراحة واليقين، وألا يستسلموا للشائعات».

ردت كورا: «وماذا لو لم تكن شائعة، ولا دعوة للتوبة، بل مجرد كائن حي، يجب فحصه وتصنيفه وتفسيره، كما قال داروين وليل؟».

هنا دفع ويل كأسه بلا هوادة وقال: «آه، لا يمر وقتٌ طويلٌ حتى نسمع تلك الأسماء. إنهم رجال أذكياء، لا أشك في ذلك، وقد قرأت لكليهما، وقد يكون هناك الكثير في نظرياتهم ستُثبت الأجيال القادمة صحته، لكن غداً ستظهر نظرية أخرى وأخرى، وهكذا؛ سوف تُرفَض إحداها، في حين تُمدَح أخرى، وستسقط نظرياتهم، وتُبعَث من جديد بعد عقدٍ من الزمان، مع إضافة حواشٍ وطبعة جديدة. كل شيء يتغيَّر يا سيدة سيبورن، والكثير منه يتغيَّر إلى الأفضل، لذا؛ ما المجدي من الوقوف على الرمال المتحرّكة؟ سنتعثَّر ونسقط، وفي الوقوع سنصير فريسة للحماقة والظلام، هذه الشائعات عن الوحوش، ليست سوى دليل على أننا قد أفلتنا الحبل الذي يربط بيننا وبين كل شيء جيد ومؤكد، لكن، ألا يعرف إيمانك إلا الغرابة والغموض، كُله دم وكبريت، الكل لا يرى شيئاً في الظلام، ويتعثَّرون ويصنعون الأشكال القاتمة

بيديكِ؟ أنتِ تتحدثين كما لو كنا في العصور المظلمة، كما لو أن إسكس لا تزال تحرق ساحراتها! لا، إن إيماننا ينطوي على التنوير والوضوح، أنا لا أتعثَّر، بل أركض بصبرٍ في السباق الذي أُعِدَّ لي، فثمة مصباح في طريقي!».

قالت كورا باسمةً: «لا أستطيع أن أجزم ما إذا كنت تستخدم كلماتك الخاصة أم كلمات الآخرين، لكنك قابلتني في وقتٍ غير مناسب!»، ثم رشفت آخر قطرة من قهوتها، تاركةً طبقة رقيقة من الحبيبات المرة على لسانها، ثم تابعت حديثها: «كلانا يتحدَّث عن تنوير العالم، ولكن لكل منا مصادر مختلفة عن التنوير، أنت وأنا».

ابتهج ويل لأسباب غير معروفة، وشعر أنه كان يجب أن ينزعج من النظرة الرمادية لتلك المرأة الغريبة؛ التي تتحداه على مائدته، وبدلاً من ذلك ابتسم، وواصل تبسُّمه قائلاً: «إذن، سنرى من ستكون حجَّته أقوى من الآخر»، ثم رفع كأسه في نخب. كانت ستيلا؛ التي إن دفعت مقابل مقعد في مسرح، فلن تحصل على تلك المتعة التي تشعر بها الآن، تضع راحتيها معاً، كما لو كانت في وسط تصفيق، ولكنَّ شيئاً ما حدث في حلقها، جعلها تدخل في نوبة من السعال؛ حيث بدا صوتها عميقاً جداً، ينبعث من وعاء هش غاية في الصغر، فقد اهتزَّ جسدها، وقبضت بإحكامٍ على مفرش المائدة؛ فقلبت كأساً من الشراب. اندهش ويل ذو الحس الطيب، وانحنى بجانبها في الحال، وقام ببعض الضربات الخفيفة المدروسة على ظهرها النحيل، وهو يتمتم بمواساة في أذنها.

فقالت كاثرين أمبروز: «يجب أن نجلب الماء الساخن؛ إذ يجب أن تتنفَّس البخار»، إلا أن النوبة سرعان ما انتهت.

اعتدلت المرأة في جلستها، ونظرت إليهم بأعين زرقاء دامعة، وقالت: «آسفة.. يا لأخلاقي، ستنتقل إليكم الآن عدوى الأنفلونزا؛ حيث يستغرق الأمر وقتاً طويلاً للتعافي! أستميحكم عذراً بالذهاب إلى النوم! لقد أمضيت وقتاً ممتعاً معكم!»، وعندما مشت حذاء الطاولة، أمسكت يد كورا بيديها الاثنتين، وقالت: «لكنكِ ستأتين هنا في الصباح. أعرف أنه يمكننا أن نريكِ أفعى واحدة على الأقل!».

3

في صباح اليوم التالي، بدت أفعى كنيسة جميع القديسين، ككائن بريء يعلو ذراع مقصورة تنتمي إلى الحركة التجديدية. كان هذا الرسم قد نُحِت في الأيام الأخيرة لأفعى إسكس، عندما تحوَّلت الشائعة إلى أسطورة، ولم تعد هناك علامات تحذيرية إضافية مثبَّتة على أشجار البلوط وأعمدة الطرق. من المؤكَّد أن الأفعى لم تكن لتُسبّب أي خوف للحرفي المراوغ؛ الذي لفَّ ذيلها ثلاث مرات حول المغزل، بمستويات حادة ومتعرّجة، ولكنه أزال مخالبها وأسنانها، وقد كانت الأجنحة، حسبما أقرَّت كورا ضاحكة، شريرة قليلاً، وبدت كأنها خفاشٌ يتزاوج بالإكراه مع عصفور، وكانت الظلال التي تغمر وجهه الباسم، قد أكسبته مظهراً وكأنه يغمز، لكنَّها في الحقيقة تشير بالكاد إلى ما هو خفي. لقد تحمَّلت الأفعى لمئتي عام، مغازلة تجمُّعات المصلّين، وكان عمودها الفقري أملس.

مرَّرت جوانا، التي رافقت كورا ووالدها في نزهة الصباح، إصبعها بطول أخدود جديد في الخشب، وقالت: «ها هو المكان الذي نحته فيه، وهو أيضاً المكان الذي سيمحوه فيه بالإزميل، لكنَّنا لن ندعه يفعل ذلك».

قال ويل: «لقد أخفوا صندوق أدواتي، ولن يخبروني بمكانه». بدا ويليام رانسوم ذاك الصباح، أكثر حزماً مما تتذكَّره كورا في ليلة العشاء في الغرفة الدافئة الصغيرة، وكأنه بشخصيتين مختلفتين، الأولى صارمة ونابعة من كونه قسّاً، والثانية ودودة في حياته الشخصية. لم تكن تلك الصرامة تناسبه، ولا سواد بزَّته، ولا حتى حلاقته المنعشة التي أكسبت وجنته ذات الندبات مظهراً بارداً، وعلى الرغم من كل ذلك، فثمة إشراقة في أعماق عينيه المتعبتين، حاولت التعرَّف إليها، حينما أراها القرية الصغيرة، والكنيسة ذات الأبراج المنخفضة، بجدرانها الصوانية المبتلَّة من المطر ليلاً، والمتوهّجة في شمس الصباح.

وضعت كورا طرف أُصبعها الصغير في فم الأفعى «الدغيني وسأتحمَّل»، «إن كان لديك أدنى وعي، يمكنك أن تهمس بالشائعات عن نفسك، وتتوعَّد من منبر الوعظ، وتدفع نفسك في اتجاه الباب لترى الوحش».

«أظن أنه يجب أن يدفع مقابل النافذة الجديدة، ولكن إسكس يغمرها الرعب، ولن يسعنا الدفاع عن أنفسنا؛ في ظل وجود كنيسة هادستوك، والباب المرصَّع ببقايا جلد أحد الأشخاص الدانماركيين»، وعندما رأى عبوسها، قال: «إن باب الكنيسة مُرصَّع بالمزالج الحديدية في كل مكان، وتحت المزالج الحديدية، توجد قطع جلدية صغيرة، حيث يقول الناس إن هناك شخصاً دانماركياً مُلحداً قد قُبِض عليه وسُلِخ، وقد استخدموا جلده لإبقاء آثار الأمطار في الخارج»، وكانت ترتجف بادياً عليها علامات السرور، وأراد أن يُظهِر لها جانباً أكثر قسوة مما يُخفِي، وقال: «ربَّما عذَّبوه

بطريقـة النسـر الدامـي المنتشـرة فـي الـدول الإسـكندنافية، بـأن شـقّوا ظهـره، وكسـروا ضلوعـه، وثنـوا الضلـوع إلـى الأمـام، مـع إخـراج الرئتيـن؛ ليكـون شـكلها مثـل الأجنحـة، أوه إنـك شـاحبة، يـا إلهـي لقـد تسـبَّبت فـي مـرض جوجـو!».

رمقـت الفتـاة والدهـا بنظـرة بائسـة: «نعـم لقـد فعلـت»، وأغلقـت أزرار معطفهـا، وانصرفـت لتُحيّـي قارعـي الأجـراس أثنـاء نشـاطهم الصباحـي.

قالـت كـورا: «كـم أنـتِ محظوظـة، يـا لـك مـن فتـاة مباركـة، قـد تقوليـن ذلـك!». قالـت كـورا بتحفُّـز، بينمـا تشـاهد الفتـاة تنطلـق بيـن شـاهد الضريـح، وتقـف أسـفل المدخـل المسـقوف تلـوح بيدهـا: «يبـدو أنكـم جميعـاً تتمتَّعـون بملكـة السـعادة».

«أليـس كذلـك؟» جلـس إلـى جوارهـا علـى المقصـورة ولمـس أفعاهـا هنـاك. «تضحكيـن دائمـاً، إنـه أمـر معـدٍ مثـل التثـاؤب!»، وقـال بينـه وبيـن نفسـه: «لقـد أخفنـاكِ، وانظـري إلـى نفسـك! لسـتِ كمـا توقَّعنـاك».

«ربمـا حـدث ذلـك مؤخـراً، نعـم مؤخـراً، أنـا أضحـك حينمـا لا ينبغـي علـيَّ الضحـك، أعلـم أنَّنـي لا أفعـل مـا تتوقَّعونـه منـي. فـي الأسـابيع القليلـة الماضيـة، أخـذت أفكّـر مـراراً فـي أنـه يوجـد فـرق شاسـع بيـن مـا ينبغـي علـيَّ فعلـه، ومـا أنـا عليـه الآن. مـن السُّـخف أن أتكلَّـم مـع الغربـاء بحريـة، ولكـن علـى أيـة حـال، فقـد رأى بعضهـم بعضـاً فـي أسـوأ حـال، ولـن تدفعهـم مجـرد محادثـة بينهـم للوقـوع فـي هـوَّة عميقـة، مثـل تلـك البحيـرة الصغيـرة علـى جانـب طريـق كولشيسـتر. أعلـم أننـي فـي حالـة مُخزيـة، دائمـاً مـا تنتابنـي هـذه الحالـة، ولكـن مـا كان ليلاحظهـا النـاس أبـداً»،

وقد أصابها هذا التحوُّل المفاجئ إلى الحزن الذي شاهده، وقد كان الأمر مروّعاً، فكانت عيناها الرماديتان تلمعان، وبينما بدا يتحسَّس ياقته، قال بصوت رخيم يستخدمه في هذه المناسبات: «لقد تعلَّمنا، وأؤمن أيضاً، أننا حين نضلُّ وتفتقر مشاعرنا إلى الجمال، فإننا نكون على موعد قريب مع الراحة... سامحيني، لا يعنيني أن أفرض عليك رأيي، فأنا لا أريد أن أقول أموراً لا تروي عطشك». كانت هذه الجملة الأخيرة، بعيدة عن تفكيره المعتاد، فنظر إلى يديه باندهاش، كما لو كان يفحص جسده الذي سكنت به هذه الكلمات.

ابتسمت وقالت: «أنا عطشانة، دائماً عطشانة.. لكل شيء، لكل شيء! ولكني نحَّيتُ كل ذلك جانباً منذ زمن»، وأشارت نحو السقف العالي بأحجاره البيضاء والأشعَّة التي تتخلَّله، والمذبح بقماشه الأزرق. «أظن أحياناً أنني بعت روحي، فيمكنني العيش كما يحلو لي، لا أقصد العيش بلا أخلاق أو وعي، ولكن ما أقصده فقط، هو حرية التفكير في الأفكار التي تأتي، وإرسالها إلى حيث شئت، وليس تركها تتدافع عبر مسارات يحدّدها أي آخر، بحيث تسلك هذا الطريق أو ذاك»، وبينما يعلو العبوس وجهها، مررت أُصبعها في فم الأفعى، وقالت: «لم أقل ذلك من قبل لأي شخص، على الرغم من أنني أعنيه، لكن نعم، أنا بعت روحي، لكنني حزينة، لأنها لم تجلب لي سعراً مناسباً، أعتقد أنني كنت مؤمنة مثلك تماماً، ولكنني فهمت ماهية الإيمان وتاجرت به؛ فالأمر أشبه بالعمى، واختيار طريق الجنون.. أن تتكأ على أي شيء جديد ورائع، وألا ترى أنه ليس هناك معجزات عبر الميكروسكوب، أقل مما تراه في الأناجيل!».

«تظـن أنـك تفكـر حقّـاً، هـذا أم ذاك، إيمانـك أم أسـبابك؟ ليست أسبابي فقط، فليس لديَّ ما يكفي لمواجهة روحي إلا حريتي، وفي بعض الأحيان أخاف أن أعاقب بسبب ذلك، ولكني أعرف العقوبة، فقد اعتدت مواجهتها».

لم يستوعب ما قالته، وكان يخشى أن يسأل، ولكن حينئذٍ، أتت جوانا ووقفت في قبو الكنيسة، وخلفها قارعو الأجراس يسحبون أحبالهم، وأصوات الأجراس تأتي خافتة من الداخل.

«لستِ كما نتوقَّعك». قالها مرة ثانية.

«ولا أنت». قالت كورا، وهي تنظر إليه مباشرة بفضولٍ مشوبٍ بخجل. ظنت أن ياقته قد منحته سلطة أكبر من مئزر الحداد، ولكن حتى الحداد، فهو سيد في صنعته. «لا، ولا حتى أنت: كنت أظنك سميناً جدّاً ومغروراً، وستيلا نحيفة جداً وضعيفة، وكنت أظن كذلك أن جميع أطفالك متدينون».

ابتسم ابتسامة عريضة، قائلاً: «متديّنون! ماذا؟ إن التسكع في الصباح داخل الكنيسة يدفعك ببطء في اتجاه الصلاح الديني، وقد يحفّزك لقراءة الكتاب المقدس!».

في هذا الوقت شعرت جوانا بالإذلال بشدة أمام المذبح (صديقة المدرسة، كانت فتاة كاثوليكية، وجوانا تحقد عليها في طقوسها وصلواتها)، قامت بالتصليب ثلاث مرات. كان شعرها مربوطاً مثل الهالة فوق أُذنيها، وكانت تتشح باللون الأبيض، وكانت تعتلي وجهها تعبيرات مهذَّبة، ولكنها ما لبثت أن اختفت. كانت مثالاً للفتيات المثيرات للإزعاج، وتبادل كل من ويل وكورا نظرةً مبهجة؛ حتى إنهما لم يمتلكا أنفسهما، وانفجرا في نوبات ضحك متقطّعة.

«لا أستطيع أن أجد كتاب الصلوات خاصتي». قالتها جوانا بوقار، لم تعِ ما فعلته، وقرَّرت أن تُظهِر الاستياء.

كانا لا يزالان يضحكان عندما وصل جمع من الناس، كأنهم يفاجئون قس كنيستهم. ذهب ويل إلى السقيفة ليحييهم، بينما حاولت كورا ذات مرة أو مرتين لفت انتباهه، مثل طالب يريد المشاركة في مكيدة، لكنه لا يستطيع، إذ إنه لم يجارِها. كانت مقصورة الأفعى في ركن معزول؛ حيث لا يمكن أن يراها أحد، وكانت تأبى مغادرة هذه الكنيسة الرائعة إلى حد ما، فقد ظنَّت أنها ربما تجلس لبرهة.

تجمَّعت القرية الصغيرة تجمعاً عاطفيّاً، وقد فكَّرت أن الأمر أشبه بأجواء احتفالية، وأنَّ الحس الفكاهي يطغى على التجمُّع، حتى في ظل احتمالية تعرُّضهم لخطر عدو مشترك، وهي على مقعدها غائبة عن الأنظار، سمعتهم يتهامسون عن الأزمة وعن الأفعى، وعن شيء رأوه الليلة السابقة، عندما اكتملت استدارة القمر وصار أحمر، وكيف أن بعض المحاصيل قد مُنيت بخسائر قبل حصادها، وما تردَّد عن التواء كاحل أحد الأشخاص. يمدُّ الشاب الذي ينافس رانسوم على منزلته ومكانه، يده لجميع المارين على مقصورته، ويتحدَّث عن الحساب والأيام الأخيرة.

توقَّفت الأجراس عن القرع، وصمت الجميع، وعبر ويليام صحن الكنيسة، وأثناء صعوده درجات منبر الوعظ متأبّطاً الإنجيل بذراعه اليسرى (هكذا ظنَّت كورا)، بدت من عينيها نظرة خجل صوبه. دُفع الباب حتى فتح على مصراعيه، وكان هناك يقف كراكنيل. كان ذلك الظل المعتم يتقدَّمه، ورائحة

الرطوبة والطين القوية تعمُّ المكان، والسيدة التي نسيت نظارتيها صائحة: «إنها هنا»، واحتضنت حقيبتها، وتوقَّف العجوز الذي استمتع بتأثيره في الجمع الحاضر عند عتبة الباب، حتى يتأكَّد أنهم قد رأوه، ثم ترجَّل إلى الصفوف الأولى في الكنيسة، وجلس طاوياً ذراعيه. ارتدى معطفاً آخر بكثير من الأزرار النحاسية، فوق ذلك المكسو بالطحالب، الذي كان دائماً يرتديه، وكان له ياقة من الفرو، أسرعت إليها حشرات أبو مقص.

«صباح الخير سيد كراكنيل»، قالها ويليام، دون أن يبدو عليه أي شعور بالدهشة.

«أُسعدتم صباحاً جميعاً. كنت سعيداً عندما ردُّوا عليَّ».

«فلنذهب إلى بيت الرب. سيد كراكنيل، ريثما تشعر بالراحة، سنبدأ بالترنيمة رقم 102، أعلم أنها المفضَّلة لديك، افتقدناك وافتقدنا صوتك». وصل إلى منبر الوعظ، وأغلق على نفسه بالداخل: «هل نقف؟».

ارتسمت ملامح الغضب على وجه كراكنيل، وجلس متجهّماً على مقعده، ورفض الانضمام للترانيم، وهو الذي كان دائماً محطَّ إعجاب بسبب صوته الصادح، ولم يستطِع مقاومة الأنغام، وبما أنه قد تراجع عن قراره بعدم الذهاب إلى الكنيسة، فقد كان حانقاً على ما يقدّره الرب، ويعتقد أن الأمور تستوي لديه، سواء كان ذلك متعلقاً بشاة أو بصبي، ولكن فقدان يأجوج قبل أيام قليلة (حيث عُثِرَ عليها ملقاة على جانبها، وعيناها الصفراوان تظهر عليهما أمارات الهلع، ولا أثر لجرحٍ في أي مكان)، جعله يعيد النظر مرة أخرى،

فالأزمة لم تكن مجرد شائعة، بل هي مشكلة من لحم ودم، تزحف كل ليلة على مقربة من الجميع، وفي ذلك الصباح، ذكر بانكس أنه شاهد كائناً أسود، أملس، تحت سطح الماء مباشرةً، وفي سانت أوسيث، قبل يوم، عُثِرَ على جثمان صبي غريق في يومٍ صافٍ، لذا؛ فمن أجل حياته، لم يستطع كراكنيل الربط بين الخطايا البسيطة لقرية صغيرة، وبين الحكم الإلهي، ولكنه كان بالتأكيد حكماً إلهيّاً، وإذا لم يعلن الكاهن نداء التوبة، فمن الأفضل أن يقوم بها بنفسه.

لحسن حظّ القس رانسوم، اختار كراكنيل الجلوس على مقعد يدفئه شعاع من ضوء الشمس، وبين حرارة الربيع ومعطفيه، غَطَّ في سباتٍ، يتخلَّله مزيجٌ من الشخير والغمغمات.

جلست كورا في ركنها المظلم، تشاهد انحناء المصلّين ووقوفهم لسماع الترانيم؛ وارتسمت على وجهها ابتسامة، عندما رأت الأطفال الرضَّع مستلقين على أكتاف أمهاتهم، ومداعبة كفوفهم الرقيقة للأطفال الجالسين في الخلف؛ وقد سمعت كيف تغيَّر صوت الواعظ قليلاً، عندما انتقل من الصلاة إلى تلاوة الكتاب المقدس، وكان بجانبها على الجدار نصبٌ تذكاريٌّ متهالك، كُتِبَ عليه: ديفيد بيلي تومسون، مرتل ترانيم 1868_1871، فلترقد روحه في سلام؛ فتساءلت في قرارة نفسها قائلة: «هل هذه السنوات الثلاث تشير إلى حياته، أم إلى السنوات التي قضاها في ترتيل الترانيم؟» وعند قدميها نجد أرضية باركيه مزخرفة ومتعرِّجة، ومصنوعة من خشب مصقول لامع فاتح اللون، وكانت جميع نقوش الملائكة الزجاجية الملوَّنة، تحمل أجنحة طائر أبو زريق،

وفي شيء ما في الجزء الثاني من التراتيل، ربما اللحن، ربما كان سطراً أو سطرين، تتذكَّرهما قليلاً من أيام الطفولة، تأثر مكان ما في أعماق ذاكرتها، كانت قد ظنَّت أنه اندثر منذ زمن، فأجهشت في البكاء. لم يكن بحوزتها منديل، لأنها لم تبكِ من قبل، إلى أن لمحتها طفلة مندهشة من بكائها، فوكَزت أمها التي استدارت؛ ولكنها لم ترَ شيئاً، ثم استدارت مرة أخرى، غير أن دموعها لم تتوقَّف، ولم يكن لدى كورا سوى شعرها لتمسح دموعها.

لم يلاحظها أحد إلا واعظٌ فقط من محرابه الأبيض الحجري؛ إذ رأى أنفاسها العميقة؛ التي حاولت أن تقمع بها شهيقها، ومحاولاتها لإخفاء وجهها، فلفت نظرها، حتى تعلَّقت عيناها به؛ كانت نظرته لم تعهدها من أي رجل؛ إذ لم تكن نظرة متعة أو رغبة في التملُّك أو ترويع؛ ولم ترَ فيها تعجرفاً أو قساوة، وقد ظنت أنها الطريقة التي ينظر بها إلى جيمس أو جوانا إذا رآهما في محنة، إلا أن ذلك غير محتمل، لأنها نظرة موزَّعة، فقد كانت سريعة، حيث حوّل عينيه عنها على سبيل الكياسة، ولأن الموسيقى قد انتهت، وفات أوان مداراة ما تريد إخفاءه، سمحت كورا لدموعها أن تنهمر.

عند نهاية القدَّاس، استردت كورا حسَّها الفكاهي، بما يكفي لجعلها تضحك على نفسها، وعلى دموعها الرطبة التي بلَّلت مقدم فستانها، وبقيت كورا على مقعدها، بينما وصل القس ويل إلى الباب وسط زخم من المباركين والأطفال؛ ولم يكن لديها أي اعتراض أن يراها أحد حزينة، بقدر ما كانت تخشى الإشفاق عليها، لذا؛ كانت تفضّل الانتظار حتى تتمكَّن من العودة إلى مارثا وأحجار الأمونييت، ودفاترها

التي لم تجعلها تبكي يوماً. حينما قرَّرت المغادرة، انزلقت من مقعدها الخشبي في ركنها المظلم، وصادفت كراكنيل؛ الذي بدا جليّاً أنه كان ينتظرها في معطفه ذي الياقة الفرو.

قال لها وهو مسرورٌ بإفزاعها: «كيف حالكِ؟ غريب في وسطنا؟ ماذا تفعلين هنا بأحذيتك الخضراء هذه؟».

أجابته كورا: «قد أكون غريبة حقّاً، لكنني على الأقل أتيت في موعدي، مع العلم بأن حذائي بنّي».

رد كراكنيل قائلاً: «معكِ حق. كل الحق»، ثم نفض حشرة أبو المقص الواقفة على كمّه، وتابع حديثه: «أتوقّع أنكِ سمعتِ عني، وهذا حقيقي كذلك، بما أن بارسون صديقٌ مقربٌ لي، وأعتز به إلى حد ما أكثر من أي شخصٍ آخر»، ثم ذكر لها اسمه، وقدَّم يده يصافحها.

فقالت: «أها، سيد كراكنيل! لقد سمعت حقّاً عنك وعن خسارتك في الليلة الماضية. إنني آسفة حقاً، لقد كان خروفاً أليس كذلك؟».

فضحك بينه وبين نفسه وقال: «خروف! لقد قالت: خروف!»، ثم أخذ ينظر حوله، لعله يجد من يتفق معه في الرأي على حماقتها، فلم يجد سوى نقوش ملائكة بأجنحة فوق رأسه، فصاح وكأنه يحدّثها، مقرناً حديثه بضحكة طويلة بعض الشيء، وأخذ يصرخ: «خروف!» ثم توقَّف قليلاً، كما لو أنه تذكَّر شيئاً، ثم مال نحوها واحتضنها وهو شارد الذهن، ثم انخفض صوته لدرجة أنها دون وعي، اقتربت نحوه لتسمعه بشكل أفضل، وأخذ يقول لها: «هل أخبروك بذلك؟ هل أخبروك بذلك، واستمعت إليهم جيداً؟ حول ما جرى

هناك في «بلاك ووتر» بحلول ضوء القمر، هل عرفت مؤخراً بالطفل الذي عثروا عليه في سانت أوسيث وقت الظهيرة، ولم يكن هناك أية غيوم؟ هل أخبروك بذلك، وربما رأيت ذلك بنفسك، أو سمعتِه أو حتى شعرتِ به، مثلما هو موجود على جلد معطفك أو جلدك»، واقترب منها أكثر وأكثر، وكانت رائحة أنفاسه تشبه السمك والفضلات، وأخذ يضغط عليها أكثر وأكثر، وبدت كما لو أنها تختفي في الظلال: «نعم، أرى أنك على دراية، أرى أنك تعلمين.. إنك خائفة أليس كذلك؟ إنك تحلمين بذلك، وتسمعين عنه وتنتظرينه وتتمنينه أيضاً»، وأخذ يقول لها: «أنت تنكرين الحقيقة التي يُتوقَّع حدوثها على الأقل»، أخذ يقرّب فمه منها أكثر، وهمهم قائلاً: «أوه، يا له من خبث أن تكوني على علم بقدوم الحكم الإلهي، وتعلمين أنه لا يوجد مكان للاختباء، وفي النهاية تتمنين ذلك الحكم الإلهي، أليس كذلك؟ ما زلت تتمنينه، ويمكنك تحمُّله حسبما ترين؟». هل يمكنها أن تكون هنا الآن، بعد أن تنسلَّ عبر العتبة، بينما نحني رؤوسنا؟ لقد اشتدَّت الظلال وأصبح الجو بارداً، وعلى مسافة من كورا، سُمِع صوت ويليام رانسوم، وبحثت عنه ولم تستطع أن تجده.

ترنَّح كراكنيل أمامها، وكان على وجهه نظرة يملأها الغموض، ودندن قائلاً: «أوه، إنه لم يرَ ذلك، إنه لم يشعر بذلك، إنه لا يستطيع تقديم المساعدة، لا يعتبر البحث هناك جيداً، ولا يمكن العثور على شيء جيد هناك».

قالت كورا، وهي واضعة يدها على جروح رقبتها: «دعني أذهبْ»، متذكّرةً ما قالته للقس؛ بينما كانا يجلسان معاً في نفس المكان الذي تقف فيه الآن، «أنا على دراية بالعقوبة،

وقد تعلَّمت كيفية مواجهتها». هل هذه هي العقوبة، هل أساء مايكل معاملتها بدرجة كبيرة، وتمنَّت أن يتعامل الآخرون بنفس الطريقة، هل تم تشويه روحها، وأصبحت مسخاً؛ بعد أن تم الضغط عليها، وقولبت مشاعرها وتنميطها لمدة طويلة؟ أو أنها حقاً قد باعت روحها، وعليها أن تبارك الصفقة؟ ثم قالت: «دعني أذهب»، واستندت على المقعد الخشبي، لتثبت نفسها، فوجدته رطباً، فانزلقت يداها وترنَّحت أمام كراكنيل، ولمست الفرو الزيتي على معطفه ذي الرائحة الكريهة، التي تمثّل مزيجاً من الملح والمحار، وتعثَّر هو أيضاً، لكنه حاول التماسك، ورفع ذراعيه، ففُتِح معطفه الطويل كاشفاً عن بطانته الجلدية ولونه الأسود ذي الملمس الناعم، مع تحرُّك ذراعيه كأنهما جناحان يرفرفان، ثم قالت حينها: «دعني أذهب!»، ففُتِح الباب، وكانت تقف هناك جوانا على عتبته، يتسلَّل من خلفها الضوء، وكانت مارثا بصحبتها، وكانتا تسألان: «من أغلق الباب؟ من سمح بإغلاق الباب؟»، تعثَّر كراكنيل بالمقعد الخشبي، واعتذر عن ذلك بشدة، قائلاً إن المشكلات التي عانى منها في الشهور القليلة الماضية، جعلت منه مرتبكاً مشوَّشاً، وصاحت كورا قائلةً: «إنني قادمة»، ثم كرَّرتها مرة أخرى، لتتأكَّد من وصول صوتها دون مقاطعة: «إنني قادمة»، وتابعت قائلة: «من الأفضل لنا أن نتعجَّل، إذا كنا ننوي أن نستقل قطارنا».

وقفت ستيلا في شباك بيت القس، تتأمَّل الأطفال وهم يلعبون المسَّاكة بين أفرع البلوط في منطقة تشارلز الخائن، وقد أصيبت بالسعال لفترة طويلة من الليل، فلم تستطع النوم إلا قليلاً، وفي غضون هذا الوقت القصير، حلمت أن شخصاً

ما أتى إلى غرفتها، ودهن كل شيء باللون الأزرق، فالجدران كانت مطلية بالأزرق، والسقف أيضاً بنفس اللون الزاهي المشرق، وموضع السجاد عند انعكاس الضوء من النافذة على البلاطات الزرقاء، كما كانت السماء زرقاء، وكذلك كان يتدلَّى من أوراق الأشجار فاكهة زرقاء، ومن ثم استيقظت وهي مضطربة؛ لتجد نفس الألوان في الزهور القديمة الموجودة على ورق الحائط، وعلى ستائر الكتان ذات اللون الأصفر الكريمي، فأرسلت جيمس إلى الحديقة ليقطف منها الزهور الزرقاء. قامت برصّها وتزيينها على النافذة، مع زهور البنفسج التي قد جمعتها وجفَّفتها في بداية الربيع، مع جذع اللافندر الذي وضعه ويل على وسادتها، وكانت تشعر بالحرارة بعض الشيء، على الرغم من أن ذلك لم يكن غير مستحب، وكانت لها طقوسها الخاصة عند سماع قرع الأجراس، فقد كانت تلمس كل زهرة بإبهامها، وتدندن قائلة، مراراً وتكراراً: «لازورد، كوبالت، نيلي، أزرق»، ولكن في ما بعد، لم يكن ممكناً شرح السبب.

الفصل الثاني

بذل أقصى جهد

أبريل

جورج سبنسر
فندق جورج
كولشيستر
1 أبريل

عزيزي السيد أمبروز،

كما ترى، فإنني أكتب إليك من مؤسَّسة عريقة معروفة في كولشيستر، حيث أُقيم لفترة برفقة د. لوك غاريت. أعتقد أنك تتذكَّر تعريفه بنا في الخريف الماضي على العشاء في شارع فوليس، والذي دعانا إليه الراحل مايكل سيبورن.

أرجو ألا تزعجك رسالتي، وسعيي للحصول على نصيحتك. عندما تقابلنا سابقاً، تحدثنا باختصار عن القوانين الحالية للبرلمان، والموضوعة لتحسين ظروف المعيشة للطبقات العاملة، وإذا لم تخُنني الذاكرة، فقد عبَّرت باستياء عن بطء تطبيق هذه القوانين في السياسات العامة.

وفي الشهور الحالية، سنحت لي الفرصة للحصول على المزيد من المعلومات، في ما يخصُّ مشكلة الإسكان في لندن، وبخاصةٍ الإيجارات الباهظة، التي يفرضها المُلاك الغائبون. أتفهَّم أن عمل المؤسسات الخيرية (مثل بيبودي تراست)، يمثل أهمية متنامية في التصدي لمشكلات الازدحام والمساكن الرديئة والتشرد.

أنا حريص على الوصول إلى طرق ملائمة للاستفادة من سبنسر تراست، أعلم أن والدي كان يأمل أن أفعل ما هو أكثر من تمويل حياة البذخ ببساطة، وأنا قلق جدّاً بخصوص الحصول على مشورة من هؤلاء الأكثر خبرةً مني؛ حول كيفية تنفيذ هذا الأمر. أعلم أنك بالفعل على درايةٍ كاملةٍ بهذه الأمور، ومع ذلك، أرفق لك بهذا الخطاب؛ نشرة من لجنة الإسكان الحضري في لندن، وذلك للاطلاع عليها.

لقد أصبحت لاحقاً على دراية بالمقترحات الرامية إلى استكمال الأحكام الحالية ذات الصلة بالسكن الجديد لفقراء لندن، دون خضوع السكان للواجبات الأخلاقية، كمكافأة «الجيدين» بمنازل آمنة وصحية، وترك الباقين لمواجهة البؤس، غير أنه من الأحرى، أن ننتشل أتباعنا من الفقر، دون أي شروط مفروضة.

سأكون في لندن مجدداً في غضون أسبوع أو اثنين.. هل لنا أن نتحدث إذا كان لديك فسحةٌ من الوقت؟ فأنا على درايةٍ تامة بأنه في ما يخص هذه المسألة، كما هو الحال في أغلب الأوقات، لا يكون لديَّ المعلومات الكافية.

أتطلّع بشدة إلى ردك.

تحياتي

جورج سبنسر

كورا سيبورن
ريد ليون
كولشيستر
3 أبريل

عزيزتي ستيلا،

هل يعقل أنه مر فعلاً أسبوع منذ لقائنا؟ أشعر كأنه شهر على الأقل. شكراً لكِ مرة أخرى على ضيافتك الكريمة وطيبتك. لا أظن أنني أكلت بهذه الشهية الطيبة وبهذه السعادة من قبل.

أكتب لكِ متمنّياً أن أقنعك بأن نتقابل هنا في كولشيستر ذات ظهيرة. أرغب في زيارة متحف القلعة، وفكرت أنه ربما قد يرغب الأطفال أيضاً في ذلك: لدى مارثا ميل لجوانا، ما يشعرني بالقليل من الغيرة. هناك أيضاً حديقة جميلة بها كثير من الزهور لإسعادك.

لقد أرفقت بخطابي هذا، مذكرة للقس الطيب، مع نشرة أتمنى أن يجدها شائقة.

اكتبي لي سريعاً!

مع حبي

كورا

تسليم يداً بيد

عزيزي القس رانسوم،

أتمنى أن تكون في أتم صحة. أكتب إليك لأشكركم جميعاً على كرم ضيافتكم وطيبتكم، وأنا في غاية السعادة للقائنا في ظروفٍ أكثر ملاءمة من ذي قبل.

الشيء الغريب الذي حدث عقب لقائنا مباشرةً، وأردت إخبارك به فوراً، أننا قد ذهبنا في رحلة إلى سافرون والدين، من أجل تفقُّد مبنى البلدية وزيارة المتحف، ويا لها من مدينةٍ جميلة، إنها تعوّض إسكس في أعين أي شخص. كنت تقريباً على وشك الاقتناع بأن رائحة الزعفران تملأ الطرقات، وما وجدته في مكتبة تقع في بقعة مشمسة، لكن هذا صورة طبق الأصل من النسخة الأصلية للكُتيّب التحذيري من الأفعى الطائرة. أخبار غريبة من إسكس، تقول: ليست أقل من علاقة حقيقية! النشرة التي تكبَّد ميلر كريستي عناء إعادة إنتاجها، وهو ما يجب أن نكون ممتنِّين له بخصوصه، حتى إن هناك شرحاً، وعليه؛ يجب عليَّ أن أقول: «لا يبدو الخوف على أي أحد».

احذر من ذلك، هلَّا فعلت؟ لا يتوقع إنسان تغلَّب عليه خروف، أن ينتصر على خصم مثل تلك الأفعى.

تحياتي

كورا سيبورن

ويليام رانسوم
كنيسة جميع القديسين
ألدوينتر
6 أبريل

عزيزتي السيدة سيبورن،

شكراً على الكتيّب، لقد قرأته باهتمام وشغف، وعدت هنا (اعتقد جون أنه كتاب تلوين آخر، وأخشى حين يمارس هوايته أن يرسم عليه قوساً لحماية الأسرة). أعدك بمنتهى الإخلاص الذي يتيحه لي زيّي الديني، أنني إذا رأيت في أي وقت أفعى وحشية مجنَّحة، مثل المظلة تطقطق بمنقارها على الملأ؛ أن أصطادها بشبكة صيد، وأرسل إليك فوراً.

استمتعت بلقائك. غالباً ما أكون متوتراً صباح أيام الأحد، وقد كان وجودك مرحَّباً به لتشتيت هذا التوتر.

هل ستبقين في كولشيستر لوقت طويل؟ رجاءً تذكري أنك دائماً محل ترحيب في ألدوينتر. كراكنيل يميل إليك كثيراً مثلنا جميعاً.

في حب المسيحية،

ويليام رانسوم

1

في الأسبوع الأخير من أبريل، عندما كانت جميع أسيجة زهور إسكس بيضاء بنبات بقدونس البقرة وشجر البرقوق، انتقلت كورا مع مارثا وفرانسيس إلى منزل رمادي، بجوار الحديقة العامة في ألدوينتر. لقد سئموا واكتفوا من كولشيستر وريد ليون: أجهد فرانسيس مالك متجر شيرلوك هولمز (بتمييز أوجه عدم الدقة بالحبر الأحمر، والأمور المستبعدة بالأخضر)، في حين أن كورا غير راضية عن نهر المدينة الصغير الحضاري، الذي أصبح بالكاد يكفي لإخفاء شيء بحجم الدراجة.

ذكرى لقائها بكراكنيل، ورائحة الملوحة على ياقة معطفه، وكيف كان يستحضر الوحش المنتظر في الأركان المظلمة في بلاك ووتر، كل ذلك جعلها عصبية، حيث شعرت بشيء ينتظرها هناك في ألدوينتر، لذا؛ فسواء سعت إلى العيش أو إلى الموت، لم يكن باستطاعتها إلى حد ما أن تقول أي شيء. غالباً ما رأت في نفسها طفولية وسذاجة لملاحقة الحفريات الحية (من جميع الأماكن!)، في مصب النهر في إسكس، ولكن إذا شجَّع تشارلز لييل فكرة الفصائل التي تقاوم الانقراض، فستشجّعها هي الأخرى. ألم يكن

الكراكن مجرد أسطورة، حتى طُرِح حبَّار ضخم على شاطئ نيوفندلاند، وتم تصويره في حوض من القصدير، بواسطة القس موسيز هارفي؟ بالإضافة إلى كل ذلك، كانت أرض إسكس الطينية تحت أقدامها، تخفي ما لا يعلمه أحد، في انتظار الوقت المناسب. كانت تخرج في جولات للتمشية، وحاشية معطفها ملطَّخة بالطين، وقطرات المطر تجري على وجنتيها، قائلةً: «لا أدري، لماذا لا أكون أنا بدلاً منها، ولماذا لا أكون هنا؟ لم تكن ماري آننغ تفقه شيئاً عن أي شيء، حتى قضى الانهيار الأرضي على كلبها».

انتشرت أخبار المنزل الرمادي المهجور في السوق، من خلال ستيلا رانسوم، فقد ذهبت إلى كولشيستر لشراء قطع من القماش الأزرق، وقالت: حالما تمَلّين المدينة، ستأتين إلى ألدوينتر، أليس كذلك؟ لقد كان آل جينزفورثس يبحثون عن مستأجرين منذ شهور، ولكنَّ شخصاً غريب الأطوار فقط، هو من يستطيع أن يذهب إلى هناك ليعيش معنا! إنه منزل جيد به حديقة، وقد اقترب فصل الصيف، بإمكانك استئجار زورق ليأخذك إلى مصب النهر. لن تعثري أبداً على الأفعى خاصتك في هاي ستريت! وأمسكت بيد كورا قائلة: «بالإضافة إلى ذلك، نحن نريدك بالقرب منا. جوانا تريد مارثا، وجيمس يريد فرانسيس، وكلنا نريدك معنا».

قالت كورا مبتسمةً، وهي تمسك بيدَي ستيلا الصغيرتين: «لقد أردت دائماً أن أتعلَّم الإبحار، هلا ساعدتني على التواصل مع آل جينزفورثس، وتزكيتي لديهم؟ يا إلهي، يداك ساخنتان يا ستيلا، اخلعي معطفك وأخبريني كيف حالك؟».

كان فرانسيس يستمع لهم من مكانه الجديد المفضَّل، تحت مائدة العشاء، وقد أيَّد الأمر بشدة؛ فالانتقال إلى كولشيستر يمنحه ممالك جديدة يغزوها، وقد كان فرانسيس مستعدّاً للمزيد، فقد سئم متجر المدينة الصغير للكنوز (بيضة النورس التي اكتشفها واحتفظ بها، والشوكة الفضية التي سمح له تايلور بأخذها من أطلال هاي ستريت)، وقد شارك أمه بالتأكيد، شعورها بأن شيئاً ينتظر هناك في مستنقعات بلاك ووتر، في الشهور التي تلت وفاة والده (شعر بأنه قد أصبح بالغاً بشكل ما، لم تعد كورا أو مارثا تحاولان ملاطفته أو تدليله، وهو بالتأكيد لم يحاول طلب شيء كهذا، فميله إلى العودة وحده في المساء أو الصباح الباكر، ساهراً عند الباب أو النافذة، كان منذ زمن بعيد، لم يعرف أبداً، لماذا كان يفعل ذلك، غير أنه لم يعد مُهمّاً، وبدلاً من ذلك، فقد كبُر مستقلاً وصامتاً بطريقةٍ مُرضية، وقد سئم زياراتهم لألدوينتر عن طيب خاطر، وقد عامله أبناء القس باحتقار دون عداء، ما ناسبه كثيراً، ففي المناسبتين اللتين قابل فيهما الأولاد، تجوَّلوا عبر السوق، وتبادلوا ربما عشر كلمات على مدار ساعات عدة. قال «ألدوينتر» بطريقةٍ ما، محاولاً إعطاءها أكبر من حجمها. ردَّدها، وقد أعجبته المقاطع الثلاثة، أحب الإيقاع المنخفض. لمحته أمه بالأسفل، فقالت متنهّدة بارتياح: «هل تحب ذلك يا فرانكي؟ على كل حال، لقد تمت تسوية الأمر».

2

فـي غُرفـة علـى طريـق بينتوفيـل، نائمـاً مـن تأثيـر الشـراب السيئ، استيقظ د. لـوك غاريت، بسبب الضجَّـة تحت نافذتـه، فقـد أحضـر طفـل راكـض رسـالةً، ووقـف علـى عتبـة المنـزل بعنـاد ينتظـر الـرد، فـضَّ غاريـت الرسـالة المطويـة؛ وقـرأ:

اقتـراح عاجـل بالحضـور إلـى المستشـفى فـوراً. حضـر المريـض وهـو يعاني مـن طعنـة نافـذة بجانب اليد اليسرى أعلى الضلـع الرابـع (تـم إخطـار الشـرطة). طـول الجـرح بوصـة وثُمن، يخترق العضلـة الوربيـة وصـولاً إلـى القلـب. بالفحـص المبدئي، تبيَّـن عـدم حـدوث ضـرر فـي عضلـة القلـب، مـع نفـاذ الجـرح إلى الكيـس التامـوري (؟). المريـض ذكـر، فـي العشـرينيات، واعٍ ويتنفَّـس. قـد يخضـع لتدخـل جراحـي إذا حضـرت فـي خـلالٍ سـاعة. يُرجى إبلاغنـا بموعـد حضـورك، وسنُجري الإعـدادات اللازمـة وفقـاً لذلـك ـ موريـن فـري.

أعطـى تعبيـراً أقـل مـن الفـرح، مـا جعـل الصبـي المنتظـر مندهشـاً وفاقـداً كل أمـل فـي الحصـول علـى بقشيش، ففـر عائـداً إلـى الزحـام. الوحيـد مـن بيـن طاقـم المستشـفى (دائمـاً مـا تخـدم سبنسـر)، كانـت الأخـت موريـن فـري، هـي بطلـة غاريـت ومصدر ثقتـه، كونهـا محبطـةً فـي رغبتهـا الخاصـة فـي أخـذ سكين وإبـرة،

فقد رأت في طموح غاريت التخريبي العنيف، بديلاً لطموحها، ففترة خدمتها الطويلة، وذكاؤها الجبار، ممزوجان بالهدوء العنيد، ويُستخدمان ببراعةٍ كسلاح ضد غطرسة الرجال، كل ذلك جعلها تبدو كأساس لبنية المستشفى، مثلها مثل أيٍّ من جدرانها الداعمة، وقد أمضى غاريت عمره معتاداً حضورها شبه الصامت في غرف العمليات، مشتبهاً (ولكنه لم يكن أبداً واثقاً من قدرته على توجيه الشكر إليها)، في وجودها كحليف أقنعه بالشروع في عمليات عديدة، كان من الممكن أن يعتبرها البعض مخاطرةً جسيمة، ولم يكن أيٌّ منها مثقلاً بمجازفة مثل هذه، فلم يقم أي جراح من قبل بإجراء جراحة ناجحة لإغلاق جرح في القلب. إن استحالة هذه العملية، أصبحت شبيهة بالخيالات الرومانسية والأسطورية، وكأنها مهمة أعدتها آلهة لا يمكن لأحد أبداً إرضاءها، في أقل من عام مضى، آمن أحد أكثر الجراحين الواعدين في مستشفى إدنبرة، بقدرته على استخراج رصاصة من قلب جندي جريح، ولكنه للأسف، فقد مريضه في غرفة العمليات، وفي خضم شعوره بالخزي والأسى، عاد إلى منزله بهدوء، وأطلق النار على نفسه (كان يهدف بالتأكيد إلى إصابة القلب، ولكن مع ارتعاش يده، أخطأ الهدف، ثم مات متأثراً بتلوُّث الجرح).

لم يحدث هذا مع لوك غاريت، الواقف هناك على عتبة المنزل المغمورة بضوء الشمس ضاماً الورقة إلى صدره، قائلاً: «فليباركك الرب!». زمجر للمارة الحائرين من مرضى وممرضين، وأي شخص يستخدم السكين ببراعة وسهولة. ارتدى معطفه - ربت على جيوبه - لقد أضاع كل ماله على الشراب، ولم يتبقَّ له ما يكفي لسيارة الأجرة. كان يضحك،

وجرى بأقصى سرعة مسافة الميل، حتى وصل بوابة المستشفى، طارداً مع كل خطوة كآبة الليلة الماضية، ووجد الجميع في انتظاره لدى وصوله. كان دخوله إلى العنبر محلَّ اعتراض من كبير الجراحين، ذي لحية بلون معول الحديقة، وشكله الذي -بشكل أو بآخر- أسند نفسه على إطار الباب، وقف سبنسر بجواره، وقد بدا متوتراً كعادته، رافعاً يديه في إيماءة استرضاء، مشيراً من آن إلى آخر إلى المذكرة التي يحملها، ورآها لوك بوضوح صادرة من الأخت فري. خلف كلاهما فُتح باب، ثم أغلق ثانية بسرعة، ولكن ليس قبل أن يلمح لوك خلف الباب زوجين من الأقدام الطويلة الضئيلة، ممدَّدة تحت ملاءة بيضاء.

«د. غاريت» قالها الجراح كبير السن جاذباً لحيته: «أعلم ما تفكّر فيه، ولكن لا يمكنك أن تفعل هذا، لا يمكن». «أحقاً لا يمكنني؟». قالها لوك باعتدال، حتى إن سبنسر تراجع إلى الخلف في حذر، فهو يعرف أنه ليس هناك أي لين من جهة لوك «ما اسمه؟».

«أعني أن كليكما لا يستطيع، ولا ينبغي عليك فعل هذا، أسرته معه، دعه يمضِ لحظاته الأخيرة في سلام. أعلم أن شخصاً ما قد أرسل في طلبك!»، ثم اعتصر يديه وأردف قائلاً: «لن أسمح لك بجلب العار إلى هذا المستشفى، والدته معه، ولم تتوقَّف عن الكلام منذ دخلت إليه».

أخذ غاريت خطوةً أخرى للأمام، واشتمَّ رائحة نضوج بصل تفوح من الجراح، وفوقها تفوح رائحة مواساة من اليود.

«أخبرني باسمه يا رولينغز».

«لن تستفيد من معرفة اسمه على أي حال، عندما أكتشف من الذي أرسل في طلبك.... لن تدخل إليه. لن أسمح لك. لم يسبق قط أن عالج أي طبيب جرحاً في القلب، وبقي المريض على قيد الحياة، لم يفعلها أحد هؤلاء الرجال، وكلهم أفضل منك. إنه إنسان، وليس إحدى ألعابك الميتة، فكّر في سمعة المستشفى!».

«عزيزي رولينغز». قالها بأدب جم، حتى إن سبنسر تراجع إلى حد ما. «لن يمكنك منعي إذا حاولت. سأتنازل عن أتعابي إذا سمحوا لي بالمحاولة، وسوف يفعلون، لأنهم سيكونون يائسين. أضف إلى ذلك أن رويال بروج، ليس لديها سمعة على الإطلاق، لذا؛ فلتمنحها سمعة بما سأفعله أنا!».

حشر رولينغز جسده في مدخل الباب، وبدا وكأنه يتمنَّى لو انتفخ ليسد كل زاوية في المدخل، ويتحوَّل إلى معدن فولاذ ليلتحم بالباب، ثم اقترب سبنسر ذو الوجه المتورّد بلون أحمر قاتم وغاضب في خوف، حتى بدا وكأنه سيفقد وعيه، قائلاً: «أنا لا أتحدث عن القوانين»، ثم أردف: «أنا أتحدث عن حياة إنسان، هذا ليس ممكناً، ستدمر سمعتك الخاصة. إنه قلبه! إنه قلبه!».

لم يتحرَّك غاريت، فقط بدا في الممر المعتم وكأنه ينمو، ليس أكبر، ولكن أكثر ضخامة وأعلى كثافة، لم يفقد أعصابه، ولكنه بدا تقريباً، وكأنه سينفجر من مخزون الطاقة العظيم المكبوت بالكاد. تراجع رولينغز نحو الجدار، وقد أدرك أنه قد هُزِم. دخل غاريت بسرعةٍ إلى حجرة صغيرة منظّفة بعنايةٍ، مارّاً بجواره، ناظراً إليه بنظرة بدت لطيفة

تقريباً، فاحت رائحة حمض الكربوليك من الجو المطهَّر، مع عطر لافندر يفوح من منديل يتدلَّى من يديَّ سيدة جلست بجوار فراش المريض. كانت تميل إلى الأمام على فترات، تهمس بثقة للرجل الراقد أسفل الملاءة البيضاء: «لا تشغل بالك بالتفكير بأنك قد تغيَّبت عن العمل لمدةٍ طويلة، لن نزعجهم بذلك بعد».

وقفت مورين فري، مرتديةً ثوباً مُنشَّى بصلابةٍ، كبطاقات اللعب، وقفازات مطاطية رقيقة، بجوار النافذة، تُعدّل وضع ستارة قطنية، لتسمح لضوء الشمس الغاربة بالدخول. التفتت لتحيي الرجال بإيماءة رأس هادئة. لو أنها فقط سمعت المشاحنات الشديدة التي دارت خلف الباب المغلق منذ قليل، لكن بدا واضحاً أنها لم تعلم بها. قالت: «مساء الخير د. غاريت ود. سبنسر. تحتاج بالطبع إلى الاستعداد قبل فحص المريض، إنه بخير». قالت ذلك وأعطت د. سبنسر ملفّاً صغيراً، سُجّل به النبض المتناقص، والحرارة المرتفعة. لم ينخدع أيٌّ من غاريت أو سبنسر بتلك الكلمات المحسوبة، بحيث لا تستشفُّ الأم منها شيئاً، فهو لم يكن بخير، وغالباً لن يفعل أبداً. قالت: «اسمه إدوارد بورتون، في التاسعة والعشرين، بصحةٍ جيدة، ويعمل موظفاً في شركة برودينشيال للتأمين. هاجمه شخص غريب أثناء سيره إلى المنزل في بيثنال جرين، وعثروا عليه على درَج كاتدرائية القديس بول».

«إدوارد بورتون»، قالها لوك والتفت إلى الرجل الراقد تحت الملاءة.

كان ضئيلاً جدّاً، لدرجة أنه رفع بالكاد القماشة البيضاء التي

تغطيه، ولكنه طويل، لذا، فقد كانت قدماه وأكتافه واضحة. كانت عظمتا ترقوته حادتين، وبينهما منحدر، حيث حنجرته ترتعش بشكلٍ ملحوظ، فكَّر سبنسر: «لقد ابتلع عثَّة، ثم شعر بالمرض». بدأ يغزو وجنتي المريض لون متدرّج، كانت وجنتاه عريضتين مرتفعتين، تزيِّنهما شامات من التكتُّلات السوداء. كان الصلع قد بدأ في الزحف على شعره مبكراً، تاركاً وراءه جبهة بيضاء ممتدَّة، تناثرت عليها حبات العرق. كان من الممكن أن يبدو في العشرينيات، أو الخمسينيات، غالباً كان يبدو في هذه اللحظة أجمل من أي لحظةٍ أخرى في حياته. كان واعياً، يحيط به جو من التركيز الشديد، وكأن زفره لأنفاسه موهبة استغرقت منه سنوات لإتقانها. مستمعاً بانتباهٍ شديد لوالدته، قاطعها حيث توقَّفت، فقط ليقول بضعة أشياء عن الغربان وطيور الغُداف.

«لقد كان بخير قبل بضع ساعات». قالتها الأم باعتذار، وكأنها افتقدت رؤيته في أفضل حالاته، وبدأت في الشعور بالإحباط. «لقد وضعوا له ضمادة. هلا أريتهم؟». رفعت الممرضة الذراع النحيفة أولاً ثم الملاءة. رأى سبنسر ضمادة مربعة كبيرة مُثبَّتة حول الحلمة اليسرى، وممتدَّة إلى الأسفل بضع بوصات. لم يكن هناك أي دماء أو تقيُّحات، بدا وكأن قماشة قد لُفَّت حوله وهو نائم. قالت والدته: «لقد كان بخير عندما أحضروه إلى هنا. كان يتكلم. لقد عالجوه قليلاً. لم يكن هناك كثيرٌ من النزيف، لم يكن هناك كثيرٌ من أي شيء. لقد وضعوه هنا بعيداً عن مرأى الأعين، وأظن أنهم قد نسوا أمرنا. إنه فقط مرهق، هذا هو الأمر. لِمَ لَمْ يأتِ أي شخص؟ لماذا لا يمكنني اصطحابه إلى المنزل؟».

قـال لـوك بلطـف: «إنـه يحتضـر». انتظـر لوهلـة بعـد تلفُّظـه بهـذه الكلمـة؛ ليـرى إن كانـت سـتلقي لهـا بـالاً، ولكنهـا اكتفـت فقـط بـأن ابتسـمت فـي حيـرة، كمـا لـو أنهـا نكتـة سـخيفة. جثـم لـوك علـى ركبتيـه بالقـرب مـن كرسـيها، ولمـس يديهـا برفـق، ثـم قـال: «سـيدة بورتـون، سـيموت. سـيكون ميتـاً بحلـول الصبـاح».

أمـا سبنسـر؛ الـذي كان علـى درايـةٍ كاملـة؛ كـم انتظـر لـوك بشـغف مثـل هـذا الجـرح، رأى كلابـاً وجثثـاً مقطَّعـة ومفتوحـة، تمهيـداً للـوك ليخيطهـا، ويعيـد خياطـة جـرح طويـل، ليصـل بمهارتـه فـي خياطـة الجـروح بالإبـرة إلـى الكمـال. لقـد رأى صبـر صديقـه الممتـزج بالدهشـة والحـب.

«هـذا هـراء!». قالتهـا المـرأة، فسـمعوا صـوت تمـزُّق قمـاش منديلهـا بيـن أصابعهـا. «هـراء! انظـروا إليـه! إنـه فقـط يرتـاح قليـلاً!».

«إن قلبـه مجـروح، فالنزيـف فـي كل مـكان، تجمَّـع كلـه داخـل القلـب» ـ قالهـا غاريـت مشـيراً بإبهامـه إلـى صـدره: «إن قلبـه يضعُـف»، وفـي محاولـة للبحـث عـن كلمـات قـد تفهمهـا، أردف قائـلاً: «سـيضعف أكثـر وأكثـر، مثـل حيـوان ينـزف فـي الغابـة، وفـي النهايـة، سـيتوقف النزيـف، ولـن يكـون هنـاك مزيـد مـن الدمـاء فـي جسـده، وسـتحرم رئتـاه ودماغـه مـن الدمـاء».

قالت: «إدوارد».

رأى لـوك وقـع كلماتـه، وكيـف أن ضحيتـه باتـت ضعيفـة، وضـع يـده علـى كتفهـا قائـلاً: «مـا عنيتـه، هـو أنـه سـيموت، مـا لـم تسـمحي لـي بمسـاعدته».

كانت هناك لحظة من الصراع ضد الحقيقة، ثم شرعت في البكاء. بصوتٍ هادئ، حمل النحيب في طياته، مع مزيد من السلطة التي لم يرها سبنسر من قبل، قال لوك: «أنت والدته، أنت من أتيت به إلى هذا العالم، ويمكنك أن تبقيه فيه. هلا سمحت لي بإجراء الجراحة؟ أنا...» - إيمانه بإمكانية النجاح في صراع مع أمانته، ووصلت إلى هدنةٍ مضطربة - «إنني متمكّن جدّاً، بل إنني الأفضل، وسأجري الجراحة دون أجر. لم تُجرَ مثل هذه الجراحة من قبل، وسيخبرونك أنها لا يمكن أن تُجرى، ولكن هناك مرةً أولى لكل شيء، وهذا هو الوقت الجوهري الحقيقي. أعلم أنك تريدينني أن أعدك، ولكنني لا أستطيع، ولكن هل بإمكانك أن تثقي بي على الأقل؟».

كان هناك صوت ضجة قصيرة خارج الباب، فشكَّ سبنسر أن رولينغز قد حذَّر جهاتٍ إدارية عدة، واتكأ على الباب مكتوف الأيدي. التقط نظرة عين الممرضة، وكلٌّ منهم يعرب بصمت: «أوه إننا نبحر قريباً جدّاً من الرياح»، ثم هدأت الضجة.

قالت المرأة بين لهاثها: «ماذا ستفعل له؟».

قال لوك: «حقّاً، ليس الأمر بهذا السوء»، ثم تابع: «قلبه محمي بنوع من الوسائد، مثل الجنين في الرحم، والقطع هناك - لقد رأيته - بإمكاني أن أريك إياه، بل ربما من الأفضل ألا تفعل، والقطع هناك ليس أكبر من طول إصبعك. سأخيطه، وعندها سيتوقف النزيف، ومن المحتمل أن يتعافى. أما إذا لم نفعل شيئاً...»، وأشاح بيديه في إيماءة توحي بالاستياء.

«هل سيتألم؟».

«لن يشعر بشيء على الإطلاق».

بدأت في جمع شتات نفسها شيئاً فشيئاً، بدءاً من قدميها اللتين وضعتهما منفرجتين قليلاً على الأرض، وانتهاءً بشعرها الذي رفعته بعيداً عن وجهها، وكأنها تظهر عزيمتها المكتسبة مؤخراً، وقالت: «حسناً، افعل ما تريد، سأعود إلى المنزل الآن». لم تنظر إلى ولدها، فقط ربَّتت على قدميه، بينما كانت تمر بجوار السرير. خرج سبنسر معها، ليفعل ما يفعله دائماً، يُهدئ ويسترضي، وبالسلطة الممنوحة بالثراء والمركز، يحمي صديقه من عواقب أفعاله.

في ذلك الوقت، توقَّف غاريت عند الفراش، وقال بخفةٍ: «في غضون وقت قليل، ستغطُّ في سباتٍ مريح عميق. هل أنت متعب؟ أظن أنك كذلك»، ثم أخذ يد الرجل، شاعراً بالسخافة، قائلاً: «أنا لوك غاريت، أتمنَّى أن تتذكَّر اسمي عندما تستيقظ».

«صيحة واحدة تعني غراباً واحداً»، قالها إدوارد بورتون، ثم تابع: «صيحتان تعني غرابين».

قال غاريت: «لا نتوقَّع إلا البلبلة»، وأعاد معصم الرجل على الملاءة البيضاء. التفت إلى الأخت فري وقال: «هل بإمكانك حضور الجراحة؟». كان هذا مجرد طلب مُهذَّب، إذ إنه من غير المعقول ألا تفعل. أومأت برأسها، وباستجاباتها الصامتة تلك، بعثت الثقة في مهارة غاريت، حتى إن نبضه الذي لم يهدأ بعد منذ كان يجري قاصداً المستشفى، قد بدأ في التباطؤ.

عندما دخل هو وسبنسر إلى غرفة العمليات، بأيديهما المعقَّمة؛ استعداداً للجراحة، غادر المساعدون. كان إدوارد بورتون ممدداً فارع الطول على السرير، وعيناه ثابتتان على

الأخت فري؛ التي أبدلت ثيابها بزي جديد، وكانت تسحب برتابةٍ متمرسة، سلسلة من الزجاجات والأدوات؛ لتضعها على صَوانٍ حديدية.

أراد سبنسر أن يشرح للمريض ما سيحدث، وهو أن تأثير الكلوروفورم سيبدأ في الظهور ببطءٍ وضعف، وعليه ألا يقاوم القناع، ولكنه سيستيقظ (هل حقّاً سيفعل؟)، في الوقت المناسب، وهناك أيضاً إحساس الحكَّة في الحلق، بسبب الأنبوب التي سيمر الأيثر من خلالها، ولكن غاريت طالبهم بالصمت، وعليه؛ فإن كلًّا من سبنسر والممرضة، بدءا في توقُّع ما يحتاجه لاحقاً؛ من خلال ما هو أكثر قليلاً من الإيماءات والوكزات، وكيفية التوجه عندما يعطيهم التعليمات بنظراته من فوق قناعه الأبيض.

أزال غاريت الضمادات من على المريض الراقد بلا حراك، وكانت الأنبوب المطاطية تجذب شفته، معطية انطباعاً ساخراً، فكشف الجرح وتفقَّده. كانت فتحة الجرح تتخذ شكل العين المغمضة؛ نتيجة البشرة المشدودة. حوى جسد بورتون دهوناً قليلة جداً، حتى إن عظمة الضلع الرمادية-البيضاء، كانت مرئية بوضوح تحت البشرة والعضلات الممزقة. كانت الفتحة غير كافية، فبدأ غاريت أولاً بتنظيف الجسد باليود، ثم استل المشرط، ووسع الفتحة نحو بوصة في كل اتجاه. بحضور سبنسر وفري، لسحب ما يخرج من الجرح ومسحه، لجعل الرؤية واضحة له، رأى غاريت أنه من الضروري أولاً أن يزيل جزءاً من الضلع، الذي يغطي القلب المجروح، وباستخدام منشار عظام دقيق (استخدمه مرة واحدة فقط، لبتر إصبع قدم مهشَّم لفتاة، على الرغم

من اعتراضها، بأنها لن تستطيع الرقص بصنادل، إذا امتلكت أربعة أصابع فقط بدلاً من خمسة)، وقطع الضلع ليصير أقصر بأربع بوصات عن طوله الطبيعي، ووضعه في وعاء بقربه، ثم بكماشات حديدية، كانت ستبدو ملائمة جدّاً وفي مكانها، لو كانت بين يدي مهندس سكة حديد، فتح التجويف وحدَّق بداخله، فكَّر سبنسر متعجباً، كالعادة، من أن الأمر كم كان مشرقاً وجميلاً من قبل.. إننا مضغوطون بشدة، فتدرَّج اللون الشبيه بالرخام من الأحمر والأزرق المائل للبنفسجي، والبقايا الضئيلة من الدهون، كل هذه الأشياء، كانت بغير لونها الطبيعي، وانقبضت العضلات حول الفتحة ببطء لمرة أو مرتين، كشفتين عالقتين في تثاؤب.

وهناك كان القلب، ينبض على نفس الوتيرة بداخل بقعته المحمية، وقد بدا الضرر طفيفا جدّاً. كان غاريت قد وعد بأن القطع سيكون في الغشاء المحيط بالقلب فقط، ولم يتجاوز ذلك، واعتبر نفسه صادقاً، والآن، وبإصبع مستكشفة، رأى أنه كان كذلك فعلاً. كانت حجرات القلب وصماماته غير متضرّرة، فدمعت عيناه، وأطلق زفرة ارتياح.

راقب سبنسر لوك، وقد تسلَّلت يده ـ انحنى المعصم قليلاً وانثنت الأصابع ـ ليحيط بالقلب؛ حيث استطاع أن يشعر به، لأنه كان يقول دائماً «حتى مع الأجساد الميتة، يمثل القلب أكثر الأشياء خصوصية، وحسية»، وقد كان يرى باللمس، بقدر ما يرى بالنظر، ثم بدأ يثبّت القلب بيده اليسرى، فيما تناول بيده اليمنى من فري، الإبرة المثنية المتصلة بخيط رفيع جداً، وكأنه يصلح كخيط حريري لفستان زفاف.

وفـي وقـت لاحـق، كان يتـم إيقـاف سبنسـر فـي العنابـر والطرقـات وسـؤاله: «كـم استغرقت العملية؟ كـم قطبة احتاجها الجرح؟»، فكان يـرد: «لقـد استغرق ألـف ساعة وألـف قطبـة»، غيـر أنـه فـي الحقيقـة، بـدا وكأنـه بالـكاد لـم يكـن قـادراً علـى التنفس مـن جديد، قبل سماعه صوت صرير مزاليج الكماشة، والانـزلاق المبلـل لـلأدوات؛ بينما كانـت تُـزال، وإغـلاق الجـرح في العضـلات المحيطة بحافة الفجوة، وأخيـراً؛ خياطـة البشـرة فـوق الفجـوة؛ حيـث كان الضلـع موجـوداً.

مضـت سـاعة طويلـة، وهـم يتناوبـون خلالهـا المـرور بجانـب الفـراش؛ حيث حـل مخـدر الأفيـون محـل الكلوروفـورم، وتـم تبديـل الملابـس إلـى أخـرى ملائمـة، وكانـت تتم مراقبتـه بقلـق، تحسُّـباً لأي علامـات نزيـف بطـيء أو مفاجـئ. كانـت الأخـت موريـن فـري ـ بظهرهـا المستقيم وعينيهـا المشـرقتين ـ كمـا لـو أنهـا فعلتهـا بسعادةٍ مـرات ومـرات، تمـرر لهـم الميـاه التـي لـم يكـن سبنسـر قـادراً علـى شـربها، والتـي تناولهـا لـوك علـى جرعـات، كادت تمرضـه. كان الآخـرون يجيئـون ويروحـون، يحدّقـون بفضـول عبـر البـاب، يأملـون فـي نصـر أو هزيمـة أو كليهمـا، ولكـن دون أن يـروا أي حركـة أو يسـمعوا شيئاً، ولكـن كل هـذا ذهـب هبـاءً.

فـي بدايـة السـاعة الثانيـة، فتـح إدوارد بورتـون عينيـه، وقـال بصـوتٍ مرتفـع: «لقـد كنـت فقـط عنـد كاتدرائيـة القديـس بـول، كان هـذا كل شيء، أتعجَّـب كيف تبقـى تلـك القبـة فـي مكانها!»، ثـم وبهـدوءٍ أكثـر، قـال: «إن حلقـي ملتهـب». لهـؤلاء الذيـن يرون كثيـراً مـن الحيـاة فـي المـد والجـزر، كان تـورّد وجنتـه ومحاولـة رفـع رأسـه، مؤشـرين أقـوى وأفضـل مـن أي مخطـط دقيـق طـوال

اليوم للنبض والحرارة. غربت الشمس، وسوف يراها تشرق من جديد.

التفت غاريت وغادر، باحثاً في عديد من الخزانات؛ حيث تحفظ البياضات راقدة منذ وقت في الظلام. تملكته رعشةً مروعة، وهزَّته بعنفٍ؛ لدرجة أنه أحاط جسده بذراعيه؛ ليحمي نفسه من الاندفاع نحو الباب المغلق، ثم هدأت، في حين بدأ يبكي!

3

رأى ويليام رانسوم؛ الذي عادةً ما يتجوَّل دون معطف، كورا تأتي باتجاهه، ورغم بُعد المسافة؛ فقد تيقَّن أنها زائرتهم. كانت تخطو خطواتٍ كبيرة كأنها صبي، وكانت دائماً ما تبدو وكأنها تتوقَّف لتتفحَّص شيئاً في العشب، أو تدسُّ شيئاً في جيبها. أضاءت أشعة الشمس الغاربة شعرها الطويل المنسدِل على كتفيها، وعندما رأته ابتسمت ورفعت يدها تحييه.

قال: «مساء الخير سيدة سيبورن».

ردت كورا: «مساء الخير أيها القس المبجَّل»، وبعد ذلك توقَّف الاثنان وابتسما، دون أخذ تحيَّتهما بجدية، وكأن سنواتٍ طويلة قد مرَّت، وجعلت من تلك المجاملات أمراً سخيفاً.

«أين كنتِ؟»، قالها وهو يرى أنها بالتأكيد قد مشت أميالاً. كانت أزرار معطفها مفكَّكة، وقميصها مبتلّاً حول الرقبة، وعلِقت به الطحالب، وحملت جذعاً من نبات بقدونس البقرة.

«لست متأكدة، فأنا في ألدوينتر منذ أسبوعين، ولكنها ما زالت تمثِّل لي لغزاً كبيراً! لقد مشيت غرباً، وأعلم ذلك. اشتريت القليل من اللبن، إنه أفضل لبن تناولته في حياتي، ثم سرت بطريق الخطأ في أراضٍ تابعة لمنزل فخم، وأخفت

طيور التدرُّج. أشعر بالتهاب في أنفي.. انظر! وسقطتُ أثناء عبوري سياجاً، ونزفت ركبتي».

«كونينغفورد هول، على ما أظن»، واستمر في حديثه دون أن يلقي بالاً لجروحها: «حيث توجد أبراج التزيين وطاووس حزين في قفص.. لقد كنت سعيدة الحظ بخروجك من هناك دون أن تُطلق عليك النار بتهمة السرقة».

«إذن، صاحب هذا المكان إقطاعي بغيض؟ كان عليَّ أن أطلق سراح الطاووس». أخذت تتأمَّله، فقد كان مظهره لا يليق بقس، كان قميصه فضفاضاً ومتسخ الأساور، كانت هناك بقايا من التراب تحت أظفاره، ولم تبدُ وجنتاه ناعمتين؛ كما كان الحال يوم الأحد، حيث علاهما لحية خفيفة، وفي موضع الندبة المستديرة التي تسبَّب فيها الخروف، لم يعد ينمو الشعر.

«بل إنه الأسوأ بين الإقطاعيين! اصطادي أرنباً من أرضه، وسينتقم منك، حتى وإن وصل الأمر إلى التهامك على الإفطار قبل الطبق الرئيس».

بدأ الاثنان في المشي معاً في خطوات متسقة، وخطر له أن أقدامهما لا بد أن تكون بنفس الطول، وقامتيهما بنفس الارتفاع، وربما أيضاً نطاق امتداد أذرعهما المفتوحة. انجرفت براعم الكرز في تيار الرياح الساكنة. شعرت كورا أن بداخلها كثيراً من الأشياء التي تريد قولها أو فعلها، ولا تستطيع منع نفسها من فعل ذلك. «قبل أن أراك، توقف أرنب بري هناك على الطريق، ونظر ناحيتي. لقد نسيت لون فراء هذه الحيوانات، التي تبدو كحبَّات لوز تم تقشيرها توّاً، والقوة الكامنة في أرجلها الخلفية، وكم يبلغ طولها، وبينما

كانت تنطلق عبر الحقول، فجأة توقَّفت وكأنها تذكَّرت شيئاً يجدر بها أن تفعله!». التفتت إليه وأخذت ترمقه، ربما يفكر الرجل الريفي في ابتسامتها الطفولية، ولكن لا، لم يحدث ذلك. ابتسم وأمال رأسه. «أترى طائر الحسون؟»، قالتها ثم أردفت: «هناك أيضاً طائر أصفر يلمع من بعيد، قد يكون عصفور سسكن، هل تعرف شيئاً عن الطيور؟ أنا لا أعرف، في كل مكان هناك توجد أشجار البلوط المشقوقة، وكأن الجذور والجذوع تنبثق منها، وثمة شيء أبيض تم دسُّه في التربة، بينما بدأت أوراق العام الماضي في التحلُّل، وقد بدأت أوراق خضراء في التكشُّف! كيف لم أرَ هذا من قبل؟ تمنَّيت لو أن لديَّ واحدة لأريك إياها».

نظر مرتبكاً إلى راحة يدها الممدودة. كم كانت غريبة لتلاحظ مثل هذه الأشياء، بل وتفكِّر في إخباره بها، وكان يحدوه فضول تجاه هذه المرأة؛ التي لم يستطِع معطفها الذكوري أن يُخفي قميصها الحريري الرقيق، وأزراره اللؤلؤية، والماسة على يدها. قال: «لست خبيراً في ما يخص الطيور مثلما كنت أتمنَّى، وعلى الرغم من ذلك، بإمكاني أن أخبرك أن عصفور القرقف الأزرق، يبدو كما لوكان يرتدي قناع قاطع طريق، أما القرقف الكبير، فيرتدي قبعة سوداء كقبعة القاضي!». ضحكت كورا، قال بنبرة يغلِّفها الحياء: «أتمنى أن تناديني باسمي، هل تمانعين؟ السيد رانسوم سيظل أبي دائماً».

قالت: «كما تريد، ويليام. حسناً».

«هل سمعتِ نقار الخشب؟ أنا أسمعه دوماً، وهل عثرتِ على أفعى إسكس؟ هل أنت قادمة إلينا لتصيبينا بالهلع الجماعي؟».

«لم أعثر على أي أثر أو دليل عليها!»، قالتها كورا بأسف، وتابعت: «حتى إن كراكنيل بدا مبتهجاً عندما ذكرت ذلك. أعتقد أنك أخبرت ذلك الشيء البائس أنني قادمة، وأرسلته إلى سوفولك ليعكِّر صفوها».

قال ويليام: «أوه، لا. دعيني أطمئنك، فهناك شائعات كثيرة! قد يواجه كراكنيل امرأة بقدر من الشجاعة، ولكنه لا يترك نافذته أبداً دون شموع، ويضع مأجوج المسكينة داخل المنزل؛ حتى يجفَّ ضرعها». ابتسمت؛ فقال: «الأكثر من ذلك، أن الناس في سانت أوسيث لا يبالون بالماشية، فقد اختفى عجلان صغيران من جوار أمهاتهما، ولم يعثر عليهما منذ ذلك الحين، فكَّر بينه وبين نفسه قائلاً: «ربما سُرقت، ولكن أراد أن يتركها تعجُّ في أحلامها».

«حسناً، هذا مشجِّع على الأقل. لا أمل في ذلك، ولكنني أعتقد أن هناك رجلاً آخر قد غرق». قالت ذلك بنبرة جادة.

«لا أحد، سيدة سيبورن.. كورا؟ صدقيني يؤلمني أن أحبطك، والآن إلى أين أنت ذاهبة؟».

وسارا معاً، وكأنهما كانا متفقين دون حديث على ذلك، حتى وصلا إلى بوابة منزل القس، ومن خلفهما تمتد الظلال الطويلة المألوفة لأشجار بلوط، منطقة تشارلز الخائن، وكان الدرب الذي يسيران فيه مرصَّعاً بالأزهار الياقوتية الزرقاء، التي كانت تنبعث منها رائحة قوية، تمايلت كورا معها، وبدر منها سلوك غير لائق، إذ منحتها هذه الرائحة إحساساً برغبة مفاجئة، جعلت نبضها يتسارع.

«إلى أين كنت ذاهبة؟». نظرت إلى قدميها، وكأنهما

حملتاها إلى هناك دون موافقتها: «أظن أنني كنت عائدة إلى المنزل».

«هل يجب عليك العودة الآن؟ ألن تدخلي؟ الأطفال بالخارج وستيلا ستكون سعيدة جداً برؤيتك». بدت موافقة على الدخول، وما لبث أن انفتح الباب دون أن يطرقاه، وكأن هناك مَنْ توقَّع حضورهما الآن، وخلف الباب كانت ستيلا واقفة بألوانها الجريئة والحية في القاعة المعتمة، بشعرها الفضي المنسدل، وعينيها المشرقتين.

«سيدة سيبورن.. كم كان ذلك غريباً، لقد كنا نتحدَّث عنك أثناء تناول وجبة الإفطار.. ألم نفعل؟ كنا نتمنَّى أن تأتي قريباً! ويليام رانسوم، لا تترك ضيفتك على عتبة الباب.. اصحبها إلى الداخل، دعها تسترِح، هل تتناولين الطعام؟ ما رأيك ببعض الشاي؟».

قالت كورا: «بإمكاني دائماً أن آكل!». رأت كيف مال ويل ليقبّل زوجته، وكيف تحسَّست يده خصلات شعرها الرقيقة والجميلة فوق أذنها، وتعجبت من رقَّتهما (وتذكَّرت حينما كان مايكل يداعبها قائلاً: «سأبدأ شقاءك بحبي»، وكيف كان يجذب شعرها خصلةً خصلة من مؤخرة عنقها، تاركاً بقعة مكشوفة بحجم البنس).

بعدها بقليل، وفي حجرة مشمسة، تجمَّعوا حول أطباق الكعك، مبدين إعجابهم بزهور النرجس على الطاولة. «أخبريني: كيف هي كاثرين؟ وما أخبار تشارلز؟»، جعلت رغبة ستيلا ونهمها للتعرُّف إلى حياة الآخرين منها رفيقة محببة للنفس، حيث إنها تحب فقط أن تسرد القصص، دون

أن تمانع كثيراً في تجميلها «كلاهما متخوّف من كونك هنا، يقول تشارلز إنه سيرسل صندوقاً من الشراب الفرنسي، وأنك لن تصمدي لشهر على الأكثر».

«إن تشارلز مشغول جداً ليفكر في الشراب، حتى وإن كان شراباً فرنسيّاً، فكما ترين، لقد أصبح معطاءً!».

رفع ويل حاجبيه، وبدأ في شرب الشاي. بدت الفكرة مستبعدة، فقد كان تشارلز طيب القلب، ولكنه من نوعية الأشخاص الذين يكرسون وقتهم للبحث عن سعادتهم، ويعتقد دائماً أن سعادة من يحبهم لا تحتاج منه إلى مجهود كبير، وقد كان المجهود الذي يبذله لمصلحة ما كان يفعله في السابق من عادة بائسة، تتمثَّل في دعوة الجماهير، أمراً مدهشاً للغاية. قال: «تشارلز أمبروز؟ لم يكن أحد أبداً مولعاً بشخص مثلما كنت أنا مولعاً به، ولكنه يهتم كثيراً بمشكلاته، حتى وإن كانت تافهة، بما يفوق اهتمامه بأوضاع البلاد!».

«هذا صحيح!»، قالتها كورا ضاحكة. (كانت تفضل أن تدافع عن الرجل، ولكن أين هو ليسمعها؟ إنه يرقد متكاسلاً في كرسيه المخملي في نادي غاريك. كان بالتأكيد سيومئ برأسه، ويضحك ويؤيدها). «إنها أفعال مارثا»، قالت كورا ذلك ملتفتة إلى ستيلا، وتابعت: «مارثا اشتراكية. حسناً، أحياناً أظن أننا جميعاً يجب أن نكون كذلك، عندما يحين الوقت، لو أن لدينا ذرةً من المنطق، ولكن بالنسبة إلى مارثا، فالأمر أكثر من أسلوب حياة، مثل صلوات الفجر وصلوات المساء بالنسبة إلى المبجَّل اللطيف هنا. كان موضوع الإسكان في لندن يثير صخباً شديداً ومستمرّاً (وإذا ما تحدَّثنا بأمانة،

فالأمر كان أكثر سخونة مما قد نتخيل)؛ عمال يكتوون بنيران السكن في العشوائيات؛ حتى يثبتوا أنهم يستحقُّون الحياة على أسطح المباني، وفي نفس الوقت، ركَّز الملاك على تحقيق مكاسب هائلة من الإيجار، وعلى الجانب الآخر، يتغافل البرلمان عن حل المشكلات؛ مقابل الحصول على أموال من الملاك. لقد ترعرعت في وايت تشابل، وكان والدها عاملاً طيباً، وعاشوا جميعاً في ظروف جيدة بما فيه الكفاية، ولكنها لم تنسَ أبداً ما كان يوجد خارج المنزل، فقد كانت الصحف تسمي المنطقة منذ عام أو عامين «لندن المنبوذة!»، أتتذكَّران، هل رأيتماها؟».

كان من الواضح أنهما لم يفعلا، وكورا التي نسيت تماماً أنها لم تكن في بايزووتر أو نايتس بريدج، وأن ما شغل وسيطر على الشائعات والنميمة في لندن لشهور، ما كان ليتجاوز أبعد من مياه نهر التيمز، لم يكن ليساعد بإعطاء كل منهما تلك النظرة الناقدة بقسوة.. «ربما أعرفها أنا جيداً فقط بسبب مارثا، والتي حقّاً كما أظن، قد تكون تسردها الآن. لقد تمَّت طباعتها، ثم أعيدت طباعتها من جديد مراراً في السنوات القليلة الماضية؛ حتى إنني كنت أتوقَّع أن تستخدم أوراقها في تغليف وجبتك من السمك وشرائح البطاطس».

«وماذا كانت... ماذا كانت تقول؟» قالت ستيلا: « لندن المنبوذة!»، حركت العبارة الشفقة بداخلها.

«هناك نشرة أعدها مجموعة من القساوسة على ما أظن.. صرخة مريرة من قلب لندن المنبوذة، بمجرد قراءتها لن تستطيعي نسيانها بسهولة. كنت أعتقد أنني رأيت كل شيء

يمكن أن يوجد في المدينة، من الأفضل إلى الأسوأ، ولكن لم يسبق لي من قبل أن رأيت شيئاً كهذا، في قبو يعيش أم وأب مع أطفالهم وخنازيرهم، مات طفل وشرَّحه الطبيب الشرعي هناك على المائدة، حيث لم يجد غرفة أخرى في المشرحة! وامرأة تعمل لمدة سبع عشرة ساعة في اليوم في خياطة الأزرار وعراويها، ولا يمكنها التوقُّف لتناول الطعام، ولا تجني ما يكفي لتبقى دافئة، وبالتالي؛ فمن الممكن أيضاً أن يقوموا بحياكة الأكفان الخاصة بهم. أتذكر أن مارثا كانت ترفض شراء ملابس جديدة لسنوات، قائلة إنها لن تكتسي بينما تعاني أختها!».

اغرورقت عينا ستيلا بالدموع قائلةً: «كيف لم نسمع بذلك من قبل؟ ويل.. أليس هذا واجبك، أن تعلم وتساعد؟».

رأت كورا اضطرابه، وأحسَّت أنه دون تدخُّل، قد يتجه التفكير إلى منحى أسوأ، ولكنها لم تترك الأمر هكذا؛ لتنتقص من رجل في أعين زوجته، وقالت: «أنا آسفة لإزعاجكما! لقد أدَّى الكتاب وظيفته، فالصيحة سمعها الجميع، وبدأ العمل على هدم العشوائيات والأحياء الفقيرة، وأخبروني بأن ما يجري في مكانهم هناك أفضل قليلاً. تولَّت مارثا الأمر، وطلبت المساعدة من صديقنا سبنسر، الغني إلى حد مُرِبك، والذي دعا تشارلز للمشاركة أيضاً. لقد سمعت أن هناك لجنة أيضاً. حسناً.. أتمنى أن تُقدّم لهم الأفضل».

«أتمنى أن تفعل! أتمنى ذلك»، قالتها ستيلا، وبينما تنظر إلى أعين كورا المليئة بالحيرة، تابعت: «شعرت بالتعب فجأة.. كورا، هلا تسامحينني؛ فأنا أريد الذهاب إلى الفراش،

لا أستطيع التخلُّص من الإنفلونزا، وسأبدو ضعيفة جدّاً بالنسبة إليك، حتى عند رحيل هذا الشتاء، بالكاد أُمضي يومي في الفراش، حتى عندما وضعت أطفالي»، وقفت فوقفت ضيفتها، قبَّلتها كورا، فشعرت بسخونة وجنتيها الرطبتين.

«لكنَّك لم تنتهِ من الشاي بعد، وأعرف أن ويل أراد أن يريك شيئاً، هلا بقيتِ لوقت قصير؟ ويل، اعتنِ بضيفتنا من فضلك!»، قالت وهي تظهر غمازاتها، «يمكنك أن تحدثها عن تحضيرك للموعظة، ويمكن أن تعطيك كورا رأيها؟»، ضحكت كورا، وقالت إنها لا تستطيع التعليق، ضحك ويل، وقال إنه على كل حال لم يكن ليحلم بإخضاعها للموعظة.

انغلق الباب بعد أن خرجت ستيلا، وسمعا صوت خطوات قدميها على السلم، وبدا كما لو أنه قد حدث تغيير بسيط في الجو. لن يكون دقيقاً أن نقول إن الحجرة بدت أصغر فجأة، وأدفأ قليلاً، ولكنَّها كانت كذلك بالتأكيد من حيث التأثير، فقد غربت الشمس، بدت الزهور الصفراء على الطاولة، وكأنها شعلة تتوهَّج من الإناء. سرى في المكان شعورٌ بالحرية، ممزوجاً بالفضول؛ فشعر كلاهما بتخطّي ما هو مألوف. كان ويل أيضاً يعاني من إحساس بسيط بالظلم، فهو لم يظنّ لدقيقة، أن ضيفته قد توقِع به لتجعله يبدو كأحمق، ولكن كان هذا هو ما حدث، وقد تخطَّى الأمر تشويه صورته، بل قد شعر بأنه معاقَب، وهو على حق في ذلك، منذ متى تضاءل ضميره هكذا؛ حتى لم يعد يتجاوز حدود الأبرشية؟ «الشفقة» قالها فجأة. «يوم الأحد سأتكلَّم عن قيمة الشفقة، التي أفترض بأنها هبة من نوعية الطيبة والرحمة، غير المستحقة، وغير المتوقعة».

قالـت: «سـأفعل ذلـك، مـن أجـل موعظتـك. سـيكون هـذا كافيـاً، فلندعهـم يعـودوا إلـى منازلهـم مبكـراً، ويمشـون فـي الغابـة، ليعثـروا علـى الـرب هنـاك». كانـت هـذه تقريبـاً نظريتـه المفضلـة للعبـادة؛ التـي بـدَّدت انزعاجـه، ألقـى بنفسـه علـى المقعـد، وأشـار إليهـا أن تفعـل المثـل.

«مـا الـذي كنت ترغـب في أن تريـه لـي؟»، في حضور ستيلا، حرصت كـورا علـى الجلوس بطريقـة تليق بسيدة أنيقـة، يتقاطع كاحلاهـا أسـفل تنُّورتهـا، أمـا الآن؛ فقـد اسـتلقت فـي زاويـة الأريكـة، مستندة علـى الـذراع، ومريحـة ذقنهـا علـى راحـة يدهـا.

قـال: «حقّـاً.. كنـت أتمنـى لـو أنهـا لـم تذكـر ذلـك، إنـه لا شـيء.. فقـط القليـل مـن الأشـياء التـي وجدتهـا بعـد المـد الأسـبوع الماضـي، ووضعتهـا فـي جيوبـي؛ ظنّـاً منـي أنـك قـد ترغبيـن فـي رؤيتهـا.. تعالَـي معـي!».

لـم يحـدث أن دخـل غرفـة مكتبـه أحـد مـن قبـل سـوى سـتيلا، ولـم تكـن الغرفـة نظيفـة أو مرتبـة، وأي شـخص يمكنـه أن يلحـظ مخلَّفـات الكتـب والمذكـرات علـى المكتـب والأرض، قـد يخمِّن الطبيعـة الكاملـة لتفكيـره، حتـى الأطفـال لـم يكـن مسـموحاً لهـم بالدخـول، إلا إذا تمَّـت دعوتهـم بوضـوح، وهـذا يحـدث فقـط بغـرض عقابهـم أو التدريس لهـم، وتبـدو لـه أن إراحـة أعصابـه في مواجهـة أشـجار البلـوط في منطقـة تشـارلز الخائـن عنـد الظهيـرة، سـتكون أقـل تعرضـاً وأكثـر عزلـة مـن سـلامه علـى الأشـخاص الذيـن يمـرون أمـام العتبـة، ولكنـه لـم يفكـر فـي أي مـن ذلـك عندمـا فتـح البـاب، وتراجـع إلـى الخلـف؛ سـامحاً لهـا بالمـرور، ولـم يزعجـه كيـف توجـه تركيزهـا فـوراً إلـى المكتـب، أو أن رسـالتها

كانت موضوعة بجوار أوراقه، وقد تآكلت ثنياتها من كثرة فتحها وطيها عدة مرات. «تفضلي بالجلوس»، قالها مشيراً إلى كرسي جلدي كان مملوكاً لوالده، ففعلت، وقد انتشرت تنورتها حولها. مد يده إلى أحد أرفف الكتب، وسحب رزمة من الورق الأبيض، وضعها على المكتب وفتحها بحرص، وأخرج منها قطعة شاحبة أكبر قليلاً من قبضة طفل، مدمجاً بها العديد من الشظايا السوداء المقسمة، وكأن صحناً خشناً قد تم تحطيمه، وأُخفي لسبب ما داخل قطعة من الطين. التقطه ويل، وأراها إياه، واقفاً بجوار كرسيها، ناظراً إلى أسفل، ما أتاح لها رؤية شعره؛ حيث نما بشكل دائري في قمة رأسه، فيما نمت الشعيرات البيضاء القليلة في شكل سميك ولامع مثل الأسلاك. «إنه ليس شيئاً مهمّاً، أنا متأكّد»، قالها وتابع: «ولكنها كانت هناك مكسورة على إحدى ضفاف الجدول. أذهب إلى هناك في أغلب الأحيان، ولم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا من قبل، ولكنني لم أفكر في أن أنظر إليها انتظاراً لمجيئك! ما رأيك، أيجب علينا أن نتواصل مع المتحف في كولشيتسر، ونتبرَّع بها لهم؟».

لم تكن كورا متأكدة تماماً، كانت تفهم جيداً في الأصداف المتحجّرة وحفرية العلجوم، وتلك الثنية البيضاء المرعبة، التي تشير إلى آثار قضمة سمك القرش في كتلة طينية. كانت تتعرَّف إلى قنافذ البحر الشوكية المنتفخة لدى رؤيتها، والضلوع المتوهّجة الأحفورية، وكانت مقتنعة أنها ستتمكن -ولو لمرة واحدة- من اكتشاف طبقة في ليم ريجيز بها عظام إحدى الفقاريات الصغيرة، ولكنها تعلَّمت تواضع الباحثين، فكلما عرفت أكثر، شعرت أنها لا تعرف

شيئاً. ثنى ويل يده، فدارت القطعة في راحة يده حتى انكسر جزء من الطين، وسقط من بين أصابعه الممدودة على الأرض. قال ويل: «حسناً إذن. ما رأي الخبيرة؟»، ونظر إليها بشغف وخجل، وكأنه متأكد أنه لا يوجد شيء يمكن أن يريها إياه ليسعدها، ولكنه كان يأمل أن يحقِّق ذلك، مرَّت بظفرها عبر السطح الأسود. لقد اكتسب بعض الدفء من يده، وكان ناعماً. أبدت امتنانها لتفكيره في ذلك: «أتساءل إن كانت نوعاً من الكركند، لن أتذكر الاسم أبداً! هوبلوباريا، هذا هو. لا أستطيع أن أخبرك بعمرها، ولكنني أتصور أنه بضعة ملايين من الأعوام». (هل سيواجه ذلك بالحديث عن أرضٍ تبدو رائعة منذ بدء الخليقة؟).

«بالطبع لا»، قالها، وقد بدت عليه السعادة بوضوح، غير أنه حاول إخفاءها. «بالطبع لا! حسناً، إذا كنت ترين ذلك، سيدة سيبورن، فأنا أنحني أمام علمك»، ثم انحنى بالفعل، وبعد ذلك وقف وبيده قطعة الطين المفتَّتة، ثم وضعها على رف الموقد بوقار مصطنع.

قالت كورا: «ويل، كيف أصبحت هنا؟»، قالتها بقدر من الزهو؛ أشبه بتحية ملكية بسيطة لكبار الشخصيات في افتتاح مكتبة. لقد سمع كلاهما بالأمر، وابتسما.

«أتعنين هنا؟»، قالها وهو يدير وجهه نحو نافذة لا توجد عليها ستائر، وتطل على المرج، ووعاء من الأقلام المسرَّبة، وعديد من رسومات الآلات الميكانيكية، ليس لها هدف سوى أن تظل تدور وتدور.

«أعني هنا! هنا في ألدوينتر، كان من الواجب أن تكون

في مكان آخر؛ مانشستر، لندن، بيرمنغهام، وليس فقط على بعد خمسين خطوة من الكنيسة الريفية؛ التي ليس لها مكافئ قريب! لو أنني قابلتك في مكان آخر لحسبتك محاميّاً أو مهندساً أو وزيراً حكوميّاً. هل أخذت العهد المقدس في الخامسة عشرة من عمرك عندما كنت طفلاً، وكنت خائفاً من مخالفة عهودك، وإلا أصابتك صاعقة لخيانتك!».

تأمَّل ويل ضيفته وهو يميل باتجاه حافة النافذة، عابساً: «هل أنا حقّاً مثير للشغف؟ ألم تلتقِ قسّاً من قبل؟».

«أوه.. أنا آسفة، هل تمانع؟». قالتها كورا ثم تابعت: «لقد قابلت عديداً من القساوسة؛ حتى إنني لا أتذكر عددهم، ولكنك تفاجئني، هذا هو كل شيء».

هزَّ كتفيه بلامبالاة، قائلاً: «أنت فريدة من نوعك، سيدة سيبورن، هل يمكنك حقّاً تصوُّر أنني من الممكن أن أتخذ مساراً يخالف توجهاتك، وأكون سعيداً بالدرب الذي اخترته؟».

فكَّرت لبرهة ثم قالت: «لا، لا أستطيع».

«لست شخصاً استثنائياً أو مثيراً للاهتمام، أنت مخطئة إذا اعتقدتِ ذلك.. لبعض الوقت، رغبت أن أكون مهندساً، أو مثل المبجَّل ريتشارد أو برونيل، وذات مرة، تركت المدرسة ورحلت بالقطار حتى جسر أيرون، ورسمت مخططات من المسامير والدعامات. كنت أجلس في الفصل شاعراً بالملل، واضعاً خططاً لعوارض الجسور الصندوقية، ولكن في النهاية، كان هذا غرضاً أردته، وليس إنجازاً حققته، أرأيتِ الفارق؟ لديَّ عقل جيد بما يكفي، فإذا لعبت بأوراقي بشكلٍ صحيح، كان بإمكاني الآن أن أكون جالساً على مقاعد

البرلمان الخلفية، أناقش بعض نقاط القانون الثانوية، متسائلاً؛ هل أتناول سمك التربوت على العشاء، وأترك أمبروز ليجد مرشحاً برلمانيّاً جديداً، أم ينبغي لي أن أذهب إلى دروري لاين أو شارع مال لتناول العشاء، ولكن هذا يسبِّب لي القشعريرة. أعطِني ظهيرةً؛ أرشد فيها كراكنيل للعودة إلى الرب؛ الذي لم يتخلَّ عنه أبداً أثناء آلاف المرات من وجبات العشاء في دروري لاين. امنحيني أمسيةً مع الترانيم على الأرض الملحية والسماء المفتوحة فوق آلاف الجولات في حديقة ريجينسي». لم يذكر أنه قد تكلم من قبل عن نفسه لهذه المدة الطويلة، وتعجب كيف استدرجته ليفعل ذلك «بالإضافة إلى ذلك...»، تابع منزعجاً قليلاً: «فأنا أتساوى مع ستيلا».

«أظنه أمراً مخزياً، هذا هو كل شيء».

«مخزياً!».

«نعم مخزياً.. إننا في العصر الحديث، ويسمح إنسان لنفسه بأن ينزل بمستوى ذكائه على نحو يكفي بالكاد أن يرضي نفسه بأسطورة وخرافة، قد تتضمَّن أن تدير ظهرك للعالم، وتدفن نفسك في أفكارٍ، حتى والدك كان ليظنها قد عفا عليها الزمن! لا شيء أهم من استخدام عقلك لأقصى درجة!».

«لم أُدِر ظهري لأي شيء، لقد فعلت العكس. هل تظنين أنه بالإمكان تفسير كل شيء بالمعادلات وبقايا التربة؟ إنني أنظر إلى الأعلى، وليس إلى الأسفل»، وهنا أيضاً حدث أحد تلك التغيرات في الجو، وكأن الضغط قد انخفض، وبدا وكأن عاصفة قادمة في الطريق، كان كلاهما مدركاً للغضب المتزايد في الآخر، وغير متأكدٍ من سببه.

«بالتأكيد أنت لا تحاول أن تبدو سطحياً، أنا أعرف هذا على الأقل!»، وجدت كورا نفسها محاطةً بيدي كرسيها، تحاول أن تبدو قاسية قليلاً: «ماذا تعرف عن إنجلترا الآن؟ كيف تمد الطرقات وإلى أين تتجه؟ إلى أماكن في المدينة؛ حيث لم يرَ الأطفال نهر التيمز أبداً.. لم يسبق لهم أن رأوا حفنة من العُشب. كيف يجب أن تكون راضياً بقراءة ترانيمك في الهواء الطلق، ثم العودة إلى المنزل لزوجة جميلة وكتب غادرت المطابع منذ ثلاثمئة عام مضت؟!». كان هذا إجحافاً، وهي تعلم ذلك، وتلعثمت قليلاً، رغبةً منها في عدم الانسحاب أو الضغط، فإن كانت تنوي إغاظة مضيفها؛ فقد نجحت في ذلك بالفعل. قال وصوته مفعم بحدةٍ قادرة على تمزيقها: «يا لك من متبصّرة، لتتمكَّني من تحليل شخصيتي ودوافعي من مقابلتنا الثالثة فقط»، وتقابلت نظراتهما، فأردف قائلاً: «لست أنا من يتجوَّل نابشاً في الطين بحثاً عن بقايا أشياء ميتة، لست أنا من هرب من لندن، وأضاع عمره في عِلمٍ بالكاد يستوعبه».

«هذا صحيح»، قالت كورا، «أوه حسناً، بل هو صحيح بما فيه الكفاية!»، وابتسمت؛ وكان لهذه الابتسامة وقع السحر؛ فهدَّأته تماماً.

قال: «حسناً إذن. ماذا تفعلين هنا؟».

«لست متأكدة.. أبحث عن الحرية على ما أظن. لقد عشت طويلاً تحت القيود. قد تتعجَّب لِمَ أنبش في الوحل، إنه الشيء الذي أتذكَّره من طفولتي. كنت نادراً ما أرتدي أحذية، ألتقط نبات الجولق كشراب مفيد للقلب، وأراقب

البرك تهتاج بالضفادع، ثم كان هناك مايكل، وكان متحضراً، كان يمهّد كل جزء من طريق الغابة، ويُعلّق كل عصفور دوري على عارضة، وقد علَّقني أنا الأخرى على عارضة. خصري مشدود، وشعري مصفف في جدائل. غسل وجهي وأعاد وضع مساحيق التجميل عليه، والآن لديَّ الحرية لأغرق مجدداً في الأرض إذا أردت، أن أترك نفسي تنمو بجوار الطحالب والفطريات، أو ربما تكون خائفاً أن تفكر في أننا لسنا أفضل من الحيوانات، أو على أقل تقدير، درجة واحدة أخرى فقط أعلى السُلَّم، ولكن لا، لا.. لقد منحني الحرية، لا يوجد أي حيوان آخر يلتزم بالقوانين، فلماذا يجب علينا أن نلتزم بها؟».

لو أن ويل كان قادراً على تجنيب التزاماته المكتبية؟ فلم يكونوا بعيدين أبداً عنها، وبينما كانت تتكلم، لمس حلقه، وكأنه يأمل أن يجد هناك الراحة من ياقته البيضاء. كيف يمكن أن يبدأ في التصديق بأنها كانت راغبة في أن تكون امرأة أكثر حيوانية، مهملة، بلا روح، أو احتمال خسارتها أو تطهير نفسها؟ ماذا أكثر من ذلك؟ لقد ناقضت نفسها في كل جولة، فمن المستحيل التقريب بين كورا الحيوانية، وتلك التي بدت دائماً قادرةً على استيعاب أفكار جديدة بعيدة المنال عنها. كان للصمت المسيطر أثرٌ شبيهٌ بنقطة التوقف في نهاية جملة طويلة مربكة، ولم يتم كسر هذا الصمت لفترة، ثم بلمحةٍ متعمَّدة؛ لتخفيف حدة الصمت، نظرت إلى الساعة وابتسمت، لأنها لم ترَ في الأمر أي إهانة، وتمنَّت ألا تكون سبَّبت أي إهانة أيضاً، قالت كورا: «يجب أن أغادر، بالطبع فرانسيس لا يحتاج إليَّ، ولكنه يحب أن يعرف أنه

بحلول الساعة السادسة، سيكون العشاء مُعدّاً على المائدة، وسأتناوله، وأنا بالفعل جائعة.. إنني دائماً جائعة!».

«لقد لاحظت ذلك»، وقفت ففتح الباب: «إذن سأسير معك، عليَّ أن أقوم بجولتي، مثل جراح في مستشفى، عليَّ أن أُجري بعض المكالمات لكراكنيل، وماثيو إيفانزفورد؛ الذي تعهَّد بضبط النفس في اليوم الذي عثر فيه على الجسد أمسية العام الجديد، واعتاد أن يرتدي الأسود، وأن يعلن عثوره على الأفعى، ونهاية العالم. لا بد أنكِ رأيتِه عندما أتيتِ أول مرة إلى كنيسة جميع القديسين، يرتدي الأسود بالكامل، ويبدو وكأنه يجب أن يحمل كفناً على كتفيه».

خارجاً عن المألوف من جديد، والشمس في طريقها إلى الغروب، ودون رياح، مشيا بخِفَّة قلب، مدركَين تجاوزهما للتضاريس غير المستوية دون إصابات جدية. تكلَّمت كورا بإعجاب عن ستيلا، ربما من باب الاعتذار، فسألها ويل في المقابل، أن تُعلّمه كيف يتم تحديد عمر الحفريات، من خلال طبقات الرواسب حيث يُعثَر عليها، وفي برج جميع القديسين، لمع ضوء الشمس على الصوان، وإلى جانب الممر، أومأت جميع زهور النرجس البرية اللطيفة؛ بينما كانا يمُران: «وهل ما زلت تظنين - بجديةٍ الآن، كورا - أنك قد تعثرين على أحفورة حية (هل قلتِ إنها زواحف الإكتيوصور؟)، في مكان ممل وضحل مثل مصب نهر بلاك ووتر؟».

«أظن أنني قد أفعل، أؤمن أنني سأفعل، ولم أكن قط متأكدةً من الفرق بين الاعتقاد والإيمان، يمكنك أن تعلمني يوماً ما، وفي النهاية، يمكنني بصعوبةٍ أن أدَّعي هذه الفكرة.

كان تشارلز لايل صارماً بشأن رأيه بأن الإكتيوصور قد يظهر، رغم أنني أقر بأن لا أحد أخذ كلامه بمحمل الجد.. انظر، لديَّ عشر دقائق متبقية من الحرية، دعني أمشِ معك إلى منزل نهاية العالم والماء.. أنا متأكدة أننا سنكون بأمان، فأبريل شهر لطيف جدّاً لتنانين البحر».

وصلا إلى الماء، ولم يصل المد بعد، وقد لمع الطين والألواح الخشبية في الضوء الغارب، وقد كسا أحدهم عظام ليفياثان بفروع صفراء من نبات الوزال. نما البردي في حزم شاحبة ناعمة، تومض كلما حركتها الرياح، وعلى مسافةٍ قريبة، سمعا الصوت العميق غير المعقول لطائر الواق. كان الهواء منعشاً ونقيّاً، فدخل إلى جوفهم، وكأنه شراب فاخر.

لم يكن أحدهما متأكداً قط، مَنْ حمى أعينهم أولاً من الوميض على سطح الماء، ورأى ما يرقد تحت السطح. لم يتذكَّر أي منهما هتافه، أو إخبار الآخر «انظر.. انظر!»، ولكن فقط في لحظة وقف كلاهما مذهولاً على الممر فوق الأرض الملحية، يحدّقان شرقاً. هناك عند الأفق بين الخط الفضي للمياه والسماء، رقد شريط من الهواء الشاحب اللامع، وعبر الشريط، مبحرةً فوق المياه بمسافةٍ كبيرة، تحركت بارجة ببطء عبر السماء الدنيا. كان من الممكن تمييز القطع المتفرِّقة من شراعها ذي اللون الأحمر القاني؛ الذي بدا وكأنه يتحرك بفعل الرياح القوية، وهناك -وبوضوحٍ أقل- كان سطح ليفياثان وحبال الأشرعة، ومقدم ليفياثان الغارق في الظلام، وبينما كانت تبحر بأقصى سرعتها، وكأنها تطير فوق مصب النهر، أومضت وتقلَّصت، ثم استعادت حجمها، ثم -ولدقيقةٍ- كان من الممكن رؤيتها كلها وقد انعكس قاعها،

وكأن مـرآة ضخمـة قـد وُضِعـت أسـفلها. بـدأت البـرودة تغـزو الجـو، وصاحـت طيـور الـواق، فسـمع كلٌّ منهمـا الآخـر يتنفَّـس بسـرعة، لـم يكـن الخـوف تحديـداً هـو مـا شـعرا بـه، ولكـنَّ شـيئاً شـبيهاً بـه، ثـم اختفـت المـرآة، وأبحـر القـارب وحيـداً. حلَّـق نـورس أسـفل هيـكل ليڤياثـان الأسـود، وفـوق الميـاه البراقـة، ثـم قـام أحـد أفـراد الطاقـم الشـبحي بجـذب حبـل، أو ألقـى المرسـاة، فتوقَّفـت السـفينة عـن الحركـة، فقـط بقيـت مُعلَّقـة فـي مكانهـا بصمـتٍ وروعـةٍ، سـاكنةً قبالـة السـماء، وقـف ويليـام رانسـوم وكـورا سـيبورن، مسـلوبي التقاليـد والأعـراف، حتـى الـكلام، ويـد كـورا القويـة فـي يـده، كطفليـن تائهيـن فـي عالـم العجائـب.

غرف القراءة
المتحف البريطاني
29 أبريل

عزيزتي السيدة سيبورن،

أكتب لك كما ترين من غرفة القراءة بالمتحف البريطاني، وقد كان زيي الكهنوتي بمثابة تذكرة المرور، على الرغم من أنه ما إن وصلت إلى المكتب؛ تفحصوني من الأعلى إلى الأسفل، لأن التراب يملأ ما تحت أظفاري بسبب زراعة الفول. كنت قد أتيت للبحث بنهمٍ عن شيء يجب أن أكتب عنه بخصوص ظهور المسيح في الترنيمة الثانية والعشرين، ولكن بدلاً من ذلك، وجدت نفسي وقد صمَّمت على التوصل إلى حقيقة ما رأيناه الليلة الماضية.

تذكرين أننا اتفقنا (فور أن استعدنا قدرتنا على الكلام)، أنه من غير المعقول أن نكون قد رأينا الهولندي الطائر، أو أي شبح آخر خارق للطبيعة. كنتِ تتساءلين إن كانت نوعاً من السراب، مثل تلك البحيرات التي تظهر في الصحراء، وتخدع هؤلاء الذين يكونون على وشك الموت بوعد حصولهم على المياه. حسناً، لم تكوني بعيدة جداً عن الحقيقة. هل أنتِ مستعدة للدرس؟

أعتقد أننا قد شهدنا هلوسة السراب (فاتا مورجانا)، المسماة على اسم الجنية مورجان؛ التي اعتادت أن تسحر البحارة حتى يلاقوا حتفهم عن طريق بناء قلعة جليدية في الهواء فوق البحر. كورا، ستندهشين كم يوجد منها هناك في المياه! أكتب لكِ هنا ملخصاً من المذكرات المنشورة لدوروثي وولفيندن (اغفري لي سوء خطي!).

الأول من أبريل 1864، كالابريا، بما أنني استيقظت مبكراً، وقفت في نافذتي لأشهد ظاهرةً باهرةً، لا ينبغي عليَّ التصديق بالتأكيد أنها ذات صلة بي بشكلٍ أو بآخر. كان الجو صحواً.. رأيت عبر الأفق فوق مضيق مسينة ضباباً رقيقاً شفافاً، بدأت ألاحظ من خلاله بالتدريج مدينة متلألئة. رأيت كاتدرائية عظيمة تتشكَّل أمام عينيَّ، بقممها وأقواسها، وبستاناً من أشجار السرو انحنى فجأةً، وكأنما ضربته عاصفة، وللحظةٍ فقط؛ ظهر برج ضخم ومتألق به كثير من النوافذ المرتفعة، ثم انزلق وكأنه وشاح.. انتهت الرؤيا، واختفت المدينة، وفي خضم دهشتي، جريت لأخبر رفاقي النائمين، غير أنهم لم يروا شيئاً، ولكنهم رجحوا أن تكون فاتا مورجانا المشؤومة التي تقود الرجال إلى حتفهم.

كما أن الجنية ترضي نفسها بالسفن والمدن.. كان هناك شبح يحشد جيوشه في السماء في معركة فيرفيرس، وقد أطلق عليه رجال النرويج السراب، ورأوا منحدرات مستحيلة تظهر في السهول.

هناك تفسير ركيك، ولكن طبيعي بشكلٍ كافٍ، فعندما أفكر في الأمر الآن، يبدو لي بالكاد أقل إبهاراً مما لو

كانت مورجان لي فاي؛ قد تبعتنا إلى هذه الأرض المالحة، فكما أعي الأمر، يتم تخليق الهلوسة في وجود ظروف محددة؛ مثل البرودة والهواء الدافئ الذي يخلق عدساتٍ عاكسة، والضوء الذي يصل إلى المراقب ينحني صاعداً بطريقةٍ محددة، بحيث تظهر الأشياء أسفل أو أعلى الأفق معكوسة في الاتجاه المعاكس (أتخيَّلك تدِوّنين هذا في دفتر ملاحظاتك، أهكذا تفعلين؟ أرجو ذلك!)، وبتبادل الجيوب الهوائية الباردة والساخنة، يحدث نفس الأمر للعدسات. هل رأيت كما رأيت أنا؟ بدت السفينة وكأنها تبحر فوق انعكاسها الخاص، لا يتم تغيير مكان الأشياء فقط، ولكنها تتكرَّر وتُشوَّه، شيء عديم الأهمية بهذا الشكل، قد يتم تكراره مرات عديدة؛ مشكلاً قرميداً تُبنَى منه مدينة كاملة!

لذا؛ بينما وقفنا هناك في حيرةٍ وارتباك، أفترض أننا طوال هذا الوقت، وفي مكان ما بعيداً عن مرمى بصرنا، وقفت على ضفةٍ ما سفينة محملة بالقمح، مغادرة إلى رصيف الميناء في كلاكتون.

أعلم أنني أميل إلى أسلوب الوعظ، أعلم ذلك، ولكنني لم أستطع تجاهل الأمر. لقد تم خداع حواسنا تماماً. وقفنا لدقيقةٍ فاقدين ذكاءنا، وكأن أجسادنا قد تآمرت ضد منطقنا. لقد كنت عاجزاً عن النوم، ليس بسبب سيطرة فكرة احتمالية رؤيتي لشبح سفينة، ولكن لأنني فكرت أنه لا يمكنني الثقة بعينيَّ، أو على الأقل، أن عقلي ليس موثوقاً به؛ ليفسر ما تلتقطه عيناي. هذا الصباح، بينما كنت أتريَّض، رأيت طائراً يموت على الطريق، تلك الطريقة التي كان يرفرف بها وهو ضرير، جعلتني أشعر بتوعُّك، لأنني لاحظت شيئاً ما مربكاً،

ثم أدركت أنه لم يكن طائراً، بل مجرد كومة من أوراق الشجر المبللة تحركها الرياح، ولكنها بدت منذ لحظة سبباً لغثياني، فهالني أنه إذا كان جسدي قد استجاب؛ كما لو أن ما أراه طائرٌ، فهل كان إدراكي خاطئاً حقّاً، حتى لو كان ذلك مجرد أوراق أشجار؟

غارقاً في أفكاري، خطر لي أن هذا غالباً ما يحدث بخصوص أفعى إسكس، بدأت أرى كيف يمكن أن تكون ظهرت لنا في أشكالها المتعددة، وأنه بعيداً عن هذا المكان، كانت حقيقة واحدة جاثمة هناك بمفردها. من الممكن أن يكون هناك عديد من الحقائق، لا يمكن أن تكون إحداها قابلةً للإثبات أو الإنكار. كم أتمنى أن تذهبي ذات صباح وتعثري على جثتها على الشاطئ، وأن يتم تصويرها، شرحها وتداولها، بالتأكيد عندها سنكون متأكدين من الأشياء!

ولكن لقد أسعدني أن أفكر بك ونحن واقفان هناك معاً. إنه تفكير شرير مني بالتأكيد، ولكنني أفضل أن يتم خداعنا معاً، على أن أتعرَّض للخداع وأنا وحدي.

تحياتي

ويليام رانسوم

يُسلم باليد

لقد كنت هناك! ورأيت ما رأيتِه، وشعرت بما شعرتِ به.

أصدقاء إلى الأبد

كورا

مايو

1

داعب شهر مايو وطقسه اللطيف الأزهار؛ حتى اقتلعها من جذورها مبكراً، وتطلّعت ناعومي بانكس إلى القمر؛ فأرجعت له الفضل كاملاً في سقوط الأمطار الخفيفة، والصباحات المعتدلة، لكنها رغم ذلك لم تكن سعيدة، فقد كانت تتذكّر أوقات الظهيرة عند السواحل الملحية، عندما آن الأوان لقدوم الربيع، لكن ما كانت تراه ذلك اليوم، لم يكن يد جوانا التي كانت تعانق يدها فوق اللهب، وإنما كانت ترى شيئاً في الماء، ينتظر الوقت المناسب للخروج. إنها ابنة أبيها وتعلم -أفضل من أي شخص آخر- تقلُّبات المد والجذر، وكيف يمكن للماء أن يصل إلى تل من الرمال، أو يحمل في تياره فروع أشجار البلوط المقطوعة، ورغم ذلك، نشأت ناعومي على الحذر من مصب نهر بلاك ووتر - ولم تطأ قدماها متن ليڤياثان - حيث كانت تتجنّب الرصيف على حافته، وكأنها على قناعة بأن ثمة شيئاً بالأسفل سيسحب قدمها أثناء مرورها.

كانت معلّمتها توبّخها لتكاسلها، وتحدّد لها العقاب، لكن الكلمات المكتوبة على الأوراق، قد نلتزم بها وقد لا نكترث لها من الأساس؛ وبدلاً من ذلك، اعتادت أن ترسم رسومات

بالفحم، تظهر فيها أفعى البحر ذات الجناح الأسود والمنقار غير الحاد، وكأنها تنقضُّ عليها من الورقة، ثم نظرت إلى الشريط الملتف حول أصابعها، وأجفلت لدى تذكُّرها أول مرة لاحظها زملاؤها، وكيف كانت خائفة ومتذمِّرة؛ إلى أن تدخَّلت صديقتها جوانا طويلة القوام، مستخدمةً نفوذ أبيها، لكنها حينئذٍ رفعت يديها وشاهدت الضوء يخترق أوردتها من بين تجاعيد بشرتها الخفيفة، إنها مشوهة، شخص غير طبيعي؛ ربما كان هذا كله محاولةً للحفاظ عليها من أن تميّزها أفعى إسكس؛ وربما كانت من أقاربها، وقد كانت ترفض أكواب الماء فترة من الزمن، إذ كانت على يقين من احتواء السائل على ذرات جلد منسلخةً من ظهر الأفعى.

ذات ليلة، بينما كانت عائدة خاوية اليدين من رحلة بحث عن أبيها، مرت على أبواب وايت هاير المفتوحة، فكانت رائحة الشراب مألوفة للغاية، حتى إنها كما لو كانت تستنشق أنفاس أبيها، فتقدَّمت بخطًى حذرة نحو عتبة الباب. أشار إليها الرجال بالدخول، وكانوا معجبين بشعرها الأحمر، وقلادة البيوتر التي ترتديها (فهي تحتوي على قطعة من برقع الجنين الذي ولدت به، لضمان عدم تعرُّضها للغرق)، وقد بدأت تعي نوعية القوة التي لم تكن لديها أدنى فكرة أنها تمتلكها؛ إذ كانت ترقص رقصة دائرية؛ كلما طُلِب منها ذلك، وكانت تضحك لإعجابهم بكاحل قدميها، وبعظام ركبتيها البيضاء. جميل أن يعجب الآخرون بك، لكن الغريب أنها تسمح لهم بشد ضفائرها، والعبث بقلادتها حيثما استقرت على بشرتها؛ تضحك وتقول: «أجل، بشرتي كلها مغطاة بالنمش». تذهب بعيداً فيدعونها، وعندما تعود

يقولون: «جميلة، جميلة»، فتظن أنها في النهاية، ربما كانت جميلة بالفعل، وفجأةً تدرك أن ثمة مشكلة، فتشعر بالخوف والغضب في آنٍ واحد، لكن ليس بإمكانها أن تتحرك؛ فهناك في مكان ما خلفها، رجل لا يمكنها رؤيته، يصدر ضوضاء أشبه بصوت حيوان يبحث عن طعام.

وفي تلك الليلة، رأت ناعومي في منامها أن الأفعى أظهرت طرف ذيلها المبلل تحت وسادتها، وتنفَّست ببرودة عند أجفانها المغمضة؛ فاستيقظت؛ متوقّعةً أن تكون الملاءة من تحتها مالحة ورطبة، ويبدو أن الحلم كان له علاقة بفقد والدتها منذ أعوام عدة (رغم حدوث ذلك برفقٍ في غرفة النوم والستائر مغلقة، وفي مكان لا يقترب بأي حال من بلاك ووتر)، ما جعل قلقها يسيطر عليها؛ حتى يمنعها من تناول الطعام.

غير أن أفعى إسكس لا تسعد بزيارة الأطفال، فقد أتت إلى ماثيو إيفانسفورد؛ بينما كان يتصفَّح كتابه المقدس، وأظهرت سبعة رؤوس وعشرة قرون، وتوجد فوق رؤوسها السبعة علامات الكفر. كانت الأمطار غزيرة عند باب كراكنيل؛ وقت هبوب عواصف الرياح الشرقية؛ وكان بانتظار بانكس -بينما كان يصلح مركبه الشراعي ويفكر في زوجته التي فقدها، وقاربه المسروق، وابنته التي لن يلتقيها ثانيةً- فغمز لويليام رانسوم وهو جالس على ذراع مقعده الخشبي المسوَّسة، وجعله يتيقَّن من فشله. كان يقرأ الصلاة القصيرة بحماسٍ أسعد جماعة المصلين «يا إلهي أنِر دروبنا المظلمة، نتوسل إليك بالرحمة التي أنزلتها، أن تخلِّصنا من جميع الشرور»، كما أنها أتت إلى ستيلا في صورة حمَّى خفيفة، لكنه لم يصمد معها كثيراً، إذ كانت تغنِّي له، وتشفق عليه

من كونه شيئاً يتسلَّل في جبن، وفي حجرة الطعام في نادي غاريك، وضع تشارلز أمبروز يده على بطنه ـ وكان قد أكل أكثر مما ينبغي ـ ومازح رفيقه قائلاً إن أفعى إسكس مارست عليه ألاعيبها. كان الدليل على الحكم الإلهي بشكلٍ عام، ملموساً هنا وهناك، فتجده أحياناً في طاعون رذاذ الوقواق في الحدائق، أو قطة تلقي قططها الصغيرة في الموقد، وسمع إيفانسفورد بموت في سانت أوسيث، لم يكن بإمكان الطبيب الشرعي تفسيره؛ حيث احتفظ بدماء دجاجة يوم الأحد، ثم خرج تلك الليلة لطلاء عتبات جميع أبواب ألدوينتر4؛ التي قد يسري عليها الحكم الإلهي. كانت هناك أمطار غزيرة قبل شروق الشمس، ولم يدرك أحد أي شيء.

كانت مارثا تراقب رفيقتها؛ تحسباً لأي علامات تدل على رغبتها في العودة إلى شارع فوليس، لكنها لم تلتمس أي علامة تدل على أن كورا أصبحت تجد سعادتها في وحل ألدوينتر، وذات يوم حول الظهيرة، ذهبت إلى إيست ميرسيا، ومشت والبهجة تملؤها، حتى إنها كانت تخشى أن تُعاقب عليها يوماً ما. كان الغدير يبلِّل المنحدرات الخمرية، وأينما جرى الماء؛ نمت الحشائش الصفراء. توقَّفت عند الشاطئ لتفحُّص الصخور والحصى المغربل على طول انجراف الشاطئ، فلم تجد صَدَفة الآمونية ولا حفرية العلجوم، لكنها لم تجد سوى شيء من العنبر؛ الذي يناسب تجاعيد راحة يدها تماماً. أحياناً كانت تتجوَّل عبر مخزن ذكرياتها في إسكس؛ معاناة الخراف البكماء، وهمسات كراكنيل في ممر كنيسة جميع القديسين، وستيلا تطوِّقها بذراعيها في ثقة، وكم كانت السفينة هادئة؛ بينما كانت تبحر وشراعها يكاد يُلامس

السماء، وبدا لها أنه كان عليها أن تعيش هناك لسنوات، حتى إنها لا تكاد تتذكَّر طريقة أخرى للعيش. أضف إلى ذلك وجود أفعى يجدر التفكير فيها، وعندما استقلَّت مركباً تتجوَّل به حول جزيرة ميرسيا، وزيارة هينهام أون ذا ماونت؛ حيث كانت تقرأ القصيدة الغنائية المندثرة لراغنار لوثبروك؛ الذي قتل أفعى ضخمة جدّاً، وأورث نفسه فخراً. كانت تضع نصب أعينها روح ماري آننغ؛ التي كانت تطارد شائعة أفعى البحر المجنَّح عن كثب؛ حتى أهلكت نفسها.

كانت كثيراً ما تذهب إلى بيت القس، محملةً بالهدايا لأطفال رانسوم؛ كتاب لجوانا، لعبة السُلَّم لجيمز (كان يفكِّكها في الحال)، وشيء من الحلوى لجون، وكانت تُقبِّل ستيلا على وجنتيها، وكانت تلك القبلات تحمل معنًى أيضاً، ثم رحلت إلى مكان ينتظر فيه ويل دراسته (كان يوجد العنبر على مكتبه)، ودائماً عند النظرة الأولى، كانت هناك لحظة بهجة واندهاش، يقول الجميع في أنفسهم، أنت هنا حقّاً.

كانا يجلسان جنباً إلى جنب على مكتبه، بينما كانت الكتب مفتوحة، ولا يلتفت إليها أحد؛ تقول هل قرأ هذا أو ذاك، وما رأيه فيه؛ فيقول قد قرأها كلها بالتأكيد، ولا رأي له فيها مطلقاً. هو يحاول أن يرسم الضوء المنكسر الذي يعطيهما السراب؛ بينما ترسم هي أجزاء من أحد حيوانات التريلوبيت (حيوانات مفصلية منقرضة). كان كل منهما يحتد على الآخر؛ كل بدوره يمارس قوَّته وعنفوانه؛ فعندما يتطرَّق الحديث إلى الإيمان والمنطق؛ يكونان على استعداد تام للجدال، ويُعِدُّ كل منهما نفسه متسلحاً بمزاجه السيئ («أنت لا تفهم!»، «وكيف لي أن أفهم وأنتِ لا تحاولين حتى مجرد

الـكلام بمنطـق؟»)، وذات يـوم عنـد الظهيـرة، وصـل الاحتـدام بينهمـا ذروتـه؛ عنـد السـؤال عـن إمكانيـة وجـود خيـر مطلـق، إذ كانـت كـورا تنكـر وجـوده؛ مشيرةً إلـى طائـر العقعـق اللـص؛ فتنـازل ويـل واسـتجمع نبـرة القـس بداخلـه، ثـم ضربـت مثـالاً في بهجـة عـن أفعـى إسـكس، فقـال: «إنـه لا يعـدو عـن كونـه شـائعة وأسـطورة، وإنهـا لـن تـرى شـيئاً مـن هـذا القبيـل»، ألا يعلـم كيـف انجـرف وحـش طولـه أربـع عشـرة قدمـاً إلـى شـاطئ مالـدون عـام 1717؟! وقـد كان رجـلاً مـن إسـكس أيضـاً! لقـد كان كل منهمـا يـرى الآخـر مصابـاً بعيـبٍ فـادح فـي فلسـفته؛ التـي لا بـد ألا يكـون لهـا أثـر فـي صداقتهمـا، وكان كلاهمـا يرتبـك قليـلاً؛ كلمـا لمـس أن هـذا لا يؤثـر علـى الإطـلاق، فقـد كانـا يتراسـلان كتابـةً، أكثـر ممـا يلتقيـان وجهـاً لوجـه. تقـول كـورا: «أحبـك علـى الـورق أكثـر»، وكانـت كأنمـا تحمـل مصـدر ضـوء ثابتـاً، تلفُّـه حولهـا، أو تضعـه فـي حافظـة تلتـفُّ حـول عنقهـا.

دفعـت سـتيلا البـاب المفتـوح، ودخلـت مبتسـمةً، وعلـى وجههـا أمـارات البهجـة والعفويـة، لقـد كانـت هـي أيضـاً تلقـى اهتمامـاً دافئـاً مـن رفقائهـا الكثيريـن، وكانـت تسـعد لرؤيـة زوجهـا محاطـاً بصديقـة تناسـبه تمامـاً. ذات مـرة؛ سـألتها زوجـة فضوليـة مـن ألدوينتـر تتمنـى الفضيحـة؛ قائلـةً، بينمـا تحـاول الوقيعـة وإشـعال الفتنـة: «يـا إلهـي! لـم أرَ فـي حياتـي صديقيـن مثلهمـا، كادا أن يتشـابها، فـي الأسـبوع الماضـي، قطعـت نصـف المسـافة دون أن تـدرك أنهـا ترتـدي حـذاءه!». كانـت تقـف فـي الصبـاح أمـام المـرآة، تمشِّـط شـعرها، وتتحسَّـر علـى كـورا التـي تتمتَّـع بمظهـر أنيـق وجميـل؛ عندمـا يدعوهـا مزاجهـا النـادر لذلـك، لكـن جمالهـا بشـكلٍ عـام، لا يختلـف عليـه اثنـان، فتضـع الفرشـاة جانبـاً

ـ حيث تؤلمها ذراعها ـ إذ جعلتها الإنفلونزا هزيلة وضعيفة، وعازفةً عن الخروج من المنزل، إذ كانت تفضّل الجلوس في آخر ساعة قبل الغسق، خلف نافذة الغرفة؛ لتتأمّل أزهار الربيع العطري؛ بينما تتفتَّح في المروج الخضراء.

انتبه لوك غاريت؛ ليكتشف أنه أصبح مشهوراً، حيث إن هناك موضة تنتشر بين طلاب قسم الجراحة، أنهم يقلّدون جميع خواصه الذاتية الغريبة؛ التي سبق السخرية منها، حيث يضعون المرايا في غرفة العمليات ويقفون أمامها، ويرتدون الأقنعة القطنية البيضاء، ولا يزال لوك ساخطاً على رؤسائه الذين يخشون أن يمتلئ الرواق بضحايا مشاجرات الشوارع؛ الذين يأتون لتقطيب جروحهم، فقد أهداه سبنسر؛ الذي يتمتَّع بالكرم، ويحاول الحفاظ على ممتلكاته من أن تمتهن لخدمة أصدقائه إلى ما لا نهاية، حزاماً من الجلد، وله إبزيم معدني ثقيل فضي اللون، وقد طلب أن ينحت على الإبزيم ثعبان أسكليبيوس ملتفّاً حول نفسه، في محاولة لتخليد ذكرى الانتصار الطبي.

لم يكن واثقاً مما ظنَّ أن بإمكانه أن يتغيَّر؛ بمجرد أن يثبت إمكانية إغلاق جرح في القلب، فاكتشف لوك أن الأمور لا تزال كما هي، فلا يزال بالكاد يسدِّد الإيجار، ولا يزال يعتمد على الأوراق النقدية التي يشك أن سبنسر يخبئها في غرفته؛ ولا يزال ذلك الرجل المنحني أسود الحاجبين؛ لم تتبخَّر جميع إهانات الحياة مع آخر ذرة من ذرات الكلوروفورم في غرفة 12. أضف إلى ذلك؛ أنه لم يصل إلى القلب، لم يصل بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد توقَّف المشرطان خارج غرف القلب؛ وبالتالي، لا يمكنه القول إن هذا من قبيل الإنجاز مطلقاً.

لقد اعترف لسبنسر -دون غيره- أنه كان يظن أن هذا في النهاية سيرفع قدره عند كورا، إنها تحبه بالطبع (أو هكذا تدَّعي)، ومعجبة به؛ لكنه يشعر أنها لا تعطيه مكانته، فقد اتخذت أصدقاء جدداً، وكتبت إليه تخبره كيف أن وجه زوجة القس يشعُّ بالحياة والحب؛ حتى إنك تظن أن الزهور تنزوي في خجل؛ كلما مرت عليها، وكيف أن ابنتها تبنَّت مارثا، بل وكيف أن فرانسيس يمكنه أن يتحمَّل رفقتهما لمدة ساعة أو ساعتين. لقد صدمه انتقالها للعيش في ألدوينتر، حيث كان يتخيَّل أنها غارقة فقط مع تلك الشخصيات البائسة؛ باعتبارها أرملة، وتشعر ببهجة شديدة لتربيتهم، لكنهما حين التقيا في كولشيستر، كانت تتحدث عن ويليام رانسوم في حماس؛ حتى يتحول لون عينيها الرمادي إلى الأزرق؛ تقول كأن الإله حقاً يُسرّي عنها غياب أخ، ويعوّضها بوجود آخر في اللحظة الأخيرة. لم يكن هناك ما تخجل منه أثناء حديثها عن الرجل، فلا احمرَّت وجنتاها ولا مالت نظراتها؛ ورغم ذلك، نظر غاريت إلى مارثا؛ فكان بإمكانه أن يكتشف لأول مرة؛ أنهما في توافق تام. ماذا يحدث؟ قالاها في صمت. «ماذا هنالك؟».

كان سبنسر منغمساً في لعنة السكن في لندن، فالذي كان في البداية مجرد وسيلة لإسعاد مارثا، أصبح الآن ضرباً من الهوس، فقد كان يتأمَّل تقارير جلسات البرلمان البريطاني، ومحاضر اللجنة طويلاً، وكان يرتدي أسوأ معاطفه، ويذهب للتمشية في شارع دروري لين، واكتشف عادة برلمانية بصناعة السياسات بإتقانٍ شديد، ثم غضَّ الطرف عنها، وانغمس في عالم الصناعة. أحياناً كان الطمع والجشع اللذين يراهما

يثيران استياءه كثيراً، وكان يظن أنه يُساء فهمه؛ فكان ينظر ثانيةً؛ فيرى الوضع أسوأ مما كان يظن، فقد هدمت السلطات المحلية العشوائيات، ودفعت تعويضات لمُلاك الأراضي -بحسب الإيجارات المفقودة- وبما أنه لا شيء يجعل الشقة مربِحة أكثر من الرذيلة والتكدُّس، فقد كان المُلَّاك يسهلون الأمرين على الرحب والسعة؛ كأي قوَّاد في الطرقات، بل وكانت الحكومة تكافئهم بأناقة. عندئذٍ؛ وجد المستأجرون أنفسهم وقد تحولوا إلى أشخاص لا أخلاقيين في نظر الآخرين؛ لمجرد وجودهم في منزل جديد من بيبودي، ومن ثمَّ يلجؤون للبحث عن غرف في منازل الإيواء، وقد مرت أوقات، كانت فيها الشوارع تعجُّ بالوهج؛ حين كان المستأجرون يحرقون أثاثهم، لأنه كان أردأ من أن يُباع. كان سبنسر يفكر في منزله العائلي في سافولك، حيث اكتشفت والدته مؤخراً؛ وجود غرفة أخرى، لم يعرفوا عنها شيئاً من قبل؛ فكان يشعر بالاشمئزاز.

نظر كراكنيل من أعلى منزل نهاية العالم إلى مصب النهر، وعيناه تملؤها المخاوف، فقد علَّق حيوانات الخُلد المسلوخة على أسوار منزله بكثافة، ووضع شمعةً تحترق في النافذة.

2

في ساعة متأخرة من ظهيرة أحد الأيام، وأثناء مشيه على السواحل الملحية؛ وهو يردّد ترنيمة على لسانه، قابل ويليام رانسوم ابن كورا (فرانكي)، وقد تلمَّس ملامح صديقته على ذلك الوجه الصغير الغامض؛ فلم يجد أيّاً منها. إذن تلك العينان تعودان إلى ذلك الرجل الذي يُفترض أنها أحبته؛ وتلك وجنته وذقنه، غير أن عيني الطفل كانتا حائرتين، لا قاسيتين، كما تخيَّل سيبورن، على الرغم من أنهما ليستا عينين لطفل، أو للدقة: لم يكن فرانسيس هكذا يوماً.

قال ويل: «ماذا تفعل هنا وحدك؟».

قال الصبي: «لست وحدي»، فأخذ ويليام يبحث في الأنحاء عن شخص آخر يقف على اللوح الخشبي؛ فلم يجد أحداً.

وقف فرانسيس واضعاً يديه في جيوبه، وراح يتفحَّص الرجل الواقف أمامه، وكأنه لغز ينتظر الحل، يجب عليه حلُّه ثم قال ـ وكأن السؤال أثير بشكل طبيعي جدّاً أثناء حديثهما ـ «ما الخطيئة؟».

رد ويل مندهشاً: «الخطيئة؟!»، وكان مشدوهاً لدرجةٍ جعلته يتسمَّر مكانه، ويمد يده وكأنما يتوقع مواجهة باب التبشير.

قال فرانسيس بينما يسير بجواره: «لقد عددت لك سبع مرات، قلت فيها تلك الكلمة يوم الأحد، وخمس مرات في آخر صلاة».

«لكني لم أنتبه إلى وجودك في الأبريشية يا فرانسيس. لم أركَ هناك قط»، وماذا عن كورا، هل كانت هي أيضاً تستمع وهي جالسةً في الصفوف الخلفية؟

«5+7= 12، لكنك لم تقل ما هي؟».

وصلا معاً إلى ليڤياثان، وتوقف ويل ـ ممتنّاً لتوقف الكلام ـ لكي يلتقط الحصى المنجرف على ظهره. على مدار كل هذه الأعوام خلال فترة خدمته كقسيس، لم يسأله أحد سؤالاً كهذا، فكان مرتعباً لدى شعوره بالضياع. لم يكن السبب أنه لا يمتلك إجابة، كان لديه الكثير (درس كل الكتب اللازمة)، لكن خارج الأبواب، من دون منبر الوعظ أو المقصورة في الأفق، وفوَّهة النهر تلعق الشاطئ، ففاجأه السؤال والجواب على أنه منافٍ للعقل.

«ما الخطيئة؟»، قال فرانسيس، دون انعطاف العبارة المتكرِّرة. يا إلهي! امنحني القوة، فكَّر ويل، بشكل متديّن وعلماني معاً، وسلَّم الصبي حصاة.

قال: «ارجع قليلاً، هنا، من أجلي، خطوة أخرى إلى الأمام.. الآن ارمِ الحجر واضرِب ليڤياثان ـ ذلك الضلع، هناك، حيث كنا واقفين».

نظر إليه فرانسيس لبعض الوقت، كما لو كان يقيِّم ما إذا كان يتعرَّض للسخرية، وكان من الواضح استنتاجه أنه لم يكن كذلك، حيث ألقى الحصاة، فسقطت في مكان قريب.

«خذ حجراً آخر»- وضع ويل حجراً أزرق في كفه- «حاول مرةً أخرى». رمى مرة أخرى؛ ولم يصب الهدف أيضاً.

قال ويل: «هذا كل ما في الأمر.. إن الخطيئة هي أن تحاول، لكنك لا تصل إلى الهدف. بالطبع لا نستطيع أن نحقق هذا الهدف في كل مرة، ولذا؛ فإننا نحاول مرةً أخرى. قطَّب الولد جبينه قائلاً: «ولكن ماذا لو لم تكن ليڤياثان هناك؟ ماذا لو لم تخبرني بالوقوف هنا؟ لو وقفت هناك، وكان ليڤياثان هنا، ربما أصبته منذ المرة الأولى.

قال ويل: «نعم»، وشعر أنه دخل إلى مياه أعمق مما كان يخطّط له: «نعتقد أننا نعرف إلى أين نوجّه أهدافنا، وربما نفعل ذلك، ولكن يأتي الصباح؛ فيحدث تغيُّر في الضوء، ونكتشف أنه كان علينا أن نحاول في اتجاه مختلف بعد كل شيء».

«ولكن إذا تغيَّرت، ما الذي يجب عليَّ فعله، وما الذي لا يجب عليَّ فعله، كيف أعرف ما الهدف؟ وكيف يمكن أن يكون خطئي إذا فشلت، ولماذا يجب أن أعاقَب على ذلك؟». حدث تجعُّد ضعيف بين حواجب الصبي السوداء، وظهرت كورا أخيراً.

«هناك بعض الأشياء». مشى ويل بعنايةٍ «على ما أعتقد أنه يجب علينا جميعاً محاولة فعل ذلك، أو محاولة عدم فعله، ولكن هناك بعض الأمور الأخرى يجب أن نفعلها من أجل أنفسنا». كانت الحصاة الأخيرة التي كان يحملها ناعمة ومستوية، أدار ظهره إلى ليڤياثان وقذف بها خارج المد؛ فتخطَّت مرة واحدة، وسقطت وراء موجة ضحلة.

قال فرانسيس: «لم يكن هذا ما قصدت فعله».

قال ويل: «لا، لم يكن كذلك، لكن في عصري، كنت معتاداً الفشل في كثير من الأحيان أكثر من النجاح».

«هكذا ارتكبت خطيئة»، قال فرانسيس، وضحك ويل قائلاً، إنه يأمل أن يُغفَر له. كان الصبي عابساً، ودرس ليڤياثان بعض الوقت وتحرَّكت شفتاه، واعتقد ويل أنه ربما يحسب المسار الصحيح للحجر، ثم التفت قائلاً: «شكراً لك على الإجابة عن سؤالي».

«كيف أبليت؟»، قال الكاهن، على أمل أنه سقط في مكان ما بين الإيمان والعقل، ودون أن يضر نفسه.

«أنا لا أعرف حتى الآن، سأفكر في هذا الأمر».

قال ويل: «أمر عادل بدرجةٍ كافية»، وتمنَّى أن يطلب من الصبي إخفاء محادثتهما عن والدته، ماذا قد تصنع مع ابنها الذي يتعلَّم عقائد الخطيئة؟ كان يعرف التحول العاصف الذي يحدث لعينيها الرماديتين.

درس كلٌّ منهما الآخر، سواء الشعور بأن القس قد حقَّق أفضل مستوى له في ظل ظروف أقل من مثالية، ومدَّ فرانسيس يده فصافحه ويليام وسارا بشكلٍ ودّي على هاي روود، وعندما وصلا إلى السوق توقف الصبي، وبدأ في تفتيش جيوبه، لذلك تساءل ويل عما إذا كان قد فقد شيئاً في الأرض المالحة، ثم سحب فرانسيس أولاً زرّاً عظميّاً أزرق، ثم ريشة سوداء ملفوفة في دائرة، وربطها ببعض الخيط. شعر بالعبوس، وحرَّك السبابة أسفل عمود الريشة، ثم تنهَّد وأعادهما إلى جيبه، وقال: «لا. أخشى أنني لا أستطيع توفير أي شيء اليوم»، وبنظرة اعتذارية، لوَّح بالوداع.

3

جعلت صداقة جوانا مع مارثا ـ المبنية بصبرٍ وحرصٍ، كبيتٍ من أوراق اللعب الخاصة بهما، جوانا رانسوم غيرت مقعدها المدرسي إلى مقعد قريب جداً من السيد كافين، وكطفلةٍ ذكية دائماً، اعتادت غزو مكتبة والدها، مع إيلاء اهتمام خاص بالكتب التي كانت بعيدة عن متناول اليد، حيث كانت ميولها الروحية تتغذّى في لحظة ما عن طريق جوليان من نورتش، وما تلاها من جولدن بوج.

ويمكن أن تعطيك تقريراً عن استشهاد كرانمر في نفَس واحد، ونبذة عن الحرب في شبه جزيرة القرم في النفَس الذي يليه، لكن حتى في لقاء مارثا، كان كل شيء بلا اتجاه، ويتم بنفس القدر، على أمل إزعاج كبار السن أكثر من أي شيء آخر في ذهنها، ولم يحدث لها قط أن شعرت بالخجل من صداقتها مع ابنة صياد أمّيٍّ تقريباً، وأصبحت الآن قادرة على تسمية طبيبات الجراحة النساء، والاشتراكيات والشاعرات والممثلين والفنانين والمهندسين وعلماء الآثار؛ الذين كان من الواضح أنهم وجدوا في أي مكان سوى إسكس، لقد حدَّدت لنفسها مهمة الانضمام إلى صفوفهم. سأتحدث اللاتينية واليونانية، كانت تفكّر في تحجيم التفكير

حول الكيفية التي كانت عليها قبل أسابيع من إلقاء تعويذات عظام ليڤياثان، سأتعلم علم المثلثات والميكانيكا والكيمياء، ولقد عانى السيد كافين من أوقات صعبة في تزويدها بالعمل؛ ليشغلها في عطلات نهاية الأسبوع، وقالت ستيلا: «لا تضعي في اعتبارك حاجتك إلى النظارات»، كما لو أن شيئاً قد يكون أسوأ من تخفيف تأثير أعينها البنفسجية.

شعرت ناعومي بانكس أن جوانا رحلت عنها، وتوجَّعت لذلك. لقد سمعت كثيراً عن مارثا، وشاهدت القليل، وكرهتها، وشعرت بقوةٍ أن شخصية مثل هذه تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، إذا لم يكن لديها في يوم من الأيام ما يشغلها، قد تبعد جوانا عنها. كانت تحب أن تظهر لصديقتها رسومات الأفعى، وتشرح كيف كان من المستحيل أن تنام وأن تعترف بما حدث في وايت هاير، وتسأل عما إذا كان يجب أن تكون غاضبة أو تشعر بالخجل، ولكن بدا الأمر مستحيلاً، فقد بدأت صديقتها تنظر إليها بشفقة، وهو شيء أسوأ من الكراهية.

وفي أول جمعة في مايو، جاءت ناعومي مبكراً إلى المدرسة. لقد حصلن على وعدٍ بقضاء صباح يوم مع السيدة كورا سيبورن؛ التي كانت تعيش في لندن، وكانت مهمة للغاية، وقد جمعت الحفريات، كما قال السيد كافين، عينات أخرى جديرة بالاهتمام، وكانت جوانا تشعر بالزهو لمقابلة السيدة سيبورن من قبل: «نحن نعرفها جيداً»، وقالت: «لقد أعطتني هذا الوشاح... لا، إنها ليست جميلة، لكن لا يهم ذلك، بما أنها ذكية، ولديها ثوب مغطّى بالكامل برسمة طاووس، وسمحت لي بتجربته»، وتطلَّعت إلى رؤية رصيدها وهو يزداد بين تلاميذها. لا أحد يستطيع مقاومة كورا، لقد رأتهم وهم يحاولون.

وبعد العثور على مقعد شاغر بجوار جوانا، تركت ناعومي للفتاة الأخرى قصاصة ورق، كتبت عليها تعويذة كانت قد اخترعتها قبل بضعة أسابيع، لكن جوانا انتقلت إلى الجبر، ولم تستطع تذكُّر ما تعنيه الرموز الملطَّخة، وجعَّدت الورقة في يدها، ثم جاءت السيدة سيبورن نفسها مرتديةً ملابس رتيبة بشكل مخيِّب للآمال، فيما كان بالتأكيد معطفاً للرجال من الصوف الخشن، وكان شعرها مشدوداً بشدةٍ من جبينها. حملت على كتفها حقيبة جلدية كبيرة، وكان تحت ذراعها اليسرى ملف، يظهر منه أثناء مرورها رسم صغير لكائن مثل قمل الخشب، وكان الشيء الوحيد الذي يمكن لناعومي أن تراه قليلاً من السحر الموعود، ماسَّة كبيرة ومشرقة على يدها اليسرى، لدرجةٍ أنه لم يكن من الممكن أن تكون حقيقية، إضافةً إلى وشاحٍ أسود ناعم، خيطَت فيه طيور صغيرة. قال السيد كافين برهبة: «صباح الخير سيدة سيبورن»، ووجَّه خطابه إلى الفصل قائلاً: «ألقين التحية على السيدة سيبورن».

«صباح الخير، سيدة سيبورن»، قلنها وهنَّ يتطلَّعن إليها، مع قليل من عدم الثقة، ونظرت إليهن كورا، وهي متوترة قليلاً، ولم تكن تعرف أبداً ما تفعله مع الأطفال، كان فرانسيس قد أخطأ فهمها تماماً؛ لدرجة أنها أصبحت تفكر فيهم كنوعٍ ممتع، ولكن متقلِّب، لا يمكن الوثوق به أكثر من القططٍ، ولكن كانت جوانا التي كانت تعرفها جيداً، بأعين أمها وفم أبيها، وبجانبها فتاة ذات شعر أحمر، وجهها ممتلئ بالنمش، وجلست كل واحدة منهما ويداها مطويتان، تدرسانها بترقُّب.. قالت: «كم أنا مسرورة لوجودي هنا.. سأبدأ بإخباركنَّ قصة، لأن أي شيء يستحق أن نعرفه يبدأ بكلمة، ذات مرة».

تمتمت ناعومي: «كما لو كنا أطفالاً»، وتلقَّت ركلة حادة من صديقتها، لكنها وجدت أنه في النهاية كان يوماً دراسياً أفضل من غيره؛ حيث استمعت إلى السيدة سيبورن، التي أخبرتها قصة المرأة التي وجدت في يوم من الأيام تنين البحر مغطًّى بالطين، وكيف كانت كل الأرض مقبرة، وكانت الآلهة موجودة، والوحوش تحت أقدامها، في انتظار الطقس أو مطرقة وفرشاة، لإحضارها جميعاً إلى نوع جديد من الحياة. فقط انظر بقوةٍ بما فيه الكفاية، وستجد نباتات السرخس تظهر جليةً في طبقات من الصخور، كما قالت، وآثار الأقدام؛ حيث كانت السحالي تسير على أرجلها الخلفية، وكانت هناك أسنان صغيرة جدّاً، لا يمكن للعين أن تلتقطها، وأخرى كبيرة جدّاً، كانت تُلبَس في السابق كتعويذة لصدِّ الطاعون.

وصلت إلى حقيبتها، ومرَّرت صدَف الآمونية وحفرية العلجوم من يدٍ إلى أخرى. قالت لهم: «هذه الحفريات، ربما عمرها مئات الآلاف من السنين، بل ربما الملايين!»، وسعل هنا السيد كافين؛ الذي قضى أول عشرين سنة في الكنيسة الميثودية الويلزية، وقال: «تذكَّر الآن خالقك في أيام شبابك»، وبدا حزيناً قليلاً. «هل هناك أي أسئلة للسيدة سيبورن؟».

قالت الطالبات: «كيف انتهى المطاف بالطيور في الصخور، كما قالوا، وأين كان البيض؟ هل وجدوا حفريات للبشر هناك بين السحالي والأسماك؟ كيف يصبح اللحم والعظام حجراً؟ هل سيقوم أحدهم بنفس الشيء يوماً ما؟ هل كان هناك شيء ينتظر تحت ساحة المدرسة الآن إذا خرجوا بالمجاريف وحفروا؟ ما أكثر الحفريات المفضلة لديها، وأين وجدتها؟

وماذا كانت تبحث عنه الآن، وهل كانت تؤذي نفسها؟ وهل سافرت إلى الخارج من قبل؟».

وبعد ذلك هدأت الأصوات قليلاً، ماذا عن نهر بلاك ووتر، هل سمعت عنه؟ ماذا عن الرجل الذي غرق صباح يوم رأس السنة الجديدة، ووجدت الحيوانات ميتة، والأشياء التي رأوها في الليل؟ ماذا عن كراكنيل الذي جُنَّ جنونه الآن، وجلس طوال الليل بجوار ليڤياثان يراقب الوحش؟ هل كان هناك شيء قادم؟ رأى السيد كافين الاتجاه الذي سلكه في الصباح، وحاول بذل قصارى جهده لإعادة توجيه مساره.

قال: «الآن يا فتيات، لا تزعجوا السيدة سيبورن بهذا الهراء»، ومسح حرفية الآمونية المرسومة على السبورة الموجودة خلفه.

سارت كورا مع ويليام رانسوم في المساء السابق لهذا اليوم، فقال لها -بصوت القس الذي يختاره من وقتٍ إلى آخر إذا أراد أن يظهر اليد العليا- إنها لم تشجع الأطفال على التحدث عن المشكلة، كما قال: «لقد كان التعامل سيئاً للغاية مع كراكنيل، وكذلك إصرار بانكس على أنه لم يكن هناك أي سمك مملَّح، وأنه من المحتمل جداً أن يموت جوعاً، إن وضع الأفكار في رؤوسهم لن يساعد بأي شيء، ولن يساعد أحداً». في الوقت الذي كانت تفكر بوعي؛ أنت على صواب، يا ويل، أنت على حق بالطبع، ولكن الآن الحضور أمام اثني عشر وجهاً لفتيات يستفسرن منها ويتنابهنَّ الخوف بوضوح في أماكن ما، شعرت بمزاجها متأرجحاً، وفكَّرت أنه دائماً ما يُملي عليها رجلٌ ما، أو سواه، ما يجب فعله!

وقالت وهي تتقدَّم بحذر: «ربما لا تزال هناك حيوانات حيَّة اليوم مثل تلك التي نجدها في الصخور»، «وبعد كل شيء، هناك أماكن في العالم لم يسِر عليها أحد على الإطلاق، والمياه عميقة جداً، ولم يتمكَّنوا من العثور على القاع، من يدري ما قد نفتقده؟ في إسكتلندا، في بحيرة تسمَّى «نيس»، كانت هناك مشاهد لمخلوق في الماء منذ أكثر من ألف عام. يقولون إنه ذات مرة قُتِلَ رجل وهو يسبح، وسانت كولومبا أرسلت الوحش بعيداً، إلا أنه يطفو بين الحين والآخر».

سعل السيد كافين، مع النظر نحو أصغر أعضاء الصف (فتاة ترتدي فستاناً أصفر، قد خفضت زوايا فمها في كآبة من الخوف السعيد)، وأشار إلى أن ضيفته قد تفضِّل الحفاظ على الحجارة والعظام التي أحضرتها في حقيبتها.

قالت كورا: «لا يوجد ما نخاف منه، باستثناء الجهل». ما يبدو مخيفاً، هو انتظارك لإلقاء الضوء عليه. فكِّر في كيفية ارتفاع كومة من الملابس على أرضية غرفة نومك، إلى أن تفتح الستائر، وترى أنها فقط تلك الأشياء التي خلعتها في الليلة السابقة! لا أعرف ما إذا كان هناك أي شيء في نهر بلاك ووتر، لكنني أعرف ذلك، إذا ظهر هذا الشيء على الضفاف، وسُمِح لنا أن نراه، فلن نرى وحشاً، مجرد حيوان صلب وحقيقي مثلي ومثلك. كانت الفتاة التي كانت ترتدي الفستان الأصفر، تفضِّل بوضوح أن تكون خائفة على أن تتعلَّم، وتثاءبت برقَّة في راحة يدها.

نظرت كورا إلى ساعتها قائلة: «حسناً.. لقد تحدثت كثيراً جدّاً، وكنتنَّ صبورات جداً، وأصغيتنَّ جيداً. لدينا ساعة

متبقية، على ما أعتقد، هل هذا صحيح يا سيد كافين؟ وما أرغب فيه أكثر من أي شيء آخر، هو معرفة مدى جودة رسمكنَّ جميعاً وطريقة التلوين. قالت: «لقد شاهدت صوركنَّ- حيث أشارت إلى جدار من الفراشات- وأحبها كثيراً». هل تردن أن تأتين وتخترن شيئاً نرسمه، وعندما تنتهين من ذلك، سأختار الرسمة التي أعتقد أنها الأفضل، وستحصل من رسمتها على جائزة.

عند ذكر الجائزة، انتفض الصف «في صف واحد، من فضلكنَّ». قال السيد كافين، وهو يراقب كورا وهي توزِّع صدف الآمونية وحفرية العلجوم والقطع الناعمة من الصلصال؛ التي كانت الأسنان الحادة جزءاً لا يتجزأ منها، وجلَبَ أواني الماء والفرش، وقشوراً صلبة من الألوان.

بقيت جوانا رانسوم جالسةً بهدوء، وقالت ناعومي: «لماذا لا نتقدَّم الصف؟»، وهي تتلهَّف إلى وضع يديها على بعض الصخور الجميلة بشكلٍ خاص، وتظهر للسيدة سيبورن أنها هي أيضاً تستحق اهتمامها.

قالت جوانا: «لأنها صديقتي، ولا أستطيع التحدث إليها مع وجود أطفال في كل مكان»، وكانت لا تعني هذا بخبث، ولكن في حضور كورا، بدا أن صديقتها القديمة تتضاءل في الكرسي إلى جانبها، وتزداد ضآلة وحمقاً، وكانت ثيابها ممزَّقة، ورائحة السمكة الفاسدة تفوح من أعماق الشقوق، وكان شعرها مجدولاً في ضفائر قبيحة؛ لأن والدها لم يستطِع أبداً أن يجيد تجديل الضفائر. فكَّرت جوانا وقالت: «كيف يمكنني أن أكون مثل كورا، إذا كنت أتحدَّث مثل ناعومي،

وأجلس مثلها، وأنا غبية مثلها، ولا أعرف حتى أن القمر يدور حول الأرض؟».

وخلف نمشها، أصبحت ناعومي شاحبة، وشعرت بحماسٍ شديد، ولم تكن أبداً أكثر حماساً من ذلك. قبل أن تتاح لها فرصة للرد، كانت جوانا بجانب المرأة، وقبَّلت خدها، وكانت تقول لها: «ظننت أنكِ أديت على نحو جيد، تماماً كما لو كانت من البالغين أيضاً، وما زالت تمسح أنفها في كمِّها عندما تعتقد أن لا أحد يراها! لم تأكل ناعومي في ذلك اليوم، وجعل الجوع الغرفة تبدأ بالدوران بها؛ حاولت أن تقف، ولكن ظهر السيد كافين عند مقعدها، ووضع وعاءً من الحبر الأسود وحزمةً من الأوراق، وشيئاً يشبه حلزون حديقة مصنوعاً من الحجر الرمادي.

وقالت المعلمة؛ التي كانت قاسية: «اجلسي بشكل مستقيم يا ناعومي بانكس»، شاعرةً أن السيدة سيبورن ووحوشها، تحوَّلت إلى أقل من شيء ثمين لليوم الذي كان يُؤمل فيه. «أنتِ فنانة أفضل من معظمنا هنا، انظري ماذا يمكن أن تفعلي بهذا». فكَّرت ناعومي وهي تزنها بيدها اليمنى ثم اليسرى: «ماذا سأفعل به؟»، كانت تود أن ترميها على كورا سيبورن وتضربها على الجبين. من كانت هي على أي حال؟ لقد كن جميعاً على ما يرام قبل مجيئها، هي وجوانا مع تعويذاتهما ونيرانهما، فكَّرت أنها على الأرجح كانت ساحرة، ألا تضعها فوقها بمعطف من هذا القبيل. ربما كانت أفعى إسكس شيئاً مألوفاً قد أحضرته معها، وتحمَّست نتيجة للشر الموجود في الفكرة، وعندما عادت جوانا إلى مقعدها، كانت ناعومي تلفُّ فرشتها في وعاء الحبر، وتضحك.

ربما تنام وهي مربوطة بنهاية السرير، وفكرت: ربما تركبه. لقد حركت وعاء الحبر مراراً وتكراراً، وظهرت بقع الحبر على ورقةٍ بيضاء أمامها. ربما تطعمها في الليل! فكرت، وضحكت بشدةٍ، فقط لم تكن متأكدة مما إذا كان للضحك أي شيء يتعلق بأفكارها الخاصة، لأنها كانت صاخبة وغريبة للغاية، ولم تستطِع إيقافها، على الرغم من أنها رأت جوانا تبدو في حيرةٍ ومتصلِّبة قليلاً، من المحتمل أن تكون هنا ـ في الخطوة ـ خارج الباب، فكَّرت، أراهن أنها صفرَّت لها كما يفعل المزارع مع كلابه، ونظرت إلى الأسفل إلى يديها، ذات الجيوب البيضاء الصغيرة من اللحم التي تربط كل إصبع، وبدا لها أنها تلمع بالماء المالح، وتفوح منها رائحة بقايا السمك، وجعلها ضحكها تهتز، وارتفع صوتها قليلاً، وكانت تلك طبقة صوت تدل على الخوف الواضح، لقد نظرت لأول مرة على كتفها اليسرى ثم اليمنى، ولكن تم إغلاق باب الفصل. حركت فرشاة الرسام في وعاء الحبر بشكل مستدير على نحو هيستيري، كما لو كان هناك شخص آخر يوجِّه يدها، واهتزَّ المكتب، وسقطت جرة ماء، وانتشرت عبر الصفحة الملطخة بالحبر. انظروا إليها، إنها هناك، فكرت ناعومي، وهي ما زالت تضحك، وتهزُّ رأسها على كتفها (عندما تجيء ستكون أول من يراها!)، قالت لجوانا: «انظري»، أو إلى السيد كافين؛ الذي ظهر أمامها مرةً أخرى، وهي تعصر يديها، قائلةً شيئاً لا تستطيع سماعه نتيجة ضحكاتها العالية.

قالت: «ألا ترى ذلك؟»، وهي تشاهد الماء، يجعل الحبر يزهر، ما جعلهم بالتأكيد يرونه! جسم ملفوف من أفعى من

نـوعٍ مـا، ينبـض القلـب مـن خـلال الجلـد الرقيـق لبطنهـا، وزوج مـنٍ الأجنحـة السـوداء المفتوحـة. «لـم يمضِ وقـتٌ طويـل الآن»، قالـت: «لـم يمضِ وقت طويـل الآن». نظرت على كتفهـا، مـراراً وتكـراراً، مـن المؤكـد تمامـاً أن الأفعى كانـت على العتبـة، يمكنها أن تشـمَّه، وبالتأكيـد تستطيع، إنهـا تعـرف الرائحـة فـي أي مكـان، وإلـى جانـب ذلـك، يمكـن للآخريـن رؤيتهـا أيضـاً، كانـت هنـاك هاربيـت فـي فسـتانها الأصفـر، وكانـت تضحـك وترفـع رأسـها حتـى الآن علـى كتفهـا، ويمكنـك أن تعتقـد أن رقبتهـا ستنكسـر، وكانـت هنـاك التوأمتـان عبـر الطريـق، اللتـان تحدثتـا بالـكاد، فـي مـا بينهمـا، والآن حرَّكتـا رأسـيهما يسـاراً ويمينـاً لأكثـر مـن مـرة، تحركانهـا ذهابـاً وإيابـاً، وتضحـكان كلمـا فعلتـا ذلـك.

شـاهدت كـورا، وهـي تشـعر بالفـزع، الضحـك المنتشـر فـي الخـارج مـن مقعـد الفتـاة ذات الشـعر الأحمـر، واختفـت جوانـا، متحرِّكـة حولهـا، مثـل تدفـق الميـاه التـي تقطعهـا الصخـور، وكـان الأمـر كمـا لـو أنهـن سـمعن جميعـاً نكتـةً صامتـة تجاهلهـا الكبـار، كانـت بعـض الفتيـات يكتمـن ضحكاتهـن؛ بوضـع أيديهـن علـى أفواههـن، وألقـت الأخريـات رؤوسـهن إلـى الخلـف، وأحدثـن أصواتـاً عاليـة، وكـنَّ يضربـن المقاعـد أمامهـن، وكأنهـن نسـاء أكبـر سـناً، وكانـت النكتـة سيئة.

وكانـت ناعومـي؛ التـي كانـت قـد بـدأت كل شـيء، قـد أنهكـت نفسـها، وجلسـت تضحـك بهـدوء، ووضعـت يديهـا فـي المـاء والحبـر الـذي امتـد عبـر الـورق، وتتوقَّـف بيـن الحيـن والآخـر؛ لتنظـر فـوق كتفهـا وتضحـك بصـوتٍ أعلـى قليـلاً، وكانـت الطفلـة فـي الفسـتان الأصفـر؛ التـي كانـت الأقـرب إلـى البـاب، قـد ضحكـت بشـدة حتـى انهمـرت مـن عينيهـا الدمـوع،

وبدلاً من أن تتحوَّل إلى النظر فوق كتفها، حوَّلت كرسيها وجلست في مواجهة الباب، وضغطت يديها على خديها، فاتحةً فمها لدخول جرعات الهواء مرتِّلةً: «إنها قادمة.. هل أنتن مستعدات أم لا، إنها قادمة، هل أنتن مستعدات أم لا؟».

وأمسك السيد كافين برباطة عنقه وهو غاضب وخائف، صائحاً: «أوقفن هذا! أوقفن هذا!»، وبحث غاضباً عن الزائرة المزعجة؛ التي كانت مرتعدة للغاية، ووقفت ممسكةً بيد جوانا، ثم تمايلت فتاة، وضحكت بشدةٍ، وانقلب كرسيها؛ فسقطت على الأرض بصرخة اخترقت غمرة الضحك الحمقاء الذي بدأ يتراجع على الفور.

وضعت ناعومي يدها على رقبتها قائلةً: «هذا مؤلم، لماذا تؤلمني رقبتي؟ ماذا فعلتنَّ؟»، ونظرت حولها إلى رفيقاتها في الصف، وكانت تختلس النظر وتهزُّ رأسها مذهولةً بوجوههن المبللة بالدموع. لفَّت الصغيرة هارييت الطرف الأصفر لفستانها، فأصابها قليل من الفواق، وذهبت فتاة أو فتاتان من الفتيات الأكبر سناً لتهدئة بكاء الطفلة؛ التي كانت تمسك بمعصمٍ ملتوٍ جانب الكرسي المقلوب.

قالت ناعومي: «جوانا؟»، وهي تنظر إلى صديقتها، ما المشكلة؟ هل كنت أنا؟ ماذا فعلت هذه المرة؟!».

كورا سيبورن
3، المنطقة العامة
ألدوينتر
15 مايو

لـوك، أعلـم أنـك تسـتمتع بشـهرتك، وربمـا تشـعر بذلـك فـي أعماقـك، ولكـن الآن نحـن بحاجـة إليـك.

لـوك، شـيء مـا يحـدث علـى نحـو خاطـئ. اليـوم حـدث شـيء مـا بيـن الفتيـات، وانتشـر بينهـنَّ انتشـار النـار فـي الهشـيم، ليـس مرضـاً بالمعنـى المتعـارف عليـه عـادةً، بـل هـو شـيء لـه علاقـة بالعقـل، وأثَّـر فيهـن واحـدةً تلـو الأخـرى كلعبـة الدومينـو، لكـن بحلـول المسـاء؛ كان كل شـيء جيـداً مـرةً أخـرى، ولكـن مـا الـذي يمكـن أن يكـون قـد فعـل هـذا الشـيء، هـل كان ذلـك خطئـي؟

أنـت تفهـم هـذه الأشـياء جيـداً، فقـد جعلتنـي تحـت تأثيـر التنويـم المغناطيسـي حينمـا لـم أصـدق أنـك تسـتطيع فعـل ذلـك، كنـت أسـير علـى المـروج إلـى منـزل والـدي، فـي حيـن كنـت أسـتلقي علـى الأريكـة. ألـن تأتـي؟

أنـا لسـت خائفـةً، أنـا لسـت خائفـةً مـن أي شـيء بعـد الآن، لقـد اعتـدت ألا أخـاف منـذ فتـرة طويلـة؛ لكـنَّ هنـاك شـيئاً مـا، شـيئاً مـا يحـدث، شـيئاً مـا غيـر صحيـح.

إلى جانب ذلك، يجب عليك مقابلة عائلة رانسوم، وبالأخص ويل. لقد أخبرته عن صديقي القصير.

هل يمكنك إحضار مزيد من الكتب لفرانسيس؟ كُتب عن جرائم القتل، من فضلك، كلما كانت أكثر دمويةٍ كان ذلك أفضل.

مع حبي،

كورا

لوك غاريت
طريق بينتونفيل
لندن، إن 1
15 مايو

كورا-

لا تقلقي، لا توجد ألغاز بعد الآن.

كلمة واحدة: التسمُّم الأرغوني. أتذكرين؟ الفطر الأسود في محصول الجاودار- مجموعة من الفتيات يهلوسن، وأعدمت قرية سالم الساحرات، ويبحثون في غذائهم عن الخبز البني.. سأكون معك بحلول يوم الجمعة المقبل.

مرفق طيه: ملاحظة واحدة لمارثا، مع تحيات سبنسر. شيء عن السكن: إنه يزعجني، وأنا لا أستمع له.

لوك

جورج سبنسر
10 كوينز جيت تيراس
15 مايو

عزيزتي مارثا-

أتمنى أن تكوني بخير. كيف تبدو إسكس في الربيع؟ هل تفتقدين تحضُّر المدينة؟ فكرت فيك عندما رأيت البستانيين بكثرةٍ في فيكتوريا بارك، يا لجمال الزهور وترتيبها هناك. لا أعتقد أنهم في ألدوينتر يزرعون زهور التوليب على شكل وجه ساعة.

لقد كنت أفكر في حديثنا. أنا مسرور لأنكِ أخرجتِني من قوقعتي، وجعلتِني أنظر إلى الأمور في مكان آخر، وأخجلِ أنك حملت ذلك على عاتقك. لقد قرأت كل شيء قلتِ إنَّ عليَّ أن أقرأه، وأكثر من ذلك. في الأسبوع الماضي ذهبت إلى بوبلار، ورأيت بنفسي حالة منازلهم، وكيف يعيشون، وكيف يطعم كل منهم الآخر.

لقد كتبت إلى تشارلز أمبروز، وآمل أن يرد عليَّ، فهو لديه نفوذ أكثر مني، ويفهم بشكلٍ أفضل طريقة عمل الحكومة، وأعتقد أنه يمكن أن يكون مفيداً. أنا على أمل أنه يمكن إقناعه ليأتي معي إلى بوبلار أو لايم هاوس؛ ليرى ما رأيناه نحن. إذا جاء معي، فهل يمكن أن تأتي أيضاً؟

لقد أرفقت قصاصة من جريدة التايمز، ظننت أن ذلك قد يبهجك، يبدو أن قانون إسكان الطبقات العاملة قد وصل تطبيقه أخيراً إلى خارج المدينة. إن المستقبل يبتسم لنا!

خالص تحياتي،

جورج سبنسر

4

جاء لوك إلى ألدوينتر مزهوّاً بنجاحه، يرتدي معطفاً رماديّاً جديداً، وعلى الرغم من أن نجاحه لم يقضِ على كل آلامه، فلا يمكن إنكار أن هذا الدليل على مهارته وشجاعته، قد منحه مكانة متميزة، وفي قلب بيثنال جرين، كان قلب إدوارد بورتون ينبض بشكل أقوى من الساعة؛ وقد اعتاد تنفيذ رسومات قبة القديس بولس، ومن المرجَّح أن يعود إلى العمل في منتصف الصيف. شعر لوك أن قلب بورتون ينبض بجانب قلبه، كما لو كان يسير بحيوية القلبين معاً، وعلى الرغم من أنه يعرف أن شعور الخيلاء يسبق السقوط، فلم يكن مألوفاً أن يكون لديه أي مساحة للتعثُّر عندما يواجه المخاطر.

وأثناء ركوبه القطار من لندن، ثم سيارة الأجرة من كولشيستر كان يفكر في كورا، وبسط رسالتها على ركبته، حيث قرأ فيها: «نحن بحاجة إليك» -كان هذا ما قالته- راح يتساءل عمن كانت تقصد بـ«نحن»؟ هل تقصد القس الذي تجالسه وتحدثت عنه كثيراً في رسائلها؟ هذا الذي أخذها من لندن إلى إسكس؛ حيث الأرض الطينية؟ لم يكن ما شعر به من غيرة -وهي تنحني فوق وسادة زوجها وتقبِّل جبهته ذات البشرة الدهنية في أيامه الأخيرة شيئاً يذكر- مقارنةً بما

شعر به عندما رأى هذا الاسم مكتوباً بخط يدها، في البداية، كانت تكتب عن السيد رانسوم، اللقب الذي أبقاه بعيداً عنها قدر ذراع! ثم ما لبثت أن أسمته القس الطيب، إذ أحس أن هذا الوصف يخفي في طياته الإعجاب، ثم في الآونة الأخيرة، وبسهولة، ودون سابق إنذار، صارت تكتب ويل (ليس حتى ويليام، على الرغم من أن ذلك كان سيصبح سيئاً بما فيه الكفاية!). بحث لوك في الرسائل عما يشير إلى أي مشاعر لدى كورا، قد تنمُّ عن وجود علاقة مختلفة عن الصداقة الودودة بينها وبين هذا القس، ولكنه لم يجد شيئاً (أخذ يفكر، حتى اعترف أخيراً على مضض بينه وبين نفسه، بحقِّها في إقامة صداقات مع أشخاص آخرين). نظر إلى الحقول عبر النافذة؛ حتى انعكس عليها ظله المظلم، وفكَّر: «يا ليته يكون كبيراً، وسميناً وتفوح منه رائحة الغبار والأناجيل».

وفي منزلها الرمادي، وقفت كورا منتظرة عند الباب، فمنذ ذلك الصباح، ومنذ تلك الحادثة التي وقعت في فصل السيد كافين، كانت تنام بشكل غير مريح، حيث كان يتنامى لديها الشعور بأن كل ذلك خطؤها، ويل كان قد حذَّرها من الحديث بتفاصيل أكثر عن الرعب القادم من بلاك ووتر، وقد كان على حق. لا يوجد هنا أي مساحة للخيال؛ كالتي ينعم بها الأطفال، والأمر أشبه بأن كورا أخذت تغذِّي في أسطورة أفعى إسكس؛ حتى أصبحت حقيقة واقعة، مثل الأبقار التي ترعى بين أشجار البلوط في منطقة تشارلز الخائن. تلك الفتيات كنَّ يضحكن، وكانت أعناقهن تتحرَّك حركات سريعة من الأمام إلى الخلف! كان الأمر مروعاً، وقد كانت كورا تنتظر لوك لإيجاد تفسير مقنِع.

وبعد تلك الحادثة، أصبحت «جوانا» منعزلة، وعلى الرغم من أنها ما زالت تذهب إلى المدرسة في وقت مبكِّر، واضعة كتبها تحت ذراعيها، فلم يعد لها علاقة بناعومي بانكس، وفي نهاية كل يوم تجلس للمذاكرة في المطبخ؛ حيث لم تكُن هناك أي فرصة لتكون وحدها، والأسوأ من ذلك أنها لم تضحك -ولو لمرة واحدة- منذ ذلك الحين، حيث كانت تشعر أنها إذا بدأت في الضحك، فقد لا تتوقَّف، ولم يكن من الممكن لأي حركة سخيفة أو مضحكة من أشقائها أن تجعلها تبتسم. كانت كورا تخشى أن يلومها أصدقاؤها الجدد على الحادث، وحالة «جوانا» الكئيبة، ولكن لم يرَ ويل أو ستيلا ذلك، حتى بعد أن شرحت لهما، فكل ما جال بخواطرهما، أن الفتيات مخلوقات سخيفة تضحك دون سبب!

أما الأسوأ من كل شيء، فقد كان تدهور اهتمام كورا بـ «بلاك ووتر». لم تكن (بالطبع) تعتقد أن ما يحدث حكمٌ إلهيٌّ، ولكنها أصبحت تشعر أن هناك أماكن مظلمة خفية، لم يكن من المفترض استكشافها. جاء «لوك» يمسك بحقيبة يضمُّها إلى صدره، رآها عند العتبة، فأسرع مهرولاً نحوها.

وفي وقت لاحق من الأسبوع نفسه، كانت «جوانا» تطوي يديها إلى حضنها، واستطلعت رأي الطبيب ذي الشعر الأسود، في الشعور بعدم الثقة. قال لها: «لا تقلقي». كانت طريقته تتسم بالسرعة والذكاء، لكن جوانا لم تكن مغيَّبة بالكامل، «فقط افعلي ما أخبرتك به، وستكونين بخير.. أخبريها يا كورا». ردَّت كورا؛ التي كانت ترتدي وشاحها المزيَّن بالطيور: «نعم، لا بأس.. ستكون الأمور على ما يرام، فلقد قام بذلك من أجلي ذات مرة، وقد نمت تلك الليلة، كما لو أنني لم أنم منذ عام كامل».

جلسوا جميعاً في تلك الحجرة الكبيرة داخل منزل كورا الرمادي، دون إنارة أي مصباح. بدأت السماء تمطر بشكل موحش، دون وجود أي شيء يشير إلى إمكانية قضاء وقت بعد الظهيرة في راحة وطمأنينة، فجوانا لم تكن تشعر بالدفء، وعلى أريكة كبيرة تحت النافذة، جلست والدتها بين كورا ومارثا، وأيديهن متشابكة. قال «لوك»: «كأنكم تعتقدون أننا في جلسة استحضار أرواح، ما سأفعله لا ينطوي على غموض أكثر مما قد يكتنف عملية خلع سن. مارثا فقط هي التي رفضت وضع الفتاة تحت تأثير التنويم المغناطيسي؛ لمعرفة ما حدث بالضبط بخصوص ما أسماه بحادث الضحك، حيث قالت: «يفكر ذلك القصير فينا، كما لو كنا قطعاً من اللحم، فهل يمكن أن تثقي به وهو بعقل وذاكرة طفل صغير؟»، وأخذت تقضم تفاحتها؛ حتى وصلت إلى البذرة، ثم أردفت: «التنويم المغناطيسي! أعتقد أنه قد اخترع تلك الكلمة، وليس لها وجود من الأساس».

لم تطرح أسئلة بشأن التنويم المغناطيسي؛ حتى تم إنجاز جميع الأمور الأخرى. قام السيد كافين ـ خوفاً على حياته المهنية ـ بعمل تقرير كامل في غضون الأيام القليلة التالية، بأسماء الفتيات المتورِّطات وأعمارهن وعناوينهن، ووظائف آبائهن ومتوسط درجاتهن، إضافة الى إعداد مخطَّط يُظهر وضع كل فتاة على مقعدها.

لقد كان يشعر بالأسى لوجود كورا في القرية، لكنه لم يفكِّر للحظة في أن يقول ذلك علناً، وافقت هارييت الصغيرة على الإجابة عن الأسئلة وهي في حضن أمها، فأجابت بوصف مفصَّل عن حقيقة الحية الملفوفة ذات الأجنحة

المنبسطة، التي تشبه المظلات، وكانت تبدو وهي مستلقية كطفلة وديعة، لكنها كانت كاذبة بارعة. (فرانسيس كان يُنصِت بجانب الباب، ويفكر دون صوت، هل هي بارعة في الكذب أم فاشلة؟ أما ناعومي بانكس؛ التي بدأت الأمر كله، رفضت أن تقول أي شيء، سوى أنها ليس لديها أي فكرة عما كانت تفكر فيه الفتاة، وأنهم تركوها وحدها.

كان الآباء راضين عن فكرة فحص بناتهم من طبيب قادم من لندن، وأكَّد أنهم في صحة جيدة (فيما عدا ست حالات مصابة بمرض جلدي، يُسمى القوباء الحلقية، تم علاجها على الفور، ولم تُفسَّر الهيستريا التي أصابتهن). قال «لوك»؛ الذي قُدِّم إلى «ستيلا رانسوم» أثناء وجبة الغداء، ورأى وجنتيها الورديتين: «هناك شيء ما رئيس خلف هذه الحالة، سواء ذكرى مشتركة أو خوف؛ ولكن السؤال هنا هو: كيف يمكن أن تُبدَّد تلك المخاوف، عندما لا تستطيع الفتيات مشاركتها؟».

سحبت ستيلا الخرزة الزرقاء الملفوفة حول معصمها، وبدأ يروقها هذا الطبيب العبوس القادم من لندن، وفكرت في ما بينها وبين نفسها قائلة: « لن يكون الأمر مروِّعاً أكثر مما هو عليه الآن؟»، وقالت: «كورا أخبرتني أنك تمارس التنويم المغناطيسي، هل أنا محقَّة في ما أقول؟ أظن أن ذلك سيساعد في علاج جوانا. هي تحب كل ما هو جديد، وأعتقد أنها ستود تدوين تلك التجربة في دفترها المدرسي».

كان الأمر مشجعاً للدكتور لوك، أن يمسك يد ستيلا الصغيرة، ويقول: «نعم، نعم، سيساعدنا ذلك الأمر بالتأكيد، فمن الجيد أن نعرف من جوانا بهدوء كل ما قالته وما سمعته

في ذلك اليوم؛ لمعرفة ماذا حدث بالضبط، حتى تعود إليها سعادتها مرة أخرى من جديد»، لكن طموحه أخذ في التداعي أمام الأعين الزرقاء الواثقة في من حولها، فما كان منه إلا أن قال: «ربما نعم وربما لا، ولا أعتقد أن ذلك سيسبّب أي ضرر». أحس بوخز في ضميره قائلاً: «أنا لم أجرب ذلك مع أي أحد بهذا العمر الصغير من قبل. ربما ستقاوم ذلك وتضحك عليَّ». قالت ستيلا بتعجب: «تضحك! آمل أن تفعل ذلك».

قالت كورا: «عندما كنت منوَّمة مغناطيسيّاً وأنا أسكب الشاي، شعرت كما لو أنني أتخلَّص من كل ما يزعجني؛ مثلما تطرد المدخنة الشوائب، كما كانوا يقولون. كان ذلك مريحاً، ولم أتحدَّث كثيراً عن ذلك. لا يوجد ما نخاف منه، وليس هناك شيء غريب، كل ذلك فقط من وحي العقول. سكبت الشاي في الفنجان وتلاشى الضوء على الحائط، بإمكاني أن أتخيَّل أنه بمرور الوقت، ستكون أماكن التنويم المغناطيسي من الأماكن المألوفة في الطرقات والشوارع، بجانب الصيدليات ومتاجر الأحذية» (ومن خلف كتفها، كان الغائب ويل يشاهد ما يحدث، دون أن ينبس ببنت شفة أو يلاحظه أحد).

قالت ستيلا: «يمكننا أن نفعل ذلك مع أوعية النباتات على النافذة»، ثم استكملت فكرتها بالإشارة إلى موظفات الاستقبال اللائي يرتدين بلوزات بيضاء. لا أحد سيخفي علينا سراً بعد ذلك. أليس الجو حاراً؟ هل يمكننا فتح النافذة؟ أريد أن أرى سعادتها من جديد. تساءلت بينها وبين نفسها، في ما قد يفكِّر فيه ويل، هو لم يقابل الطبيب حتى الآن، أو بالأحرى، لم يبدِ رغبة في ذلك، وافترضت أنه قد يرفض أن تتعرَّض ابنته لمثل هذا الإجراء الذي أخفته عنه أمها. لم تود كورا فعل أي

شيء يغضب ويل. كان مريحاً لها أن تفكر في زوجها بثبات وإخلاص، فهي في حياتها لم تشعر بالحسد، ولا يمكنها تخيُّل ماذا يمكن أن يعني ذلك. قالت: «افتحي تلك النافذة أكثر، فأنا أشعر بشدة الحرارة كثيراً هذه الأيام». استدارت كورا نحو لوك الذي أمسك بمعصم ستيلا بنُبل، آملاً ألا تلاحظ أنه يفحص نبضها (نعم، نعم، كان اعتقاده صحيحاً، فقد كانت العصبية والارتعاد يتخفَّيان تحت جلدها). «حسناً؛ لماذا لا ننادي جوانا، ونعرف منها هل هي مستعدة أم لا؟».

وحيث إنها باتت مستعدة (ترى هل سأكون محور هذه التجربة)، كانت مستلقية على الأريكة الأكثر راحة على الإطلاق، تحدِّق في السقف، وبالتحديد، في الموضع الذي يتقشَّر منه الجبس، فمن الصعب أن تأخذ الأمر على محمل الجد؛ منذ عرفت أن كورا تنادي الدكتور بالقصير، ولم تستطِع التفكير في سبب هذا اللقب الغريب (وكأنه كان لزاماً عليه أن يحمل شوكة ضخمة بيده، وليس حقيبة غلادستون).

سحب كرسيّاً بجانبها ومال تجاهها؛ حتى بدأت تشم رائحة الليمون تخرج من قميصه. قال الدكتور غاريت: «هذا ما سيحدث. لن تنامي، وليس لي أي سيطرة عليك، ولكنكِ ستكونين على ما يرام، وأكثر ارتياحاً مما كنتِ عليه من قبل، وسأطرح عليكِ بعض الأسئلة، عن حالك، وعن ذلك اليوم، وسنرى ما الذي يمكن أن نعرفه، كيف بدأت تلك القصة، وما شعورك حينها؟».

ردت قائلة: «حسناً»، لكنها أخذت تفكر أنه لا يوجد شيء لتقوله حول ذلك اليوم أو الضحك، أو أنها أخبرتهم بكل

ما تعرفه. أخذت عيناها تبحثان عن والدتها، فقامت ستيلا بتقبيلها.

«هل تستطيعين رؤية تلك العلامة على الحائط، أعلى النيران؛ حيث الشقوق الموجودة في الطلاء؟ أود أن تركِّزي نظرك عليها مهما أحسست بثقل في جفنيك، أو شعرتِ بألم أو التهابات في عينيكِ».

هناك بعض التعليمات الأخرى التي سمعتها كالهمس، كما لو كانت تُلقى عليها من مسافة بعيدة. كان عليها أن ترخي يديها وتترك رأسها متدلِّية، وأصبحت أنفاسها أكثر بطئاً، وسارت أفكارها تتدافع في اتجاهات مختلفة، فقد كان من المستحيل أن تثبِّت نظرها تجاه تلك العلامة على الحائط، وعندما أُذِن لها بإغلاقها، فعلت ذلك بتلهُّف شديد، واستمتعت بشعور عميق من الارتياح على تلك الأريكة. لم تعرف حتى وقتٍ لاحق ما قالته، عندما كانت تتأرجح في منتصف الطريق بين اليقظة والحلم (أخبروها في ما بعد أنها ذكرت شيئاً عن ناعومي بانكس وليفياثان، لكنها لم تبدِ أي شعور بالخوف ناحية ذلك). كل ما تستطيع تذكُّره؛ هو طرقة مهذبة على الباب، ثم سُحِبَ الباب في اتجاه السجادة، ثم سمعت صوت أبيها الذي كان مرتفعاً بغضب عارم لم تعهده من قبل.

رأى ويل ابنته مستلقية على كرسي أسود، وذراعاها متدليتان على جانبيها، وفمها نصف مفتوح، بينما كان هناك مخلوق بجانبها يهمس لها. كان قد عاد إلى المنزل بعد جولة في الأبرشية، ولم يجد أحداً في المنزل، ثم وجد ملاحظة كتبتها ستيلا في غرفة الدراسة، تخبره فيها أن يلحق بهم عند

كورا، وعلى عكس ما هو مألوف، رأى رأس ستيلا اللامعة، وكورا التي لم تكن في أفضل حال تبدوان من إطار النافذة، ينعكس عليهما ضوء المصباح، وتنتظرانه بفارغ الصبر، وبدأت خطواته في التسارع. لقد كان يعلم بالطبع أن الطبيب غاريت قد أتى، لكنه شعر بالاستياء عند دخوله المنزل. إن القرية كانت هادئة بما يكفي، وكانت تخلو من مثل هذه الأشياء، قد أصبح يشعر في ظل وجود هؤلاء القادمين من لندن، والحديث عن الأفاعي، أن هذا العام يبدو أكثر إزعاجاً من أي عام آخر، ألا يستطيعون أن ينعموا بالسكينة للحظة واحدة. ألم يستطع هؤلاء أن يتحصَّلوا على لحظات من السكينة والسلام؟

ثم لاحظ الطريقة الودودة التي تتحدث بها كورا إليه، وكيف حكت بفخر عن تلك العملية التي أنقذت حياة ذلك الرجل من الموت، وأكَّدت أن هذا الجرَّاح، من نوع الرجال الذين يستحقون المحبة والإعجاب. كان هزيلاً وضعيفاً وقلقاً، حين قرَّر أن يصل إلى ظل أشجار البلوط في منطقة تشارلز الخائن، يبدو أنه لو كان استمر به الحال هكذا؛ لأصبح له شارب طويل معبراً عن بؤسه، ولشعر بنفور غريب من الطعام والشراب، وربما كان زميله المسكين يرتاح في إحدى بقاع القرية، بسبب حالته الصحية الضعيفة.

ألقت مارثا التحية عليه بنظرة يشوبها الفضول، ولم تستطع أن تنظر في عينيه، كان ذلك متناقضاً مع صراحتها المعتادة؛ التي أحس من خلالها أنها صعبة المراس لفترة طويلة، قبل أن يفتح الباب ويواجه ذلك الرجل الرابض؛ الذي يرتدي ملابس سوداء، ويهمس بجانب أذن ابنته. لا تزال جوانا مستلقية في

هدوء تام، كما لو كانت قد أصابتها صدمة، ورأسها يميل إلى الخلف، وبعين نصف مفتوحة، ظل متجمداً للحظة واحدة، بسبب ما انتابه من صدمة وتوتُّر، وعندما رأى كورا وستيلا تراقبان ذلك من على أريكة قريبة من جوانا، شعر بتواطئهما، فانتابته حالة غضب، لم تثِرها بداخله أفعى إسكس ولا كراكنيل، ولا أي من الأحداث طيلة الأشهر المحيِّرة الماضية. بدأ يفكِّر في اكتشاف ما يحدث في تلك الغرفة المؤثَّثة جيداً، التي تتحرَّك ستائرها، ولكنه لم يستطِع أن يقول شيئاً. كان فقط يشعر بحالة من الاشمئزاز حيال ما شاهده، إنها ابنته الصغيرة، تهمس بكلمات لاتينية غير مفهومة، حسبما فهم، وكأنها سمكة وضعها صيادوها على لوح خشبي عبر الغرفة، ثم وضع أصابعه أسفل ياقة الرجل الجالس؛ ليسحبه من على كرسيه، ولكن؛ وإن كان القس قويّاً، فإن الجَراح كان ثقيل الوزن. بدا ذلك الصراع نوعاً من المزاح بالنسبة إلى كورا، قبل أن تشعر بالخوف من أن ويل -حتى بطبيعته المستقيمة- قد يؤذي صديقها. تذكَّرت وهي تشاهد موقف الخراف وهي تصارع في الوحل، ورأت تضخُّم عضلات ساعدي ويل، فما كان منها إلا أن وقفت قائلة: «سيد رانسوم.. إنه دكتور غاريت، وهو فقط يحاول مساعدتنا».

تدحرجت جوانا من فوق الأريكة في اتجاه الأرض؛ وهي تشعر بالنعاس والرعب في نفس الوقت، وخبطت رأسها في المقعد الصلب. أخذت تحدِّق في السقف قائلة: «لقد أتى»، ثم انكبَّت على وجهها، ووقفت بعد ذلك. نظرت ستيلا التي أخذتها نصف غفوة، دون أن تلتفت إلى نسمة البرد القادمة من النافذة المفتوحة، إلى زوجها في دهشة قائلة: «عزيزي، انتبه..

لا تفسد السجادة الكبيرة»، ثم تحولت إلى ابنتها، وقالت: «ما الذي تشعرين به؟ هل أنتِ مريضة؟ هل آذيتِ رأسك؟».

قالت جوانا: «كان ذلك أمراً سهلاً للغاية»، ثم فركت جبينها الذي بدأت تظهر عليه علامات تورُّم بيضاء. تحوَّل نظرها من الطبيب إلى أبيها، ورأت كيف يقف الاثنان متحفِّزين، كل منهما في وجه الآخر، وبعيدين بقدر ما تسمح به الغرفة، ما الذي حدث؟ هل قمت بفعلٍ خاطئ؟

قال ويل: «بلى! لم تفعلي»، وعلى الرغم من أنه لم يُبعِد عينيه عن مراقبة ذلك الرجل الآخر، فقد كان من الواضح لكورا أين يوجِّه غضبه، فشعرت بانقباض في حلقها، ووقفت بطريقة مهذبة بين الرجلين قائلة: «لوك! إنه صديقي ويليام رانسوم».

صديقي!! أنا لم أسمعها تقول زوجي أو ابني بهذا الفخر، هكذا أسرَّها لوك في نفسه.

«ويل، إنه الدكتور لوك غاريت»، هلا تصافحه؟ لقد اعتقدنا أننا يجب أن نساعد جوانا، فهي لم تصبح كما كانت من قبل، منذ أن حدث ذلك في المدرسة.. المساعدة؟ كيف؟ وماذا ستفعلين؟ تجاهل ويل مصافحة اليد التي توجَّهت إليه، وفكَّر في مقاومة ذلك بابتسامة تهكُّمية: «لقد تأذت، انظر.. أنت محظوظ، لأنها لم تضرِب نفسها بعنف!».

«التنويم المغناطيسي!»، قالتها جوانا بفخر. لقد تعرَّضَتْ لتجربة، وستكتب عنها في ما بعد. قالت ستيلا: «سنخبره في ما بعد»، وهي تربت على سترتها، مع كل تلك الأصوات المرتفعة، فإن رأسها بالطبع قد تأذَّى. قال لوك؛ وهو يضع يديه في جيوبه: «سَعِدت بلقائك أيها القس المبجَّل، أنا متأكد

من ذلك»، حوَّل ويل نظره بعيداً عن صديقته. «ستيلا! ارتدِ معطفك، فأنتِ ترتجفين، لماذا تركوكِ ترتعدين من البرد؟ نعم جوانا، يمكنك أن تخبريني بكل شيء لاحقاً ـ طاب مساؤكم، ربما سنلتقي في وقت لاحق دكتور غاريت»، وغادر ويل؛ الذي حاول أن يتصرَّف بقدر من الأدب واللباقة مع زوجته وابنته خلفه، دون أن ينظر إلى كورا؛ التي كانت متعطِّشة في تلك اللحظة إلى نظرة ممزوجة بابتسامة.

سمع كلاهما جوانا عند الباب وهي تقول: «لقد كنت محور التجربة، وأنا الآن جائعة».

قال لوك: «إنه رجل جذاب على الإطلاق»، وأخذ يقول لنفسه: «هذا كثير جدّاً بالنسبة إلى شخص سمين يرتدي جوارب طويلة، فهو يبدو كفلاح لديه أفكار أعلى مقاماً منه، وشعر ناعم جذاب، وفي وجوده بدت كورا فزعة كطفل خائف من توجيه اللوم». قامت مارثا من على أريكتها لتراقب بصمت، وبنظرة مزدرية، ذلك الطبيب الذي وقف بجانب صديقتها، وقالت: «لا خير يأتي من لندن. ماذا قلت لك؟». وضعت كورا وَجنَتَها على كتف مارثا، ثم قالت: «أنا جائعة أيضاً، وأريد بعض الشراب».

5

جلس إدوارد بورتـون على سـرير صغير، ثـم فتـح حزمـة مـن الـورق ووضعها على ركبتيه، وعلى كرسي عالي الظهر، مدعوم بختم كاتدرائية القديس بولس من الأسفل، أخرجت ضيفته رقاقات بطاطس ممزوجة بالخل، فأثـارت الرائحة العطرة شهيته للمرة الأولى منذ أسابيع، صفَّفت الفتاة شعرها، وحوَّلته إلى خُصل متساوية تلتفُّ حول تاجها، تخيَّلت أنه يقتطع جزءاً من السمكة التي في يديه، كما لو كانت ملاكاً، إن كان للملاك أن يشعر بالجوع، فهو لا يمانع من وجود الشحوم على ذقنها، وبقعة من البازلاء الخضراء على كمِّها. كانت مارثا تراقبه بحذرٍ وهو يأكل؛ حتى أحسَّت بأنها مشفقة عليه مما فعله لوك في إغلاق جرحه. لقد كانت تلك زيارتها الثالثة، وكان خداه ملوَّنين. لقد قدمهما مورين فراي؛ الذي كان على معرفة بالسيدة إليزابيث فراي لها، فضلاً عن رغبته في زيارة بورتون؛ لنزع الخيوط من الندبة التي تماثلت للشفاء، وكان قد ورث الضمير الاجتماعي بالكامل من هذه العائلة، ويبدو لها أن الواجب الذي تقوم به الممرضة، أبعد من كونه ربط الضمادات فحسب، بل أيضاً تطهير دم البشر. لقد قابلت مارثا لأول مرة في لقاء نساء معنيات بالقضايا النقابية، وبعد احتساء قدح من الشاي

المُركَّز، قالت مارثا وهي تهز رأسها: «من بين كل الناس!» واكتشفت أن الدكتور غاريت كان هو حلقة الوصل بينهما. حينما اصطحبت مارثا الأخت فراي لأول مرة إلى المنزل الذي يقطن فيه إدوارد ووالدته في بيثنال جرين، رأت منزلاً صغيراً، وبالتأكيد، هناك مشكلات تتعلَّق بالصرف الصحي، الذي تفوح منه رائحة النشادر في الهواء، لكنه كان جيداً بما فيه الكفاية، ويبدو أن الضوء الخافت الوحيد الذي ينير الطريق، كان مصدره خطوط الغسيل التي تعمل بين المنازل، وتبدو كالأعلام الضوئية للجيش القادم من بعيد، لكن هناك شيئاً ما يبدو لافتاً للأنظار، وهو تلك الورود الموضوعة على الطاولة في علب مربى روبرتسون المغسولة بالماء.

كانت السيدة توماس تكسب قوت يومها عن طريق الغسيل، وكانت تبتكر سجاداً من قصاصات الأقمشة الموجودة في الخردة. غطَّت تلك السجاجيد غرف منزلها الثلاث الصغيرة، وجعلتها ذات إشراقةٍ واضحة. لم يخطر ببالها أبداً أن إدوارد قد لا يتعافى تماماً من مرضه، ويعود إلى شركة التأمين التي كان يعمل فيها موظفاً لمدة خمسة أعوام، لذلك؛ قضت فترة عملها في تمريضه برزانة إلى حدٍّ ما.

كانت الزيارة الأولى غير مُرضية، حيث كان إدوارد بورتون شاحباً، وكان يخيِّم عليه الصمت في زاويةٍ صغيرة من الغرفة. كانت السيدة بورتون تقف أمام سعادتها بإنقاذ ابنها المريض، الأمر الذي كان بعيد المنال. كانت تراقبه بإحساس قلق غير معهود، لأن الشخص الذي قام من على طاولة العمليات، لم يكن هو الشخص الذي وُضِع عليها من قبل «إنه هادئ للغاية». قالت ذلك وهي تفرك يديها، مستعيرةً منديلاً من الأخت فراي

«يبدو الأمر كما لو أن نيد قد توارى عن الأنظار، ويرقد هناك في مكانه شخصٌ آخر، ويجب أن أتعرف إليه قبل أن أقول إنه ابني»، ومع ذلك كانت مارثا تشعر بالقلق؛ حيث إن بورتون لن يأكل ما يكفي في الأيام التالية، أو يختبر قوة ساقيه عن طريق السير لمسافة طويلة، لذا؛ عادت بعد أسبوع ومعها عبوات من السمك ورقائق البطاطس وسلة من البرتقال، وعديداً من نسخ فرانسيس المهجورة من مجلة استراند.

كان إدوارد يأكل بثبات، فبالنسبة إلى مارثا؛ التي اعتادت المحادثات المطوَّلة مع كورا ونوباتها المفاجئة من الفرح أو الكآبة، كانت رفقته هادئة. كان يجيب عن كل ما قالته بإمالة رأسه، وهو يفكر في الحديث ببطء، وقلما كان يرد على ذلك. في بعض الأحيان، كان هناك ألم حاد في المكان الذي تم قطع ضلعه فيه، كان يشبه تقلُّصات في العضلات، كلما حاولت جميع الألياف أن تكون متماسكة، وكان يلهث حين وضع يده هناك في التجويف الذي كان فيه العظمة، وانتظر حتى يمر هذا الألم. لم تقل مارثا أي شيء بعد ذلك، جلست بهدوءٍ فقط، فرفع رأسه قائلاً: «أخبريني مرة أخرى، كيف قاموا ببناء جسر بلاك فرايارس؟».

بعد ظهر ذلك اليوم، عندما تجمَّعت الأمطار في القنوات في شوارع تاور هامليتس، وصُبَّت من الأفاريز، قال إدوارد: «لقد جاء الرجل الإسكتلندي لرؤيتي مرة أخرى، صلَّى معي وترك بعض المال. كان هذا جون غالت؛ الذي كانت مهمته في خيمة بيثنال جرين، هي إحضار الإنجيل إلى المدينة، بجانب الزهد وتحسين النظافة الشخصية. عرفته مارثا؛ حيث شاهدت صوره تسجِّل المدينة في أسوأ حالاتها، وحزنت

من أجل ضميره المسيحي الرقيق. هزَّت رأسها قائلة: «لقد صلَّى، أليس كذلك؟ لا تثق أبداً في الشخص المثالي»، فهي لا تؤمن بأن هناك رجلاً مستقيماً، كما أنها لا تؤمن كذلك بأن الجدران تقي التقلبات الجوية.

قال إدوارد بحذر: «ليس الأمر أنه يقوم بعملٍ جيد فقط». قام بمسح قطعة بطاطس قبل وضعها في فمه. «أعتقد أنه جيد».

«ألا ترى أن هذه هي المشكلة؛ إنها ليست مسألة الخير، بل مسألة الواجب! تعتقد أن من اللطيف أن يجلب لك المال، ويسأل ما إذا كانت الجدران رطبة، ويتركك في يد الرب، ولكن من حقنا أن نعيش حياةً كريمة، لا ينبغي أن تكون هدية ممن هم أفضل منَّا، أوه! وقالت ضاحكةً: «انظر مدى سهولة ذلك! من هم أفضل منَّا! ماذا؟ لأنهم لم يراهنوا بالمال على الكلاب أو يثملوا بغباء!»».

«ما الذي ستفعلينه حيال ذلك، إذن؟». قالها بدعابةٍ مرحة مدفونة للغاية، لدرجة أن مارثا فقط استطاعت رؤيتها هناك. أنهت وجبتها، ماسحةً الزيت من على فمها بظهر يدها، قائلة: «إن الخطط تسير على قدمٍ وساق، وإدوارد بورتون، يؤكد كلامي. لقد كتبت إلى رجلٍ يمكنه المساعدة، لكنه في النهاية كان دائماً يفتقر إلى المال، أليس كذلك؟ المال والنفوذ.. ويعلم الرب أنه ليس لديَّ مال ولا نفوذ كبير، ولكنني سأستخدم ما أوتيت من قوةٍ». لقد فكَّرت لفترةٍ وجيزة في سبنسر وطريقته في النظر إليها شزراً إلى حدٍّ ما، فشعرت بالقليل من الخجل.

قال إدوارد: «أتمنى أن أشارك في هذا الأمر»، محرِّكاً ساقيه النحيفتين، اللتين أصبحتا أكثر نحافةً من أي وقت مضى، حيث لم يتمكَّن من العدْو بمقدار عشر خطوات، دون أن يفقد أنفاسه، وبدا وكأنه يائس. أخذ مكانه في المدينة دون التفكير في الأمر، إلى أن وقفت تلك المرأة، بشعرها الذي يشبه الحبل، وطريقتها السريعة في الكلام، على إحدى سجادات والدته، صابَّة جام غضبها على ما رأته في الشوارع. الآن سيكون من المستحيل المشي من أحد أطراف بيثنال جرين إلى الجانب الآخر، دون أن نفكر كيف أن المشكلة المظلمة للسكن المتواضع، كان لها وعيٌ خاص بها، وكانت تؤثِّر في كل من عاش فيها، وفي الليل، عندما نامت أمه، أخرج لفَّات من الورق الأبيض، ورسم رسومات لمبانٍ عالية وواسعة، تسمح بدخول الضوء، مع وجود مياه جارية من خلالها.

سحبت مارثا مظلَّتها من تحت الكرسي؛ ففتحتها، وتنهَّدت في المطر الذي كان ينهمر بكثافة على زجاج النافذة، قائلة: «أنا لا أعرف حتى الآن، أنا لا أعرف ما يمكنني فعله، لكن شيئاً ما سيتغيَّر. ألا تشعر بذلك؟».

لم يكن متأكداً من قدرته على ذلك، لكنَّها قبَّلته على وجنته، مصافحة إياه؛ وكأنها لا تستطيع أن تقرِّر أي نوع من أنواع الترحيب يناسبهما، وتوقفت عند الباب، لأنه ناداها بصوتٍ عالٍ قائلاً: «أَوَ تعرفين، كان ذلك خطئي!».

«خطؤك! ما هذا؟ ماذا فعلت؟»، لم تكن عادته أن يتكلم بعفوية، ما جعلها تخشى أن تتحرك وتتركه غير مرتاح.

قال: «هذا»، ولمس صدره برفق، «أنا أعرف من فعل

ذلك، ولماذا فعله، أنا استحققت ذلك ـ كما تعلمين ـ أو إن لم يكن هذا، فهناك شيء ما».

عادت إلى كرسيها صامتة، وقامت بنتف خيط مفكوك من على كمها. كان يعلم أن هذا الأمر قد حدث للفت نظره، وكانت هناك حركة في قلبه المصاب.

وقال: «كنت شخصاً عادياً»، وأضاف: «كانت حياتي عادية. كانت لديَّ بعض المدَّخرات. كنت سأحصل على مكان خاص بي، على الرغم من أنني لا أمانع في العيش هنا، لقد دأبنا على ذلك. لم أمتنع عن وظيفتي، بل كنت فقط أشعر بالملل، أحياناً وأخطط مبانيَ لن تُبنى أبداً. الآن يقولون لي إنني أعجوبة، أو أي شيء يحدث بسبب المعجزات في هذه الأيام».

قالت مارثا: «ليست هناك حياة عادية».

وقال: «على أي حال، كان هذا خطئي»، وروى كيف أنه كان مطمئناً هناك في مكتبه في حانات هولبورن، في انتظار دقات الساعة لتحل ساعة الحرية. كان لديه شعبية لم يبحث عنها، ولم يستمتع بها، مشتبهاً في أن نظراءه الذين كانوا مخدوعين بطوله وبذكائه الحاد؛ الذي بالكاد يستطيع تذكُّر أنه يمتلك هذا الذكاء. لم يكن إدوارد الذي سقط في ظل الكاتدرائية، هو الرجل الصامت الذي عرفته مارثا. هذا الرجل الآخر كان دائماً يضحك على هذا أو ذاك. كان مزاجه سريعاً وانفعالياً، وسرعان ما كان يهدأ، وبما أن مزاجه السيئ كان يصفو سريعاً، فإنه كان غافلاً عن الأذى الدائم؛ الذي قد يتسبَّب فيه تهوُّره غير المدروس، لكن التهور حدث، لقد سبَّب الأذى بالفعل، فقال: «لقد كان مجرد إزعاج». لم نفكر في أي شيء من

ذلـك. لـم يبـدُ أنـه ممانـع، ولا يمكـن أن تذكـر ذلـك مع هـول. لقـد بـدا فقـط بائسـاً، لـذا؛ مـا الـذي كان يهـم؟».

قالت مارثا: «هول؟».

«صموئيـل هـول. نحـن لـم نطلـق عليـه اسـم «سـام» أبـداً. هـذا مـا تقصـده، أليـس كذلـك؟».

كلا، لـم يبـدُ ممانعـاً، كمـا اعتقـد بورتـون، لكـن بإخبـاره مارثـا الآن، احمرَّ وجهـه مـن الخجـل. كان صموئيـل هـول، الـذي يفتقـر إلـى حسـن المظهـر أو روح الدعابـة؛ مرتديـاً معطفـه أحـادي اللـون، يصـل قبـل دقيقـة مـن يـوم العمـل، ويغـادر بعـد دقيقـة مـن نهايتـه، مجتهـداً بامتعـاض، وغيـر ملحـوظ تمامـاً، لكنهـم كانـوا يلاحظونـه، ربمـا علـى نحـو طفيـف، وعلـى أمـل اسـتخلاص بعـض الـذكاء الدفيـن، ولكنـه كان إدوارد الـذي يضحـك دائمـاً فـي المقدمـة.

«لـم أتوقَّـف عـن الاعتقـاد بـأن هنـاك شـيئاً مضحـكاً للغايـة حـول مـدى تعاسـته. هـل تفهـم هـذا؟ لا يمكـن أن تأخـذ كلامـه بجديـة، فقـد كان بإمكانـه أن يسـقط ميتـاً هنـاك عنـد مكتبـه، وكنـا نضحـك جميعـاً.

بعـد ذلـك وقـع صموئيـل هـول الصغيـر الرتيـب؛ الـذي كانـت عينـاه الموحلتـان تنظـران خلسـة وبامتعـاض إلـى العالـم، فـي الحـب. فـي حانـة معتمـة بالقـرب مـن طريـق إمبانكمنـت، رأوه وشـاهدوا كيـف كان يضحـك، وأبدلـوا بمعطفـه الباهـت آخـر زاهيـاً. كيـف قبَّـل يـد امـرأة؟ وكيـف أنهـا لـم تمانـع؟ لا يمكـن أن يكـون هنـاك شـيء أكثـر تسـليةً مـن هـذا، فكمـا بـدا لهـم، لا شـيء- علـى ضـوء المصابيـح ودفء المشـروب- يبـدو أكثـر سـخافةً. لـم يسـتطع بورتـون أن يتذكَّـر مـا كان يقـال، أو مَـنْ الـذي

قال، إلا أن هناك لحظة كانت فيها امرأة حائرة، بين ذراعيه، وكان يقبّلها بتودُّد، بدا أشبه بالسخرية!

«لم أكن أقصد شيئاً من ذلك، لقد فعلت ذلك لجعلهم يضحكون، لقد ذهبت إلى المنزل في تلك الليلة، ولم أكن حتى أستطيع أن أخبرك أين كنت»، لكن طوال الأسبوع الذي تلاه، كان مكتب هول فارغاً، على الرغم من أن أحداً لم يفكر في المكان الذي ذهب إليه، أو لماذا. لم يحدث ذلك لهم وحدهم في غرفته المفردة بكرسيه الوحيد، فقد تجمَّعت كل مشاعر الاستياء المتراكمة في حياة هول، كل تلك الخلافات، سواءً الحقيقية والمتخيلة، كانت تُكِنُّ كرهاً شديداً لإدوارد بورتون.

لقد توقَّفتُ عن البحث في سانت باول، أتساءل دائماً كيف تصمد القبة، أليس كذلك؟ وكانت هناك طيور سوداء على الدرَج، وتذكَّرتُ عندما قيل لي وأنا طفل، كيف يكون طائر الغُداف غراباً، وأن كثيراً من الغربان يصيرون غِدفاناً، وبعد ذلك تلعثم شخص أمامي، هكذا كان الأمر، كما لو أنهم فقدوا آثار أقدامهم. قلت «احترس!»، وكان هناك صموئيل هول، لا ينظر إليَّ فقط، بل ركض باتجاهه، وكأنني جعلته يتأخَّر. كان يسير في ظل سانت باول، وشعر في الحال أنه مرهق جدّاً، لقد وضع يده ليبلِّل قميصه، وسحبها مرتدياً قفازاً ملوثاً بالدماء، ثم حل الليل في وقت مبكر، ورقد ليستريح على الدرج من أجل النوم.

كانت الغرفة معتمة، وصل إلى مصباح فأضاءه لينير بضوء بطيء، رأت الوجه الهزيل يحمرُّ من الخجل والحياء، وكيف احمرَّ وجهه على قسمات عظام خده المرتفعة.

ثـم أضافـت: «لا يتعلَّق الأمـر بالذنـب والعقـاب، ليس كيـف يتحـول العالـم. إذا حصلنـا جميعـاً علـى مـا كنـا نسـتحقه»، فقـد شـعرت مارثـا، كمـا لـو أنـه أهداهـا هديـةً تـم كسـرها بسـهولة. هنـاك شـيء قـد تغيَّـر بينهمـا، شـيء يُفقِدهـا الثقـة، فقالـت: «لا يمكننـا مسـاعدتها إذا أردنـا العيش، أعنـي التسبُّـب فـي الضـرر، كيـف يمكـن تجنُّبـه، مـا لـم نغلـق أنفسـنا بعيـداً ولـم نتكلـم، ولـم نتحـرك؟»، مضيفـة أنهـا تريـد سـداد الديـون، والتخلـص مـن الشـعور بالذنـب، حيـث كان وجـه سبنسـر أول شـيء تبـادر إلـى ذهنهـا، ولـم يتبـدَّد.

فقالـت: «إذا حصلنـا جميعـاً علـى مـا كنـا نسـتحقه، سـأنتظر عقابـي، وسـيكون الأمـر أسـوأ علـى مـا أعتقـد، سـيكون أقلـه سـكيناً فـي القلـب، أنـت لا تعـرف مـا فعلتـه، لكننـي أعـرف، ومـا زلـت أعـرف!»، وأخبـرت رفيقتهـا الهادئـة عـن الرجـل الـذي أحبهـا (إنـه يفكـر أن يخفيهـا، ولكـن لا أحـد علـى الإطـلاق يفكـر فـي ذلـك...)؛ خجلـه، وكيـف أدرك بعـد الخيـر لصالحـه، ولأنـه قـد يسـعدها «ثـروة سبنسـر تعتبـر فاحشـة، إنهـا فاحشـة، فلديـه الكثيـر، ولا يعـرف كـم لديـه! إذا تركتـه يحبنـي، وأتظاهـر بأننـي قـد أبادلـه هـذا الحـب، وهـذا يجعلـه يفعـل شـيئاً جيـداً ـ هـل هـو سـيئ جـدّاً حقّـاً؟ هـل القلـب المفطـور باهـظ الثمـن للغايـة مـن منظـور مدينـة أفضـل؟».

ابتسم بورتون، رافعاً يده، ثمَّ قال: «أنا أعفيك».

فقالـت ضاحكـة: «أشـكرك يـا أبـي، أنـت تعلـم، لقـد كنـت أعتقـد دائمـاً أن ذلـك كان الفائـدة الكبـرى مـن كونـك متدينـاً، تخلَّـص مـن الشـعور بالذنـب والقيـام بـه، وانتقـل إلـى خطيئـة

أخرى. قالت: «حسناً»، وتحوَّلت إلى النافذة، وأبعد من ذلك إلى السماء المنخفضة «يجب أن أذهب، حتى ألحق بالقطار»، وعندما أمسكت يده لتودِّعه، أمسك بيدها وسحبها؛ مقبلاً إياها مرة، فشاهدت لأول مرة حيوية في تلك الأصابع الطويلة؛ التي امتدَّت إلى الساقين الممدودتين تحت البطانية.

قال لها: «تعالي مرة أخرى»، «تعالي قريباً»؛ وبعد رحيلها، جلس لفترة طويلة على الكرسي الذي كانت جالسة عليه؛ حيث وضع خططاً لحديقة الجيران؛ لمشاركتها إياها!

6

في كولشيستر، كانت الأمطار خفيفة، وبالكاد يبدو أنها تسقط، فقط تتعلَّق في الهواء، كما لو كانت المدينة بكاملها محاطة بسحابة باهتة. قام توماس تايلور بتجهيز قطعة من المشمَّع، وجلس تحتها يتشارك قطعة من الكعك مع كورا سيبورن؛ التي جاءت إلى المدينة بحثاً عن الأوراق والكتب، وعن طعامٍ أفضل من ذلك الذي كانت تأكله في ألدوينتر، قالت: «كلٌ شيء مناسب في ما يتعلَّق بالخبز والأسماك الطازجة، لكن لا يوجد حلوى المرزبانية؛ التي يتم تناولها مع الشاي في يوركشاير»، فربما صُدِم المارة برؤية تلك المرأة التي تبدو ثرية جدّاً إلى جانبه، وأعرب عن أمله في أن يرى ربحاً متزايداً في فترة ما بعد الظهر، وفي أثناء تلك الفترة، كان لديهم الكثير لمناقشته.

قال: «كيف حال مارثا؟»، هذا هو الاسم الأول للفتاة التي تأتي إلى المدينة في كل مرة، وتستهجن تصرفاته بصورة علنية، لكنها تتركه في مزاج جيد، وأضاف قائلاً: «هل لا يزال لديها تلك الأفكار؟»، ثم لعق فتات الخبز الذي كان على إصبعه، ونظر إلى الشمس وهي تظهر على استحياء من وراء السحاب.

قالت كورا: «إذا كانت هناك أية عدالة، نعرف أنا وأنت أنها لا توجد، لكانت في البرلمان، ولكان لديك منزل خاص بك»، لقد كانت لديه شقة أنيقة في الطابق السفلي، في ما كان في السابق واحداً من منازل كولشيستر، حيث كان يحصل على معاش جيد وأجر أفضل، لكنه لم يفعل ذلك حتى لا يخيب ظن أصدقائه. «إذا كانت الأمنيات خيولاً»، قال وهو يتنهد، وينقل عينيه نحو العربة التي ستنقله لاحقاً إلى البيت: «سأصنع ثروتي من السماد، وماذا عن أهل القرية، على طريق ألدوينتر؟ هل تأتي أفعى إسكس زاحفةً تلتهمهم جميعاً في أسرَّتهم؟»، أصدر صوتاً بأسنانه، وظنَّ أنها قد تضحك، ولكنها بدلاً من ذلك أظهرت عبوساً، سجَّل على جبينها خطوطاً.

قالت: «هل شعرت من قبل بأنك مسكون بالأشباح؟»، مشيرةً إلى الخراب، حيث تعلق قطع من الستائر الرطبة، ومرآة فوق رف الموقد المكسور، أظهرت لحظات قصيرة خفية من مكان ما بالداخل.

قال بفرح: «لا يوجد مثل هذا الأمر، أنا متدين تماماً، كما تعلمين: ولا أؤمن بالأمور الخارقة للطبيعة»، فسألته: «حتى في الليل؟».

في الليل، كان في سريره تحت غطاء سميك جيد، وابنته تغطُّ في النوم بالغرفة المجاورة، ومعدته مليئة بالجبن المحمَّص. قال: «حتى في ذلك الحين، لا يوجد شيء هنا، باستثناء منزل مارتينز».

أكلت كورا آخر كعكة لها، قائلة: «أعتقد أن القرية بكاملها مسكونة، وأظن أنهم يطاردون أنفسهم، فكرتْ في ويل؛

الـذي لـم يكتـب منـذ اليـوم الـذي بـدأ فيـه لـوك التعامـل مـع جوانـا، وعندمـا استقبلها بلطف مفـرط، قامت بتبريـد كل عظمـة منفصلـة فـي عمودهـا الفقـري».

ولأنـه لـم يكـن يملـك كثيـراً مـن الصبـر، فـي مـا يتعلَّـق بالمحادثـة التـي تـم إجراؤهـا، ذهـب تايلـور إلـى الجريـدة التـي جلبتهـا كـورا، وقـال: «لمـاذا لا تخبرينني بمـا يحـدث في العالـم؟ أحـب أن أطلـع علـى الأحـداث!».

قامت بهـز الجريـدة وقالـت: «كالمعتـاد: ثلاثـة جنـود بريطانيين ماتـوا خـارج كابـول، مبـاراة اختبـارية خاسـرة، فقـط». أشـارت إلـى الجريـدة المطويـة قائلـة: «هنـاك الأرصـاد الجويـة، وأنـا لا أقصـد هـذا المطـر الـذي لا ينتهـي! هـل أقرؤهـا؟»، أومـأ تايلـور، ثـم طـوى يديـه وأغلـق عينيـه، كطفـل علـى استعداد للترفيـه.

«يجب على عالـم الأرصـاد الجويـة أن يوجّـه عينيـه إلـى السـماء فـي الأسـابيع القادمـة، تحسُّـباً لحـدوث ظاهـرة غريبـة فـي الغـلاف الجـوي. لوحظـت لأول مـرة فـي عـام 1885، وتظهـر فقـط فـي أشـهر الصيـف بيـن خطـي العـرض 50 درجـة شـمالاً و70 درجـة جنوبـاً، تشـكّل هـذه «الغيـوم الليليـة المضيئـة» طبقـة غريبـة، يُنظَـر إليهـا فقـط فـي الشـفق. لاحـظ المراقبـون الطبيعـة الزرقـاء للشاشـة المضيئـة، التـي تتذبـذب إضاءتهـا إلـى حـد كبيـر، وفـي أفضـل وصـف بأنهـا تشـبه سـمك الماكريـل، ويبقـى أصـل هـذا «الليـل اللامـع» مصـدراً للخـلاف، الـذي اقتـرح البعـض أن أول ظهـور لـه، كان بعـد ثـوران بـركان كراكاتـوا فـي عـام 1883، ولـم يكـن مجـرد مصادفـة». قالـت: «هـذا كل مـا لـديَّ الآن؟ مـاذا تصنـع بهـذا؟»، قـال وهـو يهـز رأسـه بقليـل مـن اللامبـالاة: «ليلـة سـاطعة».

«أيّاً كان ما سيفكّرون به تالياً!».

«يقولون إن رماد كراكاتوا قد غيَّر العالم، هذا الشتاء السيئ الذي حصلنا عليه مؤخراً، والتغيرات في سماء الليل، كل ذلك من انفجار بركان منذ سنوات عدة، وعلى بعد آلاف الأميال»، وهي تهز رأسها بالإيجاب.

«لقد قلت دائماً إنه لا توجد ألغاز، فقط أشياء لا نعرفها بعد؛ لكن في الآونة الأخيرة أعتقد أن المعرفة ليست فقط من تأخذ تلك الأشياء الغريبة وتوضّحها للعالم. أخبرَتْه بما رأته عندما كان ويليام رانسوم بجانبها، البارجة الوهمية في سماء إسكس، وكيف شاهدت طيور النورس تطير تحت هياكل السفن.

قالت: «لقد كانت الأضواء فقط هي ما يستخدمه في حيله القديمة، ولكن كيف كان قلبي ليعرف؟».

قال توماس المرتاب: «رجل إسكس الطائر، إيه؟ إذا كانت سفن الأشباح تؤخذ في أي وقت مضى إلى البحار، فإنها ستجد بالتأكيد مياهاً أفضل من مصب نهر بلاك ووتر». توقَّف عن إبداء تعليق آخر منذ وصول تشارلز وكاثرين أمبروز، يحملان مظلة خضراء وأخرى وردية على التوالي، حضورهما في الطريق قد أنار المدينة.

وقفت كورا لتحيتهما، تشارلز! كاثرين! لا يمكنكما الغياب طويلاً.. أنت تعرف صديقي توماس تايلور، بالطبع، نحن نناقش علم الفلك. هل شاهدت لمعان الليل؟ أم أن أضواء لندن برَّاقة للغاية؟

«كالعادة، عزيزتي كورا، لا أعرف ما أنتِ مقدمة عليه»، قام تشارلز بهز يد المقعد، ووضع العديد من العملات المعدنية في قبَّعته، دون التحقُّق من قيمتها أولاً، وجذب كورا تحت مظلته، وقال: «سمعت من ويليام رانسوم أنكِ سيئة السمعة!».

«أوه»، بدت معاقبة، ولكنه ضغط عليها بقوله: «أعلم أنكِ تصرين على ضرورة مواجهة العصر الحديث، ولكن ربما كان من المهذب أن تطلبي الإذن أولاً». كان من الصعب جدّاً الاستمرار، نظراً إلى أن كورا بدت بائسة، وكانت كاثرين ترمقه بإحدى نظراتها التحذيرية، لكنه كان يحب ويليام، وفي رسالته الأخيرة، كان يبدو أكثر اهتزازاً من الحادث الذي استحقَّه. كتب: «أتمنى لو أنك لم ترسليها، لم يكن الأمر مهمّاً، فقط أحداث متعاقبة»، وبعد ذلك؛ سرعان ما استلمت بطاقة بريدية، قال فيها بمزيد من السعادة: «اغفري لي مزاجي السيئ، كنت متعباً. ما أخبار وايت هول؟».

قال: «هل اعتذرت؟»، وشكر الله بحرارة، وللمرة الأولى أو الأخيرة، على أنه لم يكن أباً.

قالت كورا: «بالتأكيد لا»، وهي تأخذ يد كاثرين، تشعر بأنها تستحق حليفاً. «أنا لم أفعل. أعطت جوانا موافقتها، وستيلا أيضاً، أم يجب علينا جميعاً أن ننتظر وقتنا حتى يقدّم الرجل موافقة خطية؟».

قالت كاثرين: «يا له من معطف جميل»، تنظر إلى السترة الزرقاء التي استبدلت بنسيج خشن للرجل العجوز، كانت ترتديه كورا طوال الشتاء، ما جعل عينيها الرماديتين عاصفتين.

قالت كورا بذهنٍ شارد: «أليس كذلك؟». إنها الآن يمكن أن تفكر فقط بصديقتها، قديماً في دراسة ألدوينتر، وتفكر بها بشكل سيئ. كان لديها الكثير لتخبره به، ولا توجد وسيلة لإخباره بذلك. عادت إلى تايلور؛ الذي كان يلتقط آخر فتات الكعك من حجره، ويراقب الثلاثة بسرور، كما لو كان يدفع ثمن تذكرة. قالت؛ وهي تصافح يده: «يجب أن أذهب إلى المنزل، طلب فرانسيس أحدث أفلام شيرلوك هولمز، الذي يخشى أن يكون آخر قضية للمخبر العظيم، وإذا حدث هذا حقّاً، لا أعرف ماذا سنفعل: أكتبها بنفسي، ربما».

قال تايلور؛ الذي عرف الصبي أفضل مما توقَّعته أمه، لأنه اعتاد أن ينزلق من علامة التحذير الحمراء دون أن يلاحظه أحد، ويتسلَّق إلى الأنقاض: «أعطه هذا، إذن، مرَّر لكورا قطعة من الطبق المكسور الذي رسمت فيه ثعباناً ملتفّاً حول شجرة تفاح».

وقال تشارلز: «المزيد من الثعابين. يبدو أن هناك كثيراً من ذلك. كورا، أنا لم أنتهِ منكِ بعد، نحن نقيم في جورج، ويدهشني ما يمكنك فعله بالشراب».

يجلس بشكل مريح في صالة استقبال جورج، ولم يكونوا يتحدثون عن ويليام، ولكن عن ستيلا. كانت رسائلها إلى كاثرين قد اتخذت قالباً روحيّاً، بدا تشارلز مرعوباً، وقال: «لا، ماذا يتوقع المرء من زوجة قس!».

بدت كما لو أنها مغرمة بسلسلة من الأحاسيس ارتبطت باللون الأزرق. «وقد أخبرتني أنها تتأمل في ذلك اللون ليل نهار، وتحمل حجراً أزرق معها إلى الكنيسة، وتقبّله، بحيث لا يمكنها سوى تحمل ارتداء اللون الأزرق، لأن الألوان الأخرى

تحرق بشرتها». هزَّت كاثرين رأسها «هل هي مريضة؟ كانت دائماً سخيفة نوعاً ما، على ما أظن، ولكنها كانت ذكية. كان الأمر كما لو أنها اختارت السخف؛ لأنه إحدى السمات التي تتصف بها النساء اللائي يحظين بالتقدير».

قالت كورا: «إن حرارتها دائماً مرتفعة، بالتفكير في الكيفية التي عقدت بها يديها عندما تقابلا أخيراً، وكيف كانا مثل هؤلاء الأطفال الصغار؛ الذين يعانون من الحمى، ولكن كيف يمكن أن تكون مريضة، وهي تصبح أكثر جمالاً في كل مرة أراها؟».

سكب تشارلز كأساً أخرى من الشراب (ليس سيئاً أفترض، بالنسبة إلى حانة إسكس)، ورفعه ناحية الضوء وقال: «يقول ويليام إنه اتصل بالطبيب، وأنها لا تستطيع التخلص من الإنفلونزا. إنه يرغب في إرسالها إلى مكان دافئ، ولكن الصيف يتغير، كما تقول الأغنية القديمة، وستكون سعيدة بما فيه الكفاية عما قريب».

لم تكن كورا متأكدة من ذلك، لم يقل لوك شيئاً (لقد غادر ألدوينتر بأسرع ما يستطيع، كما لو كان يشعر بأيدي ويليام على ياقته)، لكنها رأت نظراته المليئة بالإعجاب للمرأة؛ حيث كانت تتحدث بإخلاص عن زهرة العنبر التي كانت ترعاها، وقطع الفيروز التي كانت ترتديها في أذنيها. شاهدته يأخذ نبضها، وحزنها. «في اليوم التالي، أخبرتني أنها لم ترَ أفعى إسكس، لكنها سمعت ذلك، فقط لم تكن تعرف ماذا تقول». أخذت رشفة من قدحها، وقالت: «هل كانت تمزح، وتلعب، وتعلم أن لديَّ فكرة عما يجري هناك؟».

وقال تشارلز؛ الذي لا يثق بأي شخص لا يأكل: «إنها نحيفة للغاية، لكنها حقّاً جميلة، في بعض الأحيان أعتقد أنها تشبه قديسة ترى المسيح».

قالت كاثرين: «ألا يمكن أن تحضرها لترى لوقا؟».

«أنا لا أعرف، إنه جرَّاح، وليس طبيباً، ولكنني أود ذلك، لقد فكرت في مراسلته لأسأله». لقد صعقت كورا فقط بعد ذلك، حيث توقف المطر، وأصبح كل شيء هادئاً. كيف كانت مغرمة بالمرأة التي كان لديها القليل من القواسم المشتركة معها، وسخرت من رد فعلها وعائلتها، وتعلم بطريقة ما؛ شؤون الجميع أفضل من شأنها هي، وكانت نيتها طيبة على الدوام.

يجب عليَّ أن أحسدها؟ لقد فكرتْ، هل يجب أن أتمنى رحيلها؟ لكنها لم تفعل ذلك، وكانت زوجة ويل موضع ترحيب منه، بقدر ما كان يحظى بترحيبها. قالت كورا سيبورن: «انظر، يجب أن أذهب، أنت تعرف كيف يعد فرانكي الساعات، لكن سأكتب إلى لوك.. نعم، وتشارلز، سأكتب إلى الأب الموقر، سأكون جيدة، أعدك».

2 ألدوينتر العام
29 مايو

عزيزي ويل

أخبرني تشارلز أنه يجب عليَّ الاعتذار. حسناً. لا أستطيع القيام بذلك إلا في حالة الاعتراف بأنني قد اقترفت خطأ.

لقد درست الكتب المقدسة، حيث إنك دفعتني إلى القيام بذلك ذات مرة.. وانظر إلى إنجيل (ماثيو 18: 15ـ 22)، يجب عليك السماح لي بالقيام بـ 489 تجاوزاً آخر قبل طردي.

بالإضافة إلى ذلك، فأنا أعرف أنك تحدَّثت لابني عن خطيئتي، ولن أتشاجر معك بهذا الشأن! هل يجب علينا صنع جبهات للقتال بالخارج من أجل أطفالنا؟

ولماذا يجب على عقلي أن يتنازل من أجل عقلك، ولماذا يجب على عقلك التنازل من أجل عقلي؟

المخلصة

كورا

القس ويليام رانسوم
فندق ألدوينتر
31 مايو

السيدة العزيزة سيبورن

أشكرك على خطابك، ولقد سامحتك بالفعل، وفي الحقيقة، لقد نسيت الحادثة التي أشرتِ إليها، وأشعر بالاندهاش أنك ذكرتها.

أتمنى أن تكوني بصحة جيدة

مع أطيب أمنياتي

ويليام رانسوم

الفصل الثالث

للمتابعة المستمرة

يونيو

1

حـلَّ منتصـف الصيـف علـى نهـر «بـلاك ووتـر»، وكانـت طيـور مالـك الحزيـن تطيـر علـى المستنقعات، وبـدت ميـاه النهر أكثـر زرقـة مـن ذي قبـل، وبقـي مصـب النهـر سـاكناً، وامتـلأت ضفَّتـاه بأسـماك الماكريـل مبكـراً فـي ذلـك اليـوم، ويمكـن التمتُّع بمشـاهدة قـوس قـزح وهـو يلمـع علـى زعانفهـا، بينمـا الليڤياثـان نبتـت لـه أشـواك طويلـة مـن أوراق الصفصـاف، وإكليـل مـن الروزمـاري، ونبتـت يواقيـت قـرب المقدمـة.

كانـت ناعومـي ترقـد وحيـدة فـي منتصـف اليـوم قـرب أضلاعـه السـوداء، وهـي ترفـع تنُّورتهـا إلـى أعلـى، وتتلفَّـظ بالتعاويـذ الغريبـة، وفيمـا بقيـت جوانـا إلـى وقـت متأخـر قـرب طاولتهـا المدرسـية، قالـت إنهـا لـن تتحرَّك حتـى تحفـظ أسـماء كل العظـام الموجـودة فـي الجمجمـة البشـرية (قـال: «مؤخـرة الـرأس»، بينمـا كانـت ناعومـي تهـم بالمغـادرة، وتذكرتهـا الفتـاة ذات الشـعر الأحمـر؛ كـي تذكرهـا فـي إحـدى الليالـي فـي وقـت متأخـر؛ كمـا لـو أنهـا بمثابـة لعنـة مـا). هـدأت أفعـى إسـكس لبعـض الوقـت، وإلا كيـف يسـعها أن تبقـى علـى قيـد الحيـاة فـي تلـك الشـمس اللافحـة؟

فـي الطريـق المـؤدي إلـى الجانـب العلـوي، سـارت ناعومـي

وستيلا ببطء، وهما تحاولان الابتعاد عن الحافة التي بدت زرقاء كتنُّورة ستيلا، وأيضاً حزم القماش التي لفَّتها حول رسغيها، وكانت في طريق العودة إلى البيت لأطفالها، وافترضت أنهم يريدون تناول الطعام، وتلك الفكرة أشعلت في نفسها الثورة، فكل تلك الأطعمة التي ستجد طريقها إلى أفواههم المفتوحة؛ لهي أمر مثير للاشمئزاز، إن فكَّرتْ بالأمر، فليس لديها شهية لأي شيء ربما تود تناوله.

كان ويل نائماً في مكتبه، وبقيت أمامه ورقة على الطاولة، وسُطِرت فيها الأسطر التالية: «عزيزي» فقط كلمة «عزيزي»، وفي تلك الأيام كان منهمكاً في كتابة الكثير من الرسائل، لدرجة أن مفصل الإصبع الثالث تورَّم، وشرع في مصه من وقت إلى آخر لتهدئة الألم، وينبه نفسه بقوله: «عزيزي...»، وبمجرد أن يفكر في أي شخص، يشرع في الابتسام ثم يتراجع.

كانت مارثا تقشّر البيض، وكورا تخطّط لحفلة منتصف الصيف، وبينما كان تشارلز وكاثرين أمبروز آتيين، وهي تعلم جيداً أنه ليس أحب إليه من البيض المخفوق في ملح الكرات، وكذلك كان لوك على وشك المجيء، ولا تهمها أبداً مشاعره تجاه البيض، ومن الممكن أن يأتي ويليام رانسوم، وهو يبدو متحفظاً جدّاً في تلك الأيام، وسوف تأتي ستيلا أيضاً دون شك بثوبها الأزرق.

جلس السيد كافيين واضعاً إحدى قدميه فوق الأخرى في المروج المخصَّصة للعب، وفي يده شطيرة جبن، ما لبث أن وضعها في حجره، وراح يكتب: «المدرسة تبدو أهدأ الآن مما سبق، والأطفال يدرسون بهدوء، ومن المتوقَّع لهم

أن يلبُّوا المعايير المطلوبة، ويحضروا معهم عشرين كراسة مسطَّرة وبها هوامش».

نحو الثالثة عصراً، أتى ويل لزيارة كراكنيل، ولم يبدُ الرجل المسن بخير، حيث كان يرقد على أريكة وهو يرتدي حذاءه، وأدرك تماماً أن خفقان صدره سوف يصير حشرجة بحلول عيد الميلاد «وصبغة شراب ثمر الورد في المساء؛ هي ما توصيني به السيدة كراكنيل، وأنا لست بعيداً عن أخذ النصح من سيدة مُتوفَّاة، أيها القس». قال: «تلك الزجاجة هناك والملعقة من فضلك»، بدت محاولة جسورة للتحلّي بالشجاعة، وابتسم ويل، ولكن كراكنيل لم يبتسم «لم يكن السعال هو ما قضى عليها»، أردف قائلاً وهو يلمس رسغ القس: «إنه الكفن الذي حملوها فيه».

جلس توماس تايلور في مدينة كولشيستر قرب حطام الزلزال بقدميه الأثيريتين، وهو يقوم بصفقات عادلة في يوم صحو، وبدت قبَّعته مثقلة بالعملات المعدنية، وبدت الدبابير متلهّفة إلى بناء عشها في طيات الستارة، وأما كومة الورق بترتيبها الغريب، فقد صارت مزاراً سياحيّاً، وبدا الهواء العليل مليئاً بالموسيقى، فيما كانت الدبابير تشعر بنعاس بالغ؛ منعها من وخز أي إنسان!

وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، اقترب منه الطبيب ذو الشعر الأسود، وهو يرتدي معطفه الرمادي، وتفوح منه رائحة الليمون، ووضع يده على جسده؛ ليتحسس موضع إصابته التي لم تشفَ بعد وقال: «يا له من عمل سيء، لو كنت هنا، لكنت جعلتك تشعر بالفخر».

وعلى بعد خمسين ميلاً جنوباً، كانت أسراب السنونو تطير، وبدت لندن في أبهى حلَّة، وهي تعلم بالأمر، وصارت كولشيستر لا تقاوم في فتنتها، وشرع الأطفال في إطعام طيور البجع في «ريجنت بارك»، وطيور البجع الأبيض في سانت جيمز، وبدا الليمون المالح يتوهَّج في الطرقات، وفيما بدت هامبستيد هيث مثل ساحة ملاءٍ ريفية، ولم يعد أحد يستخدم مترو الأنفاق. لمعت أشعة الشمس على الطرقات، بينما كان المشعوذون والمحتالون يتكاثرون في ميدان ليستر، ولا يود أي إنسان الذهاب إلى البيت، ففي الخارج، الحانات والمقاهي ملأى بمرتاديها قليلي الحياء، وإن لم يكن الحب يستعر حواليهم، والقهوة التي تُصَبُّ قريباً؛ هي ما يشعل الحماسة، فماذا عساه يكون سبب المرح؟

في غرف طريق الوايت هول، كان تشارلز أمبروز يرتدي أفضل ثيابه، ويرحّب بأحد زواره وهو يرتدي قميصاً جديداً أزرق، ويقول: «سبنسر.. لديَّ رسالتك معي هنا، فهل يمكنك المجيء على الغداء؟ هناك أشخاص أعتقد أنك تود لقاءهم»، بدا تشارلز غير مبالٍ بكرم سبنسر المفاجئ، لأنه أغنى رجل في القلعة، وهو الرجل الفقير عند البوابة، لكنه يحب سبنسر حقّاً، وأيضاً كاثرين، وربما ينبغي على المرء أن يفعل الخير كما يفعل أي شيء آخر.

أتى سبنسر مستعدّاً كي يتوسَّط لطلب مارثا، وتمنَّى أن يتذكر الأرقام، ويحاكيها في عاداتها الواقعية والعاطفية في نفس الوقت، وتصوَّر وجه مارثا حينما يخبرها بالأنباء السارة «سوف تأتين حينما ندلي بالتعليمات للمهندسين المعماريين، بما أنك تفهمين الأمر جيداً...»، وفكر متأمّلاً: «سوف تشرق ملامح وجهها مبدية ابتسامتها النادرة، وسوف تراني».

أخذ مشروباً من تشارلز وقال له: «شكراً لك، أنا أريد هذا، أعتقد.. ربما سوف تأتي مع مارثا ومعي في الأسبوع القادم؟ سوف نزور إدوارد بارتون في منطقة بثنال جرين، الرجل الذي أجرى له لوك عملية جراحية، هل تعلم؟ مارثا صارت صديقته، ويقول إنه يقوم بأفضل دراسة للحالات! فكر تشارلز مطرقاً، ونظر إلى سبنسر بودّ، فوجده نحيفاً جدّاً لدرجة أنه فقد نصف وزنه «هل سيكون هناك شيء من لحم الماعز على العشاء؟ هل سيكون هناك سمك السلمون البري؟ هل ستأتي لحفل كورا لترى الأرملة الطروب وهي تقلّد بيرسيفوني، وتضع في شعرها الزهور؟»، ولكن سبنسر لا يمكنه هذا، سوف يرتدي معطفه الأبيض في رويال بورو، ويضع الماعز جانباً ربما، ويشعر بالراحة من أنه أفلت -ربما- من تحت ملاحظة مارثا، وتحمّل المأساة التي تتعلّق بالمناسبات الاجتماعية.

ارتدت إسكس حُلَّة الزفاف، وبدأت الأبقار تجد أعشاباً خضراء في الشارع، وزهور الأقحوان في كل مكان، وارتدى طائر الزعرور حُلَّته البيضاء، وتناثرت سنابل القمح والشعير في المروج، وفيما تكاثر العشب قرب سياج الشجيرات، سارت كورا أربعة أميال، ولم تشعر بالتعب، وفي الميل الخامس، مرَّت قرب المزارع، وتجرَّدت من ملابسها حتى الوسط، وفتحت أزرار قميصها، وقالت لنفسها: «لماذا أستحي من جسدي وهو لا يفعل؟»، ولكنها بمجرد أن لمحت شخصاً في الطريق، شرعت في إعادة الأزرار كما كانت؛ لتتجنَّب أية كارثة محدِقة.

أتت قرب مكان نمت فيه الزهور بوفرة، وكانت هناك

مزهريات في كل مكان، بدا فدان أو اثنان مليئين بالزهور، كما لو أن قطعة من الحرير قد صُبِغت وتُرِكت لتجف، والهواء بات معبَّقاً بعبير ساحر، فلعقت شفتيها؛ حيث شعرت بمتعة تركية على طرف لسانها.

في تلك الأيام، كانت تفكر دوماً في ويل، ولم يمكنها أن تعترف أنها قد ارتكبت خطأً، أو أنها تستحق أن تشعر بالخزي، كانت تحتقره بشكل ما؛ لأنه يصير عصبيّاً بسرعة «إنه الغرور الذكوري»، قالت لنفسها وهي تفكر بالأمر، يا له من شيء رقيق، ولكنه مثير للإزعاج في نفس الوقت! ولكن ضميرها وخزها أيضاً؛ هل تشعر نحوه حقّاً بالحب؟ كانت تفكر أن تعتذر له، فقط لمجرد التمتُّع بمراقبته وهو يحاول كتمان ضحكته، ولكن لا، فما زالت تحتفظ ببعض الكبرياء الذي يمنعها من هذا.

وما هو أكثر من هذا، أنها تفتقد منزل رانسوم بكامله، ووعد جيمز بأن يعرض عليها المنظار الذي صنعه من قطعة مكسورة من المرآة، وكانت هدية ستيلا مقابل النميمة، أفضل بديل عن حياة لندن الرائعة.

تفكيره في ستيلا ألقى ظلاله على الطريق: هل فشل ويل حقّاً في إدراك غرابة أطوار زوجته؛ بسبب ارتدائها الأزرق فقط؟ ووضعها الزهور الزرقاء في شعرها؟ ولأنها تتجوَّل قرب المستنقعات بحثاً عن طحالب المياه الزرقاء والصخور الزرقاء، ولأنها ترسل إلى كولستر طلباً للزهور، وتضع سيقانها في الحبر كي تصير بتلاتها زرقاء؟! كيف صارت أكثر نحافة، ولكنها أشد حيوية، وصارت وجنتاها أكثر احمراراً، وبدت

حركاتها أنشط، وأعينها التي تشبه زهور البانسي؛ بدت أكثر لمعاناً من ذي قبل؟

«سوف أتحدث مع لوك»، فكَّرت كورا «لوك حتماً سوف يعلم».

أتت إلى البيت ويداها مليئتان بزهر النسرين؛ الذي تفتَّح للتو بلونه الكريمي المميز، وكانت هناك ثلاث حبات من النمش على وجنتيها، وضعت ذراعيها حول وسط مارثا، وهي تفكِّر كيف تثبّتهما حول أردافها، ثم قالت: «لقد أوشكوا على المجيء.. كل من أحبني، وكذلك من أحببت».

2

في وقت متأخر من الأمسية اللطيفة، اتجهت ستيلا رانسوم إلى مرعى ألدوينتر تتأبَّط يسرى زوجها، وابنتها على يسارها. كان أولادها في بيت القسيس، في رعاية ناعومي بانكس، يأكلون الخبز المحمَّص، ويلعبون لعبة السلم والثعبان. كانت كورا قد اتصلت صباح ذلك اليوم في طريقها إلى البيت مشياً، وهي تحمل ملء ذراعيها وروداً، تركت خدوشاً صغيرة على ثنايا مرفقها، قائلة: «هلا أتيتِ مبكراً؟ لا أستطيع أبداً أن أقيم حفلة دون أن أخشى ألا يحضرها أحد، وأنني سأُترَك لأجلس طوال الليل تحاوطني الزجاجات، غارقة في أحزاني».

كانت ستيلا قد وقفت في وقت سابق أمام مرآتها تسوّي طيات تنورتها الحريرية البيضاء، حين قال ويل: «ماذا، ألن ترتدي الأزرق اليوم؟»، فأرخت بصرها ضاحكة، لأن كل شيء رأته كان أزرق، فقد لمعت طيات التنورة باللون الأزرق، وكان جلدها به مسحة من اللون الأزرق، حتى أعين ويل؛ التي كانت بالتأكيد ذات مرة بلون البلوط الذي كان يجمعه الأولاد في كل فصل خريف، والمرصوص على طول عتبة النافذة، كانت أيضاً زرقاء، في بعض الأحيان، كانت تظن أن عينيها قد ترقرقت بالدموع الملطَّخة بالحبر.

قالت: «أعتقد أنني من النبلاء»، ورفعت ذراعيها، وفكرت كم كانا نحيلين، وكم كانا جميلين، وقال ويل: «لم أشك أبداً في ذلك، يا نجمتي البحرية»، وقبَّلها مرتين.

بينما كانا يسيران، اندفعت طيور الخطاف المنزلي تجاه الحشرات فوق العشب، ومرَّا بالقرويين مضرمين النيران، احتفالاً في حدائقهم وعلى هوامش الحقول، ورنت التحيَّات في أرجاء القرية مع قرع أجراس كنيسة «جميع القديسين»: «يا لها من ليلة! يا لها من ليلة مجيدة!».

أدخل ويليام إصبعه داخل ياقته وأرخاها: لم يكن فقط يريد أن يرى كورا، بل كان يريد ذلك بشدة؛ كان يفكر بها طوال اليوم، وهي تتجوَّل في السبخات، وأظفارها ملطَّخة بطين إسكس، لم يفكر بها على الإطلاق. كانت أسوأ النساء، كانت صديقته، وبكل الامتنان، نظر إلى رأس ستيلا الفضي، الذي كان محاطاً بأشعة الشمس اللامعة، وفكَّر: لم يحدث طوال كل هذه السنوات أن تسبَّبت في إزعاجي، ولو لمرة واحدة! التفَّت يدها الصغيرة في يده، وكانت ساخنة، ورأى على مؤخرة رقبتها، حيث كان فستانها الأبيض ذا قَصَّة منخفضة، بريقاً من العرق. قال طبيب مدينة كولشيستر؛ بينما يضع سماعته جانباً؛ بأنها مصابة بالإنفلونزا التي أصابتها بالضعف، وأن عليها أن ترتاح وتأكل وتنام. لقد جاء الصيف، ولم يكن هناك داعٍ للقلق.

شاهدت ستيلا البيت الرمادي بكل مصابيحه الساطعة مضاءة، وفي كل نافذة إبريق من ورود النسرين. كان هناك شخص ما خلفهما يتحرَّك جيئة وذهاباً، وكان هناك صوت

بيانو يُعزف. لا يوجد شيء يسعدها أكثر من حفلة في ليلة دافئة، وأن تكون مركزاً ثابتاً وسط حشد دوّار، وأن تعرف أنها محط الإعجاب، وأن اهتمامها الذي لا نهاية له بالأحفاد، والأمراض، والثروات، قد فاز وخسر، لكنها شعرت بالقلق الشديد، كما لو كانت قد أحرقت مخزونها من الطاقة في المئة ياردة التي مشياها. أرادت أن تكون في منزلها في الكوخ الأزرق الذي بنته، وأن تعتمد على ثروتها، وأن ترفع إلى الضوء الورقة الزرقاء الشمعية التي تغلّف صابونة الجنطيانا، مستنشقة رائحتها، أو تمرر إصبعها على منحنى بيضة طائر أبو الحناء التي جلبها أبناؤها في شهر مايو.

قال الطبيب متحدثاً إلى ويل، إنها مصابة بالإنفلونزا، لكن ستيلا رانسوم لم تكن حمقاء، وعرفت أنه مرض السل، عندما رأت الدم يلطّخ طيات المنديل الأبيض. ذات مرة عندما كانت شابة، رأت فتاة تموت بمرض الموت الأبيض «السل» (كما كان يطلق عليه آنذاك، كما لو كانت تسمية المرض ستحضر الموت إلى الغرفة): لقد احترقت أيضاً، وصارت نحيلة وشاردة الذهن، تحيا النهاية عندما تقترب برضا، يسكّن الأفيون كل آلامها من الداخل والخارج، وقبل أسبوع من وفاة الفتاة، أصيبت بنزيف لطَّخ ملاءتها البيضاء.

أدركت ستيلا أنها لم تصل إلى مرحلة متأخّرة من المرض حتى الآن، وعندما تصل إلى هذه المرحلة، ستأخذ ويل جانباً، وتطلب إرسالها إلى جناح مرتفع؛ حيث يمكنها أن تجلس وتنظر إلى السلاسل الجبلية، وجميع قممها ستكون زرقاء. ذات مرة، كان هناك ضباب يميل إلى الحمرة على المرآة، عندما أصابها السعال في صباح أحد الأيام؛ بينما

كانت تمشّط شعرها، أصابها بينما كانت تمرّر الفرشاة على شعرها للمرة المئة، ولكن مرة واحدة فقط، وزال بسهولة تامة. (ولماذا كانت الدماء حمراء عندما خرجت، في حين أن كل وريد يظهر بوضوح باللون الأزرق، من خلال جلد معصمها الرقيق؟ لم يكن الأمر يبدو عادلاً).

لكن لم يحن موعد وفاتها بعد، ليس وجوانا لا تزال متجهِّمة للغاية، وليس في حين أن ويل لا يزال في كثير من الأحيان يصفع باب مكتبه، وليس بينما لا يزال النهر ينحر الشواطئ فيقلِّص مساحتها، ولا يزال القرويون يأتون بصمت إلى الكنيسة، ويغادرون دون أن يشعروا بالارتياح. قال ويل: «نجمة البحر»، ألم يكن هذا أيضاً اسم العذراء التي لم تكن ترتدي سوى اللون الأزرق فقط؟ ضحكت، وفكرت: «صلِ من أجلي، يا مريم، يا والدة المسيح، وأعطِني رداءً من أرديتك».

ثم أصبحوا على عتبة الباب، وكانت كورا هناك ترتدي الحرير الأسود، وتبدو عابسة وهادئة للغاية، حتى نسي ويل للحظة سخطه المبرر أخلاقيّاً. أخذ يدها؛ بينما فقد توازنه مرة أخرى، وقال: «كورا، تبدين متعبة، هل كنتِ تمشين لمسافة بعيدة؟».

بدت له وهي فارعة الطول، وترتدي رداءها الأسود باهظ الثمن، وهي عصبية قليلاً، كأنه لم يقابلها قط من قبل، وأنها أصبحت بعيدة نوعاً ما، ما جعله يرغب في الجري وراءها، أينما ذهبت. شاهدها تحيي ضيوفها بالكياسة التي تصوَّرها مستمدة من المنشآت الراقية في تشيلسي ووستمنستر، بدا أنها تعرف بالضبط ماذا تقول، وكيف تقوله؛ ومن تستقبله

بالقبلات، ومن يفضّلون مصافحتها التي كانت تشبه مصافحة الرجال. نُقِلت ستيلا في الحال إلى مقعد واسع منخفض، عليه وسادة من الحرير الأزرق «لقد رأيت هذه الوسادة في كولشيستر الأسبوع الماضي فقط، واعتقدت أنه يجب أن تحصلي عليها؛ خذيها معك عندما تذهبين». لقد سرَّحت شعرها، وصفَّفته، بحيث أصبح مسترسلاً مثل الفتيات، وثبَّته فقط فوق الأذنين بأمشاط من الفضة. كانت ترتدي أقراطاً من اللؤلؤ على شكل قطرات، وكانت شحوم أذنيها حمراء، كما لو كانت متقرّحة من وزن الأقراط.

عندما وصل تشارلز أمبروز، وهو يتألق بشكل زاهٍ في قميصه الحريري الجديد، لم يقترب من مضيفته: «ظننت أنك ستكونين مزيَّنة بالورود، كورا: يا له من منظر محزن!»، لكن نظرته كانت نظرة إعجاب.

«أنت رائع بشكل يكفينا جميعاً»، قالت، وقبَّلت خدَّه الممتلئ، ولمست شال كاثرين الطويل ذا الأهداب (سأسرق هذا لاحقاً: انتظري فقط لتري إن لم أفعل).

قال تشارلز: «لقد أصبحت سمينة»، دون استهجان، وهو يشاهدها وهي تشق طريقها لتتخطّى الطاولات المنخفضة المجهَّزة بأدوات وأواني المائدة الفضية، ثم حضر لوك، وقدَّم نفسه بفخر: «أنت تعرف القصير، بالطبع!»، وكانت زهرة الربيع الصفراء تموت على عروة سترته، وكان شعره الأسود مدهوناً بالزيت.

«كورا»، قال: «لديَّ شيء لأجلك، كان بحوزتي لسنوات، ويمكنك أن تحصلي عليه أيضاً مثل أي شخص». سلَّمها

حزمة ملفوفة باللون الأبيض، بإهمال نوعاً ما، كما لو كان لا يهمه إذا كان سيسعدها ذلك أم لا. عندما فتحتها، رأت كاثرين أمبروز إطاراً صغيراً، وُضِعت فيه مروحة مطرَّزة مصغَّرة وراء الزجاج، وتساءلت عما كان يفعله الرجل بحق الله بالعمل بالكتان والخيوط الحريرية الملونة؟

بدت مارثا، فتاة ولدت وترعرعت في الريف، في رداء باللون الأخضر، وأكثر من ذلك؛ عندما أخرجت رغيفاً على شكل حزمة الذرة وديكين لامعين متبَّلين بأغصان الزعتر. كان هناك بيض بط، ولحم مزيَّن بالقرنفل، وأطباق من الطماطم المقطَّعة والمغطَّاة بالنعناع، والبطاطا الصغيرة كاللآلئ.

تبعتها جوانا إلى المطبخ ثم عادت، تتوسَّل لأن تساعدها، فسمحت لها بتقطيع شرائح ملتوية من الليمون لعمل صلصة السلمون. تراصت على طول الطاولة براعم اللافندر البكر المسحوقة بواسطة أطباق ثقيلة لتعطير الجو. كان تشارلز أمبروز قد جلب من لندن شراباً جيد النوعية، وعند فتح الزجاجة الثالثة، قام بوضعها في صف مع الزجاجات الكريستالية، ثم قام بعزف لحن على حوافها بواسطة إصبعه المبتل.

رقدت كلٌّ من مارثا وجوانا على بطنيهما؛ وهما تتدارسان الأوراق بعناية، وتبحثان بكل جد في ما تمتصَّان مكعبات الثلج، بينما جلس فرانسيس بقدمين ملتفَّتين عند مقعد النافذة، ساحباً ركبتيه حتى ذقنه، وهو يردّد أعداد متتالية فيبوناتشي الرياضية.

ما يريده ويل أكثر من أي شيء آخر؛ هو أن يصطحب صديقته جانباً، ويسحب كرسيين ثم يخبرها بكل شيء خبَّأه

حول الأسابيع الماضية تلك، كيف عثر في أوراقه على قصيدة كان كتبها وهو طفل، وكيف قام بحرقها، وكيف تمنَّى لو أنه لم يفعل، وكيف استعار جو خاتم أمه الماسي، واختبر قوته عن طريق نقش اسمها على النافذة، وما قاله كرانكيل وهو يلعق شراب وردة المسك من الملعقة، ولكنه لم يستطع فعل أي شيء من هذا، فقد كانت مشغولة في مكان آخر، حيث كانت ترش الفراولة بالسكر، وتقنع ستيلا بأن تأكل، وتخبر فرانسيس بخجل نوعاً ما، أنه إذا كانت الأرقام تسبّب له الضجر هذه الأيام، فإن لديها كتباً عديدة يمكن له أن يطلع عليها، بالإضافة إلى (محاولة ويل دفع نفسه للغضب من نفسه مجدداً)، فقد كانا في منتصف معركة، دون هوادة أو رحمة.

لكنه لم يستطع استحضار الغضب مهما حاول ذلك بجد؛ ولذلك؛ تخيَّل رجلاً مهاجماً ابنته وهو يهمس، ولكن بعد ذلك تبين أن هذا الرجل كان الطبيب غاريت، هذا الولد الصغير المثير للشفقة؛ بسبب قامته الضئيلة، والطريقة التي احدودب فيها أحد كتفيه أكثر من الآخر. أين تراها نواياه الطيبة؟ ماذا فعلت بها كورا؟

لقد ذهب إلى الطبيب الذي قام بتناول زهرة صفراء من عروة قميصه، وأخذ في قطف البتلات، سمع نفسه يقول: «لقد كنت فظاً ذلك اليوم الذي التقينا فيه، لم يكن عليَّ أن أستشيط غضباً وقتها، هل تسامحني؟ ثم نظر بذهول إلى كأس الشراب في يده، كما لو كان السائل هو الذي يتحدَّث لا هو.

جفل الطبيب وتلعثم ثم قال: «لا عليك»، بشيء من التكبُّر، ثم قلَّ تورُّده وهو يردّد: «إنه شيء أود أن أختبره في بعض

الأحيـان، لقـد فعلناهـا مـع كـورا مـرة مـن قبـل، ولـم نلاحـظ وقـوع أي ضـرر».

«لا أتخيَّل أن بإمكان أي شخص دفع كـورا لقول أي شيء لا تـود هـي البـوح بـه»، قـال ويـل، هبَّـت نسمة بـاردة للحظـة، بينما يفكـر كل منهما في أن الآخر ليس لـه الحق على الإطلاق في تكويـن رأي حـول مـا يمكـن أن تقـوم بـه كـورا.

«لقـد قالـت: إنـك عبقـري». قـال ويـل: «هـل أنـت كذلـك حقّـاً؟».

قـال لـوك: «أتوقـع ذلـك»، وأسـنانه تكشـف عـن ابتسـامة. «كأسـك فارغـة، دعنـي أسـاعدك، أخبرنـي، هـل لديـك اهتمامـات بالعلـوم الطبيـة، أم أن ياقتـك البيضـاء تمنعـك مـن ذلـك؟!»، فـي الدقائـق التاليـة لـم يسـتطع ويـل القيـام بـأي شـيء، سـوى الإعجـاب بهـذا الرجـل الـذي أحـرق طموحـه بـكل قـوة: «مـن المستحيل العمـل على القلب نفسـه بالطبـع، حتى ولـو اسـتطعنا العمـل علـى كيفيـة إيقـاف تدفُّـق الـدم لعزلـه، إذا أردت سيتضوَّر العقـل بحثـاً عـن الأكسـجين، وسـيموت المريـض علـى الطاولـة؛ مارثـا، هـلا جلبـتِ لنـا بعـض الشـراب، مـن فضلـك؟ هنـاك.. هـل أنـت علـى وشـك الغثيـان؟ دعنـي أريـك...»، التقـط الولـد الصغيـر الدفتـر الـذي يحملـه دائمـاً، وأرى ويـل رسـماً لطفـل ينسـلخ جلـد صـدره عـن العظـام، بينمـا يوجـد حبـل يربـط الرضيـع بأمـه النائمـة.

«تبـدو مفزوعـاً، لا تكـن كذلـك، إنـه المسـتقبل». إذا كانـت الـدورة الدمويـة لـلأم مرتبطـة بطفلهـا الرضيـع، فيمكـن إذن لقلبهـا أن يضـخ دمـاً لكليهمـا، فـي حيـن أن أنفاسـها تـزوّده بالأكسـجين،

يمكنني أن أغلق فتحة القلب التي يولد بها العديد من الأطفال، ولكنهم لم يمنحوني فرصة المحاولة كما تعلم: «تبدو شاحباً». كان ويل يبدو شاحباً فعلاً، ولكن لم تكن الأنابيب وسوائل الجسم هي التي أزعجته؛ وإنما حقيقةً هذا الجرَّاح الذي يتكلم كما لو أن المخلوقات عبارة عن أشياء تُقطَّع وتُخرَج أحشاؤها مثل الدجاج. «نسيت أنك تاجر ملابس» قال لوك، بطريقة جعلت الكلمات تبدو كإهانة.

تحت الطاولة، قام فرانسيس بتقشير برتقالة اشتراها من متجر هارودز في كيس ورقي. رأى تشارلز أمبروز يجلس بجانب ستيلا، ويعطيها كوباً من الماء البارد، وسمعهما يتحدثان عن كورا، وكم بدت على خير ما يرام، وكم جعلت الغرفة رائعة، كما لو أنها أحضرت الحديقة كلها إلى الداخل، ثم مسحت ستيلا جبينها بظهر يدها وقالت: «ينبغي علينا أن نرقص طيلة فصل الصيف، أيستطيع أحدكم العزف؟».

«يمكنني عزف موسيقى رقصة الفالس» قالت جوانا، «ولا شيء آخر» قال تشارلز أمبروز، وهو يدعس أصابع قدم زوجته: «واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان ثلاثة، هل ينبغي علينا طي السجادة؟».

«هيَّا تعالَ إلى هنا»، قالت مارثا، عندما شاهدت فرانسيس في مخبئه، وهي تسحب السجادة من تحته، كاشفة عن الألواح السوداء تحتها. عند البيانو جلست جوانا مستقيمة الظهر، وعزفت معزوفة استخدمت فيها كل مفاتيح البيانو، وقالت: «إنه مروّع! إن صوته فظيع، لقد تُرِك هذا البيانو حتى أصبح قديماً ورطباً!»، ثم عزفت لحناً سريعاً للغاية، ثم

بطيئاً للغاية، وبدا كل لحن مملاً ولا يمكن سماعه، ولكن لم يتضرَّر أحد من سماعه، في الخارج، كان القمر مكتملاً وقريباً «بدراً»، (حدَّث فرانسيس نفسه)، وينعكس ضوؤه على ضفتي النهر. الكل كان يعرف أن شيئاً ما كان يزحف إلى الأهوار، لكنهم لم يهتموا بأي من هذا، فكر فرانسيس: «أعتقد أنه يمكنه الطرْق ثلاث مرات على الباب ولن يسمع أحد»، ووجد نفسه ينصت إليه على عتبة الباب، ويتخيَّل بريق عينيه الشديد، وضع لوك غاريت دفتر ملاحظاته الذي كان يطالع صفحاته المكتوبة بخط اليد، في زاوية قاتمة من الغرفة، وذهب للوقوف إلى جانب كرسي كورا، ثم انحنى مثل أحد رجال الحاشية الملكية، وقال: «هيا، لكم نحن متشابهان، وسنشكّل ثنائيّاً رائعاً»، لكن ستيلا التي كانت تقف بجوار النافذة المفتوحة، كان لديها أفكار أخرى: «بما أنني متعبة للغاية من الرقص مع زوجي، هل سيحل صديقي محلي؟ استدعت ويل وهي تضحك بعجرفة: «أَرِ كورا أنك لست كاهناً عادياً، يجلس دائماً وحيداً بالمنزل يقرأ كتبه!».

على مضض، تقدم ويل إلى الأمام وقال: «ستيلا! لقد أعطيتِهم آمالاً كاذبة»، ووقف وحيداً في وسط الغرفة، وبدا مرتبكاً للغاية دون المنبر أو الكتاب المقدس، ومد يديه خجولاً بعض الشيء، قائلاً: «كورا، لا يوجد جدوى من إنكارها، لقد حاولتُ».

قالت كورا: «القصير على حق» وأنا ذاهبة لمقابلته، وهي تغلق زرّاً في طرف كمّها. «إذا رقصت، سأرقص بشكل سيئ. لا يوجد بداخلي حس موسيقي»، وقفت أمام ويل، وهي تبدو وكأنها تضاءلت بطريقة ما، وكأنها قد ابتعدت إلى مسافة

بعيدة بعض الشيء، ومنذ أن غادروا شارع فوليس، بدت غير واثقة من موطئ قدمها.

قالت مارثا وهي تتنهَّد وتنفض فستانها الأخضر: «إنها على صواب، كما تعلم، ستكسر قدمك، إنها ثقيلة، هل تراقصني بدلاً منها؟».

لكن ستيلا وقفت، وتقدمت إلى الأمام: ووضعت يد كورا على كتف زوجها وكأنها معلّمة رقص. «انظرا كم تبدوان ثنائيّاً رائعاً!» تطلَّعت إليهما للحظة، ثم عادت راضية، لتجلس تحت النافذة المفتوحة. «هيا، الآن». وضعت الوسادة الحريرية الزرقاء في حضنها، وقالت: «كلوا واشربوا وكونوا سعداء، لعلها تمطر غداً».

ثم وضع ويليام رانسوم يده على خصر كورا؛ حيث كانت بلوزتها مطوية، وسمع فرانسيس تنهُّد والدته. نظرت إلى الأعلى، وقفا بهدوء معاً. كانت هناك لحظة هادئة، ولم يتحدث أحد، وضع فرانسيس قطعة من البرتقال على لسانه، وهو يشاهد: رأى كيف ابتسمت والدته لويل، وكيف قوبلت الابتسامة بنظرة عابسة وحازمة، وكيف تحرَّك رأسها حينها؛ كما لو أنها سُحِبت إلى الخلف من ثقل شعرها، وكيف ثنى يده في خصرها، وهو يشد نسيج تنُّورتها.

لا أفهم أيّاً من ذلك، فكَّر فرانسيس، ورأى مارثا تنسحب، وتقف إلى جانب لوقا، ورأى كيف بدا وجهه كمرآة تعكس ما بدا على وجهها تماماً؛ بدا كلٌّ منهما خائفاً قليلاً.

قالت جوانا وهي جالسة على البيانو، وهي تدير عينيها إلى فرانسيس: «لا أستطيع الاستمرار في العزف مراراً وتكراراً».

قال ويل: «إنني لا أعرف اللحن! لم أسمع ذلك من قبل».

قال جو: «هل أحاول هكذا؟»، وصار العزف على البيانو أبطأ، وصار متراخياً إلى حد ما. قالت مارثا: «لا! لا ليس هكذا».

قالت جوانا: «هل يجب أن أتوقَّف؟»، ورفعت يديها عن المفاتيح، متطلّعة إلى والدها. كم بدا منظرهما غريباً وهما يقفان هناك فحسب! ربما كانا، جون وجيمس، غير متأكّدين ما إذا كانا قد ارتكبا خطيئة صغيرة في المنزل.

قال لوك: «لا: اعزفي، اعزفي!»، موجّهاً مظاهر سلوكه العصبي تجاهه هو، وقد أجفل وهو يفعل ذلك، كان بودّه لو ضرب البيانو ضربة ليغلقه.

ثم قال الكاهن: «لا: لا أستطيع، لقد نسيت الخطوات». استمرت جوانا تعزف، مع دقات الساعة، وظلَّت دون حراك.

قالت كورا: «لا أظن أنني عرفتهم من قبل قط». رفعت يدها من على كتفه، وخطت خطواتٍ إلى الخلف، وقالت: «لقد أصبتُكِ بخيبة أمل يا ستيلا».

قال تشارلز أمبروز، وهو ينظر بأسى إلى كأسه الفارغة: «أداء ضعيف تماماً».

قال ويل: «الأفضل، حسبما أعتقد، هو التوقُّف عن العزف الآن»، ملتفتاً إلى ابنته، ونظر إليها نظرة أوشكت أن تكون اعتذاراً، وانحنى انحناءة عميقة أمام مرافقته في الرقص، وقال: «كان الأفضل لكِ أن ترقصي مع أي شخص آخر غيري، لم أتدرَّب قط على هذا».

قالت كورا: «أوه.. أرجوك. كان الخطأ كله مني أنا، أنا لا أصلح لشيء سوى الكتب والمشي، لكن يا ستيلا، أنتِ ترتجفين، هل أنتِ مصابة بالبرد؟»، تحوَّلَت بعيداً عن ويل، وانحنت لتمسك يدي ستيلا الصغيرة في يديها.

قالت ستيلا ووجهها يلمع: «لا أشعر بالبرد، لكنَّني أعتقد أن جوانا يجب ألا تبقى إلى وقت متأخر».

قال ويل: «نعم!» بسرعة كما لو كان ممتنّاً لسماع ذلك: «بالتأكيد يجب ألا تبقى، وينبغي لنا أن نرى ما العبث الذي أحدثه الأولاد ونحن في الخارج... كورا، هل ستسامحيننا لو انصرفنا؟».

قال تشارلز وهو ينظر إلى ساعته: «إنه منتصف الليل تقريباً على أي حال. ستدقُّ الساعة وتجعلنا جميعاً نركض كمن يفرُّون من أسد.. كاثرين؟ أين كيت؟ أين زوجتي؟».

قالت كاثرين أمبروز التي حملت معطفها: «أنا هنا، كما أنا دائماً»، وشاهدت كورا وقد أصبحت نشيطة ومهذَّبة، وصارت أخلاقها أرقى من أن تلام. ضغطت الوسادة الحريرية الزرقاء على ستيلا وقالت: «يا حبيبتي، من المؤكد أنهم صنعوها من أجلك أنت»، وقبّلت جوانا على خدّها وقالت: «لم أستطع قط أن أعزف مقطوعة موسيقية، أنتِ تعرفين، كم أنتِ ماهرة!»، ومع ذلك لم تنخدع كاثرين. من المؤكَّد أنه لم يكن هناك شيء في رقصة الفالس التي استغرقت وقتاً قصيراً على الأرضية الخالية، لا يوجد شيء في تلك الخطوات المألوفة المهذبة يمكن أن تُدهش أحداً. ما الذي سبَّب تلك اللحظة العجيبة التي حدث خلالها تغيُّر مفاجئ في الهواء؛ حتى إنها لم تكن لتندهش لو سمعت صوت الرعد؟ حسناً،

هـزَّت كتفيهـا بـلا مبـالاة، وجذبـت زوجهـا نحوهـا لتقبِّلـه، لقـد كان الوقـت متأخـراً، ومهمـا يكـن مـن أمـر، فقـد كان رانسـوم قسّـاً، وليـس مـن رجـال الحاشـية.

فتحت كـورا البـاب؛ فانبعثـت رائحـة عطـر البـلاك ووتـر. كان هنـاك ضـوء أزرق عجيـب الشـكل فـي السـماء، وكانـت ترتجـف مـن البـرد، علـى الرغـم مـن أن الهـواء كان دافئـاً، ومـن أسـفل الطاولـة، رأى فرانسـيس كيـف أن أمَّـه تمـدُّ يدهـا لمصافحـة كل ضيـف مـن الضيـوف أثنـاء خروجهـم قائلـة: «شـكراً جزيـلاً.. شـكراً لكـم: عدونـا بأنكـم سـتعودون ثانيـةً!». كـم كانـت تبـدو مفعمـة بالحيويـة ومشـرقة، كمـا لـو أنهـا لـن تحتـاج إلـى النـوم أبـداً، مهمـا كان الوقـت متأخـراً.

غـادر ويليـام رانسـوم وزوجتـه متأبّطـة إحـدى ذراعيـه، وابنتـه متأبطـة الـذراع الأخـرى، (بـدأ فرانسـيس فـي تقشـير برتقالـة أخـرى)، وبـدا كمـا لـو كان يرتـدي معطفـاً مـن الـدروع، وبـدت كـورا؛ التي كانـت أكثر تألقـاً وحيوية، بشـكل مـا، وكأنهـا تقودهم جميعـاً إلـى السـاحة. لقـد أغلقـت البـاب، وصفقـت بيديهـا الاثنتيـن فـي رضـا، ولكـن بـدا واضحـاً لابنهـا اليقـظ، أن مقطوعـة موسـيقية نشـازاً قـد عُزفـت؛ كمـا لـو كانـت جوانـا لا تـزال جالسـة علـى البيانـو ذي النغمـة السـيئة. لمـاذا لـم يقل ويليام رانسـوم شـيئاً عندمـا خـرج، لمـاذا لـم تمـد والدتـه لـه يدهـا، فمـا الـذي جعـل مارثـا والقصيـر يتطلَّعـان إليهـا فـي صمـت الآن؛ كمـا لـو كانـت قـد أصابتهمـا بخيبـة أمـل؟ حسـناً.. زحـف مـن تحـت الطاولـة متسـائلاً: مـا الفائـدة التـي سـتتحقَّق مـن دراسـة الجنـس البشـري ومحاولـة فهمـه، فلقـد كانـت قواعـد دراسـته غيـر منضبطـة وغيـر مسـتقرة؛ كأنهـا ريشـة فـي مهـب الريـح.

بعد أن استلقى فرانسيس في الفراش، وهو يقرأ سلسلة فيبوناتشي، كما يقرأ أي طفل آخر حكاية من الحكايات، طفقت مارثا ولوك ينظفان الموائد، ويبسطان السجاجيد، ويهشّمان براعم الخزامى المتناثرة على الأرضية. كانت كورا باختصار مفعمة بالنشاط، قالت: «ألم تكن تلك ليلة طيبة، ألم تكن جوانا فتاة ماهرة، وإن لم تكن تحترف لعب الموسيقى؟»، ثم قالت: «إنها متعبة، وتحتاج إلى أن تذهب إلى فراشها، كانت صديقاتها قد رأينها تركض حافية القدمين على الدرج، وأصابهن الخوف جميعاً». قال لوك، وهو يشرب آخر ما تبقّى من شراب تشارلز الأحمر الجيد: «إنها تشبه الأطفال، أعتقد أنها كان بإمكانها أن ترى ما فعلوه»، وطوال تلك الفترة، كانت ستيلا هناك تراقب المشهد.

«يوميّاً كان اسم الكاهن يتكرَّر، ماذا كان يعتقد بهذا الأمر؟ كيف يمكن أن يضحك على ذلك؟ ولكن حقّاً ما الذي فعلوه، لم يكن شيئاً، لم ير أحد آخر شيئاً».

«وفي خطاباتها كذلك، في كل صفحة! ما الذي يمكنه أن يعطيه إياها؟ قسيس ريفي خائف من تغيُّر العالم، وإلى جانب ذلك، فإن لديه فعليّاً زوجة سخيفة، ألا تكفي هي، هل عليه أن يكون لديه كورا أيضاً!».

قالت مارثا وهي تقطف حبات العنب من عناقيدها، وترصُّها على الطاولة: «إنها تسيطر عليه»، وتابعت: «هكذا الأمر. لو كان الأمر بيدها لوضعته في برطمان زجاجي، وكتبت عليه باللاتينية، ووضعته على رف».

قال لوك: «كنت سأقتله لو استطعت»، وقد راعه مضمون

هذه العبارة، وهو يضم إصبعيه السبابة والوسطى؛ كما لو كان يشعر بأنه ممسك بمبضع بينهما، وتابع قائلاً: «إنها تذهب بعيداً عني...».

رمق كلاهما الآخر في تفحُّص واضح، وهما يشعران بموجة منحسرة من مشاعر التبلُّد، فبدا الهواء ثقيلاً، بعد إدراكهما عدم جدوى مشاعر الاشتياق التي انتابتهما، ولا توجد وسيلة لإشباعه.

وفي الغرفة ضعيفة الإضاءة، صارت عينا الجراح أكثر سواداً، وهو يراقب مارثا وهي تضع يدها فوق شعرها، وشاهد كيف ارتفع الثوب الأخضر فوق علامات الحياكة من أسفل ذراعها، وتحرَّك متجهاً نحوها، ولكنها ابتعدت متجهة إلى أسفل الدرج، قائلة له: «تعالَ معي» مدَّت يديها نحوه، وتابعت قائلة: «تعالَ معي إلى أعلى».

كانت النافذة في غرفتها مشرعة، والضوء يتهادى خافتاً على الجدار، وقالت له: «ربما تكون هناك آثار دماء»، فقال لها بدوره: «الأمر أفضل هكذا».

في الجانب الآخر من الساحة، في ظلال مدينة أول ساينتس، كانت جوانا نائمة مرتدية نعليها، وكانت ستيلا غافية، ورأسها على وسادتها الزرقاء الجديدة، وعلى بعد مسافة منهما، كان ويل يمشي وحيداً مقترباً من البركة، شاعراً بالغيظ. لم تؤرّقه الشهوة قط، لقد تزوَّج ستيلا صغيراً، وكانا سعيدين، وكان شوقهما بريئاً، ويسهل إشباعه. أوه، لقد أحب كورا، لقد علم ذلك فوراً، ولكن هذا أيضاً لم يؤرّقه أن كورا لو كانت صبياً، أو كانت أرملة، لكان أحبها بنفس القدر،

وأُولـع بعينيهـا الرماديتيـن؛ كمـا هـو الآن تمامـاً. كان دارسـاً للإنجيـل، وعلـم الأسـماء المتعـدّدة التـي أطلقهـا علـى ألـوان الحـب المتعـدّدة، لقـد قـرأ كلمـات القديـس بـول علـى الكنائـس، وكانـت عاطفتـه المقدسـة تنـادي باسـم كـورا، إننـي أشـكر إلهـي فـي كل مـرة أتذكـركِ فيهـا.

ولكـن كان هنـاك شـيء مـا يتحـرَّك فـي الغرفـة الدافئـة المنـدَّاة بالهـواء النضـر، والزهـور التـي أينعـت فـي كل جانـب مـن جوانـب الغرفـة، كان يضـع يـده علـى رسـغها، ويـرى فمهـا وهـو يتحـرَّك بينمـا تتحـدَّث. هـل كان هـذا كل شـيء؟ أو حينمـا انزلـق الوشـاح مـن علـى كتفهـا، ورأى الندبـة، وتعجَّـب؛ هـل كانـت لا تـزال تؤلمهـا؟ وكيـف حـدث هـذا، ومـا إن كانـت تهتـم للأمـر؟ وفكَّـر كيـف أمسـك بهـا، وحيـن سـمع صـوت أظفـاره وهـي تصـدر صوتـاً خشـناً حينمـا مسَّ ثوبهـا، وكيـف نظـرت هـي نحـوه بنظرتهـا الهادئـة الرصينـة الطويلـة، وظـنَّ أنهـا ربمـا كانـت تخشـاه بعـض الشـيء، ولكـن لا، ليـس الأمـر هكـذا؛ لـم يكـن الخـوف هـو مـا غيَّـر لـون عينيهـا، بـل التحـدي أو مشـاعر الرضـا ربمـا، هـل ابتسـمت حقّـاً؟

سـار متجهـاً نحـو مصـب النهـر، ولـم يعلـم كيـف يتصـرَّف فـي رغبتـه تلـك، فقـط أراد ألا يختبـر سـتيلا بهـذا، مـدركاً أنـه سيكتشـف للمـرة الأولـى، كـم هـي نحيلـة، ولـن تُرضِـي نزوتـه، حتـى إنـه توقَّـع مـا يشـبه المعركـة، فأرعبـه ذلـك، فاتجـه خارجـاً نحـو حافـة الميـاه، وأمضـى الوقـت وهـو يسـير بخطـوات متسـارعة فـي المسـتنقعات السـوداء، مُصـدِراً صوتـاً أشـبه بنبـاح الكلـب، شـاعراً بنفـس سـروره.

3

بعـد منتصـف الليـل بوقـت طويـل، وبعـد أن تخطَّـى العـام منتصفـه، خـرج فرانسـيس سيبورن، وقـد وضـع فـي جيبـه الأيسـر تلـك الشـوكة الفضيـة المأخـوذة مـن أطـلال كولشيسـتر، وفـي الأيمـن حَجَـراً رماديّـاً مثقوبـاً بفتحـة تلائـم إصبعـه الصغيـر، وفـي الطابـق العلـوي ترقـد كـورا، تضغـط علـى ندبـة بترقوتهـا، تتلمَّـس عـودة الألـم؛ وفـي غرفـة أخـرى، افتـرق لـوك ومارثـا. لـم يكـن هنـاك مـن يتذكـر فرانكـي علـى الإطـلاق، فكانـوا يتسـاءلون «أيـن فرانكـي»، بعـدم ارتيـاح تحـول تدريجيّـاً إلـى يقيـن بـأن هـذا الطفـل الغامـض يحفـظ لنفسـه الأمـان.

لـم يحـاول أحـد علـى الإطـلاق فهـم عـادة فرانكـي فـي المشـي ليـلاً؛ فقـد تـم التعامـل مـع الأمـر علـى أنـه إحـدى غرائبـه. لـم يكـن ممكنـاً لـه أن يتحمَّـل الصحبـة، ولكنَّـه كان يتـردَّد بيـن مداخـل غـرف النـوم فـي آخـر الليـل، لا لشـيء؛ إلا ليواكـب ذاك الصبـي المحيّـر. لـو أن هنـاك مـن سـأله، لأخبـره أنـه فقـط يحـاول فهـم العالـم، وكيـف يعمـل؟ لمـاذا مثـلاً تبـدو عجـلات سـيارة الأجـرة دائـرة عكـس اتجـاه انتقالهـا؟ لـم لا يُسـمَع اصطـدام مـا يسـقط علـى الأرض، حتـى يـراه يهبـط علـى الأرض؟ لـم يرفـع يـده اليسـرى، بينمـا يفكـر فـي رفـع اليمنـى؟ لقـد راقـب أمـه بطينهـا

وغبارها، ولم يرَ ما يربط بين مسعاه ومسعاها، وعندما كانت تنظر إلى الأسفل، كان ينظر إلى الأعلى. لم تكن ذات فائدة على الإطلاق. من بين جميع من قابله من رجال ونساء، كان يستطيع الصبر فقط على أفعال ستيلا رانسوم. لقد شاهد كيف جمعت أحجارها الزرقاء وزهورها، وكيف اعتقدت أن كلاً منهما يفهم الآخر، ورأى لون عينيها شديد اللمعان، وتعجَّب لِم لَم يتحدث أحد عن ذلك، لكنَّه لم يكن مثلهم فحسب، بل كان يرى ويلحظ.

خرج تحت ظلال القمر، ورأى كيف تتوازى تلك الظلال، متسائلاً: لماذا؟ أزعجه اضطراب المساء، لقد شاهده بعناية شديدة، لكنه لم يعثُر على أي سبب في ما رآه، وكونه خارجاً بالليل، فقد واجه العديد من المشكلات التي يمكن حلها بسهولة. كان يعتقد أنه قد ينزل إلى بلاك ووتر، ويرى بنفسه ما ينتظره هناك في المصب. لقد كان ظلماً له أنه وحده من بين أطفال ألدوينتر لم يرَ الوحش، ولا حتى في أحلامه. عبر غرفة الطعام، تحت بلوط تريتور إلى هاي لين اتجه شرقاً، بينما خفضت كل الأصوات نتيجة للاحتراق، طاردة المخاوف التي ألقتها الأرواح في العصر الحديث. كان شخص ما يعزف الكمان؛ ومرت عليه فتاتان بملابسهما البيضاء؛ بينما يشدو البلبل على السياج، وعندما وصل إلى هاي لين، سقطت غرفة الطعام، وأصدرت ضوضاء شديدة، وانبعثت رائحة الدخان من الخشب المحترق، بينما كان هناك عواء بجانبه، ويبدو أنه قد أصبح وحيداً في العالم.

وصل إلى الأهوار على مرمى البصر في نهاية العالم، ففكَّر في العثور على النقطة التي يعلق فيها النجم القطبي

في السماء، أو رؤية القمر وهو يمنح ضوءه المزيف، ولكن واجه بدلاً من ذلك ورقة سوداء، مخيطاً عليها شبكة زرقاء زاهية. كان الأمر يبدو كما لو أنه لم يكن ينظر إلى السماء المقبَّبة، ولكن للأسف، إلى سطح بحيرة، وضوء الشمس ينعكس على تموُّجاتها. من الشمال إلى الجنوب فوق الأفق الشاحب، قطع صغيرة من الضوء الأزرق معلَّقة، وبينها تظهر السماء الزرقاء الداكنة بين الحين والآخر؛ كما لو كانت عالقة بالرياح، وعندما تمر الرياح، تتسع الشبكة الساطعة وتضيق. لم يكُن الضوء الذي أطلقته السماء مستعاراً، مثل سحابة بيضاء حلَّقت في ضوء الشمس، ولكن بدا حقيقياً، ربما كان هناك عديد من أسهم البرق الرقيقة المثبَّتة في مكانها، تحترق بزرقة لا يمكن تفسيرها. كان فرانسيس مرتبكاً بالفرح الذي غمره فجأة، وبالكلية، لم يتمكَّن من فعل شيء سوى الضحك، خائفاً من غرابة فرحته.

وبينما كان يقف ليراقب، رافعاً رقبته عالياً، بحيث تتساءل والدته في الصباح، لماذا يبقي رأسه مرفوعاً بغرابة؟ لمحت عيناه الأرض الملحية المسطحة. جعلت الأضواء الزرقاء، العالم أكثر إشراقاً مما كان يجب أن يكون عليه، وكشف سطح المصب عن زيت أسود، به زخَّات زرقاء على السطح. بين حافة الماء والشاطئ، وليس بعيداً عن العروق المعدنية لليقياثان، تحركت قطعة من القماش. كان هناك صوت ضعيف جدّاً؛ مثل نخير حيوان؛ تمدَّدت صُرَّة على الوحل، ثم سكنت.

التفت فرانسيس بفضوله ليشاهد، ناظراً خلال الهواء الضبابي. كان هذا هو وحش بلاك ووتر، في اعتقاده، إنه لشيءٌ مثيرٌ للشفقة، ويجب أن يغرق. توقف النخير لفترة

قصيرة، بينما كانت الصرَّة تتجه نحو ليڤياثان، ثم عاد الصوت من جديد؛ إلا أنه انتهى هذه المرة إلى سعال، ثم إلى لهاث الطويل في الهواء.

اقترب فرانسيس، غير خائف، أكثر فأكثر. اهتزت الصرة، ثم رفعت نفسها متأوهة، ورأى فرانسيس طبقات دهنية من معطف أسود ذي عنق من الفرو الكثيف، وفوقه رأسٌ بريٌّ لرجل عجوز، رآه مرة أو مرتين في الكنيسة؛ حيث دُفِن القرويون. كراكنيل، كان ذاك، لقد كان شيئاً قديماً كريه الرائحة ذات مرة، كان يرفع كمَّه، فرأى الصبي آفة مسرعة تحته. انتهى التأوُّه بنوبة من السعال؛ التي سرعان ما زادت مرة أخرى، أمسك بمعطفه قريباً، ثم سكن.

رأى كراكنيل، وحذاؤه بطرف الماء، ونظره يتلاشى، الفتى الرفيع ذا الشعر الأسود الممشَّط بدقة، وهمَّ أن ينادي. كان الأمر كما لو أن الهواء له حواف تعلق في حلقه حال تنفسه، وفي كل مرة، كان الاسم يأتي على فمه (فريدي، أليس كذلك؟)، ويبدأ السعال من جديد، في النهاية؛ عاد إليه نفَسُه؛ فنادى: «يا ولد! ولد!»، وأومأ إلى فرانسيس، مترنّحاً على الطريق على نحو خمس عشرة قدماً.

قال فرانسيس: «أنا لا أعرف ما تفعله». ما الذي كان يفعله؟ يموت، ربما، ولكن يا له من مكان غريب للموت فيه، وقد توفّي والده في شراشف بيضاء نظيفة، ممدَّدة حتى ذقنه. التفت لحظة للبحث هناك، اتسعت الشبكة في بعض الأماكن، وتحطَّمت في بعضها الآخر، وظهرت السماء قاتمة الزرقة بين شظايا الضوء.

قال كراكنيل: «فلتبحث لك عن أحد»، وبعدها انغمس مطوَّلاً في التمتمة أو الغضب أو التفكُّه، مثقلاً فرانسيس بوهج مستشيط من الغضب.

جثم فرانسيس ممسكاً ركبتيه، وراح يتفحَّص كراكنيل باهتمام طفيف. استقرت فراشة في نسيج ياقة معطف الفرو، وفي أماكن أخرى، تبدو على النسيج بقع شاحبة، يبدو بها عفن (هل يمكن للعفن أن يعلق بالملابس؟ يصر أن يعرف). قال كراكنيل: «رانسوم» الذي لم يرغب في تقديم اعترافه الأخير، لكنه لم يكن يظن أن وجهه اللطيف، هو آخر ما ينظر إليه. مد يده يجذب معطف الصبي، يقصد القول «من فضلك»، لكنه كان مجهداً أكثر من اللازم.

أمال الولد رأسه عندما سمع الاسم. قال: «رانسوم؟»، وافترض أن له معنى، وقد زار الرجل ذو الشريط الأبيض على عنقه، ثلاثة قرويين في الأسابيع الماضية (وقد أحصاهم)، مات منهم اثنان على الأقل. هل جلب إليهم الموت، أم أدناه منهم فقط؟ وافترض أنه الأخير، ولكن كان من المهم له أن يتأكَّد من ذلك، وعندما فحص الرجل العجوز، رأى فرانسيس رغوة تتجمَّع في زوايا فمه، وخلف ظهره من داخل المعطف. حتى في الظلام القريب، كان من الممكن رؤية جسد الرجل يأخذ شكلاً شمعيّاً، وبالفعل يظهر اللون الأزرق على العظام حول عينيه. كان اعتياديّاً ومثيراً في آنٍ واحد، ربما كان هذا هو الحال؛ عندما توشك على الموت.

اكتشف كراكنيل أنه لا يستطيع التحدُّث، إنه يضيع أنفاسه التي أخذها من الهواء البارد. ما الذي كان يفعله

الفتى، يجلس خلفه في هدوء، يتحوَّل بين الفينة والفينة، ينظر ويبتسم، يفعلها كل مرة؟ يترنَّح قلبه في تجويفه. من المؤكد أنه سيرحل راكضاً الآن، لاحقاً برانسوم؛ الذي سيأتي بمصباح وبطانية سميكة؛ ليضعها على أطرافه المرتعشة، لكن فرانسيس الذي كان يعرف ما هو قادم، لم يرَ فائدة من إضاعة الوقت. إلى جانب ذلك، أدهشه أنَّ تقاسُم العجب الذي يدور في رؤوسهم، قد لا ينقص من سعادته، لكنه يضاعفها. انحنى فوق الرجل، وقال: «انظر»، وأخذ حفنة من الشعر الرمادي المتدلّي على رأسه؛ بحيث لم يكن أمام كراكنيل خيار سوى الابتعاد عن بلاك ووتر، وما كان يظن أنه الجنَّة. قال الولد: «انظر»، ورأى أعين الرجل العجوز تتلألأ ويتسع فمه. كانت بقايا السحابة الساطعة تتلاشى مع طلوع الفجر، لكنها تجمَّعت في قوس شاحب يقسم السماء، وبينما كانوا يشاهدون قبة السماء، حلَّق طائر «القبرة» يشدو بنشوة.

ثم رقد فرانسيس بجانبه في المستنقع، ولم يهتم بالطين يسري خلال ملابسه، أو الرائحة المنبعثة من جسد الرجل المسن، أو ببرد الصباح. تتلامس رأساهما بين الحين والآخر، بينما كان كراكنيل يحاول، في ذهول، إدارة رأسه، لينظر في عينيه، وأحياناً كان يغني مقاطع من ترنيمة: «إنه جيد لروحي»، حتى تقل شكوكه بأنه فارق الحياة. عندما فارقته الحياة، كان يتنفس نفساً طويلاً غير مرتبك، وربت فرانسيس على يده وقال: «لا عليك، لا عليك»، وهو يشعر برضا تام، لأن ما أحبه فوق أي شيء آخر؛ هو أن تسير الأمور كما كان يعتقد لها أن تكون!

2، ذا كومون
ألدوينتر
22 يونيو

عزيزي ويل،

إنها الساعة الرابعة صباحاً، ها هو فصل الصيف قد بدأ، لكنني لاحظت شيئاً غريباً يظهر بالسماء، هل رأيته؟ إنهم يطلقون عليها الغيوم البراقة. ربما هذا طالع آخر!

فمنذ زمن طويل، قلتِ لي كم كنت حزيناً على فقدان زوجي في سن صغيرة، كما أتذكَّر أنني تمنيت لو أنك ذكرت أنه مات، إنني لم أفقده، فهذا لم يكن خطئي.

فلماذا كنت حزيناً؟ إنك لا تعرفه. إنك لا تعرفني. أعتقد أنك تعلمت منهم هذه العبارات؛ عندما كانوا يعطونك أول قلادة بيضاء.

كيف لي أن أخبرك كيف سار الأمر، ليس الموت فحسب (هل ترى كيف من السهل قول ذلك!)، ولكن كل شيء قبله.

كانت مشاعري متناقضة إثر وفاته؛ هل تصدّق ما أشعر به، فهل من الممكن أن تحمل بداخلك شعورين متناقضين تماماً، ورغم ذلك؛ فكلاهما في منتهى الصدق. أعتقد أنك

لا تُصدّق، فإنني أعتقد أن رأيك في الحقيقة المطلقة والحق المطلق، أمر لا يمكنني فهمه.

لقد شعرت بالصدمة لأنَّني لم أكن أعرف أي طريقة للعيش غير هذه، فلقد كنت صغيرة السن عندما تزوَّجت، صغيرة السن عندما التقينا، حتى إنه كان يعتبِرني أصغر من إدراك أي شيء، فهو من شكَّل شخصيتي الحالية.

وفي نفس الوقت تماماً، شعرت بسعادة غامرة، بل وظننت أنني لا أستطيع التعايش؛ ولو مع قدر قليل منها من دون أن أحترق، فعندما التقينا، كنت أسير وسط الأشجار، وكنت في غاية السعادة.

فبمجرد أن قابلت تلك السيدة؛ التي حدَّثتني عن زوجها الذي عاملها كالكلب، فهو يقدم لها الطعام في طبق على الأرض، وعندما ذهبا للسير معاً، طلب منها أن تقف على كعبيها، وعندما تحدثت دون إذن، قام بطي الجريدة التي كان يقرأها، وضربها على أنفها، وكان ذلك على مرأى ومسمع من أصدقائها، فضحكوا وأعربوا عن مدى إعجابهم بظُرفِه.

هل تعرف بماذا أحسست عندما سمعت قصتها؟ شعرت بالحسد، لأنني لم أُعامل مثل الكلب قط، فلقد كنا نقتني كلباً، كائناً تعساً، فعندما التقطت قرادة كانت على فروته، تهشَّمت مثل حبة التوت، ثم جذبه مايكل ووضعه بين ركبتيه، غير مبالٍ بلعابه السائل، أو حتى ركلاته، ثم نظر إليَّ، ففي بعض الأحيان، كان يلطم خصره مرات ومرات، وبشدة، يا له من صوت أجوف، وكان الكلب يقفز بمنتهى النشوة، وعندما كان مايكل يحتضر، لم يكن يغادره، وربما لم يستطع تقبُّل موته.

لم يلمسني قط بحنان. كنت أنظر إلى الكلب وأحسده. هل تتخيَّل أنني أشعر بالغيرة من الكلب؟!

إنني سأعود إلى لندن لفترة ما. لن أذهب إلى شارع فوليس: فلم يعُد لي منزلٌ هناك، وسوف يعتني تشارلز وكاثرين بي.

ليس عليك الكتابة لي.

بكل الحب،

كورا

ملاحظة: بالنسبة إلى ستيلا؛ من المتوقَّع أن تتسلَّم خطاباً من الدكتور غاريت. لا تتردَّد في طلب المساعدة.

4

ذهبت جوانا إلى مدينة أُول ساينتس في الصباح فوجدت والدها هناك، وسارت الليلة على ما يرام. تذكَّرت كيف استغرقت هي ومارثا وقتاً طويلاً في التخطيط لشراء بيت جديد بلندن؛ حيثما تتوافر المياه النظيفة التي تصل عبر المواسير النحاسية، فكانت تعزف على البيانو كثيراً، وكانت ترتدي أفضل ما لديها، وكانت تأكل البرتقال (ولا تزال أظفارها متسخة من القشرة)، بالطبع أنهكت أمها، وكان أبوها صامتاً هذا الصباح، ولكنه قال إنه لا يزال لديه الكثير ليفكّر في فعله.

فوجدته ينحني في الظلال حاملاً الإزميل في يده، وبخطواتٍ غاضبة، تعامل مع الأفعى التي كانت تلتفُّ حول مقبض مقعده؛ فمنذ سنوات عدة، كان شجر البلوط بإسكس متحجّراً ومسودّاً، ومع ذلك طوت الكائنات الآتية من بعيد أجنحتها، واستلقت على الأرض الحجرية، بابتسامة عريضة بوجه الأعداء، مظهرين أسنانهم.

قالت جوانا: «لا!»، تخيَّل تكسير أحد أغراضك الذي كلَّفك جهداً كبيراً، وهرعت إلى المقعد؛ جاذبةً كُمَّ قميصه قائلة: «لا يمكنك فعل ذلك! فهذا ليس ملكك!».

فـرد قائـلاً: «أنـا المسـؤول! وسـوف أفعـل مـا أراه مناسـباً!»، كان ردُّه ينـمُّ عـن تغيُّـر مـا بداخلـه، كان مثـل هـذا الصبي الـذي لا يسـتطيع اختيـار طريقـه؛ وفجـأة، وكأنـه لاحـظ حـدَّة رده، سـوَّى قميصـه قائـلاً: «هـذا ليـس جيداً يـا جوجـو، إنـه لا ينبغـي أن يكـون هنـاك؛ انظـري.. ألا تريـن أنـه لا ينتمـي إلـى هـذا المـكان؟».

اسـتدارت جوانـا وبالـكاد اسـتطاعت أن تمشـي ناظـرًة إلـى الأجنحـة المقطَّعـة، وبكـت قائلـة: «كان يجب أن تكسـر الأغـراض! هـذا غيـر مسـموح!».

كانـت دموعهـا عزيـزة أكثـر مـن أي يـوم مضـى، وربمـا بالـكاد بلَّلـت يديـه بهـا، أمـا ويليـام رانسـوم، فلقـد كان يعانـي مـن أعدائـه، وكان يمكـن أن يدمّـر هـذا العـدو علـى الأقـل، لقـد أتـوا إليـه طـوال الليـل بـلا نوم؛ الطبيـب الرابـض ذو الحـواجب السـوداء، وكـراكنيل مرتديـاً فـراء الحيوانـات، وغرفـة مليئـة بالتلميـذات الغارقـات فـي الضحـك، وبلـدة بـلاك ووتـر التـي تحتفـل، وهـا هـي كـورا تقـف باعتـدال علـى الطيـن، مختبئـة وراء دقـات قلبهـا، خلـف البشـرة المبلَّلـة بأفعـى إسـكس... غمـز بعينيـه قائـلاً: «عـودي إلـى البيـت يـا جوانـا، عـودي إلـى كتبـك الدراسـية، ولا تتطفَّلـي».

وقفـت جوانـا معتدلـة بجـواره، ووضعـت قبضـة يدهـا فـوق رأسـه المنحنـي، شـاعرًة ـولأول مـرةـ بثـورة غضـب عارمـة لطفـل يعـرف نفسـه أكثـر؛ وربمـا أكثـر مـن والديـه، وخلفهمـا كانـت الكنيسـة تفتـح أبوابهـا شـيئاً فشـيئاً، ودخـل الضـوء، وهنـاك كانـت تقـف ناعومـي ذات الشـعر الأحمـر، فلقـد كانـت تلهـث مـن كثـرة العـدْو، وامتـلأت يداهـا بالطيـن؛ حتـى وصـل إلـى مرفقيهـا. قالـت: «حـدث ذلـك مـرة أخـرى!»، وكان صوتهـا يمـلأ

القبو. «لقد أتى مجدداً، لقد قلت لك إنه سيأتي، ألم أقل لك! ألم أقل لك!».

ومع وصول ويل إلى المستنقع؛ حيث تتجمَّع حفنة من الأشخاص حول صرَّة ملقاة على الأرض، فقد كانت رأس كراكنيل تميل إلى اليسار، وإلى الأعلى قليلاً، والناس يتابعون وينظرون باحثين عن وجه مدمّره، فقد قالوا إن الأمر في غاية الوضوح، فرقبته كانت مكسورة. قال ويل: «انتظر الطبيب الشرعي»، مائلاً بجسده ناظراً إلى عائلته: «هل كان مريضاً»، فهناك شيء ما يظهر على سترته، موضوعاً بدقَّة على بطنه وبين الجيبين الممزَّقين، حيث اخترقت شوكةٌ فضيةٌ وحجرٌ رماديٌّ جسده، ثم قال: «من فعل ذلك به؟»، ناظراً إلى الموجودين: «من وضع تلك الأشياء هنا، ولماذا؟». تراجع الجميع، واحداً تلو الآخر، غير معترفين بأي شيء، قائلين إنهم كانوا يعرفون جيداً أن شيئاً ما هناك، وأنهم يُحكِمون غلق أبوابهم كلَّما بدأ المد في التزايد. مرَّت سيدة كانت قد طُرِدت من التدريب بسبب ممارسة الشعوذة، فنظر إليها الكاهن نظرة حادة.

قال بانكس: «تمَّ قطع أحد أزراره النحاسية»، مربّتاً على رأس ابنته، ولكن لم ينتبه أحد: «إنها معجزة، فلم يكن لدى كراكنيل أية أزرار على الإطلاق».

قال ويل: «مات أحد الأصدقاء بسبب مرضه، والآن انتقل إلى الأمجاد السماوية»، وأكمل متمنياً أن تكون هذه الحقيقة: «فلقد كان سيخرج لاستنشاق الهواء النقي ليلاً، أو فقد طريقه أو ارتبك، فهذا ليس الوقت المناسب للتحدُّث عن الأفاعي

والوحـوش، هـل أرسـل أحدهـم فـي طلـب الطبيـب؟ شـكراً، نعـم، قـم بتغطيـة وجهـه.. دعـه يرقـد فـي سـلام، أليس هـذا هـو كل مـا نتمنـاه فـي النهايـة؟».

وفـي إحـدى المناطـق المحيطـة، وقـف فرانسـيس سـيبورن وسـط تجمُّـع صغيـر، الآن يربّـت علـى جيـب سـترته؛ حيثمـا يحتفـظ بـزرّ لامـع منقـوش عليـه شـكل المرسـاة. بـدأ أحدهـم بالبـكاء، ولكـن فرانكـي لـم يعـد يعبـأ، فلقـد كان ينظـر إلـى الأفـق، حيـث امتلأت السـماء بالغيـوم الزرقـاء، فلقـد كانـت تشـبه سلاسـل الجبـال التـي تنحسـر بيـن الضبـاب، وفكَّـر أنـه ربمـا خرجـت البلـدة بأسـرها بعيـداً عـن إسـكس، ووُضِعَـت بعيـداً فـي دولـة أجنبيـة.

عزيزتي كورا- رأيت هذه البطاقة البريدية، وذكَّرتني بكِ- هل تحبينها؟

لقد استلمت خطابك، أشكرك.. سأكتب لك قريباً.. ستيلا ترسل تحياتها..

كأي وقت مضى،

ويليام رانسوم

فيلبيانس 1: 3- 11.

الطبيب لوك غاريت
مستشفى رويال بورو التعليمي
23 يونيو

عزيزي رانسوم:

أتمنى أن تكون بخير. أكتب لك في ما يخصُّ السيدة رانسوم؛ التي قابلتها مرتين، في كلتا المناسبتين لاحظت ما يلي: درجة حرارتها مرتفعة بشكل ملحوظ. زيادة اللون في الخد، واتساع حدقة العين، وسرعة ضربات القلب وعدم انتظام، وطفح جلدي على ساعديها.

أعتقد أنها أيضاً تعاني من الهذيان بدرجة صغيرة.

أنصحك بشدة بإحضار السيدة رانسوم إلى مستشفى رويال بورو، حيث تعلم أنني موظف فيها، وقد عرض زميلي الدكتور ديفيد بتلر فحصها، ولديه خبرة كبيرة في أمراض الجهاز التنفسي، وسأحضر الفحص من بعد إذنك، وقد تُجرَى لها بعض العمليات الجراحية.

ليس من الضروري حجز موعدٍ.. نتوقَّع منك الحضور في أقرب وقت ممكن.

تفضلوا بقبول فائق الاحترام،

الطبيب لوك غاريت

القس ويليام رانسوم
ذا لودج، ألدوينتر
إسكس
24 يونيو

عزيزتي كورا:

أتمنَّى أن تكوني بخير.. لم أتمكَّن من الكتابة إليكِ من قبل، على الرغم من رغبتي في ذلك، هناك حدث سيئ؛ رحل كراكنيل.

لماذا أضعه هكذا؟ كنت أعرف أنه مريض. جلست معه قبل يوم من وفاته، أراد مني القراءة له، لكنَّنا لم نتمكَّن من العثور على كتاب واحد في المنزل، باستثناء كتابي المقدَّس، وهو بالطبع لا يريده، في النهاية قرأت له «الثرثرة»، وجعلته يضحك، ووصفها بأنها «وجبة خفيفة!»، وأعتقد أنها مضحكة جدّاً.

وجدناه على المستنقع. كان المد قادماً، وقد وصل إلى حد حذائه، ويبدو أنه كان ينظر إلى شيء في الأعلى، وعلى الرغم من أن الطبيب الشرعي يقول إنه لا توجد أي لعبة سيّئة، فإنه كان هناك طوال الليل. أشعر أن الدنيا دونه تغرق في الوحل. قرَّرت جوانا أن علينا حراسة مأجوج (أو ربما جوج)، وضعت حبلاً حول عنقها، وسارت على طول الطريق إلى المنزل، وهي في الحديقة الخلفية تأكل أزهار ستيلا. إنها تنظر إليَّ الآن، وأنا لا أحب أعينها المشقوقة.

القرويون في ضجَّة عارمة.. إنهم يحرسون أطفالهم، في الليلة التي حدث فيها هذا، قالوا إن ضوءاً غريباً أزرق قد بدا في السماء، امرأة واحدة (والدة هارييت الصغيرة، هل تتذكَّرينها؟) ظلَّت تقول إنه تم اختراق الحجاب، ولم أستطع إخراجها من الكنيسة. لقد استيقظت في المنبر، أُعطيت نصف فرصة، تخيلي لو رأت فاتا مورغانا، كما فعلنا! كان بدلام هو أكثر ما كنَّا نأمله.

كان شخص ما يشغل حدوات الخيول في أوك ترايتور (ربما كان إيفانسفورد؛ الذي يستمتع بأن يشعر بالخوف كثيراً)، وقد أحرق أحد المزارعين محاصيله. أنا لا أعرف ما يجب القيام به. هل نحن تحت رحمة القدر؟ وإذا كنا، فماذا فعلنا، وكيف يمكننا التكفير عنه؟ قبلت هذا القطيع، وحاولت أن أكون راعياً صالحاً، ولكنَّ شيئاً ما قادهم إلى الجرف.

كتب الطبيب في رسالة أنه رجل حازم.. لم أستطع الرفض. سنسافر إلى لندن الأسبوع المقبل، على الرغم من أن ستيلا تبدو أفضل في الآونة الأخيرة، وتنام طوال الليل.

ولكن على الرغم من ذلك، أشعر بالقلق، أظهر لي الدكتور غاريت ماذا سيفعل للرضَّع والنساء إذا تركوه، وقد أمرضني ذلك، ليس الجروح والغرز، ولكن كم هو مهمل. أخبرني أنه إذا آمنت بالروح الخالدة، فلن أكون أكثر تبجيلاً لنفسي أكثر من تقديسي لأرنب! قال: «نحن جميعاً رسل فقط». أخبرني أنه منذ أن بجَّل العلم، فقد عرف قدر الأوعية والجسيمات والخلايا التي تصنعنا، وبهذا صرت أنا الهمجي!

منذ أن رحلتِ، كنت أقرأ مثل الطالب.. آمل ألا تفكّري

أنني فخورٌ للغاية بفهم أفكاري، لأطلب منهم ذلك. ماذا قال لوك؟ نحن جميعاً قصار النظر. أعتقد أني أحتاج إلى نظارات، مع عدسات بسمك ثلاث بوصات أكثر من أي وقت مضى.

لن أقبل أن يكون إيماني هو ذلك الإيمان بالخرافات. أظن أنكِ تحتقرينني لذلك قليلاً، وأعلم أن طبيبك يفعل ذلك! وأتمنى أن أتمكَّن من التخلص من إيماني؛ حتى أرضيك، لكنه إيمان العقل، وليس الظلام. لقد أبطل التنوير كل ذلك. إذا كان هناك مبدع قد جعل النجوم في مكانها، فيجب أن نكون قادرين على الفهم، ويجب أيضاً أن نكون أصحاب بصيرة ونظام!

كورا، يوجد المزيد، يوجد أكثر إلى جانب حساب الذرات وحساب مدار الكوكب وعدّ السنوات، حتى وصول مذنَّب هالي إلى مداره، شيء يدق فيناً إلى جانب النبض. هل تذكرين الرجل الفرنسي الذي ربط حمامة إلى لوحة فوتوغرافية وقطع حنجرتها، وأعتقد أنه أمسك برباط من الروح يهرب من خلال الجرح؟ سخيف بالطبع، وحتى الآن، ألا ترينه هناك، يمسك بسكينه، وتتخيَّلين كيف كان يعتقد أنه يمكنه فعل ذلك؟!

كيف يمكنك أن تحسبي هذا؟ كيف يمكنك تفسير مدى انتباهي وحبي عندما ألجأ إلى المسيح؟

وكيف تحسبين شوقي إليك؟ كورا، لقد كنت راضياً. كنت قد وصلت إلى نهاية كل شيء جديد، لم يكن لديَّ أية مفاجآت، ولم أبحث عن أي شيء. كنت أسعى وراء

هدفي، وكنت هناك، ومن شعرك غير المرتَّب، إلى ملابسك التي تشبه ملابس الرجال، وإذا سمحتِ لي، لم يعجبني أبداً مظهرك، ولكن يبدو أنني قد علمتُ عنك بقلبي، من المرة الأولى التي عرفتك فيها، كان لديَّ الحرية أن أقول لك كل شيء لم أكن لأقوله في مكان آخر، وكل هذا بالنسبة إليَّ هو «جوهر الأشياء» التي أتمناها، والدليل على الأشياء التي لم أرَها! هل عليَّ أن أخجل أو أنزعج؟ أبداً.. أنا أرفض أن أكون كذلك.

كيف يعجبك ذلك، أنت ملحدة، أنت مرتدة؟ لقد دفعتني إلى الله.

بالحب، والصلاة، سواء أعجبك ذلك أم لا!

حسناً.

القس ويليام رانسوم
فندق ألدوينتر
إسكس
30 يونيو

كـورا، لـم يكـن لـديَّ أي رسـالة منـك، هـل تحدَّثـت بحريـة أكثـر؟ أم لـم أكـن أتحـدث بحريـة أكثـر؟

أخشـى علـى سـتيلا، فـي بعـض الأحيـان أعتقـد أن عقلهـا يتسـاءل، ثـم تعـود إلـى نفسـها القديمـة، وتقـول لـي كيـف أن أوسـيث لديـه نائـب جديـد، وليـس لديـه زوجـة بعـد؟ أو كيـف يوجـد متجـر جديـد مفتـوح فـي كولشيسـتر، والمعجّنـات تأتـي مباشـرةً مـن باريـس؟

تكتب طوال اليوم في كتاب أزرق؛ لم تدعني أرى.

غداً نذهب إلى لندن، فكّري فينا على حد سواء.

بركة المسيح،

ويليام رانسوم

5

ارتعشت ستيلا تحت سماعة الطبيب، وتنفَّست كما أمرها، بأقصى ما تستطيع، ولم تمانع في السعال. عندما جاءت النوبة؛ لم تكن واحدة من أسوئها، ولكنها كانت سيِّئة بما فيه الكفاية، لقد ألقى بها السعال إلى الأمام، وأنزلت القليل من البول، وطلبت منديلاً جديداً.

قالت وهي تضرب على فمها، وتشعر بالأسف على الرجال الثلاثة الذين يقومون بفحصها بصعوبة: «لم يكن الأمر دائماً سيئاً للغاية». هل هم أنفسهم لم يمرضوا؟ كان هناك «ويل»؛ الذي بالكاد يستطيع النظر إليها، وكان هناك القصير؛ الذي وقف بعيداً في الزاوية، نظرته السوداء، حتى من تلك المسافة، لم تفقد أي شيء من المشهد. هناك أيضاً الدكتور بتلر، أكبر الرجال سنّاً وأكثرهم كرماً، والذي وقف في أدب على جانب السرير، ساحباً السماعة الطبية، وبيده اللطيفة شدَّ بلوزة مريضته إلى مكانها، وقال في نفسه: «إنه مرض السل بلا شك، كما أكد لي لوك، إن آثار الحمرة بدأت تظهر على خد المرأة، على الرغم أننا من الطبيعي أن نأخذ عينة من البلغم، من أجل أن نكون على يقين». لحيته البيضاء الكاملة، رسمت ملامح وجهه، مع رأس أصلع تماماً

(قال عنه طلابه إن أفكاره التي تحرَّكت بهذه السرعة على مر السنين، جعلت نمو شعره مستحيلاً).

قالت «ستيلا» وهي تمسك بمنديلها، وتهمس إلى النساء البالغات هناك: «هذا هو قائد رجال الموت». لم تكن هناك حاجة إلى كل هذا العناء، إذا سألني أحدهم عن حالتها؛ لكنت أخبرتهم منذ أشهر أن لديها السل. أظهرت النافذة العالية المفتوحة، انقسام السماء البيضاء، لتظهر قطعة من اللون الأزرق. قالت بكل سرور: «لقد فعلت ذلك بنفسي»، (لكن لم يسمع أحد).

«مؤكد؟ كيف؟». قال ويل متسائلاً عما إذا كانت الغرفة قد أظلمت في تلك اللحظة، أو إذا كان ذلك الرعب الذي انتابه فقط هناك تحت الأريكة، حيث لا تزال تبتسم، يتخيَّل شيئاً في الظلال المتحرّكة، ومعه رائحة النهر. «كيف يمكنك أن تكون متأكداً؟ لم يكن هناك مرض السل في عائلتها ـ لا شيء ـ ستيلا، يجب أن تخبريهم، ولكن كيف كان يمكن أن يكون قد أغفل هذا؟ هل كان بالفعل أعمى بسبب ما أتى إلى ألدوينتر؟ الإنفلونزا»، قال الطبيب: «لقد أحاط بالقرية، وأصبح الجميع بعدها ضعيفاً».

قال لوك: «العائلة لا علاقة لها بهذا، إنه لا ينتقل من الأب إلى الابن. إنها مجرد بكتيريا السل، ليس أكثر من ذلك. لقد تكررت كراهيته لـ «ويل»، وقد قال ذلك بدقة بالغة: «البكتيريا والقس، هي كائنات دقيقة يمكن أن تحمل الأمراض المُعدية».

«أريد أن أكون على يقين»، قال الدكتور بتلر مرة أخرى، وهو يلقي نظرة مضطربة على زميله الذي من المؤكد أنه لم يكن معروفاً بأخلاقه، ولكنه نادراً ما يكون وقحاً للغاية:

«السيدة رانسوم، هل يمكن أن تتحمَّلي السعال مرة أخرى، فقط قليلاً، والبصق في طبق؟».

قالت ستيلا بقليل من المزاح: «لقد ولدتُ خمسة أطفال، اثنان منهم ماتا.. البصق ليس شيئاً بالنسبة إليَّ». لقد أحضروا طبقاً صلباً، ظهرت من خلاله صفحة السماء بوضوح، طمسته بمواد بنية من رئتيها بشكل مؤلم، وأعطته للدكتور بتلر؛ مع هزَّة لطيفة برأسها.

«ماذا ستفعل بها؟»، قال ويل: «كيف ستساعد؟»، وكيف كانت غافلة عن كل ذلك، ما مدى هدوئها! لم يكن أمراً طبيعياً، فقد كان نوعاً من الهستيريا، ألم يكن عليها البكاء، وأن تطلب الجلوس بجانبها وإمساك يدها؟

قال الدكتور بتلر: «يمكننا الآن صبغ العصيات، بحيث يمكن رؤيتها بسهولة تحت المجهر»، وقد جعله الحماس نشيطاً: «وقد يكون ذلك خطأً، وقد تكون السيدة رانسوم مصابة بالتهاب رئوي أو بمرض أقل خطورة».

فكَّرت ستيلا «تحت المجهر!». كانت جوانا ترغب في أن تقتني مجهراً؛ لترى بنفسها كيف يتم بناء الخلايا في التفاح والبصل، تماماً مثلما تُبنى المنازل بالطوب. «أريد أن أراها»، قالت «أريدك أن تريني».

لم يكن ذلك طلباً غير عادي، حسب اعتقاد الدكتور بتلر، حيث كان الشباب يرغبون في النظر إلى عين العدو مباشرة. من كان يظن أن هذه المرأة البسيطة بشعرها الفضي، ستكون متفائلة، على الرغم من أنه كان نوعاً من الهذيان، بالطبع حالة الفضول التي وصل إليها كثير من المرضى، قد وصلت هي إليها مبكراً.

وقال: «إذا كان بإمكانك الانتظار لمدة ساعة، فسوف أحضرها لك»، مع رؤيته بأن الزوج بدأ في التراجع: «على الرغم من أنني آمل بالطبع، ألا يوجد شيء يمكن رؤيته».

قال ويل متوسلاً: «ستيلا، هل تحتاجين إلى ذلك؟». لقد كان كل شيء يحدث بسرعة، بالتأكيد مرت دقائق فقط منذ أن سافر إلى منزله في الشتاء من نهاية العالم، مع هدية كراكنيل من الأرانب المتدلّية من حزامه، ورأى عائلته منتظرة بإشراق، والآن، كل شيء تبعثر في الهواء. أغلق عينيه ورأى في الظلام عيني أفعى إسكس اللامعة، مبتهجة.

قالت ستيلا بدافع الشفقة: «صلُّوا من أجلي»، ولأنها أرادت ذلك. غادر الدكتور بتلر مع الطبق المغطَّى، وتبعه مساعده؛ سوف يجلس بجانب كرسيها، ولكن أين مكان الصلاة؟ هل هو هناك من بين القناني والعدسات التي لم تلتقط كل الألغاز؟ ما الذي يجب عليه الصلاة من أجله؟ إلى جانب ذلك، يجب أن يكون المرض قد استقر هناك منذ فترة طويلة، بينما لم يعرفوا ذلك، هل المطلوب أن تعود الساعة إلى الوراء، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تتوقَّف عند هذا الحد؟ لماذا لا نطلب أن يعود كل موتى ألدوينتر إلى الحياة مرة أخرى؟

هل ستيلا متميّزة حقّاً، ويتدخَّل الرب لينقذها مما هي فيه؟ ولكن كانت هناك كلمات تلميذ الأحد المؤذي، الذي كان يعلم أن صلواتهم لم تكن من أجل الخير، وإنما للخضوع، وقال: «لتكن إرادة الرب، وليست إرادتنا نحن، يمنحنا الرب النعم!».

عندما رجعوا، كان الأمر صعباً، وتم أخذ ويل جانباً، كما لو كان مرضه، وليس مرضها. تم نقل الرسالة مثل لعبة همسات

الصينية، بحيث لا يصل إليها الصوت، غير أنه وصل إليها: «حبيبتي، أنت لست بخير، ولكنهم سيساعدون»، تضاءلت الحقيقة إلى لا شيء. قالت ستيلا متأثّرةً بالأخبار: «الموت الأبيض، السل، ملك الجان؛ أنا أعرف أسماء المرض كلها، ما الذي تمسك به؟ أعطني إياه»، لقد كانت الشريحة الزجاجية التي كان مستقبلها محفوراً عليها، وبعد بعض الإقناع، تم إحضار المجهر، فقالت: هل هذا كل شيء؟ تماماً مثل حبوب الأرز.

حدثت لها نوبة سعال أخرى، وتركتها في حالة من الذهول، ما جعلها تنام واضعة خدها على الذراع الخشنة للأريكة، بحيث يمكنها فقط سماع مستقبلها يتكشَّف أمامها.

قال لوكا: «يجب عزلها قدر المستطاع، ويجب أن يتم إبعاد الأطفال عندما تتفاقم أعراضها»، مضيفاً: «ماذا نفعل مع هذا المرض القاتل؟».

قال الدكتور بتلر: «خذ وقتك، أيها القس.. إنها صدمة، أعرف ذلك، لكن الطب الحديث يمكنه فعل الكثير، فأنا شخصيّاً أوصي بإعطائها حقن توبركولين؛ التي أدخلها روبرت كوخ مؤخراً في ألمانيا».

حسناً نعتقد، القليل من الذهول ما زال موجوداً، أن الإبر ستثقب جلد ستيلا وتحارب الغثيان، ثم التفت إلى لوك غاريت، وقال: «وأنت؟ ماذا تقول؟ هل ستخرج سكاكينك؟».

«ربما استراح الصدر بالعلاج».

«الدكتور غاريت!»، صُدِم الدكتور بتلر «أنا لم أسمع عن

ذلك، لقد تم إجراء حالتين أو ثلاث فقط حتى الآن، وهو غير موجود في هذا البلد، ولا يوجد وقت لاختبار المياه».

قال ويل: «لا أريد أن تمسَّها»، شعرت ستيلا بالغثيان مرة أخرى، مشيرة إلى كيف كان القصير الجاثم يهمس إلى جوانا.

قال غاريت: «السيدة رانسوم، دعوني أشرح»، والتفت إلى المريضة: «الأمر بسيط بما فيه الكفاية، وأنا أعلم أنك سوف تتفهَّمين. تنهار الرئة المصابة عن طريق إدخال الهواء، فهي تندسُّ مثل البالون المنكمش في التجويف الصدري، وعند القيام بذلك، يتم تخفيف الأعراض بشكل كبير، ويمكن أن تبدأ عملية الشفاء».

قاطعه ويل: «إنها ليست واحدة من جثثك.. إنها زوجتي؛ تتحدَّث كما لو كانت معروضة في نافذة الجزار!».

قال لوك، وهو يفقد صبره: «هل ستجعل كبرياءك وجهلك يعرضانها للخطر أكثر؟ هل أنت خائف على العمر الذي ولدت لتعيشه؟ هل تفضّل أن يكون أطفالك مثقلين بالجدري، ومياهكم مليئة بالكوليرا؟».

«أيها السادة»، شعر الدكتور بتلر بالضيق، «كونوا عقلاء: أيها القس رانسوم، عندما أحضرتها إلى هنا أصبحت مريضتي، وأنصحك بإعطائها حقنة من توبركولين، لستم بحاجة إلى أخذ القرار فوراً، فقط عاجلاً وليس آجلاً، قبل أن يبدأ النزيف، وأخشى أنه سيحدث».

«ماذا عني؟». رفعت ستيلا رأسها عن كوعها، وأسدلت شعرها على ظهرها وقالت، مقطبة: «ألن تسألني؟ حسناً.. أليس هذا جسدي؟ أليس هذا مرضي؟».

يوليو

1

ضلَّت ناعومي بانكس سبيلها هناك في ألدوينتر. رحلت في اليوم الذي عثروا فيه على كراكنيل ميتاً، لم يبقَ منها سوى رسالة.. جاء في الكتاب المقدس: «أنا قادم، هل أنت مستعد؟»، اقلب الورقة لتلفحك قبلاتي الثلاث. أبحرت بانكس عبر البلاكووتر، ولم تعزِّها الكلمات: «الزوجة الأولى، ثم السفر، ثم هذا». قال: «اصطادوني نظيفة كالأسماك»، فتَّشوا عنها في كل شبر، ولم يجدوا لها أثراً، أدلى البقَّال بدلوه، بأنه كان حزيناً بعض الشيء بسبب انخفاض أرباحه الأسبوعية، وتساءل: من المحتمل أن تكون قد سُلِبت بعضاً من قواها العقلية!

عمَّ الحذر أرجاء القرية. مات كراكنيل لأن قلبه العجوز أبى أن يواصل نبضاته، هكذا اعتقدوا سبب وفاته، ما كانوا ليصدّقوا أن أفعى إسكس (هو كذلك دون أدنى شك) قضى بسبب الكوليسترول، فتَّشوا عن الأعراض، لم يجدوا المحصول مزهراً كما كان يجدر به، والدجاجات ليست راقدة، مع احتمالية ألا يجدوا الحليب. تصرخ تريتور أوك من حدوات الأحصنة المعلَّقة فيها، يحدّق بها خطر الانكسار بسبب الرياح والطقس المحتمل. حتى من لا يبالون ببريق

القمر في الليل، سيخبرونك كم كان زاهياً تلك الليلة، متدلياً فوق رؤوس الناس، يضوي مصب النهر باللون الأزرق. كان هناك غرق في سانت أوسيث. ألم أخبرك بهذا! هكذا قالوا، ألم أخبرك بهذا؟

كانوا يعدون جدول مناوبة حراس نوبة الليل. كانوا يجلسون حول نيران صغيرة على الأهوار ويسجّلون العلامات في دفتر: 0200، الريح جنوبية، الرؤية جيدة، المد منخفض. لم نر شيئاً، فقط سمعنا صريراً خافتاً وأنيناً من 0246 حتى 0249، لم يكن يُسمح لبانكس بالجلوس مع الحرس، على أساس أنه لن يكون لائقاً للمراقبة، لأن ناعومي مفقودة، وأنه من المحتمل أن يثمل أكثر من أي وقت مضى.

يرفض أطفال ألدوينتر البقاء في منازلهم، ويفضلون البقاء في الهواء الطلق.

يضيق أحد الصبية ذرعاً في كوخه الريفي، لدرجة أن يعض كف أمه. تصرخ: «هناك» وتضع الجرح أمام ناظري ويل: «كنت أعلم أن شيئاً ما حدث في اللحظة التي حلّق فيها روبن، إنه الأفعى التي تسكن روحه». كانت تهمس أمام القس، وتريه أسنانها.

ستيلا قابعة في منزلها، تسيل كلماتها في دفتر مذكراتها الأزرق ـ أود أن أُعمَّد مرة أخرى في الماء الأزرق في ليلة زرقاء صافية ـ وتغلق دفترها عندما يأتي ويل. كان لديها أيام جيدة وأخرى سيئة. يملأ بيتها الضيوف الذين يسألونها، هل سمعت عن هذه المرأة وهذا الشيء؟ ألم يكن الأمر مضحكاً؟ ألم تكن تبدو جميلة جدّاً؟ وأين وجدت هذا الخرز المشرق؟

ويغادرونها تغمرهم الدهشة والأسى، ويغسلون أيديهم في مطهر. قالوا: «تبدَّلت بالكامل، لم تعد المرأة نفسها»، أخبرتهم بأنها تسمع الأفعى أحياناً في نومها! قالت إنها تعرفها بالاسم وأخبرتني أنها رأتها إذاً «أنت لا تعتقد أنها رأتها، أليس كذلك؟ ألا تعتقد أن هناك شيئاً يمكن رؤيته؟».

وجد ويل نفسه بين السندان والمطرقة. الدرب ضيق، والمهالك جمَّة على الجانبين، فمن جهة فإنه لن يسمع بها مجدداً، هذه الخرافة البائسة، هل كانت هناك شائعة تهمس في مثل هذا الجسد الرطب كثير من العظام؟ كان واجبه هو تحييدها ومنع ضررها. كان يعظ وعيناه تلمعان: الرب ملجأنا وقوتنا.. يعيننا في بلائنا، لكن من الواضح أن القرويين يشكُّون في ذلك. الجماعة لا تتناقص، ولكن تنمو وترفض الغناء في كثيرٍ من الأحيان. لا أحد يذكر يد المقعد المشقَّقة، حيث لا يزال من الممكن إخراج بقايا الذيل، إنهم سعداء، إجمالاً، أنها رحلت.

ومن ناحية أخرى، يفارق النوم جفنيه في الليل، ستيلا بعيدة عنه للغاية، هناك في نهاية الممر، يتساءل: هل هذا هو القدر؟ يعلم الله أنه يمكن اتهامه بمفرده باتهامات عدة (يتذكَّر وقوفه وحيداً بجانب المستنقع محني القامة تشتعل الرغبة بين حناياه)؛ يتساءل عما إذا كان اسمه مكتوباً في دفتر أفعى إسكس؟!

لم يسمع شيئاً قط عن كورا. ما ينفك يفكر فيها، يعتقد أحياناً أنها أتت في الليل ووضعت عينيها في محجري عينيه، بحيث أصبح يرى العالم من خلالها، لا يستطيع أن ينظر إلى كتلة من الطين في الحديقة دون أن يرغب في تفكيكها ورؤية

ما إذا كان هناك شيء ما يلتفُّ بداخلها. لَكَم يرغب في أن يخبرها بكل شيء، وعجزه عن ذلك يورثه شعوراً بأن العالم مكان مزرٍ ورتيب. كتب: «يختبئ تنّين مجنَّح في حجرة دراستي، تماماً خلف المكتبة»، وأردف قائلاً: «لا أستطيع التفكير في صوت رفيف جناحيه»، ثم مزَّق الورقة إرباً.

قرأت كورا رسائله، ولم ترد، وصحبت مارثا وفرانسيس إلى لندن. قالت: «إنها في أفضل حالاتها في هذا الوقت من السنة»، وطفقت تنفق بشكل غير مسؤول على فندق باهظ، ووجبات فاخرة، وأحذية لا تحبها ولن ترتديها بالمرة. كانت تشرب مع لوك غاريت في جوردون بجوار الجسر، حيث تتدحرج الجدران هناك مثل الشموع، وعندما كان يحاصرها بمسألة قسّيسها الجيّد، كانت تنبذه بلفتة متعجرفة، لكن غاريت ليس أحمق، ويفضّل طريقتها القديمة التي لا تخلو فيها كل جملة أخرى من حديثها من ذكر ويل بسعادة غامرة.

تلقى لوك ومارثا مفاجأة كبيرة، بعدما كانا يتوقعان أن تشتعل بينهما نيران الحب أو لهيب الحقد بعد منتصف الصيف. ما حدث هو الألفة التي نشأت بينهما تماماً كرفيقي سلاح نجوا معاً من معركة. لم يسبق لهما زيارة تلك الليلة، ولا حتى في ذاكرتهما: كان ذلك ضرورياً، هذا كل شيء. كان هناك اتفاق غير معلن أن يظل سبنسر ملفوفاً بالظلام: كانت مارثا تستفيد به فحسب، بخلاف لوك الذي كان مغرماً به. جمع حوله رجالات السياسة والمال، فهو يعتقد أنه من المحتمل أن تستفيد بيثنال غرين من مساكن جديدة حيث لن تكون مضطرة إلى التعهد بأي التزامات أخلاقية، والتي ستكون لها أكثر من مجرد مأوى.

تشاركت مارثا وإدوارد بورتون رقائق البطاطا في لايمهاوس وكانا يدبران المؤامرة، بينما تقوم السفن القادمة من نيوزيلندا بتفريغ لحم الخروف المجمَّد على أرصفة الميناء. سنفعل هذا وذاك، كانا يقولانها في منتهى الأريحية والاطمئنان وهما يلعقان الملح من أناملهما، دون أن يلاحظا أن كلّاً منهما افترض وجود الآخر في يوم ما في المستقبل. «فقط أحب النظر إليها ورؤيتها هناك»، هكذا كان يخبر والدته التي لم تبارح الشكوك صدرها، أن مارثا فتاة لندنية رائعة، ولكن غريبة، ولا تغادرها مشعوذاتها أبداً.

ما لم يلاحظه إدوارد، عندما عاد إلى منزله في تلك الليلة وهو يحمل إحدى مجلات مارثا، هو أنه في الزقاق، ينتظر الرجل الذي أطلق سراحه بصبر في ظلال القديس بول. قضى صمويل هول وقته منذ وصول إدوارد إلى المنزل من المستشفى، وهو يرتدي معطفاً مختلفاً، ولم يخلُ أيٌّ منها على الدوام من تلك السكين قصيرة النصل التي تنزلق بسهولة بين الأضلاع. بالكاد يتذكر مصدر كرهه، قتاله من أجل امرأة، أليس كذلك؟ لم يعد الأمر يهم على أي حال. لقد أصبح هدفه الوحيد يجرّعه الثمالة والغربة، فقد تعرَّض للخداع ذات مرة بدافع الانتقام، وظل يعد الأيام، بعدما نفد رصيده من الصبر، منتظراً اكتمال المهمَّة. إن إدوارد بورتون أصبح المفضَّل لدى الرجال والنساء الأثرياء الذين يأتون كثيراً ويبقون طويلاً، مما جعله أكثر قابلية للانهيار، لقد أصبحوا جميعاً هم العدو. يراقب إدوارد الذي ينفض الملح عن أكمامه، ويعالج القفل بمفتاحه، منادياً على أمه المنتظرة، «ليس الليلة»، هكذا دارت أفكاره، قالها وأغمد سكينه: «لا، لكن أقرب مما تتوقَّع».

كانت جنازة كراكنيل حافلة بالمشيعين، حيث لم يحبه أحد كما أحبه الموت. غنَّت جوانا «النعمة المذهلة» وأجهشت أعين الجميع في الكنيسة بالبكاء. أرسلت كورا سيبورن إكليلاً من الزهور، بدا من بساطته أنه لم يكلفها الكثير.

لقد اعتاد ويل المشي، فوجد نفسه يتمنَّى لو أن قوانين الإحصاء تجعله يطأ قدميه في نفس موطئ قدم كورا. تخلَّص من أفكاره وراء ظهره أثناء المشي، والتي تشتَّتت بدورها. لا يمكن أن يهدأ باله إذا كانت كورا قلقة، لقد كان راضياً جدًّا عن حبه لها، فقد كان يراه الحب الذي قد يعجب به الرسل، كما لو كانوا قد صنعوا جنة على الأرض الموحلة، ثم تغير شيء ما. لا يزال بإمكانه الشعور كيف ذاب جسدها السمين بين ذراعيه، وما تبع ذلك، وهو يشعر بالخجل، وإن لم يكن (كما يعتقد) قد خجل كما يجدر به أن يكون.

ثم هناك ستيلا، وهي هادئة في ثوبها القطني الأزرق، مع الضوء الساقط خلفها، ستخجل قديسة زجاجية ملوَّنة، تتحدث أحياناً عن التضحية والأكاذيب لا تزال كما لو كانت بالفعل على المذبح، ثم تتحرك وتصير جُمَلاً تخطُّها ليلاً في كتابها الأزرق. ماذا سيفعل معها؟ يفكّر في الإبرة والمشرط في يد الجراح وكل ما كان يجفل منه أنه يبتهج بالمنطق الممنوح للبشر، لكنه لا يثق في مواقف البشر المتغيّرة. هذا هو ما يحصل عليه، إننا كنا دوماً معتادين ارتكاب الأخطاء، فكَّر في الخديعة عندما قال غاليليو إن الأرض تدور حول الشمس، فكر في أن رجلاً قد قذف قزماً رابضاً في رحم زوجته. كان الأمر رائعاً للعلم كي يتباهى قائلاً: «أبلينا بلاءً حسناً هذه المرة»، ولكن هل يجب أن يراهن ستيلا على ذلك؟

عقد ويل صفقة مع الرب، كما فعل جدعون ذات مرة. كان يناجي الرب: «إذا كانت مشيئتك لها في ألا تستكمل العلاج، امنعه بواسطة بعض الوسائل الواضحة للغاية، ودع هذا يكُن علامة». العبث المنطقي لا يفلت منه، ولكن هناك قد يستخدم الرب المنطق كأي شيء آخر، ويصعد يوم الأحد إلى المنبر ويذكّر الناس كيف قام موسى في الصحراء بإنشاء قطب خشبي حوله ثعبان نحاسي عظيم، وكيف أعطاهم الأمل.

في أواخر شهر يوليو، ترك حراس الليل موقعهم.

لوك غاريت، طريق بنتون فيلا 27 يوليو

تأَخَّر الوقت، وستظنّين أنني غير واعٍ لكنَّ يدي ثابتة، أستطيع أن أخيط جرح رجل من حلقه إلى سُرَّته دون أن أضيع قطباً واحداً!

كورا، أنا أحبك ـ اسمعيني، أنا أحبك ـ أنا أعلم، لقد قلت ذلك في كثير من الأحيان وأنتِ تبتسمين وتمضين، لأنه ليس سوى القصير، فقط صديقك، لا شيء سيعكر صفوك، ولا حتى سقوط حجر في مياهك الساكنة، في هدوئك الرهيب، في تسامحك معي، والذي أعتقد أنك قد تخطئين من أجل ما تحبين في بعض الأحيان عندما أسليكِ أو أريكِ من المدهشات ككلبٍ يجلب إلى سيدته شيئاً يمضغه!

لكن يجب أن أُفهّمك، يجب أن أخبرك كيف أحملك بين ضلوعي وكأنك تنمين من خلاياي، يجب أن أبحر بسكيني السوداء الثقيلة، إنها تؤلم، إنها تفرز شيئاً ما في دمي، في جميع نهايات أعصابي الملتهبة، ولكن لم أستطع قطعها والعيش!

أحبك.. لقد أحببتك منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى تلك الغرفة المشرقة بملابسك الرثَّة، وأخذتِ يدي وقلتِ: «لن يستطيع طبيب آخر فعلها»، أحببتك عندما سألتِ إذا كنتُ أستطيع إنقاذه وكنت أعرف حينها أنك كنت تأملين ألا أعرف، وألا أحاول.. وأحب فستان الحداد الذي هو محض كذبة، وأحبك عندما أراك تحاولين حب ابنك، وأحبك عندما تلفّين مارثا بذراعيك، وأحبك عندما يتشوَّه جمالك بفعل البكاء أو التعب، وأحبك عندما تضعين مجوهراتك الماسية، وتتبخترين كفاتنة... هل تعتقدين أن أي شخص آخر سيعرف كل جزء من كورا كما عرفتها وأحببتها بنفس القدر؟

لقد حاولت مراراً وتكراراً تقديم شيء جيد من حبي، حاولت عندما كان مايكل يحتضر كقديس شرير في تلك الغرفة ذات الستائر المفتوحة، وحاولت عندما لفظ أنفاسه الأخيرة. لقد حاولت أن أحبك بطرق لن تدمرني، لم أكن أرغب في امتلاكك، لقد تركتك لهذا الصديق الجديد، ودائماً لا أستطيع النوم لأنني أدرك أنك هناك، وأنك لا تشعرين بالخجل عندما تطلبين مني شيئاً، وأستيقظ وأنا أفكر فيكِ، لكني طوال هذا الوقت لم أنل أكثر من وضع يدي على كتفك... كنت تظنينني شيطاناً، لكنني كنت ملاكاً!

لا تكتبي! لا تأتي! لست بحاجة إلى ذلك. لم أكتب لهذا السبب، أتظنّين أن حبي سيموت من دونك؟ هل تعتقدين أنني غير قادر على التواضع؟ هذا هو التواضع، سأخبرك أنني أحبك وأعرف أنه لا يمكنك مبادلتي نفس الحب، سأحطّم نفسي.. إنه أقصى ما يمكنني تقديمه ولا يمكن أن يكون كافياً.

لوك

تخيل أن ستيلا تتحدث: أنا ستيلا ستيلر! ستيلا نجمتي فوق البحور الزرقاء!

وقد كتبتُ كتاب صلواتي المقدس بالحبر الأزرق على صفحة زرقاء وحِكته بخيوط زرقاء كالأوردة الزرقاء التي تحمل اللون الأزرق.

أخذوا أطفالي مني!!!

أطفالي الثلاثة، ومنهما اثنان ولدا أزرقَي البشرة، رحلوا جميعاً، لكن وجدوهم الآن تحت سقف منزلي!

إنهم يريدون أن يعطوني أشياء وسكاكين وقطراتٍ وإبراً وملاعق صغيرة من هذا، وهذا لا يعني أنني لا أستطيع أن أفعل أيّاً من ذلك، لا تدعوني أعِش مع أعمالي الزرقاء وكل شيء عني. جميع حبَّاتي من معدن الكوبالت، لؤلؤاتي السوداء ذات اللون الأزرق، محبرة الحبر الأزرق، وعائي من الطلاء الأزرق، شرائطي النيلية، تنُّورتي الملكية، أزهار القنطريون العنبري التي تنمو على عينيَّ ذواتَي النظرة البلهاء.

ما زلت أتحمله بشكل جيد بما فيه الكفاية لأنه وعد أنه رغم كوني أمشي فوق مياه الأنهار، فإنها لن تفيض وتغرقني، ورغم أنني أسير عبر النار، فلن أحترق!

أغسطس

1

لا شـيء يجـذب تشـارلز أمبـروز إلـى الداروينيـة أكثـر مـن المشي في شـوارع لبيثنال غريـن الضيقـة. لقـد رأى أنـه لا توجـد هنـاك أطـراف متسـاوية انفصلـت عنـه بسـبب الحـظ والظـروف فحسـب، ولكـن أيضـاً بسـبب المخلوقـات المولـودة غيـر المجهَّـزة للنجاة في سباق التطـور. نظـر إلـى وجوههـم الرقيقـة الباهتـة التـي غالبـاً تعتريهـا نظـرة سـوء الظـن اللاذعـة، وكأنهـم يتوقَّعـون فـي أي لحظـة أن يواجهـوا حـذاءً، ويشـعرون أنهـم سكنوا مكانهـم الصحيـح. إن التعبير القائـل إنهـم لـو تمكَّنـوا من الوصـول إلـى قواعـد اللغـة والحمضيـات فـي سـنٍّ مبكـرة، فـإن فكـرة احتمـال جلوسـهم فـي يـوم مـن الأيـام بجانبـه فـي غاريـك كانـت غيـر معقولـة، لـم يكـن مأزقهـم أكثـر مـن دليـل علـى الفشـل في التكيُّف والبقـاء علـى قيـد الحيـاة. لمـاذا كان معظمهـم قصـار القامـة؟ لمـاذا صرخـوا وبكـوا مـن النوافـذ والشـرفات؟ ولمـاذا عنـد الظهيـرة يثمـل كثيـرون منهـم؟ بعـد انحرافـه عـن الزقـاق، يرفـرف معطفـه المصنـوع مـن الكتَّـان، يشـعر بالكثيـر كمـا لـو كان قـد شـاهدهم مـن خـلال قضبـان حديديـة. هـذا لا يعنـي أنـه لـم يشـعر بالرأفـة تجاههـم، حتـى الحيوانـات فـي حدائـق الحيـوان يجـب أن تحظـى بأقفـاص نظيفـة.

اجتمع الأربعة في غرف إدوارد بورتون بعد ظهر أغسطس: سبنسر، ومارثا، وتشارلز، ولوك، وكانت نيتهم هي المرور في شوارع بيثنال غرين، التي كانت دُورها وأكواخها مرشحة للهدم وإنشاء مساكن نظيفة وجيدة بدلاً منها وعدهم البرلمان بها، وقال سبنسر: «إنها قوانين نالت إجماعاً كبيراً»، ولم يعرف بالضبط كيف يحاكي طريقة مارثا، ولكن إلى أي مدى سترتفع أعداد القتلى من الأطفال قبل وضع السياسات؟ إننا نحتاج إلى الإجراءات، وليس إلى مجرد قوانين!

كانت والدة إدوارد تقدّم بسكويت الليمون على طبق ظهر عليه شكل رأس الملكة بوضوح، كان القلق على ابنها يأكلها لأنه كان متعباً. كان صامتاً وسط هذه الصحبة، ولم يتأثّر إلا لوجود مارثا بجانبه، هل كان الجرح القديم يؤلمه؟ هل يمكنه أن يطلع سبنسر على مخطّطاته لإنشاء عقار جديد؟ قال سبنسر: «إن هذا مجدٍ للغاية»، رغم أنه لم يكن يعرف شيئاً عنها. مرَّر يده برفق على الورقة البيضاء التي صاغها إدوارد، بكل مهارته الفطرية، مخطّطاً لبناء سكن حول ساحة من الحدائق. «هل يمكنني أخذ هذا، هل يمكن أن أريه لزملائي؟ هل تمانع؟

في هذه الأثناء كان لوك قد أكل قطعة خامسة من البسكويت، بعد أن أعجب باهتمام السيدة بورتون بالنظافة، وقال: «إن مارثا لن تكون سعيدة حتى ترى كثيراً من مدينة توماس الفاضلة في معسكر تاور هيل». كان يلعق السكر من إبهامه، وبدا مبتهجاً بصفوف الأسقف العلوية التي تُرَى عبر النافذة. كانت الكتابة إلى كورا تشبه عملية فقء البثور، وفي تلك الأثناء قد يكون هناك مزيد من الانزعاج، ولكنه في

الوقت الحالي يشعر بالراحة فقط. ما كتبه كان الحقيقة، على الأقل بينما كان لا يزال يحمل القلم، إنه لم يتوقَّع أي شيء، ولم يقدم أي صفقة، ولم يعتقد أنه يدين بشيء لأحد. ربما لن تستمر النشوة أكثر من يوم آخر، لكنَّها كانت شيئاً متهوّراً أثناء استمرارها، وجعلته في نهاية الأمر محسناً، في بعض الأحيان، تخيَّل المغلف المختوم الذي يشق طريقه إلى باب منزله على ظهر دراجة ساعي البريد، فقد أصبح قلقاً؛ هل ستسَر لرؤيته؟ هل ستتأثر، أم ستتجاهله وتذهب فَرِحَة كما كانت من قبل؟ لأنه يعرفها، كان يعتقد أن الأمر الأخير هو الأرجح، كان من الصعب تعكير مزاجها الجيد، أو يجعلها تتأثَّر وتُظهِر المودَّة لكل شخص تعرفه.

قال تشارلز بغضب وهو يضع معطفه: «انتهينا، فهيَّا لنتسكَّع»، وهو يتذكَّر كيف أمضى هو ورفيقه ليلة كسيَّاح فقراء قبل سنوات، ينزعان ثيابهما عند التسكُّع في أضواء الشوارع، ولا يطرق بابهم زبونٌ واحد.

قال إدوارد بورتون: «من المحتمل أنك كنت تبيع محاراً سيئاً، ليس جيداً بما يكفي ليجد مكانه كمقبّلات في حانات هولبورن، ولكن عليك أن تحافظ على ذكائك، وستعود إلى وطنك مجدَّداً».

عندما غادروا، كانت أبواب المصانع والمكاتب لا تزال مفتوحة، وبالتالي كانت الأزقَّة هادئة نوعاً ما، وكان من الممكن سماع صوت القطارات على القضبان على بعد بضع مئات من الياردات، في كل مكان كانت العتبات العالية تحجب الضوء، ولم يكن من الممكن أبداً تنظيف الغسيل

المعلَّق أسفلها، وعلى الرغم من أن الصيف كان معتدلاً، فإن القليل من بقايا أشعة الشمس الآتية كانت تبدو أكثر سخونة هناك، حتى قبل أن تشعر مارثا برطوبة ملابسها بين أضلع كتفيها، وكانت رائحة العفونة تفوح من الأرصفة المليئة ببقايا الطعام. ما كان في السابق بيوتاً كبيرة تم تقسيمه بشكل عادل إلى عديدٍ من الشقق الصغيرة، التي أصبحت بأسعار لا تتناسب مع أجور ساكنيها. كانت الغرف مؤجَّرة من الباطن، ثم من باطن الباطن، حتى أن ما كان يشكّل عماد الأسرة قد تم نسيانه منذ فترة طويلة، وكان الغرباء يتشاحنون على أكواب وألواح ومساحة صغيرة يضعون فيها أقدامهم. على بعد أقل من ميل واحد، خارج مدينة غريفين، لم يعرف أصحاب العقارات ومحاموهم وخيَّاطوهم ومصرفيُّوهم وطبَّاخوهم إلا ما يضيفونه في أعمدة حساباتهم.

هنا وهناك، رأت مارثا أسباباً لبثِّ الأمل فيمن يمرُّون بجوارها، يومئون تارةً، ويبتسمون تارة، لأن كل وجوه هؤلاء الغرباء كانت مألوفة. ظهرت امرأة في سترة قرمزية من وراء ستارة من الدانتيل لتغسل نبات إبرة الراعي على حافة النافذة، وألقت زهرتين ذابلتين سقطتا في المزراب بجانب زجاجة مكسورة. جاء العمال البولنديون للبحث عن عمل، واكتشفوا أنه لو تم تضليل ديك ويتنجتون بشأن أرصفة لندن، فقد كان يكفيهم طقس لندن الأكثر اعتدالاً في فصل الشتاء، ولم تكُن أحواض السفن لتهدأ من الحركة التجارية أبداً. كانوا مبتهجين وصاخبين. انتشروا أزواجاً في مداخل لندن بقبعاتهم المائلة، يلوّحون بصحيفة بولندية ذهاباً وإياباً. كانوا يدخِّنون سجائر سوداء مملوءة بالورق الأسود، تنفث منه

رائحة عطرة. ركضت عائلة يهودية بجنون للحاق بحافلة، وارتدت الفتيات أحذية حمراء، وبعد لحظات مرت امرأة هندية على الجانب الآخر ترصّع أذنيها بقطعة ذهبية صغيرة.

لكن حتى مارثا كان عليها أن تتنازل عن ذلك، كان مشهداً سيئاً في كثير من الأحيان، كانت أم شابة تجلس على عتبة تراقب بحسد طفلين يأكلان خبزاً أبيض رخيصاً ومارجرينا، وشاهدت مجموعة من الرجال يتابعون كلباً من فصيلة بولدوج معلقاً من علٍ من فكّه بحبل، وكان شخص ما قد ألقى جانباً نسخة من مجلة Vanity Fair، كانت صورة الممثلة على الغلاف تبتسم في فستان أصفر بهدوء، وبجانبها في المزراب فأر ذو عينين تشعَّان بالذكاء ويثني قدميه الأماميتين الصغيرتين. لم تستطِع مارثا كبح نفورها وهي تمرُّ بجانب الرجال مع كلبهم، لقد حدَّقت فيهم شزراً، رفع أحدهم بأكمامه الملفوفة يده ليريها وشماً مجهولاً يلوّح به في وجهها، وضحك عندما خافت منه. كان لوك أكثر إلماماً بالمدينة المفعمة بالحيوية مما جعله مستمتعاً بعرض سبنسر عن الوعي الاجتماعي، وسمح لنفسه بأن يتقدَّم نحوها بشهامة ويقترب منها.

قالت: «هل سينجح ذلك؟ يجب أن ينجح»، مشيرة إلى الأمام حيث سار تشارلز مع سبنسر، واختار طريقه الكريه من خلال فضلات الفاكهة المتعفّنة التي تتدفَّق منها سحابة من الذباب الصغير. «يجب أن يرى أن هذا غير قابل للاستمرار، إن لم يكن من الإنسانية المشتركة!».

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة أمام امرأة ترتدي شعراً

مستعاراً تتكئ بأنوثة وتطلُّ من بابها وترسل قبلاتها كلما مر: «كيف لا؟ رجل غبي، هكذا كنت أفكر دوماً، لكن ليست ليلة سيئة يا حبيبتي».

«لا فائدة، لقد حاول سبنسر، سأعاني من الفشل طويلاً»، وكان أمامهم على الطريق صديقه يومئ نحو زقاق ضيّق بشكل لافت تنبعث منه رائحة حمضية.

«يفعل كل هذا في الغالب من أجلك، كما تعلمين. سيعطي ثروة إلى متسوّل إذا طلبت منه ذلك، ولكنك لن تلاحظي أبداً أنّه هناك».

فكرت في إنكار ذلك، ولكنها قالت كيف سأنكر ذلك والأمر الآخر هو ماذا سيقول عنها القصير الذي اكتسب أمانتها؟ «هذا ليس سيئاً للغاية بالنسبة إليَّ، أليس كذلك؟ لم أكن قد وعدته أبداً بأي شيء، وبالإضافة إلى ذلك، فأنا لست على دراية بما تدبّره عائلته في ذهنها! لكن لا يمكنني فعل هذا بمفردي؛ أنا امرأة فقيرة، لربما قطعوا لساني أيضاً.

لقد أتوا على فناء تظلّله المباني السكنية من جميع الجهات. شاهد لوك صديقه يقف بأذرع مطوية لاستقصاء مشكلة لندن العصية، متحدّثاً بطريقة هادئة مطمئنة إلى أمبروسيوس الذي كان يصغي إليه بنصف ذهن، مشغولاً بطفل يرتدي زي جنّي يجلس على عتبة الباب ويدخّن سيجارة «انضم إلى الرابطة الاشتراكية»، ويتحدَّث عن التكليف بشيء صغير من ويليام موريس «مارثا.. دعيه يهدأ، ألن تفعلي؟». قام الطفل الذي يرتدي ملابس الجني بإلقاء سيجارته وأشعل أخرى، سقطت ريشة من جناحه وارتجفت.

قالت مارثا التي أثارها الشعور بالذنب: «لا يمكنني أن أكون ودودة وانتهى الأمر، إنه ليس دمية؛ إنه يفكر جيداً لنفسه بما يكفي، وأسمعه».

قال سبنسر: «كانوا يفتخرون بالمساكن الجديدة المطلَّة على سد نهر التيمز ويضربون بها المثل في التقدم، هل رأيتموها؟ أفضل قليلاً من الأقفاص. لقد كانت مكتظة هناك أكثر من أي وقت مضى، فبعض الغرف لا يحتوي على نوافذ، والغرف الأخرى التي تحتوي على نوافذ حجم الواحدة منها لا يزيد على حجم طابع بريد، فلا يمكن لهم أن يضعوا بها حتى كلاب صيدهم. لم يستطِع أن يقاوم النظر إلى مارثا التي اقتربت منه وهدَّأت من روعها حتى وصلت إلى أفضل حالاتها.

«تشارلز.. انظر إلى نفسك، لا يمكنك الانتظار حتى تعود إلى المنزل، إلى كاثرين ونعالك المخملية وشرابك الذي تساوي كل رشفة فيه أكثر مما ينفقونه في العيش لأسبوع لأنك تعتقد أنهم نوع مختلف من البشر.

لقد جلبوا هذا لأنفسهم لأنهم غير أخلاقيين أو أغبياء، وإذا أعطيتهم شيئاً أفضل، فستفقده في أسبوع، حسناً.. ربما هم حيوانات مختلفة عنك، لأنك ناقم على كل قرش تدفعه للضرائب، وإذا لم يكونوا يملكون شيئاً فسوف يعطونك نصفه.

قاطعها لوك: «توقَّفي». «لا، لوك: لن أتوقَّف.. هل تعتقد لأن كورا علمتني أي شوكة أستخدمها للصيد نسيت أين ولدت؟».

«مارثا، عزيزتي»، كان تشارلز أمبروز يحافظ على السلوك الحسن ضد ما هو أسوأ، بالإضافة إلى أنه كان يعرف جيداً

عندما يتم اكتشافه «كلنا نعرف وجهة نظرك، ونعجب بها. لقد رأيت ما يكفي، وإذا سمحت لي بالعودة إلى بيئتي الطبيعية، سأفعل ما بوسعي لتنفيذ كل أوامرك»، وعندما رأى أن قوسه الساخر لن يفيد في تحسين مزاجها، قال كما لو كان يخفي أسرار الدولة: «لقد تم تمرير مشروع القانون، كما تعلمون. السياسات تفعل أفاعيلها، إنها فقط مسألة إجراءات».

ابتسمت مارثا بقدر استطاعتها، لأن سبنسر تردَّد قليلاً، وكأنه فجأة غير متأكِّد من تعلُّقه بامرأة ترفع صوتها على من هم أفضل منها، ولأن لوك قد أصبح متهوِّراً مرة أخرى، ولم يبدُ أبداً أكثر سعادة «الخطوات التالية! أوه- تشارلز، أنا أسف. أخبروني أنني يجب أن أعد حتى رقم عشرة. انتظر، لكن هل يمكنك سماع ذلك؟»، «ما الأمر- ما الذي يمكنني سماعه؟».

التفُّوا جميعاً، وسمعوا من داخل زقاق ضيِّق صوت آلة الأرغن، في لحن غير منضبط تتضاعف سرعته يشبه الصوت الصادر عند لفِّ أحدهم مقبضاً، ثم تحوَّل إلى لحن عسكري مثير. ركضت الطفلة في اتجاه مصدر الموسيقى وجناحاها يرتجفان خلفها، وعندما ظهر العازف انضم إليها آخرون كما لو كانوا يتسرَّبون من الطوب والملاط من حولهم. كان بعضهم حفاة، وارتدى آخرون أحذية طويلة بمسامير في النعال تطلق شراراً أثناء ركضهم. حمل صبيَّان قطتين صغيرتين، بيد كل منهما واحدة؛ وخلفهما كانت تركض فتاة في ثوبٍ أبيض، تتظاهر بعدم الاكتراث. شاهد تشارلز الذي استقر في إحدى الزاويا رجلاً في سنه يرتدي بقايا سترة جندي. كان يزين صدره بالشريط الأخضر والقرمزي لميدالية الحرب الأفغانية، ويثبِّت كُمَّه الأيسر الفارغ عند مرفقه. أدار بيده اليمنى مقبض

الأرغن بوتيرة أسرع وأسرع، وبدأ في أداء رقصة الجيغ بطريقته الخاصة. أخذت الفتاة التي ترتدي الثوب الأبيض تدور وتضحك حتى لمست يد غاريت. رفع أحد الصبية قطَّته عالياً وغنَّى لها كلمات خاصة به. نظرت مارثا إلى سبنسر وقد بدا عليه الهلع، فاحتقرته من أجل ذلك. ربما تخيَّل أنهم يجب أن يتمرَّغوا في البؤس، وألا يعرفوا للفرح طريقاً البتة «خذوا يا شركاء»، ينادي بصوت مرتفع على الجندي «جرِّب هذا الحجم»، ولم يكن ذلك اللحن العسكري الذي عزفه، ولكن مع شيء فيه من غناء البحارة على السطح عندما يشاهدون البر. مدَّت مارثا يديها إلى صبي عابر هجر قطَّته على عتبة الباب وبقوة ساعديه الرفيعين أخذ يلفُّهما حولها، حتى أن سبنسر شاهد شعرها يتطاير بلون القمح في مواجهة الطوب المكسو بالسخام «ادفعني بعيداً، أيها الصغير القوي»، غنَّت الفتاة البيضاء «أنا أريد أن أصل إلى جنوب أستراليا»، وعندما اجتازت تشارلز خفضت رأسها، كما لو أنها تقبل مجاملة لم يفكِّر في تقديمها.

على مسافة قريبة كان عدو إدوارد بورتون يراقب متخفياً في زقاق، صموئيل هول الذي كان مشوَّشاً بفعل الشراب والحقد، كان يستيقظ والكراهية تشحذ في أمعائه كالسكين. كانت المراقبة اليومية خارج منزل بورتون قد أعطته لمحات عن العدو نفسه والزوار المتكرِّرين حيث تبدو عليهم مظاهر الثراء، وكأن بورتون قد دخل رويال بروج فقيراً وخرج ملكاً. ما الذي يمكن أن يعرفوه عن قسوته، وكيف أفسد أمل هول الوحيد في الوصول إلى السعادة؟ الأسوأ من ذلك أنهم قد ذكروا في صحيفة ستاندرد فيما يتعلَّق بالعملية بأنهم قد خدعوا العدالة،

عمودين وصورة فوتوغرافية في مدح طبيب جراح بدا وكأنه مجرد شيطان أكلح. تضاعفت كراهيته لبورتون، وتركَّز حنقه وسخطه على هذا الرجل الآخر، فأي حق لديه ليتدخَّل في الأقدار؟ أُغمدت السكين وأصابت القلب، وكأنها النهاية التي قد يحصل معها على السلام أخيراً.

وهنا كان هو ذلك الرجل نفسه أسود الحاجبين، أحدب قليلاً، ومعه ثلاثة رفقاء، امرأة تعرف عليها لشعرها الكثيف المضفَّر أعلى رأسها، ورجلين لم يعرفهما. كان هول قد شاهدهم أثناء الترحيب بهم على باب بورتون، ورآهم واقفين خلف نافذته. كانوا يتبادلون أطباق الطعام فيما بينهم، بينما لم يكن هول نفسه يستطيع توفير قوت يومه، وقد كانوا يضحكون، بينما هو لا يتذكر شيئاً سوى البؤس! ظل يتابعهم لحظة بلحظة، وشاهدهم يرقصون، ونظر إلى نفسه وكيف أنه قد فقد كل السبل للفرح والمتعة، وضع هول يده في جيبه، وضغط على النصل المخبَّأ هناك. إذا كان إدوارد بورتون سيبقى دائماً بعيداً عن متناوله، فقد يكون هنا على الأقل فرصة للقصاص.

توقَّف الجندي لأن ذراعه قد أتعبته، وفي ظل الصمت الذي طغى على الأجواء اعترى الراقصون الخجل فجأة. بدت المساكن والمزاريب في كل مرة أكثر قذارة وأكثر قتامة. رفع لوك ذراعه من على خصر الفتاة وانحنى كما لو كان يعتذر، غنَّت للجندي وكأنها تدعوه لاستكمال العزف «كانوا يفرشون شعرهم بعظام سمك القد»، لكنه كان متعباً فلم يعزف أكثر.

نظر تشارلز في ساعته. لقد كان عرضاً ساحراً شاهده في طريقه، على الرغم من أنه ربما يتم حذف تفاصيل من تقريره إلى الإدارة؛ لكنه أراد تناول العشاء، وقبل أن يتمكَّن من إدراك النهاية السعيدة، إلى اليوم الذي يحتاج فيه إلى الاستحمام لمدة ساعة على الأقل، فقد فكر والخجل ينتابه قليلاً، أنه قد يحرق ملابسه.

سبنسر: مارثا، هل رأينا ما يكفي؟ هل قمنا بواجبنا؟ لكن انظر هنا، من هذا؟ الدكتور غاريت، يبدو أنه يريدك، هل هذا صديق لك؟ التفت بعيداً في اتجاه اليمين، وفي البداية لم يرَ لوك شيئاً إلى جانب الأطفال المنتشرين والجندي، حيث يعدون القطع النحاسية في قبعته، ثم صاحت الطفلة التي ترتدي أجنحة الجنيات وأخذت تلقي السباب، حيث تم دفعها جانباً في تصادم مفاجئ وتعثرت على الحجارة: «ما الذي يجري؟»، قال تشارلز وهو يجذب معطفه نحوه: «هل هو نشال؟». كانت كاثرين قد حذرته ليهتم «سبنسر؟ هل يمكنك رؤية ما يحدث؟»، انفصلت مجموعة الأطفال وبدأت قطة صغيرة تُصدر مواءً من عتبة النافذة. رأى تشارلز رجلاً قصيراً يرتدي معطفاً بنيًّا يأتي إليهم خافضاً رأسه ويضع إحدى يديه في جيبه. تقدمت مارثا إلى الأمام، حيث كانت تعتقد أن الرجل يعاني من ضائقة ما، ومدت يديها، قائلة: «ماذا كان ذلك، ما الذي حدث، هل يمكننا المساعدة؟».

لم يرد صموئيل هول، وذهب مسرعاً فحسب، ورأوا أنه كان يريد لوك؛ وصل إلى الجراح الذي انتابته في البداية ابتسامة خفيفة، وصدَّ الرجل بدفعة خفيفة: «هل أعرفك؟ هل التقينا قبل اليوم؟».

بدأ هول يتمتم وتتطاير رائحة الشراب من أنفاسه، واضعاً يده في جيبه، ثم مخرجاً إياها مرة أخرى، كما لو أنه لا يستطيع أن يقرِّر ما الذي يجب أن يفعله بعد ذلك: «ما كان يجب أن تذهب وتتدخَّل في عملي -لم يكن الأمر عادلاً- سأوضح لك ما الذي سيحدث له!».

بدأ ينمو لدى لوك شعور بالاضطراب في ذلك الوقت، لكنه وعلى الرغم من قوته لم يستطع دفع الرجل، بل وجد نفسه مدفوعاً إلى الحائط يحك في الطوب. كان يبحث عن المساعدة، ووجدها لوجود سبنسر الذي وضع يديه على كتف الرجل وأبعده عن صديقه، ثم أخذ الرجل يصدر أصوات تنهيدات تشبه الضحك قليلاً وكأنه ثمل، ويرفع عينيه إلى الأعلى، ثم قال: «خُدعت مرة أخرى، هل تصدق ذلك!».

قال تشارلز وهو يشاهد الرجل وحالته السيئة: «يا لهذا المسكين! إنه قد يُجنُّ»، ثم رآه يضع يده في جيبه ويخرج شفرة. قال: «انتبه»، إنه قادم إليك، قال وهو يرتجف وشعرات رأسه تتحرك على مؤخرة عنقه من الخوف: «احترس -لديه سكين- سبنسر، لا تقترب!».

لكن سبنسر ابتعد عن الرجل الساقط، وكان بطيئاً بفعل الشجار. نظر بتواضع إلى تشارلز وصديقه. قال «لوك»: «هل تأذيت؟».

قال لوك: «هذا كل شيء»، ثم رأى هول يحك بقدميه، وكيف يلمع النصل تحت الضوء. رأى كيف رفع ذراعه واندفعت نحو صديقه مع صرخة حيوانية.. في اللحظات الطويلة التي تلت ذلك كان يرى سبنسر على طاولة مشرحة، وشعره الناعم الجميل ينسدل على الخشب، وقد كان الأمر غير محتمل. لم يشعر أبداً بمثل هذا

الرعب قبل ذلك، اندفع لوك إلى الأمام ومد يده حتى وصل إلى الرجل وأمسك بالسكين حتى سقطوا على الرصيف. سقط صموئيل هول أولاً، وكانت سقطته موجعة حيث اصطدم رأسه برصيف حجري، حيث أصدر صوتاً يشبه صوت شق المكسرات.

انتقل الجندي إلى الأزقَّة الأخرى، وسُمِع عزف الأرغن حيث كان الصوت يشبه التهويدة، حتى أن الأطفال الذين كانوا يشاهدون ـ وربما الرجل ذو الشعر الأسود الذي رقص معهم ـ كانوا نائمين، حيث كان لا يزال راقداً. لكن لوك لم يمت ولم يفقد وعيه، لقد رقد هناك لأنه كان يعلم ما قد تم فعله معه ولا يستطيع أن ينظر إليه.

«لوك، هل يمكنك سماعنا؟». قالت مارثا ذلك وهي تلمسه بلطف، فأفاق ثم جلس إلى جوراهم، وهدَّأته مارثا، ومن الياقة حتى الحزام كان قميصه قرمزياً، وكانت يده اليمنى وساعده ملطخين بالدماء. عندما اقترب تشارلز بعد أن رأى أن الرجل الذي يرتدي معطفاً بنيًّا لن ينهض مجدداً. كان يعتقد في البداية أن الطبيب كان يمسك بقطعة من اللحم، لكنه كان لحم يده الذي انسلخ عن عظام راحة يده التي جزَّها السكين، ويتدلى في اتجاه المعصم سميكاً وناعماً. كانت تحتها عظام رمادية اللون، ووتر أو جزء مما تم قطعه ويتناثر الدم من حوله مثل شريط شاحب مقطَّع بالمقص. لم يبدُ أن لوك كان يشعر بالألم، ولم يمسك سوى معصمه الأيمن بيده اليسرى، وهو ينظر إلى عظام يده البارزة ويقرأ عليها مراراً وتكراراً كلاماً كما لو كان جزءاً من طقس ديني: العظم الزروقي، العظم الكُلَّابِيّ، الرسغ، مشط اليد»، ثم نظر بعينه نظرة المغشي عليه وسقط في أحضان أصدقائه الجاثين.

2

على بعد ميلٍ أو نحو ذلك غرب ذلك الفناء المقفر، أتت كورا نحو كنيسة سانت بول برسالة في جيبها. كان وقتها في لندن كئيباً ومملّاً، جاء الأصدقاء وذهبوا فوجدت نفسها متحفِّظة وشاردة، ومن ناحيتها وجدت أنهم متأنِّقون ويتحدثون بحذر، كانت أيدي المرأة بيضاء وأظافرها حادة ولامعة. حلق الرجال ذقونهم حتى بدت وجوههم ناعمة وزهرية كالأطفال أو ارتدوا شوارب سخيفة. كانوا يعرفون السياسات والفضائح التي تخصُّ هذا المجتمع وأي مطاعم تقدم أحدث الأطعمة، لكن كورا كانت تدفع كل شيء موجود على الطاولة من أمامها قائلة: نعم، نعم، لكنني أخبرتك كيف أنني وقفت مرة أخرى على مقربة الشبكة الحديدية في كليركنويل وسمعت جريان النهر المطمور في اتجاه نهر التيمز. هل تعلم أنني ضحكت في اليوم الذي مات فيه زوجي، هل سبق لك أن رأيتني أقبِّل ابني، ألا تتحدَّث أبداً عن أي شيء مهم؟

كانت كاثرين أمبروز قد زارتها مع جوانا، وبعد وقت قصير من تشخيص إصابة ستيلا بالمرض، تولَّت كاثرين وتشارلز أمبروز مسؤولية أطفال رانسوم (نصحها الدكتور بتلر الذي كان ينتظر قرار ويل بشأن كيفية علاج زوجته، بالهدوء والتعرُّض

للهواء النظيف الجيد، وإرسال الأطفال إلى أماكن أخرى)، وبعد أن كان متخوِّفاً من أن يصبح منزله الهادئ مزدحماً وصاخباً، وجد نفسه يعود إلى المنزل مبكراً أكثر من اللازم، وجيوبه مليئة بالشوكولاتة وألعاب الورق التي كان يلعب بها معهم حتى وقت متأخر للغاية من المساء. إنهم جميعاً يتوقون إلى ستيلا، ولكنهم تحملوا الأمر بشجاعة، كانت جوانا تقضي وقتها بحرية في مكتبة أمبروز، ولكنها تعلمت أيضاً أن تجعِّد شعرها بقطعة قماش، ورسم جيمس أجهزة معقَّدة وأرسلها إلى والدته في مظاريف مغلقة بالشمع.

قالت كورا: «أنا سعيدة لرؤيتك»، يبدو أن جوانا وصلت إلى مرحلة الأنوثة في غضون شهر واحد، حيث تجمع بين أعين أمها وفم والدها. كانت تدرس بجد في كتب تشارلز وتعتزم (حسبما قالت) أن تكون طبيبة أو ممرضة أو مهندسة، أو شيئاً من هذا القبيل، لم تكن قد قرَّرت، ثم تذكَّرت والدتها، وكم تفتقدها، وظهر الحزن في عينيها البنفسجيتين.

قالت كاثرين وهي تقضم قطعة من الخبز والزبد: «ماذا تفعلين هنا في لندن، كورا؟». ما الذي جعلك تغادرين، وأنت كنت سعيدة جدّاً، وشاهدت الكثير؟ إذا كان هناك شخص كان يمكنه أن يحل لغز وحش بلاك ووتر، فهو أنت! في منتصف الصيف قلنا جميعاً إنك كنت تبدين فتاة ريفية ولدت وترعرعت هناك، وشككنا في مشاهدتك عائدة في القطار مرة أخرى.

قالت كورا بشكل واضح: «أوه، كل هذا الوحل والتشوش»، ولم تفكر في أن تمازح صديقتها للحظة: «أنا أشبه بفأر مدينة

ولطالما كنت كذلك، وفي ظل ما كانت تفعله تلك الفتيات المجنونات، اللواتي كن يهمسن عن الأفعى، وحدوات الأحصنة في منطقة أشجار البلوط ظننت أنني إذا بقيت لفترة أطول قد أجن، ثم قالت وهي تقطع الخبز دون احتساب: «لم أكن أعرف حقّاً ما كنت أفعله».

قالت جوانا: «لكنك ستعودين إلى إسكس قريباً، أليس كذلك؟ يجب ألا تتركي أصدقاءك عندما يمرضون، لأن هذا هو الوقت الذي يحتاجون إليك فيه!»، انهمرت دموعها بطريقة لا يمكن إيقافها.

«قالت كورا وهي تشعر بالخجل: «أوه- نعم، لا تقلقي يا جوجو، سأعود بالطبع».

ثم قالت كاثرين: «ماذا حدث يا كورا؟». لقد تحدثت كثيراً عن ويل رانسوم، وقد كنت خائفة تقريباً مما يحدث! ولكن بعد ذلك رأيته معك وكنت تتحدثين بالكاد، واعتقدت أنكما على الأكثر تتبادلان الاستلطاف. تبدو صداقة غريبة بالنسبة إلينا، ولكن بعد ذلك لم تفعلي أي شيء بالطريقة التي اعتقدناها، والآن تكرَّر الأمر مع ستيلا، وهي في حالتها كما نعرف... «، لكن كورا التي لم تستطع أبداً منذ ترمُّلها أن تخفي أي فكرة تجوب رأسها -أمالت جفنيها حتى كادت تغلق عينيها، وقالت: «لم يكن هناك شيء غريب في الأمر، استمتع كلانا بصحبة الآخر لفترة من الوقت، هذا كل شيء».

إذا كان بوسع كورا أن تفسِّر ما حدث لفعلت، ولكن على الرغم من الأفكار التي عبَّرت عنها في وقت متأخر من الليل، وفور استيقاظها، فإنها لم تستطع أن تكشف عما يدور

بداخلها. لقد كسبت عواطف ويل، لأنه كان من المستحيل أن يريدها كما كان يفعل مايكل في السابق؛ كانت عواطفه مكبَّلة من جميع الجوانب لأكثر من سبب؛ ستيلا، وإيمانه، وما كان يشير إليه من فشله الكامل في ملاحظة أنها امرأة «قد أكون بمثابة رأس في وعاء من الفورمالدهيد، حيث كان ذلك كل ما يهتم به». قالت ذات مرة لمارثا: «لهذا السبب يفضل أن يراسلني على أن نلتقي، فأنا مجرد عقل ولست جسداً، أنا آمنة كالأطفال، ألا ترين إلى أي درجة أفضِّل ذلك؟».

واعتقدت هذا أيضاً حتى الآن، عندما فكرت في تلك اللحظة التي تغيَّر فيها كل شيء، رأت أنها الملومة، وليس هو، فما كان ينبغي لها أن تنظر إليه بالطريقة التي نظرت إليه بها، ولم تكن لديها أي فكرة عن سبب قيامها بذلك. لقد عاملها بجرأة قليلاً، مما أصابها ببعض الانزعاج، ولما أحسَّ ذلك منها فقد توازنه. من المؤكد أن خطاباته الآن كانت لطيفة بما يكفي، ولكن يبدو أنها فقدت براءتها نوعاً ما.

ثم جاءت رسالة لوك، وكانت هي التي قد أفقدتها التوازن، فلم تكن بالمرأة التي تتغافل عن حبه، حيث أعلنها مراراً وتكراراً، ولكن لم يعد من الممكن أن تضحك، وأعلنت أنها أيضاً تحبُّ قصيرها، ضاعت البراءة نوعاً ما. الأسوأ من ذلك أنها بدت كمن يخضع لمحاولة إجبار، فبعد كل هذه السنوات التي ضاعت من شبابها لأجل شخص ما، وبعد أن حصلت على حريتها لأشهر قليلة، أراد أحدهم أن يسيطر عليها مرة أخرى. قال لها في رسالته: «أعلم أنه لا يمكنك استعادة حبي»، بطريقة تنم عن يأس لم يصل إليه أحد من قبل.

وبينما تعبر ذا ستراند بجوار كنيسة القديس بول، عثرت على صندوق بريد وألقت فيه رسالة موجهة إلى الدكتور غاريت بقدر من قلة الاحترام. جاء من خلفها صوت الموسيقى، ورأت على درج الكاتدرائية رجلاً يرتدي سترة جندي ممزقة يحاول لف مقبض آرغن. كان كمه الأيسر فارغاً، وانعكست الشمس على الميدالية المعلقة على صدره. كان اللحن مرحاً، وحسَّن مزاجها، عبرت إلى حيث جلس ووضعت بضعة نقود في قبعته.

كورا سيبورن
ميدلاند جراند أوتيل
لندن
20 أغسطس

لوك

وصلت رسالتك. كيف يمكنك فعل ذلك، كيف يمكنك فعل ذلك؟

هل تعتقد أنني يجب أن أشفق عليك؟ لن أفعل، فأنت أشفقت على نفسك بما يكفي لكلينا.

تقول إنك تحبني. حسناً، كنت أعرف ذلك، وأنا أحبك، كيف يمكنني ألا أفعل ذلك؟ وتسمى ذلك فُتاتاً!

الصداقة ليست فتاتاً، أنت لا تأخذ مني الفُتات، بينما يأخذ شخص آخر الخبز بالكامل. هذا كل ما لديَّ الآن. حسناً، أتمنى أن يكون لديَّ ما أقدمه لك بشكل أفضل، ولكن في الوقت الحالي، هذا كل ما في جعبتي.

حسناً، دعنا نترك الحال كما هي عليه.

كورا

كورا سيبورن
ميدلاند جراند أوتيل
لندن
21 أغسطس

لـوك، قصيـري، وعزيـزي، مـاذا فعلـت بـك، كتبـت لـك دون أن أعـرف مـا حـدث لـك- أخبرتنـي مارثـا بالـذي فعلتـه، وأنـا لسـت مندهشـة، فقـد كنـت دائمـاً أشـجع رجـل أعرفـه.

وحاولـت أن أحدِّثـك عـن الصداقة عندمـا لـم أفعـل أبـداً لأي شـخص مـا فعلتـه أنـت مـن أجلـه!

أخبرني متى يمكنني القدوم، أخبرني أين أنت.

مع حبي، عزيزي لوك- صدقني

كورا

الطبيب جورج سبنسر
طريق بنتوفيل
لندن
29 أغسطس

عزيزتي السيدة سيبورن

أتمنى أن تكوني بخير. أريد أولاً أن أخبرك أن لوك لا يعرف أنني أكتب إليك، لأنه بالتأكيد سيغضب إذا أخبرته ولكنني أعتقد أنك يجب أن تعرفي ما يعانيه.

أنا أعرف كيف كتب لك. رأيت ردك. لم أكن لأفكر أبداً في أنك قادرة على أن تكوني قاسية هكذا.

أنا لا أكتب إليك لتفعلي شيئاً، فقط أريد أن أخبرك بما حدث في الأيام التي تلت ذهابنا إلى بيثنال غرين.

يجب أن تعرفي كيف واجهنا هناك الرجل الذي طعن إدوارد بورتون، وكيف تدخَّل لوك لحمايتي. أسوأ ما في الأمر هو أن السكين أصاب يده اليمنى. أولئك القريبون كانوا لطفاء جدّاً؛ فهناك فتاة مزَّقت تنورتها لتضمِّد جرحه تحت تعليماتي، وجلب أحدهم باباً واستخدمه كنقالة لحمله من الأزقة إلى الشارع التجاري، حيث استطعنا أن نستقل سيارة أجرة،

ولحسن الحظ كنا قريبين جدّاً من مستشفى لندن الملكي في وايت تشابل، وكان هناك زميل قادر على الحضور إليه في الحال. تم تنظيف الجرح، لأن العدوى كانت مصدر قلقنا الأول، مما سبَّب له كثيراً من الألم، لكنه رفض أي مخدر، قائلاً إن عقله يسيطر على الأمر ولا داعي لتخديره.

ربما من الأفضل أن أخبرك طبيعة الإصابة. لا أعرف هل تستطيعين تحمل ذلك أم لا؟ أنت ملمَّة بما فيه الكفاية بالعظام المدفونة، ولكن هل تعرفين متى تقفين على الحية منها؟

انغرست السكين في كفه بالقرب من قاعدة إبهامه وحركته كما يُنزع اللحم المطهو من عظام السمك بشكل أو بآخر أو كأنه يتم سلخ راحة اليد، فقُطعت العضلات، ولكن ما هو أسوأ أنه تم قطع اثنين من الأوتار التي تتحكَّم في حركة سبابته وأصبعه الوسطى.

كانت الأضرار واضحة بما فيه الكفاية، فالجرح كان نظيفاً جدًّا، لدرجة أن الطالب كان يمكن أن ينظر إليه ثم يجتاز اختبار التشريح.

طلب مني أن أعالجه، رافضاً مرة أخرى التخدير وتحدث عن أساليب التنويم المغناطيسي التي كان يدرسها، وكيف أن طبيباً في فيينا قد نزع ثلاثة ضروس عقل تحت تأثير التنويم المغناطيسي دون أن يجفل. أخبرني كيف درَّب نفسه للدخول في غيبوبة نوم عميق لدرجة أنه سقط على الأرض دون أن يستيقظ، ثم قال مرة أخرى إنه لا يعتقد أن الألم لا يطاق أكثر من المتعة الشديدة (انشغاله بالتفكير الذي لم أفهمه أبداً)، وطلب مني أن أعده بألا أخدِّره حتى النوم إلا للضرورة

القصوى. أذكر كلماته بدقة حين قال: «أنا أثق في عقلي أكثر من ثقتي بيديك».

لم أستطع أن أطلب ممرضة للمساعدة، فقد لا يكون ذلك عادلاً. أعتقد أنه كان سيهيئ الغرفة بأسلوبه المعتاد إذا استطاع، لكنه لم يستطع فعل شيء سوى الاستلقاء على طاولة العمليات وإعطاء التعليمات، كان كلانا يرتدي أقنعة قطنية بيضاء. جهَّزت مرآة حتى يتمكَّن من رؤية التدخُّل الجراحي حين يستيقظ من غيبوبته.

كان جرحه يحتاج إلى أفضل جراح في أوروبا وليس أنا، فمهاراتي متواضعة في أحسن الأحوال (في الواقع، لقد اعتاد السخرية من أدائي منذ أن كنا ندرس معاً). كانت يدي تهتز في كل مرة كنت ألتقط فيها الأدوات، حتى تحرَّك الحامل المعدني، وأدركت حينها أنه قد يعرف أنني خائف. طلب مني أن أخلع الضمادات حتى يتمكَّن من فحص الجرح وإصدار التعليمات قبل الدخول في التنويم المغناطيسي، وعلى الرغم من أنني لا أستطيع تخيُّل المعاناة التي تحمَّلها عندما انسلخ القماش عن اللحم، لم يفعل شيئاً أكثر من الضغط على شفته السفلي وبدا شاحباً أيضاً. رفعت الأنسجة العلوية لراحة يده حتى يتفحَّص أوتاره المكسورة التي بدت كما لو أنها جثث قطعناها وقمنا بخياطتها.

أخبرني كم غرزة يحتاج الأمر لوصل طرفي الأوتار معاً، وضمان بقاء الغمد سليماً -كيف يمكنني ألا أتسبب في شد جلده حتى يتمدَّد بمجرد إغلاق الجرح، ثم بدأ يهمس لنفسه، حتى شعر بالراحة، أنشد أبياتاً من الشعر، وأسماء

الكيماويات، وعظام جسم الإنسان، ثم في النهاية تدحرجت عيناه نحو الباب، وابتسم كما لو كان قد رأى صديقاً قديماً يمر، ودخل في غيبوبة.

خنته؛ أعطيته وعدي وعرفت أنني سوف أحنث به. انتظرت لحظات قليلة، ولمست جسده بخفة، وشعرت بالرضا أنه ربما يكون غائباً عن الوعي قليلاً أو كثيراً، استدعيت ممرضة وحقناه بالمخدر.

استغرقت الجراحة أكثر من ساعتين. لن أزعجك بتفاصيل العملية الجراحية، ولنقل فقط بشيء من الخزي إنني أعطيته أفضل ما لديَّ، ولم يكن ذلك كافياً. لم أعرف أحداً يضاهيه في مهارته وشجاعته، إذ كان بإمكانه أن يتحمَّل ذلك بمفرده، فأعتقد أنه في خلال عام من الزمن لن يلحظ أحد سوء إصابته. أغلقت الجرح، وتمت إفاقته، وعندما شعر بألم في حنجرته بسبب الأنبوب، عرف على الفور ما فعلته، وأعتقد أنه ربما كان ليخنقني إذا كان بإمكانه ذلك.

بقيَ في المستشفى لمدة يومين ورفض مقابلة جميع الزائرين. أصرَّ على إزالة الضمادات، حتى يتمكَّن من فحص عملي. لم تكن خياطتي أفضل مما قد يفعله طفل أعمى، على حد قوله، لكنني على الأقل حافظت على نظافة الجرح، ولم تكن هناك أي علامة على العدوى.

عندما تحسَّن بما فيه الكفاية للذهاب إلى المنزل ذهبت معه إلى غرفة على طريق بنتونفيل، ومن ثم وجدنا رسالتك على ممسحة الأرجل.

اسمحي لي أن أقول لك: لقد نجحت فيما فشلت فيه

السكين، لقد حطمتِه وأطفأت نور قلبه وقضيتِ على جميع آماله!

مرَّت ثلاثة أسابيع ولم يكن هناك أخبار جيدة. تضرَّرت أوتاره التي تحرِّك سبابته وأصبعه الوسطى بشكل كبير، وأصبحت ملتوية نحو راحة اليد على شكل خطاف. ربما قد يستعيد قدراً كبيراً من قدرته على تحريك سبابته وأصبعه الوسطى إذا أدى التمارين التي يجب أن يقوم بها، لكنه فقد الأمل. لقد نزعتِ شيئاً منه، وأصبح شارد الذهن دون عزيمة، لقد رأيت ذلك من قبل في أعين الكلاب الذين كسر أسيادهم أرواحهم الواثبة.

رسالتك الثانية كانت لطيفة نوعاً ما، بالتأكيد، لكن ألا تعرفينه جيداً بما يكفي لتتركي شفقتك لنفسك؟

لن أكتب مرة أخرى إلا إذا طلب مني ذلك.

إنه غير قادر على الكتابة وحتى الإمساك بالقلم.

لكِ عظيم الشكر

جورج سبنسر

الفصل الرابع

أوقات التمرد الأخيرة

سبتمبر

1

كان الخريف معتدلاً في ألدوينتر، كانت أشعة الشمس التي تغمر الأرض، تغفر عدداً كبيراً من الخطايا، وقد أصبحت زهرة الكلب البرية قرمزية الأغصان، وتلوَّنت يد الأطفال باللون الأخضر أثناء كسر أشجار الجوز، وتفرَّقت مجموعات الإوز عند مصب النهر، وغطَّت أنسجة العنكبوت نبات الجولق بطبقة من الحرير.

وعلى الرغم من ذلك؛ فلم تكن الأمور كما يجب أن تكون، يغرق منزل نهاية العالم في المستنقع، وهناك فطر ينمو في الموقد الفارغ. رصيف الميناء هادئ، ومن الأفضل المخاطرة بفصل شتاء يغمره الكساد، أفضل من الإبحار في المياه الملوثة. كانت الشائعات تأتي من بوينت كلير وسانت أوثيس وويفنهو وبرايت لينجسي، في ليلةٍ ما أثناء دورة المد، رأى صياد الوحش في نهر بلاك ووتر؛ ففقد صوابه. تم العثور على طفلة نصف غارقة بعلامةٍ سوداء رمادية على بطنها؛ وكان هناك كلب مرتفع فوق المياه المالحة ورأسه مائل، ومن حين إلى آخر، يجلس حارس يفتقر إلى الحماسة، ويشعل النار بجوار ليڤياثان، ويضع علامة في السجل، ولكنه لا يكمل الليلة أبداً.

لا يوجد أي إشارة حتى الآن على ناعومي بانكس، ولا يقال أبداً إنها من المحتَّم أن تكون قد ذهبت في ليلةٍ ما إلى المستنقع وواجهت الأفعى، لكن ذلك كان يُفترض بشكلٍ عام. ترك بانكس شباك الصيد الخاصة به متشابكة، وتلاشت الأشرعة الحمراء، وتم منعه من قِبل وايت هاير؛ نتيجةً لترويعه زملاءه المخمورين «إنها قادمة؛ هل أنتم مستعدون أم لا!»، فهو يرفع صوته عالياً من عتبة الباب، وينقلب في الشارع.

في غرفة على طريق بنتوفيل، يشبك لوك يديه جيداً بما فيه الكفاية، وسبنسر يربط الأثواب ويفكُّها، ويعجب بعمله واستخدامه للإبرة في التطريز، ويرى الاعوجاج داخل الأصابع، وفي هذه الأثناء، يبدو لوك هادئاً على الشارع المبلل، ولا يقول شيئاً. لقد حفظ رسالة كورا الأولى من الكلمة الأولى إلى توقيعها، كيف يمكن لك فعل هذا؟ كيف يمكن لك فعل هذا؟ وتمر الثواني ولا يجد إجابة عن جميع ما شعرت بالندم لأجله.

تكتب مارثا إلى سبنسر، قائلة: إن إدوارد بورتون ووالدته سيخسران منزلهما، فالإيجار أصبح لا يطاق. ليست كل المغاسل والسجاد اللامع من قصاصات الأقمشة البالية في لندن، قادرة على توفير المال الذي يكفي بالكاد لتوفير الطعام، وعيش حياة عادية. هل تم القيام بأي شيء؟ هل لدى تشارلز أي شيء يخبرنا به؟ متى يمكنها جلب أخبار جيدة؟ يكتشف سبنسر الإلحاح بين طيات السطور، ويُرجع الأمر إلى قلبها الرقيق، وضميرها اليقظ، لكنه لا يملك شيئاً يقدمه، ولا يمكنه التفكير في كيفية الرد.

في منزل أمبروز الأبيض المرتفع، نما الأطفال بوزن ثقيل؛ مثل تشارلز. جوانا تعرف الجدول الدوري، والشيء الرائع عن الوتر، ويمكن أن تكتشف مغالطة منطقية بعد مئة ياردة. إذا قرَّرت يوم الاثنين الدخول إلى البرلمان، فبحلول يوم الأربعاء، لن يثنيها شيءٌ عن فعل ذلك سوى القانون، ويمنع تشارلز عنها احتمالية وجود أي منهما، سوف تفقد الأمل، كما يفعل الجميع في نهاية المطاف، ومن حينٍ إلى آخر، تتذكَّر أنها تلقي تعاويذها الصبيانية مع ناعومي بانكس، والشعور بالذنب يبعث شفقتها، فأين رفيقتها ذات الشعر الأحمر الآن؟ هل تجعَّدت تموُّجاتها في المدِّ والجزْر لخمس قامات كاملة؟ لا يزال لديها رسمة ناعومي؛ التي تُظهر يديهما المتشابكتين، وتسأل كاثرين إذا كان بإمكانها وضعها في إطار.

تستيقظ كاثرين ذات يوم؛ فتسمع صوت بكاء، وتجد الإخوة في ذراعي أختهم، فهم يريدون أمهم، ويفتقدون القرية. لقد اتفقوا على الانتقال إلى إسكس بحلول نهاية الأسبوع، وإلى جانب ذلك، تقول جوانا إن هناك مأجوج التي ينبغي أن نفكر فيها، لا تزال مربوطةً في الحديقة، وتفتقد سيدها. لقد تمَّت مواساتهم برحلةٍ إلى متجر هارودز، وكعكة كبيرة الحجم، تكفي لإغراق بحار.

بقيت كورا في فندقها بلندن، واحتقرت السجاد والستائر. كان لديها في جيبها رسالة من سبنسر، ينصحها بعدم الزيارة، ومن فرط الأدب، كانت الورقة باردة في يديها. كانت مارثا تراها تمشي من غرفةٍ إلى أخرى، ولا تجد شيئاً تقوله لتهدِّئ من حدة غضبها. كانت كورا تهتم قليلاً بكتبها وعظامها، فهي تشعر بالملل والتوتر، وهناك تجعد جديد بين حاجبيها.

استقر توبيخ سبنسر بداخلها، وكانت مستاءة، ففكرتها عن نفسها لم تتضمَّن أبداً الأنانية أو القسوة، فقد كانت دائماً تنوي فعل ذلك، ولكنها لم تفعل ذلك أبداً. إنه تعديل كبير، ولقد أخطأت بفداحة، ولم تكن ترغب في فعل أي ضرر، ولكنها تسبَّبت في الكثير.

رسائل ويل قيّمة للغاية، قرأتها في كثير من الأحيان، دون الرد عليها. كيف يمكنها الرد؟ فهي تشتري بطاقة بريدية من منصَّة في المحطة، وتكتب أتمنى لو كنت هنا، ولكن ما الصواب الذي فعلته على الإطلاق، للتعبير عن رأيها؟ أثناء غيابه دون إمكانية المشي معه أمام الجميع، والعثور على مظروف على العتبة (بيد ناعمة تعتقد دائماً أنها تستطيع أن تكتشف تلميذ المدرسة)، يصبح العالم مملاً ومتناقضاً، لم يعد هناك أي شيء فيه يبعث على الفرحة أو المفاجأة، ثم تصيبها حماقتها لتشعر بالكآبة؛ لأنها لا تستطيع التحدث إلى بعض قساوسة إسكس، الذين لا تشترك معهم في شيء! إنه أمر سخيف، فخرها يثور ضدها، وفي النهاية تعود إلى نفس المربع تقريباً، فهي لا تكتب، لأنها تريد ذلك.

وهي تحاول ـ كما حاولت في كثير من الأحيان من قبل ـ تحويل كل حبها غير المألوف إلى فرانسيس. كيف يمكن للأم والابن التمتُّع قليلاً معاً؟ إنها تستخدم كل خدعة في الكتاب، محادثات حول مواضيع ترضيه، ومحاولات لإلقاء الدعابات والألعاب، تجربة أن تصنع له المخبوزات، وتشتري له الروايات التي كانت على يقين أنه سيحبها، في بعض الأحيان، كانت تضبطه في حالة من القلق، أو تظن أنها تفعل ذلك، وتحاول مواساته، وكانا يذهبان في رحلات متكرِّرة باستخدام

المترو إلى وجهات من اختياره. إنه يُعبِّر بقليل من الكلمات، ولكن ينقصها المودة، وأحياناً تعتقد أنه يشفق عليها، أو (أسوأ من ذلك بكثير!) تعتقد أنه يجدها مسلية.

فقدت مارثا أعصابها، وقالت: «هل فكرت حقّاً أنك تستطيع الاستمرار على هذا النحو، فأنت لم ترغب أبداً في وجود الأصدقاء أو الأحبة، كنت تريد من يتودَّد إليك! ما يبدو عليك هو تمرُّد الفلاحين. قالت: «فرانكي، نحن ذاهبون إلى النزهة».

يقف ويل على منبر الوعظ في كنيسة جميع القديسين، وينظر إلى الحشد الموجود، ولم يجد ما يسعفه من الكلمات، وكان الحشد بدوره في حالة ما بين انعدام الثقة والحماس، في بعض الأحيان، يبدو وكأنهم مستعدون لإحداث فوضى لا تنتهي، وفي أوقات أخرى، كانوا يرمقونه بنظرات ازدراء؛ كما لو كان هو السبب في المتاعب كافة. شخص ما في مكان ما قد ارتكب إثماً ما، وهذا بإجماع الناس، فإذا كان لا يمكن الوثوق بالقس لاجتثاث مرتكب الآثام، فذلك يعني وصول الأمور إلى وضعٍ حرج.

في كل مرةٍ يجد نفسه يتحرك بلا اتزان؛ مثل إبرة البوصلة بين القطبين الجنوبي والشمالي؛ تارةً بين زوجته التي يحبها، وتمثل المصدر الوحيد لجميع أفراحه، وكورا سيبورن التي لا تجلب له سوى المتاعب، وصلت ويل أخبار كارثة لوك عن طريق تشارلز، وقد يتخيَّل قساوسة آخرون هذه النهاية السريعة لمسيرة الجراح، أنها كانت النية الإلهية، كما لو كانت العناية الإلهية هي من تتعامل مع السكين ببراعة، حيث أنقذت ستيلا من تهديد المشرط، وبطبيعة الحال؛ لن يكون ويل رجعياً

جداً في تفكيره، ولكن مثل طبيعة الأمور كافة، من الصعب عدم الشعور بأن فترة العطاء الإلهي قد امتدَّت، فإن المعاملة الوحشية التي رأوها ذات مرة من غاريت، وهي الرئة المريضة التي انهارت داخل تجويفها، صارت الآن مستحيلة، حيث لن يوافق أي جراح آخر في إنجلترا على ذلك.

دون وجود كورا، يجد أفكاره تائهة دون توجيه. بعد كل شيء، ما حدود مواجهة ذلك، إذا لم يكن قادراً على إخبارها، ومشاهدة ضحكاتها أو عبوسها عند الرد؟ يجد نفسه مضطرباً، وغير مستقر، وغالباً ما ينتابه الشعور بالغضب؛ نتيجة كليهما، لأنه سمح فقط بانحطاط الأخلاق الحميدة (هذه هي الطريقة التي يضعها لنفسه)؛ لكسر العقدة بينهما. ربما تجد نفسها مبتهجة جداً من دعوة صديقها الجريح لقس القرية مع زوجته المريضة، فهو يجلب له طعاماً دسماً لا ينبغي له أن يأكله، ويتعلَّم كيفية تغطية الجرح، وسحب غرز الحرير من الجلد. كان يُلبسها زياً أبيض ويقعدها عند قدمي الطبيب، ويميل رأسها ناحية يده المجروحة، ويروِّعه أن يجد نفسه حسوداً، وكان يعتقد أن الأمر كله سواء، فسرعان ما ينتقل خطاب ما بهذه الطريقة أو غيرها بين المدينة والريف، ويبقى فقط أن نرى من سيكون أول من يفتح الورقة المطوية، ويستخدم قلمه للكتابة.

خلف ضلوع ستيلا رانسوم، تتشكَّل الحديبات. إذا تمكَّنت كورا من رؤيتها، فلقد ذكَّرتها بحفريات العلجوم التي تجمعها على رف الموقد، فهي تُرسل خلايا كاسحة تؤدي إلى انتشار العدوى، وبدأت الأوعية الدموية برئتيها في التحلُّل، وإظهار نفسها في بقع قرمزية على مناديلها الزرقاء.

من بينهم جميعاً، لا يشعر بالسعادة سوى ستيلا. إنه أمل الشفاء من مرض السل، الذي يمنح مرضى الدرن قلباً سعيداً وقلقاً في الوقت ذاته، وروحاً مفعمة بالأمل. إنها تفيض بفرح لا يوصف، ومليئة بالمجد، وتُطوَّق بالسعادة الأبدية النابعة من المعاناة، الكامنة بتفانٍ في تصنيفها الأزرق. مثل العقعق يزين عشه، ويجمع التعويذات حوله، من حزم بذور زهور كف الذئب وزجاج البحر، وبكَر من الخيط البحري، ومقلتاه تنظران بثبات نحو السماء. شعرت أن أقدامها غادرت الوحل، الذي كانت غارقة فيه في الماضي، استيقظت في الليل، وكان العرق يتصبَّب منها؛ نتيجة إصابتها بحمى خفيفة من السعادة، وشاهدت وجه المسيح ذا الأعين الزرقاء. كانت تسمع أحياناً الأفعى تنادي بهمس، ولا تخاف منها. ذات مرة، كان هناك أمر مشابه، إنها تعرف ذلك العدو منذ القِدم.

إن حبها لزوجها وأولادها لا يتضاءل، بل يزداد إلى أبعد حد، ويبدو الأمر كما لو أن حجاباً أزرق رقيقاً قد رُسِم بينهم، ويل يهتم جداً بحبه، فهو لا يكاد يتركها، ويرى جفاف بشرة يديها، ويشتري لها عند عودته من كولشيستر، زجاجة من سائل ترطيب من ماركة ياردلي.

في بعض الأحيان، تضع رأسه على كتفها وتحمله؛ كما لو كان هو المريض. لم تعد الآن حمقاء كما كانت من قبل، لقد رأت تعلقه بكورا يزداد تعقيداً، وكانت تشفق عليه من ذلك، وكانت تكتب في كتابها الأزرق دون ضغينة «حبيبي لها وهي لحبيبي»، وكانت تقول في تلك الليلة: «متى تعود كورا؟»، وهي تلعب لعبة الخيوط الزرقاء، وتردف قائلةً: «متى تغادر لندن؟ لقد اشتقت إلى سماع حديثكما معاً».

في الليل، قبل أن أخلد إلى النوم، بحثت عن الذي تحبه روحي، وسعيت إليه ولم أجده.

عندما كنا نتقاسم الوسادة، وكان يقول: «ستيلا نجمتي، أنفاسي ملكك، وأنفاسك ملكي». إنه الآن على بعد خمس عشرة خطوة من غرفتي، حتى يكون آمناً من العدوى التي أصابتني.

آه، لكن لديه رفيقة أفضل! فليقبِّلها؛ لأن قبلاته لمن يحب أفضل له من الشراب، وهي متعطِّشة إلى ذلك!

أفهم أن هناك نوعاً من الطلاء الأزرق الذي يطلقون عليه

اللازورد؛ لأن الأحجار التي تُطحن لصنعه يجلبها البحر

2

امـرأة تمشـى علـى خشـبة المسـرح وحدهـا، فـي قاعـة اجتماعـات مايـل إيند. كانـت هزيلـة وحاجباهـا داكنيـن، وترتـدي ملابـس قاتمـة، وبـروحٍ مرحـة، تفحَّصـت جمهورهـا قليـل العـدد. ربمـا كان هنـاك مئـة رجـل وامـرأة ينتظـرون، وكانـوا يهمسـون تحـت القبـة البيضـاء، هنـا كانـت إليانـور ماركـس التـي تعـدَّت شـهرتها شـهرة أبيهـا.

جلـس بينهـم إدوارد بورتـون- ملتقطـاً أنفاسـه بصعوبـة نتيجـة الهرولـة- وكان يشـعر بضآلتـه داخـل معطفـه الشـتوي. كانـت مارثـا تتملمـل بعصبيـة إلـى جانبـه، وقالـت فـي تألـق: «لقـد قابلتهـا مـرة واحـدة، كمـا تعلمـون». «قالـت إنهـا تدعوهـا توسـي، مثـل أصدقائهـا».

فـي حالـة تـرك بورتـون مـع خططـه، لـم يختـر حضـور اجتمـاع عـام للرابطـة الاشـتراكية، إلا أن مارثـا كانـت مـن المسـتحيل أن تقـاوم حضـور مثـل هـذا الاجتمـاع. لقـد قالـت: «لا معنـى لسـماعي فحسـب»، وهـي تصـب الشـاي مـن وعـاء التبريـد، وأردفـت قائلـةً: «لا معنـى للتعامـل مـع الأشـياء بشـكل غيـر مباشـر. سـأوافقك الـرأي، سـوف نتعـاون معـاً، لا يمكنـك أن تقبـع هنـا إلـى الأبـد مـع خططـك».

أثناء أسابيع فترة نقاهته، كانت الأرض قد بعُدت أكثر عن الشمس، وكان الهواء صافياً ولامعاً، كما لو كان ينظر إلى العالم من خلال رقعة زجاجية مصقولة. لقد عصف به مؤخراً، ما إذا كان جسده في هذه الأيام مرهقاً، فعقله أخيراً لم يكن كذلك، أيقظه صموئيل هول من سبات طويل. بدا من المستحيل أن تكون قد مرت سنوات عندما أخذ مكانه المخصص دون شكوى، وهو مكان مناسب تماماً في مؤسَّسة الطحن الكبيرة بلندن. ما رآه عنه الآن، كان جسداً مريضاً يتشنَّج من الحمَّى، المرض الذي يطارده في طرق شرايينه وقنواته، وغمس سمومه في جميع أنحائه وأطرافه. كان مستيقظاً على نحوٍ مؤلم، ولا يهدأ، كان يأكل خبزه متسائلاً عن الساعات الطويلة التي عمل فيها الرجال المحتضرون في مطاحن الدقيق. لقد شاهد والدته تخيط قصاصات، وعرف أن قيمتها أقل قيمة من الطوب في الشارع. لقد رفع المالك قيمة إيجارهم، ورأى أنه ليس جشعاً شخصياً، مجرد عرَض آخر من أعراض المرض. لقد فكَّر في جمجمة صمويل هول المشقوقة، وكان ذنبه مفعماً بمشاعر الشفقة، وتدهور وضع هول بسبب العبودية، تماماً مثل الجميع.

هذا الحماس الجديد، كان لا يمكن تمييزه عمَّا شعر به تجاه مارثا، ولم يقم بأي محاولة لفصل أحدهما عن الآخر. لم يجد نفسه أبداً في صحبة النساء، لقد كانت أشياء ثمينة يتم التجادل حولها، ونادراً ما كانت أكثر من ذلك. الآن، لم يسعَ إلى أي صحبة أخرى غيرها، وكان يستطيع بصعوبةٍ أن يذكر أسماء الأولاد والرجال الذين كانوا يتجمَّعون حول مكتبه في هولبورن. لم تبدُ له كرجل ولا كامرأة، بل كجنس آخر

بالكامل. كيف وقفت في النافذة، وضغطت يدها على جوف ظهرها المقعَّر، كيف أثَّر العرق بين عظم كتفيها في فستانها، لقد جعله هذا يشعر بعطشٍ شديد، كان خائفاً ألا ترويه أي كمية ماء، لكنها كانت أيضاً نشطة، ومستعدة للصدام، وغير مبالية بالثناء. لم تفسح المجال، وجعلته يضحك، ولم تحاول أن تسعد مطلقاً، ولم تستخدم أي حيل. عرَّف إدوارد نفسه بأنه فاقه دهاءً، وتفوَّق عليه في الرماية. إنها تحدثت في كثير من الأحيان عن كورا سيبورن، بطريقة تراوحت بين الإعجاب والغضب؛ الذي بدا بالكامل في الحفاظ عليها. لقد كانت شخصيةً لم يعرف مثلها على الإطلاق، وقد قبلها تماماً. كانت والدته حذرة، وقالت: «لم أكن أعلم ذلك أبداً!» (موضحةً أن مارثا كانت دائماً تغادر غرفهم أقل أناقة؛ مقارنة بحالتها عند دخولها إليها). «تحتاج المرأة إلى منزلها الخاص، إضافةً إلى وجود الرجل فيه. أنا أسمِّي هذا مجرد ترهات- وهل ينبغي أن تكون هنا وحدها؟».

لم يكن هناك أي تكلُّف يأتي من على خشبة المسرح في قاعة الاجتماعات، ولا تزال حماسة واعظ مسيرة الإنجيل أقل من المعهود، كانت لهجة المتحدث واقعية، ربما كانت مضجرة قليلاً. اعتقد بورتون أنها قد عانت، أنا متأكد من ذلك. تقول إليانور ماركس: «إنها قصة حزينة وبشعة»، وبدا للذين يراقبونها أنها نمت في المكانة التي كانت تتحدث عنها، وتنفك خصلات شعرها «هذا التحالف غير المقدس من الأساتذة والمحامين والقضاة ضد العبيد..». أومأت مارثا بجانبه مرة واحدة، أو مرتين، ووضعت علامات في دفتر ملاحظاتها؛ ففي الصف الأمامي جلست امرأة تبكي

في هدوء، وكانت تحمل طفلاً نائماً، ومن حينٍ إلى آخر، يخترق الصمت صوتٌ معارض، ويتم إسكاته بنظرة، فخشبة المسرح بدت وكأنها مكتظَّة بالفتيات اللاتي قطعت الآلات أجسادهن، والأولاد يئنون تحت نيران موقد كبير، بينما كانوا يقفون على مقربة منه، وفي ذلك الوقت، كان الرجال البدناء يحرِّكون سلاسل ساعاتهم، وهم يشاهدون تراكم رأس المال «هذه أوقات عصيبة، وستأتي أيام أكثر قسوةً منها؛ حتى يتبدَّل هذا النظام السيئ. هذه ليست نهاية نضالنا، بل إنها البداية!»، كانت هناك هتافات، وأُلقيت قبعة على خشبة المسرح- لم تنحنِ، بل اكتفت برفع يدها التي كانت بمثابة إيماءة وداع وتشجيع. نعم، فكر إدوارد بورتون، وهو واقف واضعاً يده على صدره الذي يؤلمه. نعم، أعتقد هذا، ولكن كيف؟

على مقعد في حديقة مربعة صغيرة، كان يأكل رقائق البطاطس بطعم الخل، وكان الأطفال الذين يرتدون ملابس الحفلات، يقفون منتظرين على الرصيف، وخلفهم بائعو صحيفة ستاندرد ينادون بصوتٍ مرتفع على الصحيفة المسائية، وقال متعجباً: «لكن كيف؟»، وأردف قائلاً: «كل ما أقرأه وأسمعه، يشعرني أحياناً بالغباء. يجتاحني الغضب الداخلي، ولا أعرف ماذا أفعل حيال هذا الأمر».

وقالت مارثا: «هكذا فهمونا، ليست وظيفة العبد الأجير أن يفكِّر، فالفتيات في شركة براينت وماي، والأولاد في المحاجر، هل تعتقد أن لديهم الوقت للتفكير، والتخطيط، والثورة؟ هذه هي الجريمة العظيمة، لا يحتاج أي شخص إلى التقييد في الأغلال، عندما يكون عقله مكبلاً فعلاً بما يكفي، فبمجرد أن أفكر في أننا لم نكن أفضل من الخيول المربوطة

بالمحراث، أجد الأمر أسوأ من ذلك بكثير، فنحن لسنا سوى تروس تدور في آلاتهم، نحن المسامير الموجودة في العجلة، والمحور لا يتوقف عن الدوران! وماذا بعد؟ يجب أن أعمل. لا أستطيع الهروب من تلك الآلة».

قالت: «ليس بعد، لكن التغيير بطيء، حتى العالم يتغير على نحوٍ بطيء جداً».

استند إدوارد المرهق على المقعد. لمس الرجل الثري أشجار الكستناء والبلوط والليمون اللندني، وكان صديقه إلى جانبه. قال: «مارثا، هذا فقط»، وكان الكلام كافياً في هذه اللحظة.

قالت: «أنت شاحب.. نيد، دعني أصطحبك إلى المنزل»، قبَّلته وفي فمها ذرة ملح.

إدوارد بورتون
4 شارع تمبلر

مارثا ـ ألن تتزوجيني؟ ألم نكن بخير معاً، أنت وأنا؟

إدوارد

يُسلَّم باليد

عزيزي نيد،

لا أستطيع الزواج منك ـ لا أستطيع الزواج على الإطلاق.

لا أستطيع أن أعدك بالحب والاحترام والطاعة. أنا أطيع فقط من يأمرني عقلي أن أطيعه، وأحترم فقط أولئك الذين تستوجب أعمالهم الاحترام!

لا يمكنني أن أحبك كزوجة مجبرةً على حُب زوجها. أرى اليوم الذي ستنفصل فيه كورا سيبورن عني، ولكن لا يمكنني فعل ذلك معها أبداً.

ماذا الآن، هل تعتقد أن الخلافات السياسية تتوقف عند عتبة الباب؟ هل تعتقد أن الأمر يتعلق فقط بالمنصات الصغيرة ومجموعات المعتصمين، وليست مسألة حياتنا الخاصة أيضاً؟

لا تطلب مني أن أدخل في ارتباط يقيِّدني ويبقيك حُرّاً. هناك طرق أخرى للحياة، هناك روابط بجانب تلك التي تفرضها علينا الدولة! دعنا نعِش كما نعتقد ـ بحريةٍ ودون خوف ـ لا تدعنا نلتزم إلا بالعاطفة والأغراض المشتركة بيننا.

إذا لم يكن لديك زوجة، فهل سترافق إحداهن، هل سيكون لديك رفيقة؟

صديقتك،

مارثا

إدوارد بورتون
4 شارع تمبلر

عزيزتي مارثا- سأفعل!

إدوارد

3

استيقظت هارييت، الفتاة الصغرى ذات الفستان الأصفر بين الفتيات الضاحكات، قبل الفجر، وتقيَّأت على وسادتها، وفي الزاوية انتفضت أمها، ونهضت لتهدِّئ من تنفُّس طفلتها في هواء الصباح، ولكنها شعرت بالاختناق، وتقيَّأت هي الأخرى، فمن خلال نافذة زجاجية مكسورة، قد دخلت الغرفة رائحة كريهة، تحملها الرياح الغربية الدافئة القادمة من نهر بلاك ووتر. تسلَّلت إلى ما قبل منزل نهاية العالم، ولم يكن هناك شيء، فقد مرَّت وانتقلت إلى حدود ألدوينتر، حيث تشعُّ أضواء قليلة. تركت الطفلة على ذراع أمها، وجاءت إلى كوخ بانكس محمولةً مع النسيم؛ الذي أثار أشرعة حمراء من المراكب الكبيرة الموجودة على رصيف الميناء. نام بانكس بعمق من شدة الثمالة؛ لدرجة أنه أصبح من المحال أن يوقظه شيء، ولكن شيئاً ما أزعجه في الظلام، ونطق باسم ابنته المفقودة ثلاث مرات، وأثناء مرورها، مرت بوايت هاير، وعلى عتبة الباب، كان هناك كلبٌ ضال، يئنُّ لوفاة سيده منذ زمن طويل، ومروراً بالمدرسة، حيث كان السيد كافين مستيقظاً بالفعل، ويضع علامات على دفاتر قواعد اللغة، ويحزن لإساءة استخدام الفاصلة، فجأة صرخ باشمئزاز، وركض ليجلب كوباً من الماء. بدأت طيور

الغـداف فـي التجمُّـع أمـام منطقـة شـجر البلـوط علـى قارعـة الطريـق العـام، مستشـعرةً بوليمـة فـي الهـواء المليـء بالرائحـة الكريهـة، فـي بيت كـورا الرمـادي، زحفت فـوق البـاب، وتحـت عتبـة البـاب؛ وتسـرَّبت فـي نسـيج المـلاءات علـى سـريرها، ولا يمكـن العثـور عليهـا، وطافـت حـول بـرج جميـع القديسـين، ووصلت إلـى نافذة بيت القسيس، اعتقـد ويليام رانسـوم؛ الـذي لـم يكـن ينـام في دراسـته، أن فـأراً كان يتعفَّـن تحت الألـواح. كان يضغط بفمه علـى طرف كُـم قميصـه، وركـع علـى ركبتيـه أسـفل المكتـب، بجانـب الكرسـي الفـارغ؛ الـذي احتفـظ بـه بجانـب كرسـيه، ولـم يعثر علـى شـيء. ظهـرت سـتيلا عنـد عتبـة البـاب، وكانـت متوهِّجـة فـي ثـوب أزرق مـن السـاتان، تظهـر مـن خلالـه عظـام كتفيهـا كأجنحـة صغيـرة، تسـاءلت: «مـا الـذي يحـدث؟»، بيـن الضحـك والاختنـاق: «مـا الـذي يحـدث؟»، ورفعـت حفنـة مـن اللافانـدر إلـى أنفهـا.

قـال ويـل، وهـو يضـع سـترته حولهـا: «هنـاك كائـن ميـت فـي مكـان مـا»، خوفـاً مـن أن تبـدأ واحـدة مـن نوبـات السـعال التـي هـزَّت جسـدها الصغيـر؛ كمـا لـو كانـت محتجـزة بيـن فكّـي أحـد الحيوانـات المفترسـة: «شـيء مـا علـى الطريـق العـام، ربمـا خـروف».

قالـت سـتيلا: «ليـس مأجـوج! آمُـل ذلـك، لـن يُغفـر لنـا أبـداً، ولكـن لا يمكـن رؤيـة آخـر فـرد مـن عائلـة كراكنيـل فـي نهايـة الحديقـة، غيـر مضطـرب، ويمضـغ وجبـة إفطـار مبكـرة، ويـل: «هـل يجـب أن نوقـد النـار. أوه! أوه، إنـه خطـأ، خطـأ، سـوف تخـرج إلـى الطريـق العـام، وتشـاهد الأرض تنشـقُّ، ويخـرج الآثمـون وعظامهـم مكسـورة وشـفاههم متشـقِّقة مـن العطـش! لمعـت عيناهـا، كمـا لـو كان المشـهد قـد راقهـا، فـي حيـن أزعـج

ويل أكثر من الهواء كريه الرائحة؛ الذي كان يظن أنه يمكن تذوُّقه على طرف لسانه؛ إنه شيء كريه، وتعتريها مشاعر الشك. هل يجب أن يذهب إلى هناك؟ ربما ينبغي له، بالتأكيد يجب عليه. مَن كان أيضاً هناك للبحث عن سبب كل ما حدث في الآونة الأخيرة في القرية؟ أشعل ناراً، وبعد فترة وجيزة، طغت رائحة دخان الخشب على الرائحة الكريهة. ألقت ستيلا ما لديها من اللافاندر، وكانت هناك رائحة قصيرة وحادة للصيف الحالي. قالت وهي ترتِّب الأوراق على مكتبه: «استمر» (هناك كثير من الرسائل! ألم يخرجها قط؟)، وأعطته معطفه. «عشر دقائق أخرى، وسنستمع إلى الجرس، وسيطلبك شخص ما في مكان ما».

قال وهو يقبِّلها: «ربما ارتطم قارب صيد بالأرض بسبب الملوحة، ولفظ حمولته، وكانت الأسماك متعفِّنة، وبالفعل كان الطقس دافئاً بما فيه الكفاية في الصباح».

قالت: «أتمنى لو كان الأطفال هنا، ألم تستيقظ جوجو أمامنا جميعاً، ونزلت بمصباح، وتحسَّست أماكن قدميها، ورسم جيمس رسماً على الأوراق».

وتجمَّع في هاي رود حشدٌ من الناس. ربط السيد كافين قطعة قماش بيضاء حول رأسه؛ كما لو كان مصاباً بجُرح، بينما أدخل آخرون الأكمام في أفواههم، وضغطوا عليها، وأخذوا ينظرون إلى ويل بريبةٍ، وهم يبحثون بحماسٍ عن إشارات من الكتاب المقدَّس، أو بعض الأسلحة الأخرى المخبَّأة في باطن ذراعه المضمومة، ولم ينتَب ويل هذا الشعور حتى تلك اللحظة، إلى أن شمَّ في الهواء المعتم، ليس فقط

رائحة التعفُّن، بل والخوف أيضاً، فربما كان هناك سببٌ آخر للرائحة الكريهة، إلى جانب سوء الحظ، لكن كانت والدة هارييت هناك (تبكي، كعادتها في أغلب الأوقات)، وقامت بعلامة التصليب لتبارك نفسها؛ وكان هناك بانكس، ولم يكن متزناً بعد، وكان يقول إنه لن ينزل إلى الماء، إذا كان الوحش قد قذف لفائف من الشعر الأحمر. كان إيفانسفورد يرتدي قميصه الأسود، ويبدو أكثر من أي وقتٍ مضى، وكأنه حانوتي محروم من الجثث، يتلو أجزاءً من سِفر يوحنا؛ والغبطة تملأ وجهه. حتى السيد كافين؛ الذي كان يُعلِّم طلابه كل عام أن الواحد والثلاثين من أكتوبر، لم يكن سوى الذكرى السنوية لمارتن لوثر كينغ؛ الذي أخذ المطرقة والمسامير؛ ليضع أطروحاته الـ 95 على باب الكاتدرائية، بدا (هكذا كان يعتقد ويل)، قليل الخبرة بشأن الخياشيم.

قال: «صباح الخير، إنه صباح جميل»، ثم سأل: «ما الذي أتى بنا جميعاً، وجعلنا نترك أسِرَّتنا؟»، فلم يحصل على جواب، وقال بشجاعةٍ، وهو يربِّت على كتف بانكس: «والآن، كما تعلمون جميعاً، أنا لست بحاراً، ولا يمكنكم أن تتوقَّعوا مني معرفة أي شيء عن أي شيء»، وتوجَّه بحديثه إلى السيد بانكس، قائلاً: «أنت تعرف نهر بلاك ووتر أفضل منَّا جميعاً، ما سبب هذه الأعمال الرهيبة؟ هل تعتقد أن الرياح هبَّت، وزادت قوة الرائحة». أسكته ويل، وقال: «ربما انجرفت بعض الطحالب عبر البحار، أو ربما كانت هناك كمية كبيرة من سمك الرنجة متراكمة على الشاطئ!».

قال بانكس؛ وهو محاط بأكمام معطفه: «لم أشم شيئاً من قبل أو أسمع به»، وأردف قائلاً: «هذا ليس طبيعياً، أعرف ذلك».

قال ويل؛ وعيناه تفيض بالدمع: «حسناً.. أنت تقول ذلك؛ لكن ليس هناك شيء طبيعي أكثر من رائحة الأشياء الميتة؛ التي أفترض أنها يجب أن تكون كذلك. أنا وأنت نشمُّ نفس الرائحة في الوقت نفسه». لاحظه الحشد الصغير بنفور، وقد رأى حقاً أن المزحة كانت في غير وقتها المناسب. «حسناً؛ اقرأ الكتاب المقدس، لذلك لن نخاف، على الرغم من أن الماء هادر ومضطرب، فماذا لديك!».

قالت والدة هارييت: «سأقول لكم ما هو، وأنا لا أحتاج أن أقول لك يا سيد بانكس، أليس كذلك؟ أو أنت أو أنت..». أومأت بمغزى إلى السيد كافين، وإلى امرأة أو اثنتين؛ بدا عليهما عدم الاكتراث بنوع الهواء، وبدأت بالفعل في التجوُّل على هاي رود، نحو نهر بلاك ووتر، حيث بزغ الفجر، وتابعت: «لقد جاءت إلينا في النهاية، إنها أفعى إسكس؛ وحش النهر، ولم يكن أيٌّ منا مستعداً لذلك! جاءت إلى طفلتي الصغيرة أولاً، بالتأكيد، ليس هناك مجال للشك! جاءت إليها أول مرة، وهي مريضة للغاية، ولن يريحها أي كلام أقوله».

ولاحظ إيفانسفورد أنه بعد كل ما وعد به المُخلِّص بنفسه، كان هناك بكاء ونحيب وصرير أسنان، وعزَّزتها هذه الملاحظة، فاستمرت المرأة قائلةً: «إنها أنفاس هذا الشيء، أؤكد لكم أنها أنفاسه، وبين براثنه توجد أجساد وعظام كل شيء، فتى سانت أوثيس، الرجل الذي كان يغتسل على شواطئنا...».

وقال السيد كافين: «إنها حمَّى المستنقع الكريهة، كما علَّمنا آباؤنا، وتحمِل معها المرض، انظر! أنا محموم. إنه الطاعون، لقد بدأ»، ومن المؤكد أن جبينه متعرِّق، وبينما كان

ويل يراقب، بدأ يرتعد ويلوي فمه، إلى ما قد يكون إما بداية تشنُّجات أو ضحكات.

وقال بانكس؛ الذي كان متحمساً: «لقد لفظ البحر غرقاه!» (إذا كان الأمل قد انتهى من أن يحمل ناعومي حية بين ذراعيه، فعلى الأقل سيكون من دواعي سروره أن ندفنها)، «فلقد سلَّم الموت والجحيم أولئك الموتى!».

قال ويل وهو في غضب متزايد: «الجحيم! حمَّى المستنقع!»، واكتشف أن الرائحة؛ إما قد بدأت في الانحسار، أو أنه قد أَلِف الاشمئزاز، ثم توجَّه بكلامه إلى السيد كافين، قائلاً: «الأفعى! الطاعون! سيد كافين، أنت لست مريضاً؛ كوب واحد من الشاي جدير أن يشعرك بتحسُّن. ماذا بكم! أنا أعرفكم جميعاً يا ذوي العقول الراجحة. بانكس.. لقد كنت أنت نفسك من علَّمتني كيفية استخدام آلة السُّدس! كافين، لقد رأيتك تُعلِّم ابنتي كيفية حساب مسافة العاصفة! نحن لسنا في العصور المظلمة. ليس الأطفال الذين يصدقون حكايات الغول والشياطين، فأولئك الذين ساروا في الظلام، رأوا نوراً عظيماً! لا يوجد شيءٌ هناك، ليس هناك ما نخشاه، ولم يكن هناك قطُّ، سوف نذهب لنجد مجرد خروف مغسول في طريق مالدون، وليس البعض منها، إنها بعض الأعمال البغيضة المُرسلة لتعاقبنا!».

لكن كانت مبالغة عظيمة أن نتخيَّل الذكاء الذي قد قسم البحر الأحمر ذات مرة، ليتحمَّل عناء إرسال عقاب بسيط إلى الآثمين في أبرشية إسكس في الأرض المالحة! لقد وضع بولس الرسول يده في جحر الثعابين، ولم يصبه السم،

وكانت هذه علامة على أنها معجزة. لا شك في أن العالم قد حوَّل آلاف الثورات منذ ذلك الحين، ولكن هل انتهى بالفعل موسم العلامات والمعجزات؟ لماذا كان يبدو له الأمر دائماً غير معقول بأن شيئاً ما كان ينتظر مترقِّباً في مصب النهر. لم تكن المسألة إخفاقاً في تصديق أمر الأفعى، ولكن الإخفاق في أن يؤمن بربه. بدأ ينتاب ويل الخوف من الحشد، مع الإحساس بمذاق عملة نحاسية على لسانه، ولم يكن يخاف من أنهم كانوا تحت الحكم الإلهي، ولكن الأمر أنهم لم يكونوا كذلك، ولا يمكن أبداً أن يكونوا كذلك، واعتقد ويل أن كورا تجده يعانق الهواء الفارغ، وكأنه يستجمع بشكلٍ ما، ذكريات لمس يدها القوية، وقال: «كورا! لو كانت هنا، يا ليتها كانت هنا». ثم استشاط غضباً، وحاول أن يخفي ذلك قائلاً: «حسناً إذن، ما الفائدة من الوقوف هنا والاختناق والتخيُّل؟ سأذهب إلى أسفل النهر وأنظر بنفسي، ويمكنكم الحضور، أو كما تريدون، لكن دعوني أخبركم، بحلول وقت الغروب، سيكون هذا الأمر كله قد انتهى، ولن يكون هناك حديث أكثر عن الأفاعي». اتجه شرقاً إلى هاي رود، صوب نهر بلاك ووتر، ومصدر اشمئزازهم. بينما سادت الهمهمة والنزاع؛ حيث كان الحشد الصغير في أعقابه؛ وأمسكت والدة هارييت ذراعه بثقةٍ؛ قائلة له: «لقد ودَّعت الطفلة عند الباب كما تركتها، ولا أعرف ما إذا كنت سأعود إلى البيت».

في السوق؛ حيث كان شجر البلوط في منطقة تشارلز الخائن مليئاً بطيور الغداف، وكأنها محصول من الفاكهة، سار ويل في ظلِّها، ساد السرب الشره حالة من الصمت، وزادت الرائحة النتنة التي لا تطاق، وخرج السيد كافين عن الحشد لإيجاد

ملجأ، حيث كان يرى نوافذ المدرسة المضاءة، وقال إنه ليس مضطراً ليجد موقعاً في مكان بعيد وموحل كهذا، ولكن على أي حال، لا يمكنه القول إن أحداً لم يحذِّره، ثم هدأت الرياح الهادئة، وغيَّرت مسارها. طارت طيور الغداف من فوق شجرة البلوط؛ مع نظرة من الرماد الأسود الناتج من بعض الأوراق المشتعلة، ومع تغيُّر الهواء، بدأت الرائحة تنحسر، وتهب باتجاه مصب النهر، حيث يستيقظ آخرون في الصباح على رائحة القذارة. غنَّى بانكس بشجاعة؛ جزءاً من أغنية «قصاصة من أكواخ البحر»، واحتسى رشفة من الشراب.

ثم كان هناك منزل نهاية العالم، وكل واحد يتجنَّب أعينهم، على الرغم من أنهم شاهدوا الشجر المقطوع على شكل طحالب؛ حيث رقد كراكنيل في انتظار ضريحه، ومع ذلك، كان من المستحيل الاعتقاد بأنه لا يمكن أن يكون هناك خلف الزجاج المرقَّط، مع التقاط الحشرات من كم معطفه. حفنة الآن، كان هذا كل شيء، ويليام رانسوم، مع أم هارييت على يسراه وصياد عن يمينه، وخلفهم إيفانسفورد، صامت ومشفق.

تقدَّمت المرأتان إلى الأمام، وتحدَّثتا بشجاعةٍ كافية، مشيرتين إلى بقايا سحابة ملطَّخة بالأحمر من خلال ارتفاع الشمس، وتحوَّلت إلى خفاش في الهواء؛ كما لو أنها قد تتخلَّص من الرائحة التي قويت مرة أخرى؛ كلما اقتربتا من الأرض المالحة. اضطربت معدة ويل بسبب الاشمئزاز والخوف. لم يكن يعتقد أنهم سيواجهون قريباً أفعى إسكس، وهي تنثر أجنحتها الرقيقة على الألواح الخشبية، وتنهش بمنقارها، وتتقيَّأ أجزاء من العظم، لكن أوه، كان غير مرتاح.

قال بصوتٍ مرتفع، يحمل الخوف، ومختلف عن صوته الذي كان بمرونة صوت رجل يجدف: «كورا!».

ألقى بانكس عليه نظرة ملتبسة، وربما حدَّث نفسه قائلاً: «لم تتوقَّف إحدى النساء المتقدِّمات إلى الأمام في الطريق، وألقت ذراعها نحو الشاطئ، وبدأت في الصراخ». كان رفيقها يترنَّح من الصدمة، وخطا على حاشية لباسها متعثراً، وكان غير قادر على التمسُّك بها من أن تترنَّح أسفل المنحدر، ففتح فمه خوفاً.

كانت هناك لحظة، تذكَّر ويل في ما بعد أنها كانت ثابتة، كما لو كانت على لوحة المصور، المرأة التي تسقط، بانكس الذي أُسر بمشاعره نحوها أثناء سيره، دون فائدة، وفي كلامه سخرية عذبة؛ رغم خروجها عن المألوف، ارتفعت مع ارتفاع المد في مصب النهر، ثم انكسرت الصورة، وببعض الوسائل، لم يكن بوسعه أبداً أن يفسِّر بشكلٍ كافٍ، أنهم كانوا جميعاً يجلسون على الألواح الخشبية في الأرض المالحة، وهم يقفون بجانب عظام ليڤياثان السوداء، وهم ينظرون في رعبٍ وشفقة إلى ما لفظه البحر.

بجوار حافة الماء المتعرِّجة، كانت ترقد جثة لمخلوق ما في حالة تعفُّن، ربما كان يبلغ طولها عشرين قدماً، بحيث كان يبدو أن نهايتها الأخرى تتناقص تدريجياً؛ لتصل إلى نقطة صغيرة تقريباً، وكانت دون أجنحة أو أطراف، وكان الجسد مشدوداً مثل جلد الطبلة، واللون فضياً لامعاً. على طول العمود الفقري، تظهر بقايا زعنفة واحدة؛ نتوءات مثل أسلاك المظلة، في ما بينها فتات غشاء جفَّت بفعل النسيم

الـذي يهـب مـن الشـرق، وتحطَّـمـت وتبعثـرت. تعثَّـرت المـرأة حـال سـقوطها علـى رأس هـذا الكائـن، كانـت العينـان واسـعتين مثـل قبضـة معقوفـة، ومفتوحتيـن دون أن تريـا، وخلفهـا زوجـان مـن الخياشـيم، انفصـلا عـن لحـم الجسـد فضـي اللـون؛ لتظهـر تحتهمـا تجاعيـد لحميـة عميقـة قرمزيـة اللـون فـي الداخـل، تشـبه الجانـب السـفلي مـن الفطـر. لقـد تعـرَّض هـذا الكائـن لهجـوم، أو علـق فـي هيـكل أحـد القـوارب الكبيـرة المبحـرة علـى صفحـة نهـر التيمـز فـي طريقهـا إلـى العاصمـة، ففـي الأماكـن التـي يخفيهـا الجلـد المشـدود، والتـي تلمـع حينمـا تسـقط عليهـا أشـعة الشـمس عنـد الشـروق والغـروب بألـوان الزيـت علـى المـاء، تظهـر جـروح باهتـة، تخلـو مـن الـدم. أينمـا لامسـت هـذه الجثـة الطيـن أو الحصـى، تركـت بقايـا شـحوم؛ كمـا لـو كانـت الدهـون قـد بـدأت تخـرج مـن الجلـد الـذي يغطيهـا، فـي داخـل الفـم المفتـوح؛ الـذي كان يغطيـه شـيء مـا كأنـه منقـار غيـر حـاد لعصفـور، وتظهـر أسـنان دقيقـة للغايـة، كمـا رأوا قطعـة مـن اللحـم سـقطت بعيـداً عـن العظـم وخاليـة منـه؛ كمـا لـو كانـت مقطَّعـة بسـكين العشـاء.

قـال بانكـس: «انظـروا... هـذا كل مـا قـد كان... هـذا كل مـا قـد كان»، وخلـع قبَّعتـه ووضعهـا علـى صـدره، ونظـر سـاخراً؛ كمـا لـو كان قـد قابـل الملكـة عنـد بـزوغ الفجـر فـي إسـكس؛ وهـي فـي طريقهـا إلـى البرلمـان، وهـو يقـول: «أيهـا الكائـن التعيـس، هـذا كل مـا قـد كان، فقـد ضعـت هنـاك فـي الظـلام، أسـتطيع أن أقـول إنـك قـد هلكـت، وأُلقيـت فـي المسـتنقعات، وقذفـت أمـواج المـد والجـزر بجسـدك البالـي إلـى الخـارج».

فكـر ويـل قائـلاً: «أعتقـد أنهـا جثـة لكائـن بـالٍ وتعيـس»،

وعلى الرغم من منظر انفصالها عن الهوامش المزخرفة لمخطوطة ما، فلا يمكن لأكثر الأشخاص إيماناً بالخرافات، أن يعتقد أن هذه السمكة المتحلِّلة وحش أسطوري، إنما هي ببساطة حيوان مثل باقي الحيوانات، نفقت كما ستنفق جميع الحيوانات، وقفوا جميعاً هناك، بعد أن توصَّلوا باتفاق صامت، إلى استنتاج أن الأسطورة لم تُحل بقدر ما تم إنكارها، فمن المستحيل تخيُّل أن هذا الكائن المتعفِّن الأعمى؛ الذي خرجت أحشاؤه على خاصرته الفضية؛ التي كانت بالتأكيد رشيقة وجميلة، كان سبباً في ذعرهم، وبجانب ذلك، أين كانت تلك الأجنحة الموعودة والأطراف القوية، ذات العضلات التي تبرز منها المخالب؟ ربما تكون قد لفت كراكنيل، معانقةً إياه وسط الطين هناك عند مصب نهر بلاك ووتر، لكن كراكنيل قد مات على الشاطئ الجاف، مرتدياً حذاءه طويل الرقبة.

قال إيفانسفورد: «ما الذي يجب علينا فعله؟»، وقد بدا كما لو كان بالأحرى يشعر بالأسف جراء طلوع الشمس المشرقة، وهو لا يزال يرثى هذه الجثة الراقدة عند قدميه، دون الوصول إلى حكم أو قرار «لا يمكن ترك هذه الجثة، إنها ستسمِّم النهر».

قال بانكس: «سوف يسحبها المد والجزر»، وأضاف مؤكداً: «فهو يعرف كيف يتصرَّف مع الأسماك النافقة أكثر من أي أحد، دعوها للمد والجزر، للنوارس».

ثم قالت والدة هارييت: «هناك شيء ما يتحرَّك»، من الذي سيخطو إلى الأمام قليلاً، ويقف في الموضع الذي

انتفخت فيه بطن هذا المخلوق على الألواح الخشبية؟ «شيء ما يتحرك في الداخل!». اقترب ويل، فرأى شيئاً يرتجف ويتلوَّى تحت الجلد؛ لكنه توقَّف، لذلك، فرك ويل عينيه، ظناً منه أن عينيه قد اضطربتا بحلول الصباح الباكر وشروق الشمس، وعندما فتح عينيه مرة أخرى في وقت واحد، كما تفتح الأزرار الصغيرة بسلاسة في وقت، رأى البطن وقد انفتحت على طول خط منتصفها، وخرجت منها كتلة باهتة ملتوية. كانت الرائحة الكريهة لا تُطاق، وتراجع الجميع إلى الخلف، وكأن عاصفة أرجعتهم إلى الخلف، ولم يستطع بانكس أن يتمالك نفس، فهرع إلى عظام ليڤياثان، ولم يستطع السيطرة على نفسه وتقيأ. لا يستطيع أن ينظر.... لا يستطيع، فقد تخيَّل أنه فيما بين القطع البيضاء التي لا تزال تتحرَّك، قد يرى خصلة من الشعر الأحمر، لكن أقدمت إحدى النساء التي لم تبالِ بهذا المنظر، على تحريك هذه الكومة اللامعة بقدمها قائلةً: «دودة شريطية. انظروا إليها، فطولها يبلغ عدة ياردات، ولا تزال جائعة. ربما هي من فعلت ذلك بالوحش، فقد جعلته يموت جوعاً من الداخل. رأيت ذلك يحدث من قبل. ألن تلقي نظرة أيها الكاهن؟ أرى أنه لا يزال لديك ما تخشى عليه بعد كل ذلك؟». أمال ويل رأسه (فقد علم الآن أن هناك من تفوَّق عليه)، وألقى نظرة واستدار قليلاً؛ ليرى آخر حركات للدودة ومظهرها الغريب، كشريط أبيض طويل، خيوطه محبوكة بغير انتظام، ما حكمة الخالق في خلق هذا المخلوق المقزِّز؛ الذي يعيش عالة على حياة الآخرين؟ لا بد أنه يعلم أن هذا المخلوق خُلق لأغراضٍ أخرى.

قال ويل، وهو يكبت رغبته في إلقاء عظة قصيرة، تؤكد

صـواب موقفـه فـي مواجهـة المخـاوف الخرافيـة التـي تنتـاب المزارعيـن؛ مسـتخدماً أسـباباً إلهيـة: «بانكـس، مـاذا علينـا أن نفعـل؟».

قـال بانكس: «دعوهـا»، وكانـت الأوردة الجديـدة تحطَّمـت فـي عينيهـا الرطبـة «سـوف تبتلعهـا أمـواج المـد والجـزر العاليـة عنـد السـاعة الحاديـة عشـرة، أو بعـد ذلـك بقليـل. إن للطبيعـة طرقهـا الخاصـة».

«ألـن يلحـق ذلـك أي ضـرر بأسـماك الرنجـة أو مراتـع المحـار؟».

«انظـر إلـى النـوارس، انظـر إلـى الغربـان، كيـف تتبَّعتنـا مـن المنطقـة العامـة».

«لـن يتطلَّب الأمـر منهـم كثيراً مـن الجهـد، بالإضافـة إلـى مـا سيفعله المـد والجزر، تعـالَ إلى هنا يـوم الأحـد، ولـن تـرى أي أثـر لذلـك».

الآن لا يتحـرَّك أي شـيء. بـدأت عدسـتا عينـي المخلـوق فـي التحـوُّل إلـى اللـون اللبنـي، تخيَّـل ويـل (وهـو يعـرف أنـه أحمـق)، أن النفـس الأخيـر سـوف يأتـي مـن الفـم المفتـوح. بـدأت الألـواح الخشـبية تهيـج وتتحـرَّك، وارتفـع المـد، واقتـرب أكثـر فأكثـر، وظهـرت بقعـة داكنـة علـى إصبـع حذائـه طويـل الرقبـة، وأصبحـت حافتـه مغطـاة بالملـح.

كاثرين أمبروز
كنيسة جميع القديسين
ألدوينتر
11 سبتمبر

عزيزتنا كورا

هل سمعت بما حدث؟ ماذا عن عزمك عدم الاهتمام مجدداً ببلدة إسكس القديمة البائسة (في الحقيقة، لم أعلم عنك من قبل أنك تفقدين الأمل في أمر قد نال اهتمامك، وعقدتِ العزم من أجله!)، أستطيع أن أقول إن هناك أموراً غائبة عنك، لذا؛ يسعدني أن أخبرك بالجديد:

«لقد عثروا على أفعى إسكس».

الآن، انفضي الغبار عن نفسك، وابحثي عن كوب من الشاي (يقول تشارلز الذي يقرأ من خلفي، إذا كانت الشمس ساطعة فوق نهاية صاري المركب، فعليك أن تحتسي كوباً من الشاي ليشد عضدك). سوف أخبر الجميع بالأمر، وحيث إنني حالياً في ألدوينتر، فقد تلقيت الخبر مباشرة من القس ويليام رانسوم؛ الذي نعرف كلانا أنه غير قادر على الإفراط في الحديث لدرجة المبالغة؛ لذلك؛ عليك أن تأخذي هذا الخبر على محمل الجد، وتعتبريه أمراً واقعيّاً وحقيقيّاً، كما لو كان الرجل قد كتبه بنفسه.

حسناً، لقد حدث ذلك كما يلي، صباح أمس، استيقظت القرية على رائحة هي الأشد إثارة للاشمئزاز، في البداية، استنتجت بعض الأفكار أن أهل القرية قد تسمَّموا جميعاً، ذلك لأن الرائحة كانت كريهة، بما يكفي لجعلهم مرضى ملازمين للفراش، هل تتصوَّرين ذلك!

على أي حال، من الواضح أنهم استجمعوا شجاعتهم وتوجَّهوا نحو الشاطئ، فوجدوا الوحش نفسه جثة هامدة. كان حجمه كبيراً؛ كحجم خوف الناس منه، قدَّر ويل حجمه بمقدار 20 قدماً فقط، فهو ليس ضخماً على الإطلاق. كان أشبه بثعبان السمك، ويلمع مثل الفضة أو أم اللآلئ (لقد أصبح شاعراً مع تقدمه في العمر). لقد أدرك من شاهد ذلك كيف أنهم كانوا حمقى، فبعد كل ذلك، ليس هناك وحش على الإطلاق، وبالتأكيد، ليست هناك أجنحة، فقد بدا أن ذلك المجهول، كان قادراً فقط على اقتطاع جزء من ساقك، لكن ترى؛ هل ستكون هناك نهاية للمتاعب والمشاكل التي تخرج من الماء، لتخطف أحد الخراف أو الأطفال. استرجعت لحظة غير سارة مع طفيل من نوع ما، ولكنني لم أرغب في التركيز على مثل تلك اللحظة، وأخيراً، قد ظهر هذا الوحش على ما أفترض، ولكنه ليس أكثر غرابة أو خطورة من فيل أو تمساح.

الآن أعلم أنك سوف تتساءلين، ما إذا كان هذا الوحش يحمل أي تشابه مع الثعابين البحرية، التي اعتادت معشوقتك ماري آننغ البحث عنها، ويؤسفني أن أخبرك أنه لا يشبهها. يقول ويل: إنه ليس لديه أطراف من أي نوع، وأنه على الرغم من حجمه وغرابته، فلا يعدو كونه مجرد سمكة. هناك حديث حول إخطار السلطات بالأمر، أرسل ويل

خطاباً إلى تشارلز؛ حيث تصادف وجودنا في كولشيستر في ذلك الوقت، ولكن من الواضح أن هذا الأمر توقَّف عندما جاء المد وابتلع هذا الكائن مرة أخرى داخل البحر. كورا، كل ما أستطيع المساعدة به، هو الشعور بالأسى تجاهك. يا لها من خيبة أمل! فقد كانت لديَّ آمال أن ننقل هذا الكائن إلى المتحف البريطاني، ونضعه داخل قسم الثعابين البحرية الوحشية المحنَّطة المزودة بأعين زجاجية، ونعلِّق بجواره على الحائط لوحة نحاسية تحمل اسمك. يا لها من خيبة أمل؛ لمن يتطلَّعون إلى يوم الحساب، وأود أن أتساءل ما إذا كان لهم أن يتراجعوا عن توبتهم؟ أعلم أنني قد أفعل ذلك!

في اليوم التالي؛ ذهبنا إلى ألدوينتر، ولدينا بصيص من الأمل أن نرى هذا التعيس بأعيننا، لهذا أنا أكتب لك من خلال الدراسة التي أعدها ويل. الطقس هنا دافئ ومعتدل، النوافذ مفتوحة، وأستطيع أن أرى الماعز ترعى وتأكل العشب، كما هو غريب، أن أكون هنا دون أبناء رانسوم، مع العلم بأنهم قد عادوا إلى منزلنا في لندن! لقد انقلب العالم رأساً على عقب، وكم كان غريباً أن أكون هنا بين أشياء أنظر إليها على أنها لك، خطاباتك (التي لم أقرأها، على الرغم من أنني كنت أشعر بإغراء شديد لفعل ذلك!)، والقفاز الذي أعلم أنه يخصُّك، وحفرية (صدَفة على ما أظن)، لا يمكن إلا أن تكون من اكتشافاتك. أعتقد أن بإمكاني أن أشم رائحتك التي تشبه رائحة أول أمطار الربيع، كما لو أنك قد نهضت لتوِّك من المقعد الذي كنت جالسة عليه! يحتفظ ويل بكتب، يبدو من العجيب أن يحتفظ بها قس، هنا ماركس وداروين، إنه يكيِّف أموره جيداً جدّاً، ولا شك في ذلك!

إن ألدوينتر متغيِّرة الحال جدّاً. عندما وصلنا في هذا الصباح (إلى ما كنت أظن دائماً، وبصراحة أنه قرية موحشة) كان هناك احتفال يعم الأرجاء. كان الأطفال يلعبون في الخارج مرة أخرى، حيث إنه لم يكن ثمة خطر أن يهاجمهم وحش غريب الأطوار خارج المنازل، وكانت النسوة قد فرشن الأحرمة على العشب، وجلسن متكئات بعضهن على بعض، وهن يثرثرن بلا انقطاع. أنهينا شراب التفاح المعد للصيف (لذيذ الطعم، أفضل بكثير من أي شراب تذوَّقته في هذه البلدة)، واستغرقنا وقتاً قصيراً في تحضير خاصرة الخنزير المملَّحة المطهوَّة على طريقة إسكس. كانت ستيلا الحبيبة، التي أُقسم أنها كانت أجمل مما رأيتُها آخر مرة، ترتدي ثوباً أزرق، وترقص قليلاً، بينما كان عازفو الكمان يصدحون بالألحان، ولكن كان عليها أن تذهب إلى الفراش فوراً بعد ذلك. لم أرها منذ ذلك الحين، على الرغم من أنني أسمع خطواتها في الطابق العلوي، مستلقية غالباً على الفراش، تكتب في مفكرتها. أحضرت لها هدايا من الأطفال وخطابات، لكنها لم تقرأها بعد. إنها لا تعتقد أن السمكة الجديدة التي كانت على الشاطئ، هي أفعى إسكس، ولكن كان لديها عديد من الأفكار الغريبة بداخلها مؤخراً. ضغطت بخفَّة على يدها (التي كانت دافئة جدّاً وصغيرة جدّاً)، وقلتُ: بالطبع لا، بالطبع لا، وتركتُها تضع شريطاً أزرق في شعري. إنه مرض قاسٍ؛ ولكنه يعالجها بقدر كافٍ من اللطف.

والآن إذن يا كورا، أرجو أن تسمحي لي -تقديراً لسنِّي- أن أوجِّه إليك بعض اللوم. لقد سمعتُ من تشارلز أنك لم تَرَي لوك غاريت بعد، وأنك لم تكتبي إلى ستيلا أو ويل، مع أنه

من المؤكد أنك تعرفين أنها مريضة (بل يفترض أنها تموت، حتى وإن كان لكل منا طريقته في التصرُّف بالأمور)، وعليها أن تتحمل ذلك دون أطفالها.

يا عزيزتي، أعلم أنك حزينة. أعترف بأنني لم أكن قط واثقة من الشيء الذي أتى بك أول مرة إلى مايكل، ما أخافني قليلاً (هل تمانعين أن أقول ذلك؟)، لكن كان ثمة خطب ما، ومن ثم انكسر الطوق من عنقك وصرت حرة، والآن يظهر أنك تمزقين جميع قيودك! عزيزتي كورا، لا يمكن أن تنأي بنفسك دائماً عن الأشياء التي تؤلمك. إننا جميعاً نتمنَّى لو أنه يمكننا ذلك، ولكننا لا نستطيع. إن العيش في الدنيا متلازم مع الآلام. لا أدري ماذا وقع بينك وبين أصدقائك، لكنني أدري أنه لا أحد منا خُلِق ليكون وحيداً. لقد قلت لي مرة، إنك تنسين أنك امرأة، وأنا أفهم ذلك الآن، إنك تظنين أن كونك امرأة معناه أنك ضعيفة، تعتقدين أن أخوتنا هي اشتراك في المعاناة! ربما كان الأمر كذلك، لكن ألا يحتاج الأمر إلى قوة أكبر للسير ميلاً في طريق محفوف بالآلام؛ بدلاً من قطع سبعة أميال هباءً. إنك امرأة، وعليك أن تبدئي العيش على هذا الأساس. أقصد أن أقول لك: كوني شجاعة.

مع عظيم حبي،

كاثرين

ملاحظة: ثمة شيء عجيب؛ على الرغم من كل هذه الراحة، كل هذا النور في القلب ـ عازف الكمان الذي يضع وردة في عروة زرِّه، ذلك الطعام الرائع ـ إلا أن أحداً لم يجشِّم

نفسه عناء تسلُّق شجرة البلوط في منطقة تشارلز الخائن؛ لينزِل حوافر الخيل المعلَّقة عليها؟ وعندما تغرب الشمس تشتد الرياح، ومن ثم تدور وتومض.

ألا تعتقدين أن هذا غريب؟!

كورا سيبورن
فندق ميدلاند جراند
لندن
12 سبتمبر

عزيزتي كاثرين

لقد تقبَّلتُ لومك بصدر رحب، ولم يُنقِص ذلك من حبي لك شيئاً عن ذي قبل. لقد أثرتُ غضب الجميع، على ما يبدو، واعتدت ذلك الآن. هل تعتقدين أنني أرثى لنفسي؟ حسناً، إنني أرثى لنفسي، مع أنني يمكن أن أكفَّ عن ذلك، لو استطعتُ أن أجد مصدر ذلك الألم. أعتقد أنني أرى ما يسبِّب لي المتاعب، ولكن في اللحظة الأخيرة، أشيح بوجهي عنه، يبدو الأمر سخيفاً جدّاً، من ذا الذي سمع عن امرأة انخفضت معنوياتها بهذا الشكل بسبب خسارة صديق؟

إذن، تم العثور على أفعى إسكس. لو حدث هذا منذ شهر، لكنتُ سأصبح غاضبة جدّاً، لكن أجدني متحجِّرة المشاعر بشكل عام هذه الأيام. أعتقد أنني ظننت، بين الفينة والأخرى، أنني يمكن أن أقف على الشاطئ، وأرى خطم الإكتيوصور يخرج من مياه مصب النهر (يعلم الله أنني رأيتُ أشياء أغرب هناك)، لكن لا أستطيع أن أتذكرها. يبدو الأمر سخيفاً، كأنه أحلام يقظة، تراها امرأة أخرى. الأسبوع الماضي، ذهبتُ إلى متحف التاريخ الطبيعي، ووقفتُ أعدّ

عظام الحفريات هناك، وحاولتُ أن أحدِّد إلى أي مدى أدهشني ذلك، فوجدتُ أنه لم يدهشني قط!

لعلك تعرفين كم كنتُ قاسية تجاه الدكتور غاريت. كاثرين، كيف لي أن أعرف؟ إنهم لا يريدونني هناك، إنني أكتب، وهو لا يرد، ولست متأكدة، ما إذا كان ويليام رانسوم يريد أن يراني هو الآخر. إنني أذهب هائمة على وجهي، أحطم الأشياء. لقد أصبحتُ لا أصلح صديقة، كما أنني لا أصلح زوجة أو أمّاً.

أوه (بعد أن قرأتُ الآن فقط ما كتبتُه بيدي)، يا له من رثاء للنفس! إنه لن يفيدني في شيء. ما الذي سيقوله ويل؟ إننا جميعاً قصرنا في تمجيد الرب وعبادته، أو شيئاً من هذا القبيل، على أي حال؛ هو لا يبدو أبداً مستاءً من إخفاقات الآخرين، ما دام أنها ناجمة عن خطأ بشري، ويمكن توقُّعها، مع أنه لو كان الحال هكذا، فالمفترض به أن يصبر على إخفاقاتي أكثر مما يبدو أنه يفعل الآن، أو على الأقل، يحيطني علماً بالإخفاقات التي أساءته أكثر...

هل ترين الحال الذي صرتُ إليه؟ لم أكن قط أتعامل مثل السيدات أو الفتيات العاديات، أو أصل إلى هذه الدرجة من الحزن! حتى عندما كنتُ فتاة، لم أكن أفعل ذلك، وحتى عندما كنت أحزن!

سأكتب إلى لوك، وسأكتب إلى ستيلا، وسأذهب إلى ألدوينتر.

سأكون بخير، أعدك بذلك.

لك كل الحب مني، يا عزيزتي كاثرين، والحقيقة أن لديك كل حبي، لأنه لا أحد غيرك يريده،

كورا سيبورن

كورا سيبورن
فندق ميدلاند جراند
لندن

12 سبتمبر

عزيزتي ستيلا، عزيزي ويل/

من المعتاد أن أبدأ بعبارة «أتمنى أن تكوني بخير»، ولكنني أعلم أنك لست بخير. لقد شعرت بغاية الأسف؛ حين سمعت كم أصبحتِ مريضة، وأبعث إليك بكل الحب. هل زرت د. باتلر؟ لقد قيل لي إنه أفضل طبيب لحالتك.

إنني عائدة إلى إسكس. أخبريني بما يمكن أن أحضره معي. أخبريني بما تحبين أن تأكلي؟ هل أحضر كتباً؟ هناك رجل خارج الفندق يبيع نباتات الفاونيا، سأحضر لك منها بقدر ما أستطيع في عربة من عربات الدرجة الأولى.

لقد سمعتُ أنه عُثِر على أفعى إسكس، وهي ليست أكثر من سمكة كبيرة على أي حال، وطويلة، وأنها كانت ميتة تماماً! قالت لي كاثرين إن ألدوينتر بالكامل، أقامت احتفالاً بهذه المناسبة. كم كنتُ أتمنى لو كنتُ هناك ورأيتُها.

مع حبي،

كورا سيبورن

4

ردَّت ستيلا وهي تغلق دفترها الأزرق وتربطه بالشريط: «هو ليس هنا، سيندم على فقدانك. لا، لا تجلسي بجواري، لا أرغب في السعال، إلا أنه قد يأتي أحياناً دون توقُّع، وما هذا؟ ما هذا! ماذا جلبت لي!».

انتاب كورا ارتياح وخيبة أمل مما أضعفها، فأخفت ذلك بابتسامةٍ، واضعةً حزمة في حِجْر صديقتها قائلة: «إنه كتاب فحسب، ظننت أنه سيروقك مع بعض معجون اللوز من متجر هارودز، نحن نتذكَّر حبك الشديد لها، تعالَ يا فرانكي وألقِ التحية»، إلا أن فرانسيس بدا عليه الارتباك، ولم يسعه إلا الوقوف على العتبة، وكان يجول بنظره في الغرفة. لم يسبق له طوال سنوات الكنوز المتراكمة أن رأى مثيلاً لذلك؛ فقد كان يظن أنه خبير في فن جمع المقتنيات، ولكنه عرف عندما ذاق الهزيمة! استلقت ستيلا رانسوم على أريكة بيضاء بين نافذتين مفتوحتين، تتدلَّى عليهما ستائر زرقاء. كانت ترتدي رداء نوم أزرق داكناً وخُفَّين أزرقين، وتزيَّنت بحبات الخرز فيروزية اللون، وكانت ترتدي في يديها خواتم رخيصة مبهرجة، وعلى كل حافة نافذة عُلِّقت قوارير زجاجية زرقاء متلألئة، وكانت هناك زجاجات شراب ودواء وأباريق صغيرة للعطر، وشظايا

زجاج مجمَّعة من قنوات المياه، وكتل صلبة معتمة اللون، قد قذفها المد، وكانت هناك مقتنيات أخرى موضوعة بأناقة على مناضد ومقاعد، ومرتَّبة حسب درجة عمق أصباغها أو درجة شحوبها، أغطية قوارير وأزرار وقصاصات حريرية، ووريقات مطوية وريش وأحجار، وكانت جميعها زرقاء، فانحنى مذعوراً من مسافة قريبة، وقال: «تروقني أشياؤك المميزة، وأنا أيضاً لديَّ أشياء مميزة»، فاستدارت ستيلا إليه بأعينها الشبيهة بالبنفسج، قائلة له دون دهشة أو توبيخ: «إذن، أنا وأنت نتشاطر عادة البحث عن الجمال الذي لا يراه أحد غيرنا».

ثم خفضت صوتها وهمست بثقة: «إنها أيضاً عادة الملائكة؛ الذين نسلِّيهم أحياناً دون أن ندري، وقد وُجِد كثير منهم مؤخراً». وقد ارتبكت كورا عندما رأتها تضع إصبعها على فمها كإيماءة على السرية، ولكي ترى فرانسيس يقوم بنفس الإيماءة في المقابل. حتماً أصبحت السيدة غريبة في غيابها، هل كان السبب هو المرض؟ لماذا لم يرسل إليها ويل خطاباً ليخبرها بذلك؟

إذن، عادت ستيلا القديمة النشيطة، فانتفضت في ردائها وقالت: «الآن إذن، أنا لديَّ الكثير والكثير لأسأل عنه ولأحكيه. كيف حال د. غاريت؟ إنني لم أتحمَّل الخبر عندما أبلغوني به، لن أنسى أبداً كيف عالجني عندما ذهبت إلى المستشفى. لم يكن عطفه كأي عطف عادي آخر، كما تعلمين، فقد تحدَّث إليَّ كما لو كنا قرينين، فلم يكن ليدعهم يخفون عنِّي شيئاً. هل سيتوقَّف حقّاً عن إجراء العمليات الجراحية؟ لقد كنت مستعدة لأدعه يفعل بي ما يشاء، ولكنني أعتقد أن هذا غير وارد الآن».

وجدت كورا أنها لا تستطيع أن تتحدَّث عن شخصيتها المفضَّلة، دون الشعور بغصَّةٍ في حلقها، وقالت دون اهتمام: «آه، إن سبنسر يقول لي إنه يتعافى بصورةٍ جيدة. هل حقّاً يمكن أن يكون الأمر بذلك السوء؟ هو لم يفقد إصبعاً، وقد يتطلَّب الأمر منه أكثر من عراك في الشارع؛ ليفقد عقله. يا فرانكي، لا، هؤلاء ليسوا ملكك». وقد بدأ الصبي في جمع أحجار زرقاء رمادية من رف الموقد، ووضعها على السجادة؛ متجاهلاً والدته، ونفخ بشدةٍ في حصوة، وقام بتلميعها في كمه.

قالت ستيلا: «دعيه يلعب من فضلك، أنا أعتقد أنه يفهمني»، وشاهداه معاً لوهلة وهو يرتِّبها على شكل نجمة سباعية، ومن آنٍ إلى آخر، ينظر نظرةً خاطفةً إلى ستيلا، التي فسَّرتها والدته مندهشةً بأنها نظرة إعجاب.

وقالت ستيلا بحزن: «لقد أبعدوا أطفالي عني»، وفقدت حيوية قلبها لوهلة، وتابعت قائلةً: «أتذكَّر وجوههم بالطبع، ولديَّ صورهم هنا. أنا فقط نسيت شعور أذرعتهم حول عنقي، ووزن أجسامهم الصغيرة في حجري، فرؤيته هناك تشعرني بالسعادة. دعيه يفعل ما يحلو له»، ثم استندت على الذراع المقوسة للمقعد، ورأت ستيلا اللون القوي لخديها يزداد بريقاً، وعندما رفعت رأسها مرة أخرى ظهر شعرها أسود متعرِّقاً عند بداياته.

وقالت: «ولكنهم سيعودون مرةً أخرى؛ كاثرين أمبروز ستحضرهم إليَّ»، ووضعت يدها على الكتاب المقدس وقالت: «لا يحمِّلنا أبانا الذي في السماء ما لا نطيق!».

فردَّت كورا: «يمكنني قول ذلك».

مالت ستيلا إلى الأمام، وقالت بتحفُّظ وثقة: «يقولون: لقد عُثر على أفعى إسكس، ولم تكن إلا مجرد سمكة متعفِّنة! ولكن يا كورا لا يخدعنَّك هذا، فليلة أمس، قد وجِد كلب ميت وعنقه مكسور، وملقى في برايت لينجسي، ولا أثر بعد لابنة بانكس».

قالت كورا في نفسها: «إنها مبتهجة للغاية، أظن أنها في الغالب، تتمنَّى عودة الأفعى إلى نهر بلاك ووتر».

وقالت ستيلا: «إني أسمعها تهمس في الظلام؛ إلا أنني لا أستطيع تفسير كلماتها أبداً...».

فأخذت كورا بيد صديقتها، ولكن ماذا يُقال بعد كل هذا؟ ولمعت عيناها، وكأنها ليست يد الحكم عليها، بل خلاصها. دوَّنت ستيلا بضع ملاحظات في دفترها، ثم هزَّت رأسها؛ كمن يستفيق من نومةٍ خفيفة قائلة: «وكيف حال مارثا؟ لقد كانت تصلي من أجل عودتها مرةً أخرى إلى ألدوينتر، أنا واثقة من ذلك»، وأردفت قائلةً: «فهي ما زالت تمارس عادتها في ترويج الشائعات، وخاضتا في الحديث عن معارفهما الشخصية المشتركة لبرهة من الوقت، بينما كان ويل الغائب الحاضر».

جلس فرانسيس على مسافةٍ منهما، مراقباً بطريقته المعتادة، ورأى كيف كانت ستيلا متمسِّكة بالدفتر، وتربِّت على غطائها الأزرق، وكيف كانت تركِّز انتباهها لوهلةٍ بشغف إلى ما قالته والدته، ثم تبدَّد الاهتمام؛ حيث أصبحت حالمة وغامضة، وأحياناً تعترضها جُمل تُنطق بغرابة على لسانها: «الحقيقة التي أعرف أنكِ تتفقين معي بشأنها؛ هي أن القابل للفساد

هذا لا بد أن يدَّعي أنه حي الضمير، والفاني لا بد أن يدَّعي الخلود!»، ثم تقول ببساطة فور انتهائها: «لا يبدو أن مأجوج يزعجها موت كراكنيل على الإطلاق، فلبنها طيب كالعادة، وطوال الوقت تصبح عينا والدته أكثر سواداً، كما كان يحدث لهما عندما كانت تواجه المصاعب، ربَّتت على يد ستيلا رانسوم، وأومأت، ولم تعارض أبداً، وقالت: «أخبريني مرةً أخرى كيف تجدلين شعرك إلى ضفائر بهذه الطريقة الجميلة، إنني أحاول فعل ذلك، ولكنني لا أجدله بطريقة جميلة أبداً!»، ثم صبَّت كوباً آخر من الشاي.

وعندما نهضت كورا وهمَّت بالمغادرة، قالت ستيلا: «فلتكرِّري الزيارة مرة أخرى، حسناً؟ لا بد أنك حزينة جدّاً لافتقادك ويل، سأنقل إليه تحياتك الحارة، والسيد سيبورن». قالت ذلك وهي تدير وجهها لفرانسيس، وتفرد يديها: «يجب أن نكون أصدقاء، أنا وأنت؛ فكلانا يفهم الآخر. تعالَ مرة أخرى، وأحضر معك مقتنياتك الثمينة، وسوف نقارنها، اتفقنا؟»، ووضع فرانسيس يده في يدها، وشعر بكم حرارتها وصغر حجمها بدرجةٍ كبيرة؛ مقارنةً بيده، وقال: «لديَّ ريش ثلاثة من طيور القيق ويرقة، لو تودِّين أن أحضرها إليك غداً سأفعل».

كورا سيبورن
2 المنطقة العامة
ألدوينتر
19 سبتمبر

عزيزي ويل:

لقد عدت إلى إسكس. المنزل بارد، وأنا أكتب لك هذا الخطاب؛ بينما أجلس بالقرب من المدفأة، وإحدى ركبتيَّ تحترق دفئاً، والأخرى متجمِّدة، وثمة رطوبة تنفذ من الجدران، ويبدو الأمر شخصياً، وفي الليل، أعتقد أحياناً أنني أشم رائحة شيء كالملح، وشيء كالسمك، وهي رائحة ضعيفة جداً آتية من خلال النافذة، وحيال هذا كله، يخبرونني أن هذا لم يكن شيئاً سوى أسماك نافقة مسكينة يحملها المد، ومن السهل تصوُّر أن أفعى إسكس ما زالت موجودة تراقب وتترقَّب، وربما كانت على عتبة الباب، تنتظر الدخول...

أعيش حالةً من الخزي، ومارثا غاضبة مني، فمتى أتتني بكوب الشاي، تضعه بعنفٍ؛ وتتناثر عليَّ القطرات باستمرار، فهي تود العودة إلى لندن، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أنها ستهجرني بشكلٍ ما. لقد طلب مني لوك عدم الزيارة، رغم أن سبنسر أحضره إلى كولشيستر على

سبيل تغيير الأجواء، وأكاد أفكِّر في الذهاب إلى رؤيته! يكتب سبنسر لي، ويوقِّع على الخطاب ويكتب (المخلص لكِ)، ولكنه يقصد النقيض تماماً، واعتادت كاثرين أمبروز أن ترمقني بنظرة عطوفة لا أحتملها، وهذا مزعج، كما لو أنها تريد مني أن أعرف أنني مهما فعلت ستكون بجانبي، في الحقيقة، أفضِّل أن تصفعني.

بالطبع شعرت دائماً بالخزي مع فرانكي، ولكن هذا الشعور الآن يفوق أي وقت آخر. أظن أنه وجد في ستيلا ما كان يبحث عنه فيَّ ولم يجده؛ فهو يحترمها! ولِمَ لا؟ فأنا لا أعتقد أنني قد عرفت شخصاً شجاعاً هكذا.

ومهما بلغ لطفك في كتابتك إليَّ، أشعر دائماً أنني قد أُوصَم بالخزي معك. أشك في حكمة كثير مما فعلت، كما أنني أطلقت العنان للوك بشأن جوانا - في تلك الليلة الغريبة في يونيو - حتى في المجيء إلى هنا من الأساس.

تقول مارثا إنني أنانية، لأنني حاولت أن يتعلق بي الجميع، دون مراعاة ما قد يريدونه، ولقد قلت لها إن هذه طبيعة حياتنا جميعاً؛ وإلا تركنا أنفسنا للوحدة ما حيينا، فأغلقت الباب بقوةٍ شديدة؛ فانكسر مربَّع من الزجاج.

يبدو أن ستيلا هي الوحيدة التي لم تغضب مني. لقد قضيت معها نصف نهار، هل أخبرتك؟ وقد قبَّلت يديَّ، وأنا قلقة على حالتها العقلية، حيث تجدها في لحظة قد تملَّكها اليأس، ثم لا تلبث إلا وتبدو وكأنها قد وضعت قدماً في الجنة، وأقول لك يا ويل، يا لجمالها! إنني لم أرَ أحداً يباريها جمالاً، بشعرها المنسدِل على الوسادة، وعينيها

اللامعتين، أظن أنه ما من رسام يراها إلا وسكب العبرات، ليغمس فيها فرشاته ليرسمها. هي لا تعتقد أنه تم العثور على الأفعى، فتقول إنها تسمع همسها، ولكنها لا تفصح عما تسمعه من همس.

أخبرني عن أحوالك. هل ما زلت تستيقظ مبكراً جداً، وتشرب القهوة مرتدياً رداء النوم قبل استيقاظ الجميع؟ هل أنهيت قراءة تلك الرواية الفظيعة عن بومبي؟ هل رأيت طائر الرفراف حتى الآن؟ هل تفتقد كراكنيل في أي وقت، وتود الاستناد على بوابته، ومشاهدته يسلخ حيوانات الخُلد؟

هل يمكنني رؤيتك قريباً؟

المخلصة

كورا

الكاهن، ويليام رانسوم
كنيسة جميع القديسين
ألدوينتر
20 سبتمبر

عزيزتي كورا،

أخبرتني ستيلا أنكِ أتيت. كنت سأعرف على أي حال، فمَن غيرك يمكنه إنفاق ثروة صغيرة على حلوى من متجر هارودز؟ (بالمناسبة، شكراً لك، أنا أراها الآن تقضمها، وأنا سعيد أنها تتناول شيئاً غير أكواب شاي البوفريل الساخنة).

إنها منسجمة جداً مع فرانسيس، وتقول إنه توأم روحها، وهو شيء مغاير لما ابتدعته حديثاً من ملء المنزل بأشياء متفرِّقة لا قيمة لها. لقد أخبرتها أنني سأرسل خطاباً إليك؛ فطلبت مني أن أسألك إن كان في إمكانك زيارتنا مرةً أخرى قريباً؛ لأن لديها ما تخبرك إياه. لقد قال الطبيب: طالما هدأت حدة السعال، يمكنها استقبال زائرين؛ ولكن لمدةٍ قصيرة.

ألا تشعرين بالتغيُّر في أجواء ألدوينتر؟ أعرف أنكِ سمعت كيف أننا وجدنا ذلك الكائن المسكين النافق على الشاطئ، وكيف أيقظنا جميعاً من أسرَّتنا بسبب رائحته الكريهة. لقد تمنَّيت لو كنت موجودة، أتذكَّر حينها لما فكَّرت في ذلك، وأتذكَّر أنني تساءلت كيف كان يمكن أن تغادري؟

كانت تلك الليلة مثل يومٍ من شهر مايو، مع قدوم موسم الحصاد في وقتٍ واحد. جلسوا هناك في المنطقة العامة طوال الليل، يغنون ويرقصون؛ ارتياحاً بهذا. شعرت بذلك بنفسي، رغم أنني عرفت أنه لم يكن ثمة ما نخشاه! كان إيفانسفورد المسكين يبدو مُعدماً، دون وجود يوم للحساب يتطلَّع إليه، وفي أيام الآحاد، كانت هناك بعض المقاعد فارغة. حسناً، أنا لا أحمل ضغينة لأحد بضمير صافٍ.

وعلى الرغم من ذلك، يصعب التخلُّص من اليأس؛ حيث يبدو المنزل هادئاً كالمقبرة، لقد توقَّفت عن إغلاق باب حجرة دراستي؛ بسبب عدم دخول أي أحد أبداً. يكتب الأطفال كل يوم تقريباً وهم قادمون الأسبوع القادم. عندما أتخيَّل رؤيتهم يركضون على ممر الحديقة، أود أن أعلِّق لافتة مكتوباً عليها، أريد طلقات التحية العسكرية.

تسعد ستيلا بقدومهم، ولكن قلبها يستمر في الخفقان. تقول لي أحياناً إنها لن تموت مواساةً لي، ثم تردف قائلة إنها تبحث عن الحياة الأبدية، ولكنني أعتقد أنها ستموت لا محالة. أنا أحبها. لقد تبادلنا الحب طويلاً، فلم أعِش يوماً إلا وأحببتها فيه. لا أستطيع أن أتخيَّل الحياة دونها، وأشعر أنها أهم لديَّ من نفسي. من سأكون أنا إذا ماتت؟ إذا لم تنظر إليَّ، هل سأكون ما زلت حياً؟ هل سأنظر إلى المرآة يوماً ولا أرى نفسي؟

لا يسعني أن أصدِّق نفسي عند سماعي لخبر مجيئك؛ فقد سرَّني ذلك، بل وفاق ما استحققته لنفسي من السعادة في حياتي يوماً.

كل مساء حوالي الساعة السادسة، كنت أتجه غرباً ماشياً لبرهة، بعيداً عن المستنقع والمصب، وحتى الآن أكاد أجزم أن أنفي لن يتخلَّص من تلك الرائحة الكريهة، أجد نفسي راغباً في أن أدير ظهري إلى الماء وأتجه داخل الغابة.

أود أن أراك قريباً، وأود أن أدعوك للخروج. سنتمشى معاً، اتفقنا؟

ويليام رانسوم

5

انتظرت في الشارع العمومي وهي ترتدي معطف زوجها الصوفي، تترقَّب طوال هذه البرهة القصيرة قدوم ويل. كان الجو دافئاً للغاية في المساء، ولم يكن الأمر يستدعي رفع الياقة خلف عنقها، وكان الخريف يبدو مؤقَّتاً؛ كما لو كان صيفاً معتدلاً، لكن كورا شعرت مؤخراً بعدم الارتياح، ليس فقط عندما تذكَّرت ضغط ويل بكفه على خصرها، فقد أرادت أن تلبس ثياباً ثقيلة، مع أنها لا ترتاح في ارتداء الأقمشة الكثيفة والأحذية الثقيلة. إذا لم تكن مارثا قد أخفت المقص، لكانت تخلَّصت من شعرها، ولكنها شعرت بالرضا بأن قامت بدلاً من ذلك بتجديله على نحوٍ مفرط بعيداً عن وجهها؛ مثل تلميذة ذاهبة إلى المدرسة في الصباح.

لقد مرَّت فترة طويلة منذ أن رأت صديقها، لدرجة أنها فكَّرت أنها بالكاد تعرفه، بجانب قلقها من كيفية تحيته لها؛ التي قد تجفِّف الدم في عروقها، ربما يمكنه أن يُظهر جانبه العابس، أو قد يكون مؤدباً أو محبطاً، هل يمكن أَن يتكلَّم بحرارة مثلما كان يفعل، أو هل سيتكلم بطريقته الخجولة التي تصيبها بالرجفة؟

هبَّت الرياح فوق بلاك ووتر، وجلبت معها رائحة الملح،

ونما على العشب الفطر الطويل بقبعاته اللؤلؤية؛ التي تشبه قشرة المحار. عندما جاء، كان الصمت يعم المكان، وكانت تبدو عليه علامات الذعر كطفل عابس الوجه، لمسها بيده لمسة خفيفة فوق المرفق، وسمعت صوتاً يقول: «لا داعي أبداً أن ترتدي ملابس متأنِّقة لتقابليني». كلماته كانت مدروسة بدقة، وكان إبطاؤه لنطق حروف العلة مألوفاً ومحبَّباً جدّاً، لدرجة أنها لم تستطع التفكير في سبب خوفها، ومن ثم بسطت حافة معطفها مع انحناءة خفيفة.

تبادلا النظرات الفاحصة لبعض الوقت، وكانا غير قادرين على التوقُّف عن الابتسام. ترك ويل ياقته مرفوعة، ومن منطلق عدم اكتراث أهل الريف بالفصول والطقس، كان لا يرتدي معطفاً، وكانت أكمامه مرفوعة، كما لو كان يعمل طوال فترة ما بعد الظهر، وقميصه مفكوك الأزرار. قد خفَّ شعره منذ أن رأته آخر مرة، ولكنه نما بشكل أطول، وكان لونه كهرمانيّاً تقريباً في ضوء المساء، وقد كانت الندبة على خده تشبه حافر الشاه، وبدت عيناه مشوشتين، كما لو كان يفركهما أثناء القراءة في المساء، ففكَّرت كورا وهي مشفقة عليه أنه لا ينام.

وتحت أنظاره، عرفت أنها لم تبدُ أقلَّ تأنقاً من قبل، وقد أدى عدم خروجها من المنزل في معظم أوقات الصيف، إلى أنَّ وجهها أصبح شاحباً ورماديَّ اللون، وأهملت شعرها؛ حتى نما بشكل خشن من أعلى. عندما تنظر إلى المرآة، كانت تلاحظ الخطوط الدقيقة الممتدة من زاوية عينيها، والتجعُّد الموجود بين حاجبيها. شعرت بكل ذلك بحدة، ولكنها لم تنزعج، بل كانت راضية تماماً، ومهما كانت

اللحظة الخاطئة التي وقعت في منتصف الصيف، وتسبَّبت في انفطار قلبها، فمن المستحيل مواجهتها الآن، لم يتخذها أي رجل كحبيبة. كانت الفكرة سخيفة إلى الحد الذي جعلها تضحك بارتياح. أسعده صوتها، لأنه قد محا الأسابيع التي مرَّت منذ أن مدَّت يدها لأول مرة في الغرفة الدافئة، وأعاد إليه هذه الذكرى الرائعة.

قال لها: «هيا، سيدة سيبورن، لنذهب، أشعر أن لديَّ الكثير لأخبرك به»؛ وبعيداً عن شعورها بالاكتئاب أو القهر، شعرت كورا بارتفاع في روحها المعنوية. سارا بسرعة وبخطوات متناسقة، والقرية من خلفهما، والنسيم العليل منتشر في الأجواء. مرَّا ببرج جميع القديسين، ولم يُشيحا أنظارهما مطلقاً، لأنهما لم يعتقدا أن الاستمتاع بالهواء العليل هذا المساء أمر مشين.

كان لديهما مخزون من الحكايات والنوادر، وينزعجان من القصص الطويلة والنظريات شبه المكتملة، ومرت ساعة دون أن يتوقفا عن الحديث، وكان يتعرَّف كل منهما إلى الآخر، ويسجلان في ظل شعور رائع بالمتعة؛ جميع الإيماءات والعبارات المتكرِّرة التي يمكن أن يتذكراها جيداً، والمشاعر والأحاسيس المختلفة؛ مثل الميل إلى التراجع أو المبالغة، وانحراف أحدهما المفاجئ إلى منطقة العشب، ثم ذهاب الآخر خلفه بسرعة كبيرة. كانا يشعران بالسعادة معاً؛ كما كانت الحال في البداية، دون أن يفكِّرا أنه من غير اللائق أن يبتسما كثيراً أو يضحكا بسهولة، وبينما تمسح ستيلا، وهي مستلقية على الأريكة الحريرية الزرقاء، فمها بقطعة من القطن، وتخرجها مخضَّبة بالدماء، كان لوك غاريت في

كولشيستر، يشعر أنه قد أصبح تائهاً بلا هدف. كان كل منهما يشعر بخيانة لا تغتفر ولا تنسى، لقد أغلقا قلبيهما تماماً، فقد كان يجمعهما نقاء القلب.

قالت كورا: «بعد كل ذلك، لم يكن هناك سوى سمك ميت! فعلت الكثير من أجل العثور على أفعى إسكس؛ جناحها وأنفها! حقاً، لم أشعر بتلك الحماقة من قبل. ذهبتُ إلى غرف القراءة (اعتقدت حتماً أنني سأراك هناك)، وفعلت ما عليَّ من واجبات؛ مثل أي تلميذة جيدة، ورأيت سمكة الأورفيش النافقة المكتشَفة في برمودا منذ ثلاثين عاماً، وقرأت كيف تتأرجح الأسماك بالقرب من السطح عندما تموت. يجب أن أعتذر لماري آننغ؛ بسبب أنني أهنتُها مرتين، مرة لكوني امرأة مثلها، والأخرى لأنني امتهنت علم الحفريات؛ كما كانت هي أيضاً.

قال ويل: «لكن، يا لها من سمكة»، ووصف لها كيف تشقَّق جلد بطنها اللامع، وكيف التوت أجزاؤها الداخلية على اللوح الخشبي».

عندما تحدَّثا عن ستيلا، أشاحت كورا بوجهها، يبدو أنها أظهرت لويل دموعها مرة من قبل، وقد قرَّرت عدم القيام بذلك مرة أخرى.

قال ويل: «طلبت فحص الشريحة الزجاجية تحت المجهر»، وهذا يثير مرة أخرى التعجُّب من شجاعة زوجته «نظرت إلى ما يخرج من جسدها، وعلامات الموت التي بدت فيه؛ ولكنها واجهت الأمر أفضل مما فعلتُ. أعتقد أنها كانت تعرف بالأمر منذ شهور، فكأنها رأت ذلك كله من قبل».

«إنها امرأة من النوع الذي قد يساء فهمه، فهي تعتقد ـ بما أنها جميلة للغاية وترتدي ملابسها بشكل جيد، وتنهمك في النميمة والثرثرة ـ أنها ليست سوى راقصة باليه في صندوق مجوهرات يلف في دورات متتالية، لكنَّني عرفتُ من رسالتها الأولى، أن الأمور واضحة أمامها تماماً. لا أعتقد أنها تفوِّت أي شيء، حتى الآن.

«الآن أقل بقليل من أي وقت مضى، رغم أن شيئاً ما قد تغيَّر». لقد دخلا إلى حافة خشبية، وأصبح الدرب أكثر ضيقاً، واجتمعت الغربان على أشجار البلوط، والتصق نبات العلِّيق بملابسهم. تُرك التوت ليتعفَّن على الفرع؛ لأنه خلال كل هذه الأشهر التي مرَّت منذ بدء الأزمة، لم يفكر أحد في الخروج بمفرده حاملاً السلال «شيء ما قد تغيَّر، وقد أخبروني أن هذا سيحدث، لكنَّني لم أتوقَّع ذلك. كان لديها إيمان طبعاً، أو بالأحرى لم أكن لأتزوَّجها إن لم تكن كذلك، أنت مرعوب! ولكن كيف لي أن أطلب من امرأة أن تستغني عن كل أحد، بالإضافة إلى نصف الأسبوع، ما لم تكن تؤمن بنفس الرب؟ نعم، هي مؤمنة، ولكن ليس هكذا». تردَّد قليلاً حتى يستخدم العبارة المناسبة، وقالت: «لقد كنت مهذَّبة». هل تفهمين؟ الأمر مختلف، فأنا أجد نفسي محرجاً من ذلك. إنها تغني، أستيقظ في الليل وأسمع صوت غنائها قادماً من الردهة. أظن أن أفعى إسكس تعيش في وجدانها، مختلطة بقصص الكتاب المقدس، ولا أصدق أنها تخلَّت عن ذلك.

أنت تبدو موظفاً حكوميّاً أكثر من كونك قسّاً! ألا تظنُّ أن هؤلاء النساء اللاتي ذهبن إلى المقبرة قد أعماهنَّ المجد، أعذِرني فقد نسيت أسماءهن، فهنَّ أشبه بالموتى، ويردن

تمضية الوقت القصير المتبقي حتى مغادرة هذه الحياة. أنا لا أسخر منك، والرب يعلم أنني لن أسخر منها أبداً، ولكن إذا كنت تصرُّ على إيمانك، فيجب عليك على الأقل أن تتنازل عن هذا العمل الغريب؛ الذي يتضاءل كثيراً أمام عظمة رداء القس، والأمور التي توجبها خدمة الكنيسة. شعرت أنَّ أعصابها بدأت تثار قليلاً، لكنها نسيت كيف أنَّهما تسبَّبا في سخط متبادل بينهما من قبل، وكانت منتبهة إلى عدم وصول الحوار بينهما إلى مناطق تثير القلق، إلا أن ذلك كان قريباً من الحدوث. قالت: «لكنني أرى ذلك». ثمة تركيز متنامٍ على الاسترضاء: «بالطبع أفعل، لا شيء أكثر إزعاجاً من محاولة تغيير أولئك الذين نحبُّهم. إنه كابوس بالنسبة إليَّ، ولقد أخبرتك عنه كثيراً! في يوم من الأيام، أتيت إلى البيت، وكانت هناك مارثا وفرانسيس يضعان أيديهما على أوجههما، ويخفونها مثل الأقنعة، وتحت هذه الأقنعة يكمن البغض...»، ارتجفت، ثم قالت له: «لكنها لا تزال معشوقتك ستيلا، نجمتك المتلألئة في البحر، الحب ليس هو الشيء الذي يتغيَّر عندما تعتقد أنك وجدت البديل! ماذا ستفعل؟ ما العلاج الذي يمكن أن تحصل عليه؟».

أخبرها عن القلق الذي ساد بعد الظهيرة في ذلك اليوم في المستشفى، مع الدكتور باتلر المهذب من جهة، ولوك الساخر من جهة أخرى، وعن الكيفية التي عرفت بها تشخيص حالتها، وكيف كانت هادئة وهي تستمع إلى وصفاتهما «الدكتور باتلر كان حذراً، وكان يريد أن يراها مرة أخرى، ويعطيها توبركولين، وهذا هو العلاج السائد هذه الأيام. يقول تشارلز أمبروز، إنه سيتحمل التكاليف، وكيف يمكنني أن أرفض؟ لم أتمكن من الاحتفاظ بكبريائي واعتزازي بنفسي لمدة طويلة».

«ماذا عن لوك؟». ما زالت لا تستطع قول الاسم دون أن يبدو أثر ذلك في وجنتيها.

قد يكون ويل قد ضغط على نفسه ليسامح العفريت، ولكنه مبدأ لا ينطوي على أي تحول في عاطفته تجاه الذين أساؤوا إليه، وقال: «سامحيني، أنا سعيد أنه لن يستطيع إجراء العملية لها، أراد أن يعطل إحدى الرئتين تماماً؛ ليسمح للأخرى بالشفاء! لا تسيئي فهمي، فأنا حزين جداً لإصابته، ولكنني في الحقيقة أنزعج كثيراً عندما أفكر في ما كانت عليه ستيلا في السابق ورفاهيتها، الأمر كله يتعلق بذلك الآن»، ثم استمر وكأنه يحاول التملُّص من كذبة «كل ما يهم» ثم قال: «ما يجب أن يكون! ما يجب أن يكون!».

«ماذا تقول ستيلا؟». كانت كورا واعية لما يدور بداخلها من أحاسيس تنم عن الحسد، ماذا يجب أن يكون هذا، أعني أن تكون محبوباً تماماً؟

قال ويل: «أخبرتني أن كريست سيأتي لجمع مجوهراته، وأنها جاهزة، فلا أعتقد أنها تهتم كثيراً بطريقة أو بأخرى. تتحدث أحياناً كما لو أنها في هذا الوقت من العام القادم، ستتسلَّق أشجار البلوط مع جيمس، وأحياناً أجدها راقدة، وتضع يديها فوق صدرها؛ كما لو كانت في نعشها بالفعل، وما بالك باللون الأزرق، دائماً ما تبحث عن اللون الأزرق، حيث ترسلني إلى الخارج لأحضر لها البنفسج، وعندما أخبرها بأن هذا ليس موسمه، تكاد تنفجر من الغضب!».

ثم أخبرها بخجل؛ بصفقته مع ربه، وكيف كان على استعداد ليترك زوجته بين يدي لوك، وإبره وشفراته، إذا شعر

أن هناك مبشراتٍ بالنجاح في علاجها «جاءت الأخبار عن إصابة غاريت، ومع أنني لم أعتقد أنها علامة، إلا أن ستيلا كانت تعتقد ذلك، حيث بدت مرتاحة؛ أخبرتني أنها كانت ستجري العملية لو كانت تعتقد أنها الأفضل، ولكنها فضلت أن تترك نفسها للرب، وأحياناً أعتقد أنها تريد أن تتركنا وتذهب بعيداً عني!».

أخفت كورا نظرتها إلى صديقها؛ الذي نادراً ما كان يبدو أقل سيطرةً في ما يتعلَّق بالتأثير فيها. قالت: «أتذكر عندما مرض مايكل لأول مرة؟ كنا نتناول وجبة الإفطار، ولم يكن قادراً على ابتلاع الطعام، وتصلَّب جسده، وعانى من الاحمرار، وتمسَّك بقماش الطاولة، ثم أخذ يتحسَّس حلقه، وبما أنه ليس من النوع الذي يرتعد أو يتسم باليقظة، لم نعرف أبداً أن هناك شيئاً خاطئاً. عندها طار طائر، ومع أنني -كما يعلم الرب- لم أكن أبداً مؤمنة بالخرافات، فكَّرت للحظة في قصة الزوجات القدامى، وما ذُكر بها أن وجود طائر في الداخل ينبئ بالموت، ومن ثم انخلع قلبي، وجلست أشاهده وهو يختنق، ثم استجمعت قواي، وقدَّمت له الماء؛ فتقيَّأ. وفي وقت لاحق من ذلك الشهر، نزف الدم، وجاء لوك، كانت هذه المرة الأولى التي رأيته فيها، وكنت خائفة قليلاً منه، وفي حقيقة الأمر، إنه لأمر غريب، فعندما يأتي الغرباء إلى بيتك أو تقابلهم، لا تعرف ما طبيعة أخلاقهم، وإلى أي مدى قد تتطوَّر علاقتك بهم...»، ثم قالت: «أوه يا للغرابة»، وهي تهز رأسها: «لا أعرف النقطة التي أتكلم عنه بها، كيف يمكنني مقارنته بستيلا؟ قد يكونان من نوعين مختلفين! إنها فقط الأفكار تأخذنا في اتجاهات غريبة، هذا كل ما في

الأمر». لقد دفعت ذراعيها، وكان يشعر بالامتنان، فيا لها من عادة غريبة لديها، أن تقدِّم أفكارها من خلال مخالفتها التامة لكل ما يعرفه تقريباً!

أتى المساء سريعاً، وظهرت الشمس الوردية؛ وهي تتخفَّى تحت سحابة سوداء، وسُلِّط الضوء فقط على الجزء السفلي من أشجار الزان والكستناء، بينما كان الباقي مختفياً في الظلام، حيث بدت الأشجار كما لو كانت ركائز برونزية، تحمل مظلات سوداء سميكة. لقد وصلوا إلى ارتفاع طفيف، وكان الطريق يتخلَّله على فترات منتظمة، جذور الغابات التي شكَّلت مجموعة من درجات السلالم العريضة والسطحية. في كل مكان طبقات سميكة من الطحالب، كما لو أنها سجادة خضراء زاهية.

على الرغم من حديثهما والسرور الذي كان يغلِّفه، كان الحديث أقل حميمية من الرسائل المتبادلة بينهما، حيث كانا يتحدثان فيها عن أنفسهما بكل أريحية، ولكن؛ وبما أن الظروف مناسبة الآن، فمن الممكن أن يناقشا صُلب الموضوع، ولو مؤقتاً، وبقدر صغير.

قال: «كنت سعيداً عندما كتبتِ إليَّ»، ثم أردف باستحياء: «لقد كان يومي سيئاً، ثم رأيت رسالتك على ممسحة الباب».

قالت: «أنا سعيدة بتغلُّبي على كبريائي». وضعت قدمها على الدرج الأخضر وتوقَّفت، قائلة: «كنت غاضباً جدّاً مني بعد حيلة التنويم المغناطيسي التي نفَّذها لوك مع جوانا، وأنا لا أمانع أن يغضب أي شخص مني؛ إن كنت أستحق ذلك، لكنني هذه المرة، أعتقد أنني لم أفعل شيئاً سيئاً، كان مجرد

عـرض للمسـاعدة! إذا كنـت قـد رأيـت مـا رأيتـه، تلـك الفتيـات الضاحـكات، كيـف كـنَّ يضحكـن ويُملـن رؤوسـهن إلـى الأمـام وإلـى الخلـف».

هـز رأسـه، وكأن صبـره قـد نفـد، ثـم ضحـك، وقـال: «كنـت دائمـاً أسـتمتع بمشاكسـتك، ولكـن ليـس علـى أي شـيء مهـم، فقـط حـول مسـائل الخيـر والشـر».

«بالضبـط.. انظـر، نحـن فـي كاتدرائيـة»، فالأجـزاء العلويـة للأشـجار قـد توقَّفـت، وشـكَّلت قوسـاً كقـوس مذبـح الكنيسـة، جُـزَّ فـرعٌ مـن شـجرة بلـوط، مـا أدى إلـى تكويـن تجويـف فـوق جـرف عميـق «يبـدو كمـا لـو أن كرومويـل أخـذ المطرقـة والإزميـل إلـى القديـس».

قالـت كـورا: «أرى أنـك تخلَّصـت مـن هـذه الأفعـى فـي كنيسـتك، علـى الأقـل، فقـد ذهبـت فـي اليـوم الـذي رجعـت فيـه، ولـم يتبقَّ منهـا سـوى بعـض العلامـات، فمـا الـذي جعلـك تفقـد صبـرك؟».

بينمـا يُفكِّـر فـي تلـك اللحظـة المخجلـة فـي منتصـف الصيـف، بعـد أن تركهـم جميعـاً وراءه، سـعل ويـل قائـلاً: «جوانـا كانـت لتغضـب منـي إذا لـم تـرد أخبـار كراكنيـل فـي الوقـت المناسـب. انظـري.. كل هـذا الجـوز يتمـدَّد أمامنـا، ولـم يأخـذه أي طفـل إلـى المنـزل». انحنـى، ثـم جمـع حفنـة وأعطاهـا إياهـا، وقـد كان الجـوز دافئـاً فـي غلافـه الأخضـر، وضغطـت بإصبعهـا علـى حبـة الجـوز لتقشـيرها، ووجـدت حبـة المكسـرات داخـل غشـاء أبيـض رقيـق. قـال: «كنـت غاضبـاً، وقـد كان هـذا كل شـيء، أمـا الآن، فالأزمـة قـد مـرت، وبالـكاد أتذكرهـا، وكيـف بقـي النـاس

في منازلهم، وكيف أننا لم نكن نسمع أبداً الأطفال يلعبون، وكيف أنني لم أجد ما أقوله لأقنعهم بعدم وجود ما يخيفهم، وكيف أنهم لم يحاولوا أن يكونوا أكثر شجاعة.

قالت: «شعرت بهذه الأجواء عندما أتيت إلى القرية، فقد حدث تغيير في الهواء. سمعت الجوقة المدرسية تغنِّي، ولم يحدث ذلك حتى عدت إلى المنزل، أتذكَّر اليوم الذي أخذوا يضحكون فيه، ثم صارت الأمور في اتجاه خاطئ. أفكر في أنني عندما جئت لأول مرة، كنت نادراً ما أجد أي شيء مشترك مع أي شخص، وأعتقد أن الناس كانوا ينظرون إليَّ بعدم ثقة، كما لو كان كل هذا خطئي! كما لو كان وثيق الصلة بي».

قال ويل: «في بعض الأحيان كنت أظن ذلك أيضاً»، وبدا كأنه يحاول لفت انتباهها، ثم ركل الطحالب، ونظر إليها نظرة تأنيبية، مع ضحكة غير مكتملة.

قالت وهي تضحك: «الأزمة لم تكن بسببي، لكنني بالكاد ساعدت فيها، وأسهمت في إرباك أمور أخرى. ما قلته في رسالتك، أنك قد وصلت إلى نهاية أشياء جديدة، أدركت بعد ذلك كيف أنني قد ارتكبت خطأً فادحاً. لقد أجبرت نفسي على ذلك. أشعر وكأنني قد كسرت نافذة ما! تخيَّل مثلاً أن نقول إننا يجب أن نتبادل الكتابة، ونحن بالكاد متباعدان نصف ميل! وكل ذلك لأننا تحدثنا مرة».

قال ويل: «هناك أيضاً مسألة الأغنام».

«نعم أتذكر ذلك بالطبع». تبادلا النظرات، وشعرا بارتياح لتجاوزهما فتحة في الطريق أمامهما، لكنها اتسعت وتعثرا. قال ويل: «نوافذي كانت مكسورة بالفعل. لا، بل تركتها

مغلقة، لماذا؟ لماذا حدث ذلك عندما حصلت على كل ما قد يطلبه الرجل، رأيتك، ومنذ ذلك الحين وأنا سعيد بك».

«ذلك ليس مستغرباً بالنسبة إليَّ». أخرجت كورا الجوز من قشرته، وأخذت تدحرجه على كفِّها «هل فكَّرت حقّاً بما أنك أحببت هنا، لا يمكنك أن تحب هناك؟ ويل المسكين، يا لك من ضعيف! هل كنت تعتقد أن لديك القليل من ذلك؟ انظر، هل يجب أن أقوم بغليها أو خبزها أو خلطها بالخل؟». تظاهرت وكأنها ترميها نحوه، لكنه التفَّ وتحرَّك خطوة أو اثنتين فوق إحدى الجوزات.

قال: «الأمر يشبه التحدث إلى طفل، فأنا أعرف ما تفكِّرونه بي سراً؛ وحتى ما لم تتحدثي به مع نفسك، من أنني شخص أحمق، أبدو متديناً، وأبتعد أميالاً عنك، كما لو أنك نسخة متطوِّرة مني». أخذت تنظر إليه بحزن، وفكَّر بضعف شديد مشوب بالمتعة في زاوية شفتيها، ما جعله يدفع بشدة في اتجاه ما يريده دون أن يقصد: «انظري إليك! أي كورا أنت؟ الشخص المنعَّم في الحرير والماس، أم من ترتدي ملابس قد يلقيها كراكنيل بعيداً؛ بسبب كونها ملابس رثة؛ الشخص الذي يضحك علينا دائماً، أو أن تتعهَّد بالحب لأي شخص تستمع إليه. عليك أن تعزلي نفسك عن كل ذلك، لأن شبابك قد يمر دون أن يحبك أحد، وأنت تستحقين الحب بكل تأكيد».

قالت كورا: «توقَّف عن ذلك». كل الحميمية التي كانت تنشدها في الخطابات، لم تكن بالقدر نفسه تحت مظلات الغابة السوداء. أرادت أن تعود إلى المنطقة الآمنة بينهما، تلك

التي كان يحكمها الحبر والورق، وليس هنا، حيث كان اللون وردياً، واعتقدت أنها يمكن أن تشم عطراً أنيقاً، وبالإضافة إلى حلاوة النار البعيدة، كان هناك عطر جسده؛ الذي كان ينفذ من أسفل قميصه. كان ما يفعله غير لائق، كان في أفضل حالاته مكبلاً في حيز مغلق، ولا يمكن تجنبه، شيء من الدم واللحم؛ جعله لا يستطيع أن يتجاهل النبضات الظاهرة في عنقها. قالت: «توقف، وابتعد. لا تتصارع معي، ألم نكتفِ من ذلك؟». كان يشعر بقليل من الخجل، وتوقَّف إلى جانب شجرة الكستناء، بين أوراق الجوز المتساقطة، وأخذ يمسك بها، ويعطيها الأوراق واحدة تلو الأخرى.

قالت كورا وهي تغلق أصابعها فوقها: «أتمنى لو كنا أطفالاً»، متذكِّرة كيف كانا يوماً ما كنوزاً قيِّمة، يحاول الآخرون الظفر بها. اقتربت أكثر، وجلست بجانبه على طبقة الطحالب، وقالت: «لماذا لا نكون مثل الأطفال ونلعب معاً؟».

قال ويل: «لأنك لست بريئةً!»، كانت هناك مشاعر غريبة تسبب الإرباك، كما لو أن ما قالاه رفعهما عالياً، ولم يسقطا حتى الآن: «أنت لست بريئةً، ولا حتى أنا، كنت تتسلِّين، كنتِ تتجنبينني»، وجذبها من كمها بخشونة قائلاً: «هل تعتقدين أنني سأنسى حقيقتك؛ لأنكِ ترتدين معطفاً رجالياً؟».

قالت: «هل تعتقد أنني أفعل ذلك من أجلك؟ لقد نسيت أنني امرأة، لقد وضعت ذلك الأمر جانباً. يعلم الرب أنني لست أماً، ولم أكن أبداً زوجة، هل تعتقد أنني يجب أن أعذِّب نفسي بأحذية ذات كعب عالٍ، وأتخلَّص من النمش؛ حتى تظل تلاحقني وتحرسني؟».

«لا، أعتقد أنكِ تحرسين نفسك. لقد أخبرتِني ذات مرة، أنكِ لا تريدين إلا أن تكوني ذكية، متحرِّرة، غير عابئة بجسدك».

«أود، أود أن أقول إنني أستحقر جسدي، فقد خانني دائماً، أنا لا أعيش فيه، أنا أعيش هنا، في ذهني وكلماتي».

اقترب منها دونما خجل -كما حدث في المرة السابقة- ونظرت إليه في تحدٍ، وهي تتكئ على الدرج الأخضر، وضوء الغسق يغطي المشهد من خلفها، ثم اقترب منها، ولم يستطع التوقف، وقد أعجبها ذلك.

بدأت الشمس في المغيب، وكأن الغابة أغلقت بابها عليهما، وتحوَّل النحاس على ركائز الأشجار إلى زِنجار. اختفى المعبد المطلي بالذهب، وبقيت في مكانه رائحة أوراق الشجر والعشب الطويل؛ الذي يبدو وكأنه يحتضر، وتناثرت ثمرات التفاح في الطريق. تجاوبت معه بنظراتها على نحوٍ مستوٍ؛ كما كانت تفعل دائماً، وشعرت بنفسها تسرع إلى مقابلته؛ كنهرٍ في حالة فيضان. قالت: «من فضلك أكمل»، وهي تجذب تنُّورتها، وقد استجاب لحديثها؛ وكأنه أمر.

6

في وقت لاحق من نفس الليلة، على مسافة خمسة أميال تقريباً، سار لوك غاريت وحيداً إلى جانب حقول الشعير المحصودة. لقد عقد العزم على السير إلى نهر كولن، بادئاً نشاطه في ذلك الوقت قبل الفجر، حتى عندما يكون أخف الأعباء غير محتمل، واحتمال شروق الشمس بعيداً على نحو مضحك.

وعلى الرغم من أن القمر لم يختفِ بعد، فإن السماء في الشرق كانت مرصَّعة بالضوء، وكان الضباب يرتفع فوق الحقول، وفي بعض الأماكن كان يتناثر الضباب من حوله، وهو يسير في شكل كتل سميكة، تتنفَّس في أجواء رطبة على خديه، ثم تتبدَّد مثل التنهدات. قبل ذلك الوقت، ضل طريق كولن، ولم يكن يعرف، ولا يهتم بالمكان الذي قد يصل إليه، ولو كان بإمكانه، لسار دون جلده. كان يرى أرض إسكس غريبة، مثلها مثل لندن، كانت كل الحقول محروثة، ويميل لونها إلى السواد، باستثناء أراضٍ هنا وهناك، حيث الشعير المحصود تحت ضوء القمر؛ الآخذ في الانحسار، والشجيرات الصغيرة المفعمة بالحياة، وكانت صفوف البلوط متراصة كالحراس الأقوياء الذين يراقبونه أثناء مروره، وكأنه دجال.

لقد جاء في الوقت المناسب إلى منحدر نما عليه العشب السميك، يمتد النظر من فوق هذا المنحدر، عبر مرتفعات ومنخفضات متوسطة؛ حتى قرية ساكنة، تبدو كما لو كانت نقطة في الفراغ، وحينئذٍ؛ استراح إلى شجرة بلوط، تساقطت أوراقها مبكراً بسبب المرض أو الحظ السيئ، وبين الفروع كان الدبق يزهو بلونه الأخضر؛ حتى في ظل هذا الضوء الخافت. كان يتخيَّل أن رجلاً آخر قد يبحث ويفكِّر في أفواه تتلقَّى القُبَل تحت أغصان شجرة عيد الميلاد، لكنه كان يعرف ذلك عن الطفيليات، فقد كانت تأخذ كل ما هو مفيد من عائلها. بدت الحزم العالقة على الأغصان العارية، هكذا كان يفكر؛ وكأن شيئاً لا ينمو بقدر ما تنمو الأورام على الرئة.

توقَّف لبرهة؛ حيث شعر بآلام متفرِّقة، فتعبت قدماه التي لم تعتد السير لما هو أبعد من ميل في المدينة، أو ما إلى ذلك، وتورَّمت ركبته حين تعثَّر في وتد خشبي، وحينئذٍ بدا عليه الضجر، والأسوأ من ذلك، أن يده المصابة تدلَّت بجانبه، حتى إن الدم المتجمع كان ينبض في مواجهة الجرح الذي بدأ يشفى، حيث كان السكين والمشرط يخدشان راحة اليد، وبدا اللحم وكأنه فم رفيع مخيط. قال: «كأن رجلاً أحدب سار يترنَّح كالسكارى؛ فقطع مسافة الميل في ساعات».

لكنه بالكاد يستاء من الآلام، لأنها صرفت انتباهه عن البؤس المحموم؛ الذي كان يعاني منه منذ وصوله من لندن بيدٍ عاجزة، ولا شيء في جيبه سوى رسالة كورا «كيف يمكنك أن تفعل ذلك»؟ قالتها، وشعر بغضبها، وفهمها. كيف يمكن أن يفعل ذلك؟ لا تملك شيئاً ليس جميلاً أو مفيداً، كما قالت ذات مرة، ولم يكن هو كذلك. وبينما يجلس القرفصاء، كاد

المخلوق المتجهِّم أن يصبح وحشاً على هيئة إنسان، والآن، أصبح الحذاء الطويل غير مجدٍ (دفع إبهام يده اليسرى إلى كفِّ يده اليمنى المتضرِّرة، وقام بلفها مع هزَّة خفيفة).

منذ اليوم الذي انغرست في يده السكين، كان يستيقظ كل ليلة غارقاً في عرقه، حيث كان يتجمَّع على عظام الترقوة، ما يتسبَّب في بلل وسادته. كان عديم الفائدة، كما كان يقول، وكان يضرب بقبضة يده على صدغه؛ حتى يتألم رأسه، عديم الفائدة، عديم الفائدة. كل ما كان يهمه تلاشى في غضون ساعات.

كان في بعض الأحيان يستيقظ ناسياً، ولثوانٍ خاطفة، كان العالم ينتشر أمامه بشكل ممتع. كان هناك دفتر ملاحظاته، ونماذج القلب بحجراته وشرايينه. هناك الرسالة التي كتبها إدوارد بورتون في الأيام الأولى؛ عندما استرد عافيته، وبجانبها ظرف وضعت فيه كورا حجراً ومذكرة توضيحية في يد تلميذها، ثم يتذكر، ويرى أنه كل ذلك مزيف مثل الأكسسوارات المسرحية، وستنزل الستارة السوداء، معلنة نهاية المسرحية. لم تكن الكآبة هي ما يشعر به، ربما رحَّب بذلك، متخيلاً أنه من الممكن التعايش مع حزن ينحسر تدريجياً، وأن يجد الرفقة على المقاعد التذكارية. بدلاً من ذلك، تأرجح بين غضب مرير وسكون غريب، ما أدَّى إلى تضاؤل مشاعره قليلاً، بل وأصبحت مستهجنة بالنسبة إليه أيضاً.

تحت شجرة البلوط، في انتظار ضوء الفجر القادم، أصبح هادئاً أكثر. إذا كنتُ عديم الفائدة، هكذا كان يقول لنفسه، ألا يمكنني أن أتجاهل نفسي؟ لم يكن عليه التزام بالسعي على معاشه، ولم يكن مضطراً إلى السير لمسافة أبعد من ذلك.

لـم تكـن هنـاك أي ضوابـط أو محـدّدات دينيـة تحكمـه، وكان يحـاول الإجابـة عـن سـؤال لا ذكاء فيـه، ولكنـه يخصـه.

وبينمـا كان هنـاك فـي الشـرق ضـوء أحمـر مرجانـي، يتخلَّـل السـحب المنخفضـة، كان لـوك يفكـر فـي الأسـباب التـي تجعلـه يسـتكمل حياتـه، ولـم يجـد أيّـاً منهـا كافيـاً للحيـاة. ذات مـرة، دفعـه طموحـه إلى التغلُّـب على الفقـر والعـار، والآن، كل ذلـك ينتمـي إلـى عمـر ضائـع. كان عقلـه فـي ذلـك الوقـت مشوَّشـاً وبطيئـاً، وإلـى جانـب ذلـك، تسـاءل، فيـم يمكـن أن يُسـتخدم مثـل هـذا العقـل؟ فمثلـه مثـل يـده المشـوهة، وذات مـرة، تـرك نفسـه لحـب كـورا؛ أمـلاً فـي أن يعطيـه ذلـك سـبباً للحيـاة، لكنـه خسـر ذلـك أيضـاً، فلـم تُخمِـد إسـاءتها مـا لديـه مـن مشـاعر، ليـس تمامـاً، إنمـا حولتهـا إلـى شـيء سـري يحـاول إخفـاءه، بـل ويشـعره بالخجـل.

هـل كانـت لتحـزن عليـه؟ كان يفتـرض أنهـا سـتفعل ذلـك، وتخيَّلهـا مرتديـة واحـداً مـن تلـك الثيـاب السـوداء؛ التـي جعلـت بشـرتها شـاحبة للغايـة، وتخيَّـل ويليـام رانسـوم، يرفـع عينيـه عـن كتبـه لرؤيتهـا هنـاك علـى العتبـة، شـفتاها مشـققتان قليـلاً، ودمعـة تلمـع علـى خديهـا، ستشـعر بالحـزن لا محالـة، سـتظهر مشـاعر طيِّبـة فـي النهايـة.

كان يتصـوَّر حـزن والدتـه، حسـناً، لـم تكـن تحتفـظ بصورتـه مطلقـاً علـى رف الموقـد، ربمـا كانـت تسـتمتع بإيجـاد إطـار فضـي رخيـص مـن السـوق، ومداعبـة ثنيـات شـعره الأسـود؛ بينمـا كان طفـلاً مـن وراء الـكأس. كانـت هنـاك مارثـا بالطبـع، ومـا لبـث أن فكـر فيهـا؛ حتـى علـت وجهـه ابتسـامة، فمـا فعـلاه فـي ليلـة

منتصف الصيف، أدخل على قلبيهما السرور والسعادة، ولكن ذلك كان بديلاً ضعيفاً، لن يصمد أمام مأساته. أخذ يفكر ويحدث نفسه: «يا لها من فوضى، يا لها من فوضى، تلك التي نصنعها. إذا كان الحب رامياً للسهام، فإن أحدهم قد أغمى عينيه؛ حتى تعثَّرت خطواته، وأطلق سهامه دون أن يرى أو يدري إلى أي اتجاه، وبالتالي؛ لم يُصِب الهدف قط.

لا، لم يكن هناك أي سبب للاستمرار، لنسدل الستارة باختياري». أخذ يتفحَّص أغصان شجرة البلوط، وكانت قوية بما فيه الكفاية لعمل حبل المشنقة.

لم يعش لحظة أطول من تلك على الأرض، وكان واقفاً يرتفع الضباب من حوله، إذن، ليس هناك جحيم يريد تجنُّبه أو نعيم يريد الفوز به، في تلك اللحظة، تساوى كل شيء أمامه، حان الوقت ليذهب وطين إسكس تحت أظفاره، ورائحة الصباح تملأ أعماقه، وكأنه تنفَّس جميع الهواء الموجود حوله، هذا النفس الذي تجمَّعت فيه رائحة كل الفصول، واخضرار العشب في الربيع، ومن حيث تزهر وردة النسرين، وبدا عبق الفطر السحري متعلِّقاً بشجر البلوط، وأسفل كل ذلك شيء أكثر حدَّة في انتظار وعد الشتاء.

اقتربت منه أنثى ثعلب، وأخذت ترمقه بنظرات عينيها التي تشبه ضوء الغاز، ثم تراجعت، وراحت تتفحَّصه بعض الوقت. أخذت تهز رأسها، وكأنها تفكر في وقوفه على أرضها، ولكن يبدو أنها رأت أنه لا مشكلة في بقائه في النهاية، وكان من الممكن أن يشتمَّ عدم اكتراثها، من الريشة البيضاء على صدرها. شعرت بالجوع الشديد، وهبطت من

على التل في قفزات صغيرة، تارة تبحث عن شيء ما في العشب، وتحاول طيَّه بأرجلها الأمامية المعقوفة، واختفت أسفل المنحدر بذيلها اللامع المرفوع إلى أعلى. أحبها لوك، وأثَّرت في نفسه؛ حتى كاد يصرخ، وعرف أنه لا أحد حصل على وداع أفضل من ذلك!

7

في نفس الوقت تقريباً؛ الذي كان يختار فيه لوك مشنقته من بين أشجار البلوط في إسكس، كان بانكس يجلس بجانب نار موقدة في خشب، بالقرب من عظام ليڤياثان السوداء، وكان يضع علامات في دفتر: الرؤية، الفقراء، الرياح، شمالية شرقية؛ مد مرتفع 6:23 صباحاً، وبالنظر إلى السمكة الفضية الكبيرة التي شاهدها مستلقية مشقوقة البطن على الشاطئ، عرف بانكس بفعل اليقين؛ الذي بدأ في طمس كل شيء آخر، أنه لم يتم العثور على أفعى إسكس. كيف كان ذلك، عندما كان يستيقظ كل ليلة، وأنفاسه تتصاعد على وجنتيه، حيث كان يستيقظ ويجد نفسه محاطاً بجناحها الأسود الرطب؟ عندما كان كل من في ألدوينتر يحتفل، حتى إن جميع براميل عصير التفاح قد فرغت تماماً. كان يجلس بعيداً، يفكر في ابنته المفقودة المسكينة، وشعرها الذي يشبه لونه الشعاب المرجانية، وقال: «وحدها هناك مع الحطام العائم والنفايات البحرية، وعلامة الأفعى عليها». أوه، هذا صحيح، فهناك شيء قد رآه، ووضع علامة عليه، كان أسود، وبعض مناطق جسمه مجعَّدة، ولا يشبع مطلقاً. حاول أن ينسى همومه بالإفراط في الشراب؛ الذي يخلصه من أسوأ الصور التي تجول بخاطره ليلاً، ولكنه بعيداً عن ذلك، يركِّز صوب المد المرتفع؛ حتى

يكاد يتضح أمامه، صورة أفعى في بلاك ووتر، بأعين مفعمة بالحيوية، خطمها مُحزَّز، ضربت ابنته حتى تدحرجت دون أن تصدر أي صوت في المياه الضحلة.

قال بانكس؛ ودموعه تنهمر بازدياد: «يا ليتني أبعدتها عن الماء»، وأخذ يبحث عن شهود، ولم يجد شيئاً. لقد ولدت بسلى الرأس، وأسماها ناعومي، وماتت أمها عند ولادتها، وقد فعل مثلما يفعل البحارة الجيدون، ووضع جزءاً من كيس السلى في دلاية بيوترية، وكانت تلبسه كل يوم لحمايتها من عفاريت الماء. قال: «لقد فعلتُ ما بوسعي»، وعم الضباب، وأخذ يتبدَّد بالنيران.

أخذ زجاجة من جيبه، وأفرغها حتى آخر قطرة، أحسَّ بلسعة في حنجرته، وزادت حدة سعاله، وعندما رفع رأسه، رأى شعرة سوداء؛ فتفحَّصها من بعيد عبر النيران، وكان ذلك الشخص، هو ابن المرأة اللندنية التي شاهدها مع القسيس.

قال: «هذا مبكِّر قليلاً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟». لطالما كان هذا الطفل يزعجه، بسبب ملاحقته بنظراته، وعادة لمس جيوبه مراراً وتكراراً. إذا كان على الوحش أن يأخذ أي طفل، فكان عليه أن يختار هذا الطفل؛ الذي تسبَّب وجوده في رفع كل الشعر الموجود على مؤخِّرة عنقه، فقد شوهد ذات مرة، وهو يسرق خمس حلويات زرقاء من خلف الفاترينة في متجر القرية!

قال فرانسيس سيبورن: «لكن أليس هذا هو الوقت المناسب بالنسبة إليَّ، كما هو الحال بالنسبة إليك؟ هل رأيتها؟».

قال بانكس: «ماذا دهاك، ماذا تريد؟»، واختار إنكار الأفعى، وواصل حديثه قائلاً: «لا شيء هناك، يا فتى، لا أرى شيئاً».

قال فرانسيس وهو يدنو منه: «أنا لا أعتقد أنك تقول ما تفكر فيه، لأنك لو كنت تقول الحقيقة، فلماذا أنت هنا، وما الذي تدوِّنه في دفترك؟ إنه أمر بديهي».

قال بانكس وهو يحرك أوراق الدفتر أمام الصبي: «الرؤية رديئة»، بل وتزداد سوءاً: «أنا بالكاد أراك، لا تبالِ ببلاك ووتر».

قال الصبي: «يمكنني المساعدة»، وأخرج يده من جيبه للإشارة إلى الشرق، حيث كان الضباب مرتفعاً فوق المستنقعات المالحة «أستطيع الرؤية جيداً هناك، ألا يمكنك أن ترى؟».

«أين أمك؟ لماذا لا تبقيك أمك في المنزل؟ تراجع، ألن تفعل؟ إلى أين أنت ذاهب؟».

ابتعد فرانسيس عن النيران، ثم اختفى في الهواء المعبَّأ بالضباب، وبقي بانكس وحيداً مرة أخرى لمدة من الزمن، ثم ظهر شخص نحيل من بعيد قليلاً من اتجاه اليسار، قائلاً مرةً أخرى: «ألم ترَها حتى الآن؟ ألا تسمع؟».

قال بانكس: «لا، لا، لا يوجد شيء هناك»، وأخذ يقترب من قدميه، وهو يركل لوح الملح فوق النار: «لا يوجد شيء هناك، وأنا ذاهب إلى المنزل، سأدعها تفلت من يدي! لقد أخذت طفلاً واحداً فقط، وذهبت ولن تعود!».

كانت اليد الباردة قوية للغاية، بما لا يتناسب مع أصابعه، سحبه الصبي بقوة، محاولاً دفعه في اتجاه المد القادم، وهو يقول: «دقِّق النظر، انظر جيداً، ألا ترى ذلك؟».

دفعه بانكس، وتنامى خوفه، ليس بسبب الوحش الخفي الذي يرقد في الوحل الرطب هناك، ولكن بسبب الطفل الذي كان يحدِّق فيه بقوة. قال بانكس: «أنا ذاهب إلى المنزل الآن»، وابتعد، ثم جاء من مسافة قريبة صوت شيء يتحرَّك. كان صوتاً غريباً منخفضاً مكتوماً، وخافتاً بسبب الضباب الكثيف. كان يشبه الصرير البطيء لعظام الفك، أو صوت احتكاك على الشاطئ، ثم كان هناك تأوه مرتفع إلى حد ما، وينتهي بشيء أشبه بالنحيب، وطبقات الهواء الكثيف المائل إلى الاصفرار، ترتفع في أمواج الرياح، وشهد بانكس منحنًى طويلاً منخفضاً لشيء ما مظلم ومتحدِّب في مواضع، ومتوهج وناعم، وأيضاً غير مستوٍ وخشن في مواضع أخرى. تحوَّل هذا الشيء نحو الحصى، وسُمع التأوه مرة أخرى. استدعى بانكس الصبي، لكن الضباب أحاط به، كما لو كان في كفن باهت اللون، ولم يرَ شيئاً. أضاء له وهج النيران وركض نحوه، متعثِّراً في الوحل والأجزاء العلوية لعشب المستنقع، وعندما سقط وشعر بتغيُّر مكان رضفة الركبة تحت جلده، ثم ذهب إلى المنزل ورجله تعرج قليلاً، وأثناء ذهابه، كاد قلبه ينخلع، ومتناسياً رعبه، أخذ يقول: « لقد كنتُ على حق! أوه، كنت على حق!».

في غضون ذلك، استجمع فرانسيس قواه، وافترض أنه كان خائفاً، لأن كفيه مبللتان وأنفاسه كانت تتلاحق بسرعة، ولكن بقدر ما كان يشعر بالقلق، لم يكن ذلك بالنسبة إليه

سبباً كافياً ليلوذ بالفرار. نادراً ما كان يفكِّر في كورا، ليس بسبب أنه يزدريها، بل لأنها ثابتة ودائماً أمامه، وبدا الأمر وكأنه لا يستحق هذا القلق، لكنه فكَّر فيها بعد ذلك، فكَّر في عدد المرات التي انحنت فيها لتلتقط قطعة من الصخور، وتُخططِّها، وفكَّر في طريقة إشارتها له، وإخباره بأسماء ما وجدته. ربما يستطيع أن يفعل الشيء نفسه هنا، أو شيئاً من هذا القبيل، مراقبة ظاهرة في أقرب الفصول، وتقديم تقرير، وعرض ذلك عليها. راقته الفكرة، فمشى، وخلف ستارة الضباب الباهت ارتفعت الشمس، وبدأ الضباب يتلاشى. الطين الرطب يبدو متوهِّجاً كالذهب، وبدأت المياه تتدفَّق في جداول نحو الحصى؛ ظهر صوت الصرير مرة أخرى، وظهر شكل مظلم متحرِّك على بعد بضع ياردات، يسير ببطء؛ كما لو كان يتشكَّل في تلك اللحظة من الهواء. تقدَّم فرانسيس إلى الأمام. جاءت رياح منخفضة من الشرق تزيح في الضباب، وسنحت لحظة ساطعة وواضحة، رأى فيها بوضوح ما أُلقيَ على الشاطئ.

قام بإحصاء مشاعره بدقَّة؛ مثلما يفعل مع أيٍّ من كنوزه، أولاً، كان الشعور بالارتياح الذي شعر به، حيث تباطأت أنفاسه، وسكنت نبضات قلبه، ثم أصابته خيبة الأمل، ثم كان من الصعب أن يعقب ذلك شعور بالسعادة. انفجرت ضحكاته بشكل لا يمكن إيقافه. كان عليه أن يسيطر عليها مثل أي نوبة سعال، أو كما لو كان مريضاً. بعد فترة، انقطع الضحك مرة أخرى، وعاد إلى طبيعته مرة أخرى، وجفَّف عينيه بكمِّه، وأخذ يفكِّر في أفضل طريق يذهب عبره.

ما رآه كان قد اختفى الآن خلف طبقة من الضباب الجديد،

أو أعيد تكوينه من جديد أعلى المد والجزر، وكان من المهم أن يستقر على ما يجب أن يفعله بعد ذلك. بالتأكيد، يجب عليه أن يخبر شخصاً ما، وكان أول شخص فكَّر فيه هو كورا، لكن لا، لم يكن من المفترض أن يخرج من المنزل في وقت مبكِّر من الصباح، فقد تخيَّل أنها ستتجاهل قصَّته عما شاهده، وستركِّز على أنه قد ارتكب خطأً ما، وكانت الفكرة غير محتملة بالنسبة إليه، ثم تذكَّر ستيلا رانسوم، وكيف كان قد زارها في كوخها الأزرق، وكيف سمحت له أن يلمس كنوزها، وكيف كانت تفهم بسهولة، أن في جيوبه الخاصة، كانت هناك عملة واحدة منحنية، وجزء من بيضة نورس، وكأس فارغة من البلوط. لقد اعتاد أن يشعره ترحيب الآخرين به بالدهشة والشك، لذا؛ أكسبتها عاطفتها المباشرة ولاءه المطلق، فأخبرها بما رآه، وقالت له ما يجب عليه فعله.

عزيزتي السيدة / رانسوم

أريد أن أخبرك بشيء ما، يرجى السماح لي بزيارتك في وقت مناسب.

تحياتي، فرانسيس سيبورن (السيد)

يرجى ملاحظة أنني وضعت هذه عبر بابك لتوفير الوقت.

8

وجد الدكتور غاريت فرعاً يصلح لتحمُّل رجل بدين. من المؤكَّد أن البقاء معلقاً لن يكون مريحاً، فقد كان ليفضِّل كثيراً السقوط من ارتفاعٍ كبير، وكسراً في الرقبة عن ضغطٍ بطيءٍ طويل على حلقه، لكنه تفهَّم الأمر، وعرف كيف سيتدلَّى لسانه، وكيف سترتخي أمعاؤه، وكيف ستلقي أوعيته الدموية بخيوطها الحمراء على بياض عينيه، وهو لم يكن ليخاف أبداً من أي شيء يفهمه. كان يتحسَّس مشبك حزامه، مفضِّلاً فعل ذلك بيده الجريحة (كما لو كان الضرر الواقع عليها مهمّاً الآن، أو كيف تم سحبه على الغرز)؟ وبينما كان يربط الحزام عبر المشبك الفضي لتشكيلِ عقدة حبل المشنقة، تحرَّك إبهامه عبر النتوءات التي شكلَّت الرمز هناك. كانت هناك الأفعى الملتفَّة، علامة مهنته، تم اختيار اللسان المتدلِّي باستخدام أداة الحفر، والعين البراقة. لقد كان الأمر مثيراً للسخرية. لم يكن له الحق في ذلك، أن يعتقد أنه ليسير بفخر حاملاً علامة الآلهة! والأسوأ من ذلك، أنه جادل سبنسر، بوجهه الكئيب الطويل، وولائه له، وعادته في أن يبدو دائماً كمن يركض خلفه؛ ليمنع كارثة وشيكة الحدوث، وكم كان غير عادي أنه طوال المدة التي كان يجلس متكئاً خلالها على المشنقة التي اختارها، يُعدِّد أسبابه للبقاء على قيد الحياة،

ويضع كلّاً منها على حدة؛ لم يفكر أبداً في صديقه. كان كما لو كان حضوره أمراً ثابتاً ومضموناً للغاية، لدرجة أنه أصبح بالكاد يلاحظه، وتحسَّس الرمز مرةً أخرى، مستاءً من تدخُّله، وحاول أيضاً عدم التفكير في سبنسر. لقد كان رجلاً ناضجاً، رغم كل شيء، يده سخية لا يضاهيها إلا سخاء قلبه، قد يبدو مملاً في أول لقاء، ولكنه كان محبوباً بوجهٍ عام، وكان ليفتقد لوك، ولكن ليس أكثر من حال ذهابه إلى بلد آخر، لكن لوك عرف أن هذا غير صحيح، فمنذ أيام بقائهما جنباً إلى جنب في مقاعد الكلية، وهم يشرِّحون الأيدي المقطوعة لرؤية عظامها وأوتارها، فقد منحه سبنسر صداقةً غير مألوفة، أكثر مما قد يظهره أي أخ. لقد تحمَّل بصبرٍ كل استخفاف وإهانة (كان هناك كثير منها)؛ وقابلها برحابة الصدر وحسن السلوك، ما هدَّأ من غضب المعلِّمين والدائنين؛ فمن خلال موافقته الصامتة، مهَّد الطريق لكل خطوة صغيرة خطاها لوك نحو هدفه. وتدريجياً، نشأت بينهما علاقة صداقة حميمة بسهولة، لم يألفها حتى أخلص الأحبة، تذكر لوك ذلك الوقت، عندما كان سبنسر، بعد تناوله كثيراً من الشراب، يتراخى على كتفه، وكيف لم يكن يتحرَّك خوفاً من إيقاظه، على الرغم من تألُّم ذراعه وشعوره بالخدر. تخيَّله لوك مستيقظاً الآن في منزل جورج، ربما يرتدي منامته المضحكة المخطَّطة، ذات الجيب المكتوب عليه حروف اسمه، وشعره الجميل ممشَّطاً إلى الخلف، ربما يفكِّر في مارثا أولاً، ثم في صديقه الموجود في الغرفة المجاورة. كيف يرتدي ملابسه بشكلٍ أنيق للغاية، وينزل بهدوء لتناول طعامه، ويتساءل، متى قد يستيقظ لوك، فكيف لن يصبح بعدها مرتاحاً، ويأتي ليطرق على الباب؟ هل سيذهب إلى الشرطة، أم سيأتي ليبحث بنفسه؟ هل

سيجد صديقه يتدلَّى هناك، مع مشبك حزامه يقطع اللحم خلف أذنه. هل يمكن أن يجذب الفرع لإنزاله؟

لا، كان من المستحيل التفكير في أنه يمكن أن يقوم بمثل هذا الضرر، وكان غير عادل أيضاً. هل يجب عليه حقّاً أن يناضل بلا إحساس؛ من أجل جورج سبنسر؟ كم كان مذلّاً أنه لا الأمل في المجد المهني، ولا امتلاك كورا سيبورن، قد ينجيه من حبل المشنقة ويحفظ حياته، ولكن لا شيء أكثر من صديق. يا له من أمر مهين، وفشل آخر حتى في النهاية! كان الهدوء الذي شعر به ينحسر، وحل محله الغضب القديم المألوف، وهو يسحق العشب بعنف باستخدام الحزام، مخرجاً كتلاً من الطين، بينما خلفه في فروع البلوط تحرَّك شيء ما؛ لأنه رأى الشمس.

بعد الظهر بفترةٍ وجيزة، ظهر سبنسر يلوِّح بيديه على عتبة فندق جورج، ورأى سيارة أجرة تقترب، فتح السائق الباب، ومدَّ يده لتلقي أجرته، ثم ظهر لوك، وكانت يده الجريحة معلَّقة على كتفه، وشعره الأسود إلى الخلف. هدأت غضبة سبنسر العادلة؛ عندما رأى كيف كان الرجل الآخر يحدِّق ويحدِّق، وعيناه في قمَّة اتساعهما، وتوجد كدمة على خده؛ كما لو كان قد سقط.

قال: «يا إلهي، ماذا فعلت؟»، مادّاً يده ليجذبه إليه، لكن لوك أبعده عنه كطفل ممتعض، ودفعه مبتعداً إلى الرواق. قال سبنسر لسائق سيارة الأجرة وهو يعد النقود: «أين كان؟ من أي مسافة أتيت؟»، لكنه لم يُجِب، حيث هزَّ رأسه فقط ونقر على جانب رأسه قائلاً: «إن هذا الشخص شديد الجنون»، في

الفندق أوصد أحد الأبواب فوقهما بشدة، هزت النوافذ في إطاراتها، وصعد سبنسر إلى الطابق العلوي شاعراً بالخوف والأمل.

وقف صديقه أمام النافذة، ناظراً إلى شوارع كولشيستر. كان الجزء الأكبر من جسده جامداً كالصخر. تخيَّل سبنسر أنه قد ينهار ويتحطَّم على الأرضية الخالية. قال سبنسر: «ما الذي حدث؟»، ثم اقترب قائلاً: «هل كل شيء على ما يرام؟».

عندما تحوَّل الرجل الآخر لينظر إليه، ارتعد سبنسر؛ نتيجة مرارة نظرته الحادة، وقال لوك: «على ما يرام؟»، وهو يجز على أسنانه. بدا وكأنه يضحك، ثم هز رأسه، وزمجر، مندفعاً نحو سبنسر بيده اليسرى، وضربه دافعاً إياه بشدة باتجاه الحائط، ممزِّقاً الجلد فوق عينيه، وقع سبنسر على خزانة ذات أدراج قبيحة، وأقسم أن الضربة أثَّرت في رأسه بشدة، ومن خلفه، قال لوك وهو في حالة من الغضب والبؤس: «لولاك لانتهى كل شيء الآن، لكان كل شيء منتهٍ. يا إلهي، توقف عن النظر إليَّ، لم أكن أريدك هنا أبداً»، ثم سقط على الباب المغلق، كما لو كان متعلقاً بحبلٍ قُطِع فجأة، وألقى بنفسه هناك، ممسكاً يده المربوطة بسبب الجرح، لم يكن يجيد شيئاً كإجادته البكاء، ولكنه بدلاً من ذلك، أصدر أنيناً منخفضاً، وإيقاعاً كان أقرب إلى أنين الحيوان عنه من الرجل.

قال سبنسر، وهو يشعر بالقليل من الخجل: «أنا آسف، ليس أمراً جيداً»، كما تعلم، أنا لن أذهب بعيداً، ثم بعد

ذلك، وبعد أن استعد لضربةٍ أخرى، جلس في حرصٍ بجانب صديقه، وحافظ على مسافة قصيرة بينهما، وربَّت على كتفه، وبعد فترة، خرج عن صمته كحيوان يخرج من الأغلال إلى الحرية، وقال: «لن أذهب بعيداً، ابكِ لترتاح، لو كنت مكانك لفعلت ذلك، ثم ستتناول وجبة الإفطار، وستشعر بتحسُّن كبير»، ثم تحرَّك سريعاً وهو خجِل، وانحنى ليقبِّل جبين صديقه في مفرق شعره الأسود، وقال واقفاً: «عليك أن تنظِّف نفسك تماماً، سأنتظرك في الطابق السفلي».

ستيلا رانسوم
كنيسة جميع القديسين
22 سبتمبر

عزيزي فرانسيس،

شكراً على رسالتك. لم أرَ في حياتي خط يد أفضل من هذا!

يجب عليك زيارتي في أقرب وقت ممكن، لأنني دائماً في المنزل، وأنا أتلهَّف لسماع ما لديك لتقوله لي.

إذا وجدت أي شيء أزرق اللون، قبل أن تراني، أود كثيراً أن تمنحني إياه.

مع حبي،

ستيلا

كورا سيبورن
2 المنطقة العامة
ألدوينتر
22 سبتمبر

عزيزي ويل/

إلى متى بقيت وحيداً هناك تحت الأشجار في الظلام؟ عندما ذهبت إلى المنزل، هل خلدت إلى النوم؟ هل أنت مضطرب؟ هل شعرت بالذنب بعد؟ خبئ الأمر، إن استطعت. أنا لا أشعر بأي شيء.

إنه الصباح الآن، وهناك ضباب كثيف يجلب الضوء اللافت للنظر إلى الغرفة، ومعه رائحة مصب النهر، وأحياناً أظن أنني لن أهرب من تلك الرائحة أبداً، كما لو كنت قد غرقت بالفعل فيه. يتراكم الضباب بالقرب من النافذة، للدرجة التي أشعر معها كما لو كان المنزل بكامله قد ابتلعته سحابة.

هل أخبرتك عن بستان والديَّ؟ لقد تم ترتيب الأشجار للنمو في صفوف مرتبة، بربطها على نوع من الهياكل الخشبية؛ أتذكَّر أنني كنت أفكر في أنها تعرَّضت للتعذيب، بما يخالف طبيعتها، ولموسمين كاملين، لم أكن لآكل ثمارها.

أتذكر تناول الغداء هناك بعد ظهر أحد الأيام. لا بد أنني كنت طفلة، لأنني أستطيع أن أتذكر شعري مستلقياً على كتفيَّ في ضفيرتين طويلتين، وهو ناعم وجميل، كما كان عندما كنت صغيرة، ولا بد من أنه كان وقت الربيع، لأن الأزهار تساقطت في فناجين الشاي وعلى الأطباق، وحاولت أن أصنع إكليلاً من الزهور. كان لدينا ضيف في ذلك اليوم، نسيت اسمه: أحد أصدقاء والدي، كان رجلاً أشقر ووجهه مليء بالتجاعيد، بدا كأنه تفاحة، ولكنها تفاحة تخمَّرت في الطبق لوقتٍ طويل جداً.

شعر بذكائي، حيث رآني دائماً ما أطالع أحد الكتب، وأمضى فترة ما بعد الظهر في محاولة تسليتي: كيف أقول «مات الشاه في لعبة الشطرنج»، عن طريق التحدُّث باللغة السنسكريتية، في ما معناه «الملك عاجز»، وكيف لم يتغلَّب نيلسون على مرض دوار البحر.

ولكن هناك ما أتذكَّره أكثر من كل ما ذكرته، وهو قوله: «هناك كلمتان في اللغة الإنجليزية يتم كتابتهما على النحو نفسه، وتلفظان بالطريقة نفسها، لكنهما تحملان معاني متضاربة. ما هما؟، لم أتمكَّن من العثور على إجابة، وبالطبع سرَّه ذلك إلى أبعد الحدود: قال (بغرور ساحر عندما يسحب الأوشحة الحريرية من كمِّه) CLEAVE»، وقال: إن قلت «cleave to something»، معناه التمسُّك بشيء من كل قلبك، ولكن إن قلت «cleave something apart»، معناه تفريقه وتقسيمه.

طوال الليلة الماضية، ظلت هذه الكلمة تراودني بوضوح،

كما لو كنت أنت من قلتها لي قبل ساعات فقط. اختلطت الذاكرة مع زهر مايو المتساقط، وثمرات التفاح على العشب الأخضر، والقرع العسلي الذي وجدناه في الطريق، والتمزُّق في درزة قميصك. لم أجد أبداً طُرقاً لأشرح لنفسي ما الذي يوجد هنا في رسائلنا، أو عندما نجلس معاً في غرف دافئة، أو نذهب للتمشية في الغابة، ولست متأكِّدة من أن الأمر ضروري، ولا حتى الآن؛ عندما ما زلت أشعر بصمتك داخلي، لكن إلى الآن، هذه الكلمة هي أفضل ما يمكنني النطق به.

فنحن متلاحمان معاً، ونحن منفصلان، كل شيء يجذبني إليك هو كل شيء يدفعني بعيداً عنك.

سأرسل إليك هذه الرسالة مع فرانسيس، وهو يقول: «إن هناك شيئاً يجب أن يخبر ستيلا عنه». لديه هدايا لها، تذكرة حافلة زرقاء من كولشيستر، قلادة بحجر أبيض ذات رباط أزرق. تقول مارثا: «إنها سوف تتمشَّى معه خلال المنطقة العامة، وتحمل جرَّة من مربَّى البرقوق.

كورا

9

قالـت مارثـا: «أنـت تبديـن علـى مـا يـرام»، صادقـة، ولكـن خائفـة قليـلاً أيضـاً. لقـد احترقـت سـتيلا رانسـوم بأعبـاء الحيـاة أكثـر مـن الـلازم. «لـن نزعجـك، لقـد أراد فرانكـي المجـيء، وقـال إنـه يحمـل هدايـا، وأرسـلت كـورا المربـى، علـى الرغـم مـن أننـي أخشـى أنهـا لـم تضبطهـا، لـم تكـن أبـداً مضبوطـة».

جلسـت سـتيلا علـى أريكتهـا الزرقـاء، ولفَّـت نفسـها فـي عديـد مـن البطانيـات. لقـد شـاهدتهما وهمـا قادمـان عبـر المنطقـة العامـة، أولاً، تمايلـت أضـواء المشـاعل مـن خـلال الضبـاب، ثـم رأت شـخصين محاطيـن بتوهُّـج، لوهلـة ظنَّـت أن أحدهـم يدعـو منزلهـا بالمنـزل، لكنَّهـا استنتجت أن مـن غيـر المرجَّـح أن ملائكتهـا المسـتدعين يطرقـون البـاب.

ألـم يقـل ذلـك الولـد ذو الشـعر الأسـود، إنـه أتـى ليخبرهـا بشـيء؟ قالـت: «أشـعر أننـي علـى مـا يـرام، أشـعر بـأن قلبـي ينبـض بسـرعة وبقـوة، وذهنـي يتفتَّـح مثـل زهـرة زرقـاء، فأنـا أمكـث هنـا علـى الأرض فقـط لمـدةٍ قصيـرة، وأريـد بشـدة أن أعيشـها بحيويـة! يـا فرانكـي». كانـت سـعيدة لرؤيـة الولـد، وقالـت لـه: «اجلـس هنـاك بجـوار النافـذة، حيـث أتمكَّـن مـن رؤيتـك. لا تقتـرب كثيـراً؛ فإنني أعانـي مؤخـراً مـن السـعال، ومـع ذلـك؛ ليـس هنـاك شـيء سـيئ للغايـة».

قال فرانسيس: «لديَّ أشياء تخصُّك»، وركعا على مسافة معقولة، وضعا تذكرة الحافلة، والحجر ذا الرباط الأزرق، ولفافة معدنية برباط الحلوى بلون بيضة روبن.

وقال وهو يلمس كل واحدة تلو الأخرى: «الأزرق القاتم، السماوي، الأزرق المخضر»، ثم وضع يده في الجيب الآخر، وأخرج مظروفاً أبيض اللون، وقال: «ويجب عليَّ أن أعطيك هذا، وهو خطاب خاص لزوجك من والدتي».

قالت ستيلا مبتهجةً، مع الإشارة إليها: «السماوي!»، «السماوي! الأزرق المخضر!» حقّاً ليست هناك نهاية لجاذبية هذا الولد، وكان أطفالها سوف يعودون إليها غداً، هل سيفهمون أيضاً؟

هي ليس لديها شك «ضع كنوزك على حافة النافذة هناك، في المكان الذي تركت فيه فجوة، وسوف نعطي ويليام خطابه، سيكون مسروراً. لقد افتقدها منذ أن رحلت»، ثم أدارت عينيها تجاه مارثا؛ التي تساءلت عما شاهدوه وما لم يشاهدوه.

وقالت مارثا: «هل هو هنا؟»، وعلى نحو فضولي: «قد تجوَّلت كورا في البيت في وقت متأخر من المساء البارد، مبهورة؛ كما لو كانت ثملة، على الرغم من أنه لم يكن هناك أي شيء يدل على ذلك في أنفاسها»؛ إلا أنها قالت: «لقد قمنا بنزهة جيدة طويلة»، والتفَّت في كرسي، وغطَّت في النوم على الفور.

«في الحديقة كان يُطعِم مأجوج إذا وجدها في الضباب، سوف يكون جو في المنزل غداً، وسوف يذهب مباشرةً إلى هناك، ويريد أن يعرف ما تناولته على الإفطار، وما إذا

كانت لا تزال تشتاق إلى كراكنيل، «اذهب وأحضره، لماذا لا تقوم بذلك وتعطيه إشارة؟». أسدلت ستيلا جفنها قليلاً جداً إلى فرانسيس؛ الذي أدرك أن صديقته الجديدة تتمنَّى أن يبقيا بمفردهما، وشعرت أنه كذلك تغمره سعادة دافئة.

وعندما غادرت مارثا قال: «لديَّ شيء أريد أن أخبرك إياه»، وكان يقف بدقة في المكان الذي قيل له أن يقف فيه، وليس أقرب من ذلك، مستقيماً جداً، ومتماسكاً، مع أهمية ما كان عليه أن يبلغ به.

قالت ستيلا: «إذن، أنا أفهم، يعاني الصغار من المجيء إليَّ!». كان أطفالها يأتون، وفي هذه الأثناء، كان هناك طفل آخر، وكانت تضعه في مهده بالقرب منها إذا استطاعت، وأحياناً تنظر إلى ذراعيها، وترى أن ترى الحب يسيل من كل فتحة مسام! «ما هذا؟ لن أكون هنا لفترة أطول من ذلك، أترى؟ لذلك يجب عليك أن تخبرني بسرعة».

قال فرانسيس: «لقد عصيت أمي»، وكان حذراً قليلاً. لم يأخذ بعين الاعتبار أن هذه خطيئة، لكنه لاحظ أنه كان يبدو شاحباً في معظم الأوقات.

قالت ستيلا: «آه.. لن أترك ذلك يزعجك. لم يأتِ المسيح ليدعو الصالحين، ولكن ليدعو المذنبين إلى التوبة، بعد كل شيء».

لم يكن فرانسيس يعرف ذلك، ولكنه شعر بالارتياح عندما رأى أنه لم يوبَّخ على ذلك. اقترب تدريجياً قليلاً، مدحرجاً الزر النحاسي في جيبه بين الأصبع والإبهام «لقد استيقظت هذا الصباح في الخامسة والنصف، وذهبت إلى المستنقع المالح، وكان ذلك الرجل بانكس هناك، وكان هناك كثير

من الضباب. كنت أريد أن أعرف هل يمكنني رؤية الأفعى؛ المشكلة. ماذا قالوا عن الموجود في الماء. قالوا لي إنهم عثروا عليها، ولكنَّني لم أكن متأكِّداً، لأنني لم أرها بوضوح».

لمعت عينا ستيلا، وانتشرت حمرة الحمَّى على خديها، وقالت: «نعم! أفعى إسكس، غريمتي القديمة، عدوَّتي!». ثم مالت إلى الأمام، وقالت بثقة: «أتعرف، أنا أسمع ذلك، إنها تهمس، لقد دوَّنت كل شيء»، وانتفضت إلى مفكِّرتها الزرقاء فأخرجتها، وشاهدها فرانسيس، مكتوب فيها مراراً وتكراراً في عمودين أنيقين، جاهزة للمجيء أم لا، وقالت ستيلا: «الأمر على ما يرام»، متسائلةً إذا كانت أخافت الفتى: «أنت وأنا بيننا تفاهم متبادل، كما كنت أقول دائماً. لقد خُدِعوا، يا فرانسيس. أنا أعرف العدو. يمكن تهدئة الأمر، لقد تم ذلك من قبل». نظرت إلى راحتيها وقرأتهما، بالتأكيد كانت هناك بعض التقرُّحات نتيجة الخطوط الأساسية، قطعت خطوط الذاكرة؟ حملتها، لكن فرانسيس لم يرَ شيئاً.

قال: «حسناً»، واستمر في الكلام: «كان هناك كثير من الضباب، لم أتمكَّن من رؤيته إلى حد كبير، ولكن بعد ذلك سمعت ضجة، وكانت هناك». قام بطرح ذراعه بعيداً؛ كما لو أن أفعى إسكس قد زحفت من وراء طاولة الطعام «كانت هناك بالضبط، كبيرة وقاتمة وتتحرَّك، كان يمكنني أن أقذف حجراً وأضربها إذا أردت! حسناً، نظرت ونظرت، وحاولت إبلاغ بانكس؛ لكنه لم يحضر، ثم تلاشى الضباب قليلاً، وأشرقت الشمس، وشاهدت ماذا كانت»، أخبرها بما رآه وكيف كان يضحك، وكيف ابتلعها الضباب والمد. قالت وهي غير مصدقة: «أوه...»، حيث إنه كان يخشى

أنها لن تصدِّقه، وستكون خائبة الأمل قليلاً، وبعد ذلك «أوه!». لقد سقطت هي الأخرى في نوبة من الضحك، ولم تستطع التوقُّف. ظل فرانسيس يشاهد، ويتذكر كيف أمسك والده بحنجرته مرة ليقنعه بالهدوء. كان مرض والده محل اهتمامه، دون أن يكون مصدر إزعاج له، ولكن عندما كانت أعين ستيلا تتدفَّق بالدموع من المرض؛ كان تدخُّله واجباً، هل يساعدها؟ خطا فوق السجادة، وأعطاها كأساً من الماء. مرَّت النوبة بسلام، وارتشفت الماء بامتنان، ثم شبكت يديها في حجرها قائلةً: «حسناً، حسناً، فرانسيس، ما الذي يجب علينا فعله بشأن هذا الأمر؟».

قال: «يجب أن نعرض عليهم الأمر، ينبغي أن ننزل إلى هناك، ونعرض عليهم الأمر».

قالت: «نعرض عليهم الأمر، نعم. جوهر الأشياء التي تمنَّاها، والدليل على الأشياء التي لم يروها...». ربَّتت بيديها على حبات العرق التي استقرت فوق شفتها، وقالت: «إن الناس الذين يسيرون في الظلام، سيشاهدون نوراً عظيماً! سوف نخلِّصهم من مخاوفهم. أعطني دفتر ملاحظاتي، وناولني قلمي. أنا كاتبة مستعدة للكتابة! تعالَ». قالت ذلك وهي تربِّت على المقعد الشاغر بجوارها، وجثا فرانسيس هناك، واتكَّأ على ذراعها، يشاهد أوراقها من خلال الصفحات الملطَّخة بالحبر الأزرق «سأريك ماذا سنفعل، أنت وأنا»، ثم بدأت بالرسم، متناسيةً لحظة ضعفها؛ حيث كان جسدها الصغير يشعُّ حيوية وعزماً، وقالت: «لقد حان وقتي، إن الرمال تهبط. إنني أسمعها تنادي! أنا مبلَّلة حتى كاحلي في المياه الزرقاء...».

وتساءل فرانسيس، هل يجب أن يكون مضطرباً، أم عليه أن يستدعي مارثا؟ ارتجفت أيدي المرأة البيضاء، كلماتها كانت عبارة عن خيوط متشابكة من خرزات منيرة، وانتشرت مراكز عينيها السوداء إلى الحواف، لكنها أخرجت ذراعها، وسحبته إليها، وفرانسيس الذي لم يستطع تحمُّل المحاولات الخجولة التي كانت تقوم بها أمه لتدليله، استند عليها، وشعر بالحرارة تنبعث من كتفها، ومن التجويف المنحني في رقبتها، وقالت: «لا يمكنني فعل ذلك من دونك»، وأكدت بثقةٍ: «لا يمكنني أن أفعل ذلك بمفردي، ومن يفهم الأمر أيضاً، يا فرانكيّ؟ من يمكنه أيضاً مساعدتي؟».

وأخبرته بما كان يدور في بالها، ربما كان أي طفل آخر خائفاً، أو يضع رأسه على كتفها ويبكي، ولكن بينما كانت ترسم في دفتر ملاحظاتها، وتطلعه على الجزء الذي يجب أن يلعبه، أدرك للمرة الأولى أنه مطلوب للقيام بدور ما، وليس خارج إطار هذا العمل. راوده إحساس جديد، تحقَّق منه، وفكَّر في ما سيحدث بعد ذلك، عندما كان بمفرده، معتقداً أنه ربما كان إحساساً بالفخر.

وقال: «متى سنفعل ذلك؟». مزقت الصفحات من دفتر الملاحظات، ووضعتها في جيبه (كان معجباً بمدى الدقَّة التي حدَّدت بها الأدوار التي سيقومون بها، والحرص الذي اكتنف ما خطَّطت له).

وقالت: «غداً» عندما أرى أطفالي مرةً أخرى. هل بإمكانك تقديم المساعدة؟ هل تعد بذلك؟».

قال: «نعم، سأفعل. أعدك بذلك».

في الحديقة، شاهدت مارثا ويل وهو يحاول أن يكلِّل مأجوج بأكاليل آتية من المنزل، الماعز تسمن على بقايا الفتات، وتتخلَّص منها بشكلٍ متكرِّر، وترمقه بنظرة بغيضة، وفهم كل منهما أن كراكنيل لم يحلم أبداً بمثل هذه الإهانة، ثم رمشت بعينيها المشقوقتين، وانسحبت إلى نهاية الحديقة الضبابية.

وقالت مارثا: «متى سيكون الأطفال في البيت؟ لا بد أنك اشتقت إليهم».

وقال: «لقد كنت أصلي من أجلهم كل يوم، لم يكن هناك شيء يسير على ما يرام منذ رحيلهم». كان يبدو صغيراً جداً، مرتدياً قميصاً ممزَّقاً من الكتف، ويظهر في شعره التوت الأحمر من الإكليل المتخلص منه. لقد ترك وراء ظهره صوت الواعظ، وبدلاً من ذلك، اتكأ على الأصوات المتحرِّكة لبلده. كان لذلك تأثير غريب وطريف، وجذب الأنظار أكثر من أي وقت مضى إلى قوة ذراعيه العاريتين المشدودتين بالحبال «غداً في قطار منتصف النهار». تأملته مارثا بعض الوقت، وتجرَّأت بسؤاله، أين كان يسير الليلة السابقة مع كورا؟ هل كان أيضاً غريب الأطوار وغير متزن منذ ذلك الحين، ومضطرباً قليلاً؟ ربما كان أطفاله فقط عائدين إلى المنزل، وفي الوقت ذاته، كانت ستيلا تتألم في غرفتها الزرقاء.

قالت: «أنا أتطلَّع إلى رؤيتهم، وعلى أي حال، فلقد أرسلت إليك لأعطيك هذا»، وأعطته الرسالة، التي نظر إليها دون أن يبدي اهتماماً، وقال: «اتركيها هناك، من الأفضل أن أذهب لإحضار مأجوج»، وانحنى انحناءة غير لائقة، نصفها ساخر ونصفها مضحك، ومشى في الهواء الأبيض.

وعنـد عودتهـا إلـى البيـت لتأخـذ فرانسـيس إلـى المنـزل، وقفت مذهولـة عند العتبة، فرانكـي الـذي لـم يكـن بمقـدور أحد حملـه، كان يجلس فـي حجـر سـتيلا، وكانـت ذراعـاه تتشـابكان حـول عنقهـا ويتوشـحان بوشـاح أزرق.

ومـا تذكَّرتـه مارثـا، ظهـر بوضـوح أكثـر بعـد ذلـك فـي تلـك الأيـام القليلـة الماضيـة؛ التـي امتـلأتْ بالضبـاب الأبيـض، فهـي زوجـة ويليـام، وهـو ابـن كـورا، فكلاهمـا مناسـب للآخـر؛ مثـل القطـع المكسـورة الملحومـة فـي نقطـة اتصالهـا.

جاء الولد ذو الأعين السوداء وأرشدني إلى الطريق.

بارك الرب، روحي!

وكل ما بداخلي يبارك اسمه المقدس!

لا تـدع هـذه الكأس تؤخـذ مني، لأنني ظمآن حقّاً، ولسـاني جـاف للغايـة!

10

قال توماس تايلور، وهو يتفحَّص بعينيه المصباح الذي يضيء شارع كولشيستر: «إنه صباح سيئ». أمسك بكُمّ معطفه، وشاهد على خيوطه ذرات الرطوبة تلمع تحت وهج ضوء مصباح الغاز. كان ضباب البحر في يومه الثاني، وعلى الرغم من أن المدينة كانت تواجه غطاءً كثيفاً، تُشتم منه رائحة المياه المالحة، يحيط بألدوينتر، كانت الشوارع شبه هادئة، ومن حين إلى آخر كان يشاهد أحد الأشخاص وهو يمشي مضطرباً على جانب الطريق، أو يرى أحدهم وهو يرتمي في أحضان شخص غريب، تبدو عليه علامات الغضب والدهشة، ومن خلفه؛ حيث الأنقاض، كانت خيوط الضباب تتحرك عبر السجاد، وتتدلى على الحواجز المجوفة، وكان الضيوف الغرباء في فندق ريد ليون، يُقسمون أنهم رأوا سيدة رمادية تغلق ستائر النافذة العلوية.

انضم إلى تايلور هذه الأيام صبي ليتدرَّب معه، كان يجلس في ذلك الحين على حَجر. كان هذا الفتى الذي يرتدي دائماً قبعة نحاسية، غريباً ونحيلاً وصامتاً تماماً، وكان يتعلَّم بحرص، بل وأكثر من ذلك، كان في الأيام التي تشهد صباحاً رائعاً، يُظهِر صوراً كاريكاتورية مرحة للسيَّاح المارين؛ الذين كانوا

يعطونه عملاتهم المعدنية، وكثيراً ما كانوا يعودون للحصول على المزيد.

قال الصبي: «لا أستطيع أن أرى أي شيء على الإطلاق، ولا أحد يعلم أننا هنا، هل ذهبنا إلى المنزل».

كان تايلور قد عثر على الطفل قبل شهر، حيث كان يرقد في المكان الذي كانت فيه غرفة الطعام سابقاً، مستخدماً الطوب المتساقط كوسادة، وعلى الرغم من محاولات استجوابه المتعدِّدة، لم يستطع تايلور أن يعرف المكان الذي جاء منه الطفل، أو إلى أين كان ذاهباً، ولكن الطفل كان يذكر نهراً، وسيره لمسافة طويلة، وبالتأكيد، كانت هناك بثور وكدمات على قدمه وركبته، بما يشير إلى أنه قد مرَّ برحلة شاقة للغاية. قام تايلور، وهو يتدحرج بنفس الطريقة، وعلى العتبة، بإخراج الفتى من المنزل المهدَّم؛ محذراً إياه من التعدِّي على ممتلكات الغير، ثم أرسله على الطريق لشراء كوبين من الشاي وشطيرة لحم، حيث كان يعتقد أنه يمكنه أن يتحكَّم به، ولكنه كان يهمس في سره: «لن أشاهد تلك الأموال مرة أخرى»، ويراقب الطفل إلى حد ما وهو يمشي بقدمه المجروحة، ولكنه عاد حاملاً حزمة ورقية، وكوبين تفوح منهما رائحة البخار. وقال: «وافد جديد»، وكان يشاهد الفتى جالساً، يتناول إفطاره لقيمة تلو الأخرى، ولكنه لم يتلقَّ أي رد. حسَّنت الوجبة والشاي من الأجواء بينهما، وأخذ الصبي أغطية نظيفة من تايلور، وعثر على قطعة من السجاد؛ ليتمكَّن من النوم الهادئ لبضع ساعات. كان تايلور مسروراً لدرجة اكتشافه أنه لم يداعب قلبه أفضل من الطفل النائم؛ الذي يبدو على وجهه علامات اتساخ، والذي ساعد تايلور على جمع نقود ضعف ما كان يحقِّق في السابق.

أخذ الإحساس الطبيعي بالجشع يزاحم مشاعر قلبه العطوف، وعندما استيقظ الطفل، حاول مرة أخرى أن يعرف المكان الذي أتى منه، ومكان والديه، وقام بإشارة خافتة إلى شرطي محلي.

وقد قابل الصبي محاولات استجوابه بالصمت والخوف، ما أدى إلى ارتياح تايلور تماماً، لأن يقدم للصبي فرصة الشراكة في مشروع مزدهر، وبجانب توفير إقامة كاملة وسكن، ولإظهار حسن نيته، سلَّم تايلور الصبي جزءاً بسيطاً من حصيلة اليوم، وحينها، تطلَّع الفتي إليه بدهشة لبضع دقائق، قبل أن يعد النقود بعناية، ويضعها في جيبه.

قال تايلور وهو مطمئن: «لديَّ ابنة، ضع ذلك في اعتبارك. ليس من المتوقَّع منك أن تهتم بي، على الرغم من أن دفع هذه العربة القديمة لن يكون مزعجاً، مع ما تعانيه يدي من التهابات في المنطقة المحيطة بالمحور المفصلي. أستطيع القول إنها قد تحب وجودك معنا، إذ إنها لم تتمكَّن أبداً من إيجاد عائلة. رجاءً أخبرني اسمك؟ لا؟ حسناً، إذا كنت لا تمانع، سأناديك جينجر، تيمُّناً بقطتي العجوز، سيكون ذلك لطيفاً بما فيه الكفاية». كانت الأمور بينهما تسير على ما يرام، وكانت ابنة تايلور تعاني من أسوأ الظروف، حيث كان يعتقد أنه نظراً إلى فقدان أطرافه، فمن الممكن أن يرتكب زلات تتعلَّق بسوء التقدير بين الحين والآخر. لم يطوِّر جينجر أبداً ما أطلق عليه تايلور موهبة الثرثرة، ولكن بمجرد تزويده بقلم رصاص وورق، كان يبدو مرتاحاً تماماً، ولو كان في بعض الأحيان يرسم رسومات مزعجة، منقوشة بشكل غريب، لم يتمكَّن تايلور من النجاح في فهمها أبداً.

قـال الصبـي، وهـو ينظـر إلـى الضبـاب: «ربمـا تعـود إلـى البيـت»، ولكـن بعـد ذلـك كان هنـاك حشـرجة وصخـب لمجموعة تصعد الرصيف أسفل برج سانت نيكولاس، وأعد تايلـور نفسـه: «إنـه رجـل أعمـال سيئ، مـن يغلـق متجـراً بسـبب بعـض سـوء الطقـس قليـلاً»، قـال ذلـك وهـو يهـز قبعتـه. اقتربـت المجموعـة، وسـمع أصواتهـم فقـط لبضـع دقائـق، لكـي يـروا مـاذا يفعـل، أليـس كذلـك؟ ولا تتـورَّط فـي ذلـك، جيمـس، لدينـا قطـار للحـاق بـه وأنـا جائـع، لقـد وعـدت، لقـد وعـدت حقّـاً.

قـال تايلـور: «تـرى، هـل هـؤلاء أصدقائـي القدامـى؟»، قالهـا وهـو يُلقـي نظـرة خاطفـة علـى معطـف قرمـزي، ولمعـة مظلـة نحاسـية مدبَّبـة ترفـرف عاليـاً: «سـيد أمبـروز، أليـس كذلـك؟»، ثـم كان صـوت فتـح بـاب وإغلاقـه، انتهـت الحفلـة شـيئاً فشـيئاً بيـن النوافـذ فـي فنـدق جـورج. قـال وهـو يبحـث عـن الصبـي ولا يجـده «يالبلاهتـك، جينجـر». رجـل نبيـل سـخي جـداً، مـاذا تريـد أكثـر مـن ذلـك يـا فتـى، أيـن ذهبـت؟ وكأن المتـدرِّب الجديـد تـرك عملـه بصمـت وبسـرعة، وجلـس جاثمـاً خلـف القاعـدة الرخاميـة، يضغـط علـى شـفته السـفلى، فـي محاولـة فاشـلة لصـد دموعـه، وأخـذ تايلـور يتمتـم قائـلاً: «الأطفـال!»، وهـو يديـر عينيـه نحـو السـماء، ويـوزِّع قطعـة مـن الشـوكولاتة، لقـد كان أفضـل حـالاً مـن الحصـول علـى كلـب.

قـال تشـارلز أمبـروز؛ الـذي كان يرمـق سبنسـر ولـوك غاريـت «أعزائـي»، فقـد كان سبنسـر يعانـي مـن شـق فـي حاجبـه الأيمـن، المضمَّـد بشـرائح رقيقـة، أمـا لـوك، فإلـى جانـب يـده اليمنـى كثيـرة الضمـادات، كان وجهـه شـاحباً وضعيفـاً، حتـى إن العظـام الثقيلـة التـي بـرزت مـن جبينـه، أعطتـه شـكلاً غريبـاً كالقـرد. وقفـوا

جميعاً جنباً إلى جنب، ينظرون مثل أطفال المدارس الذين يتم الإمساك بهم بعد مزحة ما. أصدرت كاثرين صوتاً يشبه صراخ الأمهات، وقبَّلتهما على خديهما، وهمست بلطف في أذن لوك؛ الذي تلوَّن وجهه وذهب بعيداً. لقد أحضروا معهم الأطفال الذين عانوا من شدة الهواء، وقد حاولوا تخفيف الأمر عليهم. قال جون وهو يجوب الغرفة محاولاً اكتشاف ما حوله: «هل لديك أي شيء يأكله؟»،

قالت جوانا: «جون، أنت خنزير، دكتور غاريت، كيف يدك؟ هل يمكنني النظر إليها؟ أريد أن أرى الغرز. سأكون طبيبة، لعلمك، لقد عرفت أسماء جميع العظام في ذراعي، لأخبر بها والدي عندما أصل إلى المنزل: العضد، الزند، الكوع».

قالت كاثرين «لا تريدين أن تكوني مهندسة»، وحاولت أن تجذب الفتاة بعيداً عن لوك؛ الذي لم يقل أي شيء، وقد بدا عليه الضيق قليلاً، كما لو أن الفتاة حدثته بلغة غير مهذبة، وفي رد فعل لا يخلو من الخجل، حاول أن يبعد يده عن الأنظار.

تقول جوانا: «لديَّ بعض الأفكار حول هذا الأمر، ولكنني لا أستطيع الذهاب إلى الجامعة بسبب عمري حتى الآن».

قال جيمس رانسوم: «ربما لا تذهبين على الإطلاق، أرجِّح ذلك»، وكأنه كان حاقداً عليها منذ أن تحوَّلت جوانا من هواية السحر الطبيعي إلى العلوم (مع أنه لا يرى جدوى لهذا أو ذاك). شعر جيمس أنه فقد وضعه ضمن الأسرة، فقد كان بمثابة شعلة متوهِّجة. قال: «انظر» وهو يستدير إلى سبنسر، وأخذ ورقة من جيبه، ثم استكمل: «لقد صمَّمت نوعاً جديداً من الصمامات للمرحاض. اعتقدت أنك تستطيع استخدامها

في المنازل الجديدة، يمكنك الحصول عليها مجاناً، إذا كنت ترغب في ذلك»، وأضاف وهو يشعر بالكرم، فلم يكن محصناً من التأثير الماركسي لمارثا «سأحصل على براءة اختراع بمجرد الانتهاء من أعمال البناء».

قال سبنسر: «هذا لطيف للغاية»، وهو يدقِّق في المخطَّطات التي كانت بالتأكيد مفصَّلة بما فيه الكفاية، وتشبه أي خطط أخرى رآها من قبل، ولمح تشارلز أمبروز ذلك، ولمعت عيناه بنظرة امتنان أبوي كبير.

قال تشارلز: «هل وصلتك أي رسائل من مارثا؟»، وكان يجلس بجوار الموقد؛ بينما كانت كاثرين تقف مع لوك غاريت في أحد الجوانب، وحاولت برقَّة، ومن خلال الحديث في أمور غير مهمة، أن تلاطفه. تغيَّر لون وجه سبنسر، ولطالما تغيَّر لون وجهه عند ذكر اسم مارثا: «كتبت لي مرتين، قالت لي إن إدوارد بورتون وأمه معرضان لخسارة منزلهما! فالمالك قد ضاعف الإيجار تقريباً، غادر الجيران، وفي الوقت الحالي لا يجدون منزلاً بديلاً! كم هي طيبة، فهي تهتم كثيراً لأمر رجل بالكاد تعرفه».

قال تشارلز: «قمت بأقصى ما عندي»، في حقيقة الأمر، إنْ لم يدفعه الضمير والنقاش لمحاولة إقرار قانون الإسكان، فلن تؤثر فيه نظرة لوك غاريت. لا شيء يستطيع إصلاح التبدُّد المفاجئ للآمال، ولكن على الأقل، هناك بصيص من الأمل «هناك روح حماسية تملأ البرلمان، ولكن من يعبَّأ بالحماسة، فالكسل يتغلَّب في كل مكان».

قال سبنسر: «كنت أتمنى أن أنقل لها أخباراً جيدة»، معتصراً

يديه؛ حيث أخفق مثل العادة في إخفاء الدافع الشخصي وراء لطفه، ثم تلوَّن وجهه الطويل الخجول، وضرب بكفه على خصلات شعره الأشقر. تشارلز مولع بصداقة هذا الشاب لأخلاقه الطيبة وصدقه، وكان متابعاً لتواصله مع مارثا، حيث كان يشعر بقلبه ينبض من فرط الشفقة. هل كان عليه إخبار الصبي من أين تهب الرياح، ويتبدد ضوء الشمعة التي يحملها؟ في الغالب كان يجب عليه ذلك، رغم أنه كان بالكاد يفهم ما تحمله هذه المرأة الغاضبة برأسها، وكان يشك أنها ما زالت تحمل كثيراً من الصدمات في جعبتها. كان يُحدِّق بالأطفال، ليرى ما إذا كانوا يلعبون في مكان غير الذي حدده لهم، وقال برفق: «أعتقد أنها ليست الطيبة فحسب التي تدفع مارثا لأن تنزعج بشأن إيجار بورتون، فإنها تُحمِّل نفسها أكثر مما تحتمل». هدأت الريح، وتراجع سبنسر إلى الوراء، بعد أن فكَّر في محاولة صد وجهة النظر الأخرى. قال: «بورتون؟ لكن...»، قال ذلك وهو يحرك رأسه؛ مثل كلب يشعر بالدوار، وحاول تشارلز برقَّة تحريك يده مازحاً: «إننا جميعاً مصدومون مثلك! عشر سنين كانت رفيقة كورا وكاتمة أسرارها، ولكن سرعان ما ألقت بكل هذا من أجل ثلاث غرف وعلاقة جديدة! لم تُحدِّد موعداً للزواج، هل تعبأ؟ لا يستطيع أحدنا أن يتخيَّل شكلها بطرحة العروس».

قلّب سبنسر شفتيه بصمت مرة أو اثنين، كما لو كان يحاول دون جدوى نطق اسم مارثا؛ وبدا عليه خيبة الأمل والحيرة؛ كما لو كان عاجزاً عن التفكير في ما يفعله. نظر تشارلز بعيداً، وكأنه يعرف أن الرجل يستطيع أن يجمع شتات نفسه في لحظات، وفي هذه الأثناء، كان يقف جون بالزاوية، وبيده

حفنة من المقرمشات يأكلها باهتمام شديد، بينما كانت جوانا وجيمس يتجادلان بشدة، بشأن من الذي وجد رسمة مفصل الورك الذي تآكل بفعل المرض، وعندما عاد إلى الوراء، رأى سبنسر يغلق سحَّاب سترته، كما لو كان يحزم أمتعته، ثم قال: «سوف أرسل لتهنئتها. إنه لشيء رائع أن تتلقَّى أخباراً جيدة كهذه»، قالها بينما لمعت عيناه واغرورقت بالدموع، وأومأ إصبعه نحو لوك؛ الذي كان يُحدِّق بالأرض بجوار كاثرين؛ التي غلبها اليأس، وشعرت أنه ليس بإمكانها القيام بشيء غير الإصرار على أن يأكل.

قال تشارلز: «نعم»، وكان غير مرتاح للشعور بالشفقة، ويستعجل عقارب الساعة، وكأنه يشير إلى ألدوينتر، حيث كان يفكِّر في العودة بعد ذلك إلى منزله الهادئ. «نعم، كان عاماً سيئاً للغاية، حقاً، فات منه تسعة أشهر».

قال سبنسر ببطء، وهو يعتصر يديه، بعد أن فكر جيداً دون تسرُّع: «إنني أتساءل لماذا هي قلقة بشأن ارتفاع إيجار منزل إدوارد بورتون؟ إن الأمر بسيط، إذا ما نظرنا إلى الموضوع على نطاق أوسع... لوك، هل تعرف؟ هل سمعت؟». التفت نحو صديقه، وكأنه يبحث عمن يوجهه أو حتى يسخر منه، ولكنه غادر. قال سبنسر: «حسناً»؛ ناظراً إلى تشارلز بحزم: «هل سنبقى على تواصل؟»، تصافحا بشكل أظهر مزيجاً من التعاطف والعزم والإحراج. تم البحث عن الأطفال في جميع الأنحاء. سألا عن لوك، وسألا مرة أخرى عن يده؛ قال جون: «إنه يشعر بالأسف، لأنك سمحت له بتناول الطعام في المنزل، وأن الأمر قد يكون مختلفاً، إذا حصل على الكعكة التي يريدها، وأنه قد يستبدل عبوة البسكويت عندما يحصل على المال».

قالت كاثرين: «إنني قلقة بشأن صديقنا القصير»، وأمسكت بيدي سبنسر؛ الذي كان مصفر اللون بسبب قلقه على صديقه «إلى أين ذهب؟ إنه يبدو مثل السراج المنطفئ». وكأن غرائز الأمومة التي أيقظها أطفال رانسوم، تركِّز حالياً على الجرَّاح الذي كان يجلس جانبها مخبِّئاً يده اليمنى تحت اليسرى، وكأنه فعل شيئاً مشيناً «هل أكل؟ هل شرب؟ هل رأى كورا؟».

قال تشارلز: «إنه من المبكِّر أن نعرف ماذا سيحدث». وهمَّ بمساعدة زوجته لترتدي معطفها، وأغلق الأزرار العلوية حتى ذقنها، ربما نال أكثر ما يحتمل من الحزن في نصف الساعة الأخير، وكان قلقاً من اصطحاب الأطفال إلى المنزل. قال: «سوف يعود كما كان في الكريسماس القادم، سبنسر، أنت مدعو للغداء قريباً، سوف نقوم بترتيب الأمر؛ جوانا، جيمس، اشكرا السيد سبنسر على وقته؛ ستلتقون قريباً الدكتور غاريت مرة أخرى، وداعاً!». توقَّف جون أمام الباب وفجأة تذكَّر: «سوف نذهب لرؤية أمي!»، ثم وضع يده على كتف أخته «هل تعتقدين أنها أفضل الآن؟ هل ما زالت جميلة؟».

خارج هاي ستريت، حيث يتخفَّى الضباب أسفل شعاع الشمس المنخفض، كانت جوانا تفكِّر في أمها، فشعرت بوخز في بطنها.

افتقدتها كثيراً في بادئ الأمر؛ حتى داهمتها آلام جرح قديم مزمن؛ كان كل شيء مزعجاً. كانت كاثرين أمبروز دمثة الأخلاق، ولكن ليس بالقدر الذي تحمله ستيلا من دماثة؛ كانت غرفتها مريحة ومرتبة، ولكن ليس على النحو الذي كانت ستيلا لتقوم به. تم تقديم العشاء مبكراً، ولكن كانت الأطباق غير مناسبة؛

ولا يوجد البنفسج الأفريقي على حافة النافذة؛ ضحكت كاثرين على هذه الأخطاء، ولم تضحك على الأشياء الصحيحة؛ كانوا يتناولون الحليب الساخن بالعشاء، وليس شاي البابونج. في هذه الأيام الأولى، كانت تكتب لأمها يومياً، ولطَّخت يديها والأوراق أكثر من مرة، ولم يكن باستطاعتهما النوم ليلاً، دون اجتماعهما في المطبخ بالأسفل بالملابس البيضاء والزرقاء المزركشة، لكن سرعان ما تلاشت هذه الصور الجميلة، وكانت الخطابات التي ترد عليها مليئة بكلمات الحب والشغف، وغريبة العبارات، ثم لم تعد تتجاوب مع أي شيء تقوله جوانا. بعدها أصبحت الخطابات نادرة، وعندما تصل، كانت أشبه بالنشرات الوعظية التي تحملها سيدة ممتلئة خارج محطة شارع أكسفورد، وكان ذلك محرجاً لها.

في غضون أسابيع، أصبحت من قاطني مدينة لندن، واعتادت الأنفاق والحافلة، وأصبح يمكنها أن تنظر إلى فتيات هاريدوز، مع خيارات كثيرة لشراء دفاتر وأقلام. تضاءلت ألدوينتر في أعينها، وأصبحت تراها مليئة بالطين ومملَّة، وتذكرت أفعى إسكس، وكأنها وحش من اليقطين. لقد اشتاقت إلى أبيها، ولكنها شعرت بقدر من السعادة؛ لأن هذا الوضع قد يكون في صالحهما. لقد قرأت كتاب «السيدة الصغيرة»، وشعرت أنه إذا استطاع جو مارش التعايش وحيداً لفترة، فإنها كانت تستطيع، وشعرت بعنفوان الشباب بداخلها، وأنها في وضع جيد، باستثناء حال مشاهدتها ريش الغراب وهو يتساقط، أو العنكبوت وهو ينسج خيوطه، وبعدها تذكَّرت أيام السحر، ورفيقتها ذات الشعر الأحمر، وشعرت بمدى الذنب والأسى.

زاد شعورها بالأسى عندما نظرت إلى الحطام، وشاهدت رجلاً عاجزاً، وطفلاً مشرَّداً يجلس فوق حجر من الرخام، يتمدَّد أعلى مجموعة من الألواح. حدَّقت به وهي تهزُّ كتفيها؛ بسبب نظرة أخيها عبر الطريق. عانت عيناها من الزغللة للحظة، بسبب ضوء الحافلة، وتوارت بين مجموعة من السائحين كبار السن، متجهين إلى متحف القلعة. نادت كاثرين «جوانا!»، وهي تشعر بالمرض والحمَّى على الرصيف، تحاول الوصول إلى الفتاة، ومنْع الأولاد من العدو بالطريق. كان تشارلز يسير دون أي قلق من مرور أي عربة من عربات إسكس؛ التي قد تلطِّخ معطفه بالطين، ناظراً بهدوء إلى الأطلال، كان مندهشاً، لأنه وجد جوانا تصدر أصواتاً أشبه بالتمتمة عند الرجل القعيد، وتتساقط الأمطار على كتفيها. قالت: «ماذا فعلت لناعومي!»، «انظر ماذا فعلت لشعرها الجميل!».

وقف تشارلز بين الاثنتين، مستقبلاً ضربة خفيفة على ذراعه. قال: «جوانا، أنا أول من أعجبته بصيرتك، ولكنني الآن أرى أنك ربما تكونين قد تخطَّيت الحدود، سيدي أنا آسف لما فعلته... جو، بماذا أدعوك؟ أنا آسف لمهاجمتك بهذه الطريقة المريعة! ربما يمكنني إصلاح الأمر؟». وضع العملات في قبعة تايلور؛ وصافح الرجل. قال تشارلز: «والآن ماذا بعد؟»، وكأنه يتمنى لو كان في مكان آخر: «ماذا جرى لك أيتها الصغيرة؟». لم تكن جوانا تستمع إليه، فقط تنظر إلى الخلف والأمام، وترمق تايلور، وما يبدو أنه صبي يقف بجانبه؛ مرتدياً معطفاً متسخاً. كاد لونها يتحول إلى الأبيض، وبدا وجهها يلمع، في لون يمزج بين فراء السيدات ووجه

الأطفال عندما يصيبهم التوتر، كان الطفل يحدِّق بالأرض. احتار تشارلز، ومدَّ يه إلى جوانا؛ ثم قالت وهي تتنهَّد بمرارة: «كلهم يقولون إنكِ كنت تسرقين من المتجر، ولكنني قلت لهم إنك لا يمكن أن تفعلي ذلك، وعندما لم تحضري، اعتقدنا أنكِ قد وقعت في يد الأفعى أثناء الأزمة، ولكنك هنا طوال الوقت، ناعومي بانكس، أعتقد أنني لم أرَك على حقيقتك!». للحظة، أخذ يبحث عن الفتاة، وقبل أن تُظهِر نفسها، أدرك تشارلز أنها ليست صبيّاً، وحينئذٍ؛ وقفت الفتاة قصيرة الشعر مثل الذكور، تطرق بأظافرها العمود الحديدي. كانت تقف قريبة من جوانا، وكادت تبكي بغزارة، وأخذت تلوِّح بيديها في غرور.

قال تايلور: «أزمة وأفعى»، وهو يفكر في الكلاب التي طالما تمنَّى اقتناءها: «تسرق؟ عزيزي جينجر؟»، ثم استكمل وهو ينظر إلى العملات بقبعته: «أعترف أن ما تقوله محيِّر للغاية».

قال تشارلز: «أعتقد أن بإمكاننا الاستنتاج أن الصبي الذي يعمل معك قد خدعك، وأنه ليس بصبي، بل فتاة تُدعى ناعومي، صديقة جوانا»، وعند تلك النقطة، لم يستطِع أن يدرك أكثر من ذلك؛ لأنه لم يفكر أحد في أن يخبره عن الصياد الذي فقد طفلته. خرجت الفتاة ذات الشعر الأحمر من المتجر بتعالٍ، وبصرخة مختنقة، احتضنت جوانا. وقالت: «أريد أن أذهب إلى المنزل، حقّاً أريد، ولكنني خائفة للغاية، فلا أحد يريدني!»، ثم رجعت إلى الخلف، ونظرت إلى جوانا بتمعُّن، وكانت أعينها مليئة بالدموع: «إنك لا تريدينني يا صديقتي، الجميع يخاف مني، بسبب ما فعلته بالمدرسة، وما قمت به بالماء، رغم أنني لم أقصد فعل ذلك، إنني لا

أعرف ماذا حدث، لم أعرف غير أنني كنت خائفة للغاية، ولم أستطع التوقف عن الضحك...».

قال تايلور: «جينجر؟»، محاولاً أن يستفيد من الموقف بأفضل ما يمكن: «ألم أكن أعتني بك؟»، ونظر بمكر إلى تشارلز؛ الذي وضع عملة أخرى أو اثنتين في القبعة.

«إنها غلطتي، ألم تكن كذلك! خطئي وحدي، كنت صديقة سيئة...»، قالت ناعومي: «بل كان خطأ تلك السيدة التي كان يظهر النمش بوجهها بين الدموع المتلألئة، جاءت هذه السيدة، وبعدها لم يعد شيء كما كان، فضيَّعت كل شيء! وألقت الوحش في النهر!».

قالت جوانا: «ألم تسمعي بما حدث؟»، وحاولت إمساك رأس صديقتها ووضعتها على كفتها، ثم أكملت: «ذهبت أفعى إسكس، ذهبت، لا يوجد شيء هناك، فلم يكن هناك شيء من البداية، فقط بعض الأسماك القليلة، وواحدة كبيرة، ولكنها ماتت بالماء، عودي مرة أخرى يا ناعومي». قبَّلت يد الفتاة، وكانت تتحسَّس بشفتيها أتربة المبنى المتهدِّم، وأوساخ المدينة، «ألا تودين رؤية أبيك؟»، وفي تلك اللحظة، ذهب عن ناعومي غرورها المعهود، وأخذت تبكي بعنفوان مثل الأطفال، ولكن بيأس مثل السيدات.

عندما وصلت كاثرين أمبروز، كان جون يمسك بيد جيمس من الناحية الأخرى، رأت جوانا تجلس على اللوح الرخامي، وفتاة رفيعة جاثية على ركبتيها، تتمتم مثل طفل صغير يحاول التهجئة.

قال تشارلز: «أنا خائف»، وهو ينظر إلى ساعته، ثم أردف: «أعتقد أننا في المكان الخطأ».

11

سمعت ستيلا وهي راقدة في ردائها الأزرق، أطفالها وهم قادمون، فرفعت يديها، كانت تعلم صوت خطوات حذاء جون على عتبة الباب، وتحسَّب جيمس لخطواته؛ وعلمت كيف ترمي جوانا معطفها، وتعدو بكامل حيويتها، بعد ذلك جاء ويل أمام بيتها، كانت ابتسامته تشبه العائد المنتصر، من أتى بالهدايا معه: «حبيبتي، ها هم، إنهم عادوا، وأصبحوا طوال القامة؛ كأعمدة التلغراف»، ثم قال بهدوء لجوانا: «اذهبي بحرص، إنها أضعف مما تبدو».

كانت تخاف جوانا أن ترى أمها على فراش المرض، نحيفة وشاحبة وملفوفة بالأغطية، ولكن ها هي ستيلا مثل النجمة، بأعين لامعة، ولمسة من أحمر الشفاه، وغيَّرت ملابسها انتظاراً لقدومهم، مع ارتداء حُلي زرقاء ملتفَّة ثلاث مرات حول عنقها، وشال منقوش بفراشات ذات أجنحة زرقاء. قالت ستيلا: «جوجو»، بينما تحاول الاتجاه نحوهم، ولم تستطع الوصول إليهم بالقدر الكافي. قالت: «عزيزتي جوانا»، ثم نطقت أسماءهم جميعاً: «جيمس، جون». إنها تعرف روائحهم جيداً، رائحة شعر جون، التي لطالما كانت مثل رائحة الشوفان، ورائحة جيمس؛ التي تُعَدّ أكثر تأثيراً،

ومتقـدة كذكائـه. شـعرت جوانـا بمـا تحـت الوشـاح مـن عظـام هشـة؛ شـعرت أمهـا بشـعورها، وتبادلتـا النظـرات.

قـال جـون بإعجاب: «تعجبني قلادتك»، ثـم قـدم إليها نصف قطعـة مـن الشـكولاتة وقـال: «أتيـت إليـك بهديـة». سـتيلا تعلـم أنهـا كانـت تضحيـة كبيـرة منـه؛ فقبَّلتـه، ونظـرت إلـى جيمـس الـذي لـم يكـف عـن الـكلام منـذ أن دخـل مـن بـاب المنـزل، حـول كاتـي سـارك ومتـرو الأنفـاق، وكيـف نـزل إلـى الأسـفل، ليـرى أنفـاق صـرف بازاجليـت قالـت: «واحـدة كل مـرة، لا أريـد أن يفوتنـي شـيء».

قـال ويـل، وهـو يشـاهدهم مـن عنـد عتبـة البـاب: «لا ترهقوهـا»، كان يقـف هنـاك شـاعراً بألـم فـي حلقـه، مـع إحسـاس بالمتعـة والحـزن فـي نفـس الوقـت، كان يسـتطيع الوقـوف هنـاك لسـاعة، وهـو يـرى سـتيلا تضمهـم إلـى صدرهـا. أراد أن يشـعر بهـم بيـن ذراعيـه، محاطيـن بالـدفء والاحتـواء؛ وظـل يتعجَّـب طـوال الوقـت، مـن الأسـلوب الـذي يوضـح بـه ذلـك لكـورا، سـواء بالخطـاب أو بالكلمـات، كيـف يسـعدها ذلـك، كيـف تلمـع أعينهـا الرماديـة. ليسـاعدني ربـي؛ أنـا مشـطور نصفيـن، هكـذا كان يعتقـد، ولكـن الحقيقـة أنـه لـم يكـن جـزء منـه هنـاك، والجـزء الآخـر فـي البيـت الرمـادي عبـر الشـارع العمومـي؛ إنـه موجـود بالاثنيـن بكامـل جسـده. قـال: «لا ترهقوهـا»، متجهـاً إلـى الأمـام، وجـد نفسـه يُسـحَب مـن يديـن صغيرتيـن: «لنجلـس لمـدة أطـول قليـلاً، ثـم ندعهـا تنـام».

قالـت سـتيلا: «إنـك معـي الآن، إنـك معـي هنـا الآن، حبيبـي.. كـن معـي قبـل أن أذهـب».

يدعوني إلى منزله لتناول الطعام

إن شعاره الذي يرفعه أمامي هو الحب

أرسل الأفعى إلى حديقة إيدن التي تحتوي على الزهور الزرقاء

وأرسلها الآن، ويجب أن نؤدي ثمن العقوبة

فبعصيان رجل واحد، يخضع جميع مذنبي ألدوينتر

لحكم القدر، ولكن بطاعتي، سوف يصل الجميع إلى الأمان

الأفعى خادمة الرب في مياه بلاك وتر الزرقاء، أتت إلينا لتعاقبنا على ما اقترفناه

سوف أدفع ثمن كل ما فعلوا، وسوف تذهب بمجرد أن تأتي

وأنا

يجب أن أدخل

بوابات المجد!

12

أسفل الرصيف، جلس بانكس إلى جانب أشرعته يحصي خسائره؛ الزوجة، والقارب، والطفلة، كل ذلك تفلَّت من بين يديه تماماً كالماء المالح، وخلف ضباب البحر، فاض المصب بالمد القادم، وتذكَّر الصبي أسود الشعر؛ الذي كان يقف في الصباح بجوار النيران، وكيف سحبه نحو الشاطئ، وقال وسط أجواء من الهواء الغائم: «لم أرَ شيئاً. لم أرَ أي شيء»؛ ولكنه كان يفكِّر في الأخبار الغريبة، أفعى إسكس؛ منتفخة، وذيلها كالسهم وتحتك بالحصى. الآن؛ وبعد ذلك ينقشع الضباب، وهناك أضواء مراكب الصيد والصنادل تلوح في الأفق عند الغسق، وبعد ذلك سقط الستار، وعاد إلى وحدته من جديد.

ينشد الراحة في التمتمة بأغاني الصيادين، ضوء الميمنة أخضر بالليل، ضوء الميمنة على يمينك... وما نفع اللهب خلف الزجاج الملوَّن، حين يرقد في الآفاق من ينتظر موعده؟

عندما شعر بيد صغيرة على كتفه، لمسته بلطف، دون أن تخيفه أو تروِّعه. لم تكن مألوفة فحسب، بل كانت ودودة وآسرة، فلم يكن لأحد أن يمسَّه هكذا، تحرَّكت بداخله

ذكريات، تنجلي عنها ثمالة الشراب والضباب الكثيف. قال وهو يمد يده في تردُّد: «عدت إلى البيت يا صغيرتي؟ عدت إلى رجلك العجوز!».

نظرت ناعومي إلى الأسفل، بينما تلتفُّ بمعطف متدلٍّ لجوانا، وأخذت ترمق رأس أبيها؛ حيث أصبح شعره أخف مما كانت تذكره، شعرت برقَّة غير متوقَّعة؛ لم تألفها من قبل. للحظة، لم يعد أباها، وكان ذلك امتداداً لكونه لم يجُل بخاطرها إلا نادراً. لقد أدركت لأول مرة، أنه يشعر أيضاً بالخوف وخيبة الأمل، وأن هناك ما يأمله ويعانيه ويستمتع به. لقد حرَّكها ذلك الإحساس، وأرسلها عبر السنوات؛ وعادت إلى مكانها القديم، متربِّعة بجواره على رصيف المرسى، تدنو منها شبكة الصيد، وسحبتها بين أصابعها كالخبراء، وغلبتها الدموع فقالت: «سأتولَّى ذلك إن أحببت»، فدوماً كانت تلك المهمة غير مرغوبة، تترك كدمات بين أصابعها، كانت تتفاقم مع الملح، ولكن وجدت ما يطمئنها في عودة يدها إلى إيقاعها القديم في أداء تلك المهارة: «آسفة لابتعادي»، قالت ذلك وهي تجمع الخيوط الممزَّقة، ثم التفتت بعيداً؛ لتتركه يذرف دموعه وحده: «لقد كنت خائفة من أشياء، ولكنني على ما يرام الآن»، وإلى جانب ذلك، مدَّت يدها لتغلق أزرار معطفه «لقد جنيت بعض المال، كله وحدي! سنذهب إلى المنزل، ويمكنك مساعدتي في عدِّه».

في منتصف ما بعد الظهيرة، تكثَّف الضباب القادم من البحر، واقترب من ألدوينتر من الشرق. يزحف عبر النوافذ، ويتجمَّع في الخنادق والتجاويف، موهناً رنين أجراس كنيسة جميع القديسين. بدت كورا وهي تسير بلا كلل في منطقة الشارع

العمومي، ترى ضوء الشمس يغيب في عينيها، كما لو كانت هناك بقع على سطحها، البقع الشمسية التي تنبئ بعواصف في طور التشكُّل والاحتدام «مَنْ سأخبره الآن، إن لم يكن هو؟ مَنْ إذن سيصدقني عندما أتحدث بأمور مجنونة؟».

قالت ستيلا من غرفتها الزرقاء: «أنا متعبة، يبدو أنني سأخلد إلى النوم».

انطوى جيمس وجون في الزاوية، ثم تركا لعب الورق، ونظرا خلسة، ثم عادا فأشاحا بنظريهما مرة أخرى لما كان يفعلانه، لا يباليان؛ مثلهما مثل الحيوانات العائدة إلى حظيرتها. رأت جوانا التي قرأت عدة فقرات لنيوتن، دون أم تفهم منها أي شيء، كيف أن الرطوبة تلمع على جبهة والدتها، وكيف يبدو شعرها ملتصقاً هناك، وكانت خائفة. أشارت ستيلا التي لم تكن أقل فطنة تلك اللحظة من أي لحظة سابقة، إلى طفلتها، وقالت: «أعلم أنك ترين ذلك، جوجو، أعلم أنك ترين ما لا يرون، لكنني سعيدة، وأحياناً حينما يغادر الجميع ويهدأ المنزل، أفكِّر أنني أسعد الآن مما كنت عليه من قبل. هل تصدقينني؟ لم أكن لأفعل ذلك دون ساعة من معاناتي، لأنها نقلتني إلى مستوى أعلى، لقد أظهرت لي طريق الحياة!»، وأمسكت تنورتها، وبدأت تلتقط كنوزها، واحداً تلو الآخر، أصداف بلح البحر الأزرق، وشظايا الزجاج، وتذاكر الحافلة وأغصان الخزامى، ووضعتها في قماش مطوي، وقالت وهي تتطلَّع في أرجاء الغرفة: «يجب أن أنظِّف الغرفة، أحضر لي كل شيء، جو، الزجاجات هناك، الحجارة والأشرطة، أريد أن آخذها معي».

وضع ويل ورقة بيضاء بجانب رسالة كورا، أثناء جلوسه

في غرفة الدراسة، ولم يتمكَّن من التقاط قلمه. قالت: لتترك الذنب وراءك، كما لو كان من الممكن التخلُّص منه، وكأن لديها أي فكرة؛ لقد عزلت نفسها عن كل ذلك، لم تكن لديها فكرة بأنه ليس مجرد إحساس عام بارتكاب الخطأ، بل إنه جرح شخصي وخاص؛ وكأنه أصابها بالمسامير في يديها وقدميها، معمِّقاً إحساسها بالألم دون أن يدري، وترك آثاره متمثِّلة في جروح متجمِّعة حول حاجبها، وجال بخاطره فكرة تقول «أنا زعيم الخطاة»، ولم يكن هناك أي فخر في ذلك، خطيئة تراكمت على سوابقها! فكَّر في كورا، واستدعتها ذاكرته بسهولة، النمش على خدها، ونظراتها الرمادية الهادئة، وطريقة وقوفها مستقيمة بفخر، وكيف تبدو ملكة؛ حتى وإن ارتدت ثياباً رثة، أعمته حدَّتها (وتلك خطيئة أخرى، وضعها على لائحة الاتهام!). منذ اللحظة التي فتح فيها رسالة أمبروز، وعطفاً على ما تعلَّمه منذ صباه، كان يدرك أن تلك هي رياح التغيير، وكان عليه أن يرتدي معطفه ويغلق النوافذ، لا أن يواجه التيار! لكن كل ذلك كان كورا (قال اسمها بصوت عالٍ)، كورا التي بدت الحميمية معها تتشكَّل منذ أول يوم تشابكت فيه الأيدي. لا، بل قبل ذلك الحين، حينما تصارعا في الوحل، فمَنْ كانت مشاعره تجمع بين الفرح والغضب، والكرم والأنانية في نفس الوقت؟ مَنْ سخر منه كما لم يفعل أحد على الإطلاق؟ مَنْ سوى كورا؟ مَنْ في حضوره وحده يمكنها النحيب؟! انحسر إحساسه بالحنق، وتذكَّر لمسات فمه على بطنها، وكم كانت دافئة وناعمة، وكيف كانت كحيوان طليق، لم يكن هذا اللقاء بينهما خطيئة بالنسبة إليه حينها، والآن، بالكاد يفكِّر في ذلك، بل هو يعتقد أنها نعمة، هدية لم يسبق له أن سعى لها، ولم يكن يستحقها!

كتبت له: كم بقيت وحيداً هناك؟ قد كانت مدة طويلة. لقد ذهب إلى فم النهر، إلى عظام ليڤياثان السوداء، ونظر إلى مصب النهر، راغباً أن تأتيه الأفعى من العمق حتى تبتلعه، مثل يوناس، على ضفاف نهر إسكس جلست وانتحبت، هكذا كان يفكر.

في الطابق العلوي، أغلق باب غرفة ستيلا برفق، وتحرَّكت خطوات أقدامه هبوطاً على الدرج. دخل قلبه في موجة من الألم؛ ها هي ستيلا، نجمته الخاصة المتلألئة، على وشك الاختفاء؛ كان يخشى أن تترك وراءها فراغاً أسود يسقط فيه. أراد أن يصعد إليها، ويرقد بجانبها على فراشها، وينام كما اعتاد دائماً، وهي مستندة إلى ظهره، لكن ذلك لم يكن ممكناً، فقد أرادت دائماً أن تكون وحدها، وتكتب في دفترها الأزرق، فجُل تركيزها كان في اتجاه آخر. جلس في تلك الغرفة المظلمة، غير قادر على الكتابة، غير قادر على الصلاة، مشاهداً الشمس الحمراء، متسائلاً عما إذا كانت كورا في مكان ما تشاهد ما يشاهده.

وكان فرانسيس سيبورن يجلس متربعاً، يراقب الساعة. كان في جيوبه كثير من الأحجار المزرقَّة، فلم يحظَ بالراحة، وفي مكان آخر، كانت تتجوَّل والدته حول المنزل، مشوَّشة ودون راحة، في بعض الأحيان، تأتي لرؤيته وترسم القبلات على جبهته، دون أن تذكر شيئاً. كان يحمل الملاحظة من ستيلا رانسوم، وكان بها تعليمات واضحة مكتوبة بالحبر الأزرق، وصورة أفزعته، على الرغم من أنها كانت جميلة المنظر. طوى الورقة وفردها، عقرب الدقائق يتحرَّك ببطء، وتمنى لو أنه تحرك ببطء أكثر، لم يكن يشك في حكمة أوامره،

لكنه فقط تساءل، إن كان لديه الشجاعة ليدركها. وفي تمام الساعة الخامسة، خرج فرانسيس إلى الردهة، حيث الأحذية والمعاطف معلقة بشكل أنيق، وانطلق يخترق الضباب. نظر إلى أعلى، محاولاً العثور على قمر هانتر يلوح بالسماء، ولكنه كان مختفياً، ولن يعود لمدة عام.

تركت جوانا والدتها نائمة، وذهبت لترى صديقتها، أرادت أن يستعيدا ذكرياتهما القديمة مع الثرثرة والنميمة، وأن توضِّح لها كيف أن منطقة الملاحات، أصبحت خالية من ظل الأفعى. سرعان ما أصبح واضحاً أن أيامهما السحرية أصبحت ذكريات طفولية بعيدة، ولا يمكن تذكُّرها دون خجل، ومع ذلك كان من الجيد السير في الدروب القديمة، ومحاذاة الخطوة بالخطوة. قالت ناعومي: «كان كراكنيل هناك عندما وجدته»، وهي تشير إلى امتداد واضح من الحصى بجانب جدول ضيق: «كان يرقد ورأسه على جانب واحد، ظننت أنه سقط، فقد كان مسناً جداً، أليس كذلك؟ والمسنون كانوا يتساقطون دوماً، لكن عيناه كانتا مفتوحتين. لقد رأيت شيئاً داكناً فيهما، وظننت أنه ربما كان آخر ما رآه، ربما كان الوحش، ولكن بعد ذلك تحرَّكت، وكنت أنا ذلك الشيء، كما لو كنت أنظر في مرايا. يقولون إنه كان عجوزاً ومريضاً. كان مضحكاً أن نفكِّر جميعاً أنها الأفعى!».

مشيتا بعيداً عن ليڤياثان، شعرتا بالهواء الرطب على وجنتيهما. كان الضباب على ضفاف بلاك ووتر كثيفاً وحُبيبيّاً، مليئاً بذرات لؤلؤية. على بعد مسافة قصيرة، يبدو أن الحارس قد أشعل نيراناً ثم غادر موضعه، نتج عن جمر النار ضباب أصفر، يتحرك مثلما يحرك الريح الضباب.

قالت جوانا: «لقد انتهى الأمر، ولم يعد هناك ما نخشاه بعد الآن، ولكن قلبي ينبض، يمكنني سماعه! هل أنتِ خائفة؟ هل نستمر؟».

قالت ناعومي: «نعم، بكل تأكيد نعم». كان من الضروري أن نخاف حتى نتحلى بالشجاعة، هذا ما علَّمها والدها على المقعد في بارجته، وقالت: «لنذهب، هل تمانعين؟ إنها تزداد عمقاً». إنها تعرف منطقة الملاحات جيداً، وجميع الجداول الصغيرة، ولمَّات عشب المستنقعات. قالت: «أمسكي بذراعي وثقي بي، انحسر المد منذ ساعة، نحن آمنون». سرَّها أن تكون هناك مرة أخرى مع صديقتها، إلا أن كل شيء قد تغير، لم تكن ناعومي المسكينة، والبطيئة في القراءة، والانقيادية، التي تشعر برهبة من ابنة الكاهن، هذه كانت مميزاتها، وشعرت أنها المسيطرة. على الرغم من ذلك، كانت أمسية قاتمة وغير مستقرة. كشف ضباب البحر عن المستنقع في أجزاء صغيرة (لقد تجزَّأ، وكان هناك طائر البلشون الأبيض خارج الضباب)، ثم انقشع، وصارتا بمفردهما. مرة واحدة، كانت هناك لحظة؛ حيث غلبت الشمس الضباب، واكتشفتا أنهما كانتا محاطتين من جميع الجهات من قبل فراخ الطائر المائي، تعوم وتغطس. قالت جوانا وهي تضحك، وترغب في أن تكون في المنزل: «كأننا تائهتان، هيا نعُد الآن، ماذا لو لم نتمكَّن من العثور على الطريق؟». تشبَّثت بناعومي، وقد استخفَّت بها قليلاً لتوليها المسؤولية، وتعثرت في أماكن بها محار متعفِّن وبكت.

قالت ناعومي: «ماذا لو كانت لا تزال موجودة هنا؟»، وتابعت فقط من أجل إغاظتها قليلاً، قائلة: «ماذا لو كانت لا تزال هنا بعد كل شيء، وعادت إلينا؟»، وانطلاقاً من رغبتها

المخزية في الانتقام، سحبت ذراعيها، وتراجعت إلى الوراء في الضباب، وضمَّت يديها إلى فمها، وأصدرت نوعاً من الإشارة. قالت: «سأستدعيها، هل سأفعل؟». كانت تخيفها، لكنها لا تريد أن تتوقَّف: «احترسي! ها هي آتية!».

قالت جوانا: «توقفي»، وهي تقاوم دموعها العفوية: «توقفي عن ذلك! عودي، لا أستطيع العثور على الطريق»، وعندما ظهرت ناعومي مرة أخرى، خجلة قليلاً من نفسها، ضربتها على أكتافها: «أنت فظيعة، فظيعة، كان بإمكاني أن أخرج إلى مصب النهر وأغرق، وسيكون خطأك... ماذا؟ ما هذا؟ ناعومي، توقفي عن ممارسة الألعاب، عندما كنت تعرفين جيداً أنها مجرد سمكة كبيرة». بجانبها، كانت ناعومي قد هدأت تماماً، ووقفت مكبلة الأيدي. لم تكن تنظر نحو مصب النهر، حيث تلتقي مياه بلاك ووتر مع مياه كولن، ولكن مرة أخرى في اتجاه الشاطئ، حيث لا يزال اللهب يتوهَّج بلون الشعاب المرجانية عبر الضباب «ماذا؟». قالت جوانا، ويبدو على لسانها إحساس الخوف: «ماذا رأيت، ماذا كان ذلك؟».

كانت يد ناعومي مثنية ومشدودة على كمِّها، وشدت صديقتها، واقتربت بفمها من أذنها، وقالت: «اصمتي، انظري عبر ليڤياثان، ألا ترين؟ ألا تسمعين؟». استمعت جوانا، أو اعتقدت أنها فعلت، ولم تجد سوى نوبات أنين أو صرير، تبدأ دون سابق إنذار ثم تهدأ، ثم تعود مرة أخرى، وكلما مر الوقت؛ يبدو الصوت أقرب. شعرت ببرودة مروِّعة من فروة رأسها إلى أطراف أصابعها، ما جعلها تتجمَّد في مكانها. كان هناك، كان هناك طوال الوقت، منتظراً.. منتظراً. لقد كان في ذلك راحة لهم، حيث لم ينخدعوا على كل حال.

ثـم ارتفـع الغطـاء الضبابـي الشـاحب، وظهـر مصـدر الصـوت المنتظـر علـى بعـد خمسـين يـاردة، لا أكثـر؛ أسـود أفطـس الأنـف، أضخـم ممـا تتخيَّـل، دون أجنحـة، أو كانـت أجنحتـه مضمومـة، ذا ذيـل حـاد، وسـطح قبيـح يبعـث علـى الكآبـة، ولـم يكـن بـه قشـور مثل الأفعـى أو السـمك. صرخـت ناعومـي بصـوت يمتـزج بالضحـك، وأخفـت رأسـها فـي كتـف جوانـا، وهمسـت: «لقـد قلـت لـك!»، «ألـم أخبـر الجميـع؟». خطـت جوانـا خطـوة تجاههـا، وكانـت غيـر خائفـة، ثـم اسـتدارت، وعـلا الصريـر مـرة أخـرى، وكمـا لـو كانـت هنـاك أسـنان ضخمـة تتحـرَّك بعضهـا ضـد بعـض مـن الجـوع، ثـم صرخـت وقفـزت إلـى الـوراء. انسـدل الضبـاب علـى هـذا الكائـن المبهـم، ولـم يـروا شـيئاً سـوى ظـل سـاكن، وكأنـه ينتظـر موعـداً.

قالـت جوانـا: «علينـا أن نذهـب»، وكأن بداخلهـا صرخـة مكتومـة مـن الخـوف: «هـل يمكنـك أن تُعيدينـا إلـى المنـزل؟ انظـري، تحتـرق النـار هنـاك علـى الضفـة، فلنذهـب نحوهـا، ناعومـي، أبقـي عينيـك عليهـا، ولا تصـدري أي صـوت»، لكـن ومضـات النـار خفتـت، وتلاشـى الضـوء، ولفتـرة مـن الزمـن، تعثرتـا، ووقفتـا عاجزتيـن علـى الحصـى، ولـم يحبـس دموعهمـا سـوى الكبريـاء «جاهـزة أم لا.. جاهـزة أم لا؟»، تمتمـت ناعومـي لتهـدئ مـن روعهـا؛ وعندئـذٍ، اخترقـت الشـمس المنخفضـة ضفـة الضبـاب، ووجدتـا أنهمـا تتجهـان ناحيتـه، وقـد أوشـكتا علـى الاصطـدام بجانبـه الأسـود. صاحـت جوانـا، وضغطـت بيدهـا علـى فمهـا، كان هنـاك بعـد كل هـذا الوقـت يجثـو علـى بعـد ذراع واحـدة فقـط، ربمـا كان أعمـى، أو يغفـو، هـذا مسـتحيل! كيـف يكـون هـذا الشـيء متبلِّـداً هكـذا علـى الضفـة؟ هـل كان يسـبح بأريحيـة فـي المـاء، مصـدره الطبيعـي؟

هل ذهب إلى أسفل الأمواج ونما زلقاً ولامعاً؟ ماذا عن الأجنحة التي كانت منتشرة كالمظلات، قد يتساءل أحدهم هل تم قصُّها، ومَنْ قام بقصِّها؟ وكان هناك شيء آخر، بعض العلامات المزرقَّة على بطنها، فأي علامة قد تدركها نصف إدراك، قد توضِّح شيئاً في ظل هذا الضباب الرقيق!

إلى جانبها وقفت ناعومي مستقيمة، وتنفض يديها، وكانت على وشك الدخول في نوبة من الضحك، كتلك التي دفعت الطالبات في المدرسة إلى الجنون. كانت تشير إلى علامات، وتتحدث في الهواء، وعلا صوت الصرير مرة أخرى، فما كان منها إلا أن جفلت، بينما كان كل ذلك يقترب أكثر وأكثر. أخذت تصرخ «مامي، مامي...»، للحظة واحدة، اعتقدت جوانا أنها كانت تدعو أمها المدفونة في فناء الكنيسة، تحت أرخص شاهد قبر على الإطلاق. قالت ناعومي وهي تهمس: «انظري، أنا أعرف هذه الحروف، حتى لو كانت مقلوبة، جرايسي، جرايسي، اسم أمي، أول ما كتبته ولم أنسَه أبداً، ليس لمدة عشر سنوات». وأخذت تركض إلى الأمام على الحصى، في أجواء الضباب المتصاعد، وحاولت جوانا أن تعيدها مرة أخرى، ولكن كل الخوف قد ترك صديقتها، واتحد برعبها الخاص، حتى إنها تحركت أيضاً نحو الشكل المظلم، الذي يتحوَّل على المستنقع الملحي.

تنثر أشعة الشمس القوية أضواءها على الحصى، حتى رأت الفتاتان في نفس اللحظة المنيرة، ما طرحته البحيرة، كان قارباً أسود وصغيراً مصنوعاً من مادة الكلنكر، ظل غارقاً لمدة طويلة في بلاك ووتر، وأعطاه محار البرنقيل مظهراً غير متجانس من اللحم والخشونة والندبات. بدن المركب

المقلوب، تعفَّن، وبدأ في الانحسار، ما أعطى انطباعاً بشكل حافة الأنف المدبَّبة على الشاطئ. تحرَّكت في دورة المد والجزر الأخيرة، ما تسبَّب في صرير خشبها على الحصى، وكأن خشبها يتأوَّه من وقت إلى آخر. كان من السهل أن يروا أسفل طحلب الصخور وعشب البحر، اسم جرايسي المكتوب بطلاء أزرق وأبيض، نعم هو قارب بانكس؛ الذي ظن أنه فقده إلى الأبد، كل حين يلقي لنا المد والجزر على المستنقع الملحي الجديد، فقد يرسل إلينا في يوم قرية، وكأنه مصدر دائم للخوف.

تشابكت أيديهما، وكانتا لا تعرفان هل تضحكان أم تبكيان؟ قالت ناعومي: «لقد كان هنا طوال الوقت، كان يظن أنه قد سُرق من الرصيف، ولكنني قلت له إنك فقط لا تربطه بشكل صحيح، هذا كل شيء...».

قالت جوانا: «فكِّري في السيدة سيبورن وهي موجودة هنا، تمسك بدفتر ملاحظاتها، وتتمنَّى أن تكون قد أحضرت الكاميرا الخاصة بها، وتفكِّر في حقيبة عرض في المتحف البريطاني»، بدأت تضحك، وتشعر بعدم إخلاصها، على الرغم من أن كورا من الممكن أن تدرك الجانب الفكاهي أيضاً.

«وجميع حدوات الأحصنة المعلَّقة في أشجار البلوط في منطقة تشارلز الخائن، والحراس، ولا أحد يسمح بخروج الأطفال».

قالت جوانا: «يجب علينا إخبار والدي، يجب علينا إحضار الجميع إلى هنا في الأسفل، وأن ندعهم يرون فقط ماذا لو ذهبنا من هنا، ثم عدنا ولم نجدها، لأن المد أخذها، وحينها لن يصدقنا أحد».

قالت ناعومي: «سأبقى»، لم يكن من الممكن تصديق ذلك، حيث حوَّلت الشمس المنخفضة أجواء المستنقع الرطبة إلى اللون الأصفر النحاسي، وحينها شعرتا بلحظة من الخوف «سوف أبقى، فهذا قاربي فعلياً رغم كل شيء»، وأخذت تنادي: «جرايسي، أعرف أنها في أي مكان!»، ثم قالت: «اذهبي أنت يا جوجو بأسرع ما يمكن، قبل أن يُصبح الظلام شديداً للغاية، ولا يمكننا الرؤية».

قالت جوانا: «إنه أمر مضحك»، حيث ابتعدت إلى المسار أعلى منطقة الحصى: «هناك شيء أزرق يبرز في الأسفل، هل يمكنك رؤيته؟ ربما زهرة القنطريون العنبري، على الرغم من أن نموَّها قد تأخَّر هذا العام».

على مسافة معينة، كان فرانسيس سيبورن يجلس بين دعامات ليڤياثان، ويُحرِّك شظايا وكسرات على كف يده، ويشاهد ما يحدث، دون أن يراه أحد، أو يشعر به أحد.

في غرفة الدراسة غفا ويل بلا أحلام، وعندما استيقظ، كان من الصعب إلى حدٍّ ما أن يواجه مثل هذه الذكريات المفعمة بالحيوية، فللحظة؛ كان محتاراً بين الذكريات التي هدأت، والأخرى التي استيقظت. يوجد على المنضدة ورقة فارغة، ولكن ما السبيل لاستخدامها الآن؟ لم يكن هناك أي أمل في إخبار كورا، كيف أن كل الأسس العميقة التي بنى عليها كيانه، قد تحوَّلت وتصدَّعت وأعيد بناؤها، وكانت كل عبارة تتبادر إلى ذهنه، تتناقض على الفور مع حقيقة أخرى مساوية ومعاكسة؛ لقد خرقنا القانون وأطعناه في نفس الوقت. هل الرب هو من أبعدنا ببعد المسافة من لندن، أم نشكر الرب لأننا

نعيش على نفس الأرض! كان للأثر أن يختفي، لم يكن لديه ما يقوله. فروحه مكسورة، وقلبه نادم، ولا يمكن الاستخفاف بالذبول الذي يعانيه، أخذ يفكِّر، وتمنى لو أن روحه الخاصة تنكسر تماماً، وأن يزور الندم جميع أرجاء قلبه.

أيقظه صوت خطوات، وأُغلِقت بوابة ثم فتحت، فكَّر في ستيلا، ربما تكون مستيقظة في الطابق العلوي، زادت خفقات قلبه، كما كان يفعل دائماً. أبعد رسالة كورا، برد فعل ينم عن كراهية، فقد كان ما حدث خطيئة في أسوأ الأحوال، وملهاة في أفضل الأحوال، عندما كان ينبغي توجيه كل فكرة إلى المكان الذي توجد فيه حبيبته؛ حيث يقع نصف هذا العالم، ونصفه في اتجاه آخر. وبعد كل هذه الأفكار المتداخلة، كانت جوانا هي من فعلت كل تلك الجلبة، أثناء عودتها من الملاحات برائحته على معطفها، عيناها متوهجتان ومليئتان بالخبث والبهجة. قالت وهي تمسك بكمه: «عليك أن تأتي، يجب أن تأتي وترى ما وجدناه، سوف نُري الجميع، وسيكون كل شيء على ما يرام».

ذهبا بهدوء، خوفاً من إيقاظ ستيلا، وانطلقا عبر الشارع العمومي، حيث تلقي أشجار البلوط ظلاً طويلاً في الغسق الأزرق، ويختفي كل الضباب. قالت جوانا: «انتظر»، وجعلته يجري، ورفضت الإجابة «أنا متعب، جوجو، ألا يمكنك أن تخبريني؟»، «فقط انتظر وسترى». كانا على الطريق السريع، الذي أصبح مبتلاً آخر اليوم، وعندما وصلا إلى كنيسة القديسين، رأيا فرانسيس سيبورن يركض كأي صبي عادي، ثم وصلا إلى نهاية العالم؛ الذي فقد روحه بغياب كراكنيل، وكأنه عاد بالكامل تقريباً إلى أرض إسكس، ثم قالت: «هيا

بنا، أبعد قليلاً، هيا إلى الأمام في الأسفل بجوار ليفياثان، حيث كانت تنتظر ناعومي». وكانت هناك ناعومي بانكس بجدائلها المتلألئة، وعلى بُعد، كانت توجد نار مشتعلة في دائرة من الحجارة.

سمع طيور النورس كلها تصدح، وكأنها تشعر بالراحة من رؤية الأرض، وتنجذب إلى الهواء المعطَّر بالملح وحلاوة المحار في الأصداف، بينما كانت طيور قنبرة الماء مشغولة في الخلجان، وكانت هناك أغنية الكروان تحت الماء. دعتهما ناعومي، وأخذت تشير إليهما بيديها، ورأى بالفعل ما وجدتاه، قارب محطم في ضوء المساء الواضح، مغطًّى بطبقات سميكة من أصداف البرنقيل وطحلب الصخور، وكأنه شيء يقف في طريقه، يتدافع على الحصى، كما لو كان نصف حي. اقترب، ورأى اسم جرايسي مكتوباً بشكل واضح على جسم القارب. قال وهو يلتفت إلى ناعومي: «بعد كل هذا، هل كان حقّاً قارب والدك؟». أومأت برأسها بفخر، وكأن هذا كل ما تعرف فعله، ومع انحناءة خفيفة، صافح كل بنت بدورها، وقال: «عمل جيد، يجب أن يتم إعطاؤكما حرية هذه الأبرشية». صلَّى بصمت ممتناً للرب: أيها الرب، لعلَّ ذلك يكون نهاية الأمر، الخوف، الفزع، الهمس، والفتيات شبه المجنونات في المدرسة! ثم قال لناعومي: «هيَّا نجلب والدك، لن يكون هناك مزيد من هذا بعد الآن، لنفترض أن لدينا نسختين من أفعى إسكس، وكلتاهما لا تصلح لقتل ذبابة!».

قالت جوانا وهي تنحدر بجانب القارب، تدقُّ على الخشب، وتجفل عند أصداف البرنقيل في مواجهة مفاصل أصابعها: «شيء سيئ، شيء سيئ أن ينتهي به المطاف على

هـذا النحـو، عندمـا ينبغـي أن يتوجـه إلـى البحـر»، ثـم أردفـت: «انظـروا، الزهـور الزرقـاء فـي الحجـارة، مثلمـا تـم وضعهـا هناك، وقطـع الزجـاج الزرقـاء». جمعـت الزجـاج الثلـم مـن البحـر ووضعتـه فـي جيبهـا. قـال ويـل: «تعالـي إلـى البيـت»، وسـحبها بعيداً: «سـوف يحل الظلام قبـل أن نعـرف ذلـك، ويجب إخبار بانكـس». أمسـكت الأذرع بعضهـا ببعـض، وذهبـوا صحبـة، وكانـوا يشـعرون أنهـم قامـوا بعمـل جيـد فـي اليـوم، وأداروا ظهورهـم إلـى بـلاك ووتـر.

أشـاحت كـورا بوجههـا عـن كتـاب لـم تكـن تقـرأه، وكان هنـاك فرانسـيس عنـد البـاب. كان يجـري، كان ذلـك واضحـاً، وكانـت غـرة شـعره الأماميـة تنسـدل علـى جبهتـه، وكان صـدره النحيـف ينتفـض تحـت سـترته، وكانـت رؤيتـه بهـذا الشـكل أمـراً غريبـاً، فنهضـت مـن مقعدهـا، وهـي تقـول: «فرانكـي، فرانكـي؟ هـل أصابـك مكـروه؟».

كان يقـف علـى العتبـة بحـرص، وكأنـه يخشـى ألا يدخـل، وأخـذ ورقـة مطويـة مـن جيبـه، وفتحهـا بعنايـة، وقـام بطيهـا فـي مواجهـة أمـه، ثـم علقهـا علـى صـدره، ثـم قـال، وعينـاه تتجهـان نحـو عينيهـا، فـي مناشـدة لـم ترهـا أبـداً مـن قبـل: «أخشـى أن أكـون قـد فعلـت شـيئاً خاطئـاً»، وكان صوتـه أشـبه بصـوت طفـل أكثـر مـن أي وقـت مضـى، ودون شـهيق، أو ابتـلاع الهـواء كالأطفـال، بـدأ بهـدوء شـديد فـي البـكاء.

شـعرت كـورا بشـيء مـا بداخلهـا، يحـرِّك كل ألـم شـعرت بـه؛ وكأن المـرارة تـزداد فـي حلقهـا، وللحظـة، لـم تسـتطِع التحـدث، قـال: «لـم أكـن أقصـد أي شـيء سـيئ مـن ذلـك، لقـد أخبرتنـي

أنها احتاجت إلى مساعدتي، وكانت لطيفة، وأعطيتها أفضل ما عندي». تطلَّب الأمر جهداً كبيراً، حتى لا تركض نحوه، وتحاول أن تأخذه بين ذراعيها، وقد فعلت ذلك مرات عديدة من قبل، وكان يقاومها دائماً. فرأت بكل بساطة، أن يحاول هو أن يلجأ إليها، لذا؛ عادت إلى مقعدها وقالت: «فرانكي، إذا كنت تحاول فقط أن تكون لطيفاً، كيف أمكنك فعل شيء خاطئ؟».

وما كان منه إلا أن اندفع في حضنها فجأة، ورأسه الداكن بين خدها وكتفها، وكان يضع ذراعيه حول رقبتها. شعرت بدفء دموعه، وكيف كان قلبه يدق بسرعة فوق قلبها. قالت، وهي تمسك وجهه بين راحتيها، خائفة من أن تراه يبتعد عنها، ولا يعود مرة أخرى: «الآن، أخبرني بالشيء الذي تعتقد أنك فعلته، وسأخبرك كيف يمكننا علاج الأمر».

قال: «إنها السيدة رانسوم، أريد أن أريكِ، مع أنه ليس من المفترض أن أقوم بذلك! أريد أن أريك، لكنني أخبرتها أنني لن أفعل ذلك!»، لم يجد في هذا الموقف سوى الحيرة بين ما وعد به، وما كان يريده، ولكنه مهما فعل، ومهما اعتقد في الوعود، فعلى ما يبدو قد حانت اللحظة لكشف تلك الحقيقة التي تثقل كاهله، فضعفت قبضته على الورقة، فجذبتها منه، وكانت هناك كلمات مكتوبة بالحبر الأزرق على ورقة زرقاء: «غداً، السادسة مساءً، ستتحقَّق إرادتي!»، كان يوجد أسفل تلك الكلمات رسم طفولي لامرأة طويلة الشعر، مبتسمة، ترقد أسفل موجة مجعَّدة، ووقَّعت ستيلا رانسوم باسمها، وكتبت تحتها، ضع سترتك عليها فقد تشعر بالبرد.

قالت كورا: «ستيلا، يا إلهي»، لكنها لم تستطع أن تخيف

فرانسيس، أو جعله يترك حضنها لتجري نحو الباب: «ماذا لو لم يأتِ إليها ثانيةً، ابنها بذراعيه المفتوحتين، وعيناه تبحث عن عينيها». شعرت بالغثيان والغمغمة، وأخذت تحدث نفسها، وكأنها لا تنتظر الرد: «فرانكي، هل ذهبت معها إلى الماء؟ هل ساعدتها في النزول؟».

«أخبرتني أنها كانت تُدعى لمثواها، وأن أفعى إسكس تريدها، وقلت لها إنه لا يوجد شيء هناك، وقالت إن الرب يتحرك بطرق غامضة، وإنها بالفعل بقيت لمدة طويلة». وضع يديه على وجهه، وبدأ في الارتجاف، كما لو كان لا يزال هناك على الحصى والشمس تذهب بعيداً.

قالت كورا: «حسناً، حسناً الآن»، وهدأت من روعه، وكانت مندهشة من خضوعه لها، وأنه فعلاً لجأ إليها، وقامت باحتضانه، وبقدر ما كان ذلك مريحاً له، كان مريحاً لها. دعت مارثا؛ التي جاءت، وقد كانت لا تحافظ على رباطة جأشها مع صديقتها مطلقاً.

قالت كورا: «خذيه من فضلك مارثا، يا إلهي، أين معطفي، حذائي؟ فرانكي، لقد فعلت ما بوسعك فقط، والآن سأفعل ما بوسعي، لا عليك: سأعود قريباً».

كان ويل يمشي على الطريق السريع مع جوانا وناعومي. يا لشعورهم بالفخر! كان يفكر، مبتسماً، متسائلاً، كما كان يفعل دائماً، ما أفضل طريقة لإخبار كورا بكل شيء، ما الذي قد يرضيها؟ ولكن ربما كان ذلك مستحيلاً الآن، فقد كان كل شيء مكسوراً تماماً، ترى؛ هل تجدي المحاولة، ومرة أخرى، لم يستطع أن يحدد طبيعة الأمور، ثم نادت كورا

على جوانا، ولوَّحت بيدها، وها هي صديقته على الطريق، أو تقريباً هي كذلك. فكَّر للحظة (ما جعله يصدر صوتاً لا يستطيع أن يكتبه)، أنها ربما ستأتي لطلبه، لم تستطع البقاء ساعة أخرى خلف الأبواب المغلقة.

قالت ناعومي: «ما الخطأ؟»، توقفت، وبدأت تلمس قلادتها البيوترية، باحثة عن الراحة، وكان هناك شيء خاطئ، كان ذلك مؤكداً جدّاً، فوجنة كورا كانت مبلَّلة، وبالكاد تفتح فمها، حيث كانت تمسك ورقة، وتلوِّح بها عند وصولها، كإشارة لم يتمكَّن أيٌّ منهم من فك شفرتها، ووصلت إليهم، وتوقَّفت بالكاد، وشدَّت ويل من كمه قائلة: «أعتقد أن ستيلا هناك، بجوار الماء، أعتقد أن هناك شيئاً خاطئاً». قال ويل: «لكننا أتينا من هناك، ولم نرَ شيئاً سوى القارب الذي فقده بانكس»، لكن كورا كانت قد ذهبت، وألقت قصاصة الورق ناحية ويل، وسقطت على الطريق المبلَّل، ولم يكن بوسعه للحظة أن يتحرَّك أو يتكلَّم؛ لأن هناك شيئاً ما كان خطأ، نعم، نعم، كان يجب أن يراه في الحال، فقد كانت هناك بعيداً عن متناول يده قليلاً. لم يستطع أن يمسك بها. وقفت جوانا لالتقاط الورقة، ولم تستطع في البداية ذلك، ثم تكوَّنت في ذهنها صورة غريبة ومخيفة، لدرجة أنها رفعت يديها، كما لو كانت تريد أن تبتعد عنها، ثم قالت: «أبي»، ولم تكن قادرة على التوقُّف عن البكاء: «أليست نائمة؟ ألم نتركها في الطابق العلوي بأمان؟»، أجابها ويل، وقد كان شاحباً جدّاً ويترنح قليلاً: «لكنني سمعتها، خطواتها، صوت غلق الباب، قالت إنها تريد أن ترتاح».

رأوا كورا تصل إلى المنحدر في اتجاه منطقة الملاحات،

وكيف رمت معطفها لتجري بحرية أكثر إلى المستنقع، وتبعها ويل، يلعن جسداً انتابه الكسل فجأة، ولا رغبة لديه، كما لو كان رجلاً آخر، وروحاً مسيطرة، وكان آخر من وصل إلى الحطام، وكانت كورا هناك، راكعة في الوحل، تجذب الهيكل، بحيث تحوَّلت عضلات ظهرها أسفل قماش ثوبها، وكانت الفتاتان إلى جانبها، راكعتين أيضاً، وكان المنظر يشبه تودُّد العبيد أمام رب قبيح شرير، جميع الصلوات إليه دون استجابة، ولقد رأى الحجارة الزرقاء حول القارب المدمَّر (كيف أخطأها من قبل؟)، وكانت هناك قطعة من الشريط الباهت ظاهرة، والزجاجة الزرقاء موضوعة على الحصى. قال والحيرة تنتابه: «قالت إنها كانت متعبة، وكان الوقت مناسباً لراحتها». ماذا كانوا يفعلون، هناك في الوحل، وثيابهم كانت ثقيلة؛ حتى انحنت رؤوسهم من التعب: «ستيلا، ستيلا»، نادوا مراراً وتكراراً، كما لو كانت طفلة خرجت ولم تعد إلى المنزل، عندما طُلِب منها ذلك. انزلقت أيديهم على الخشب الرطب، ورفعت النساء الثلاث القارب، الذي لم يكن ثقيلاً بعد كل شيء، وتفكَّك عند تحريكه.

كانت ستيلا رانسوم ترقد هناك في الظلال، مكفَّنة وصامتة، مع كل العلامات الزرقاء الخاصة بها. رآها ويل، فأخذ يصرخ، وكذلك فعلت كورا أيضاً. لقد فقدت قبضتها على القارب؛ الذي سقط بعيداً، متفكِّكاً في المستنقع. ستيلا كانت راقدة؛ كأنها تستمتع بالشمس تحت ضوء النهار الأخير، ويُظهر ثوبها الأزرق الرقيق، عظام فخذيها وكتفيها الجميلة. كانت تمسك بباقة من الخزامى، لا تزال تحتفظ برائحتها، وكانت حولها زجاجات زرقاء، وقصاصتها من

القطيفة والقطن، وتحت رأسها وسادة من الحرير الأزرق، وعلى قدميها مفكِّرة زرقاء، تتموَّج في الرطوبة. كان جلدها أزرق أيضاً، وتغبَّر فمها به، وكانت عروقها قريبة من الجلد، وكانت جفون عينيها المغلقتين باللون البنفسجي. قام ويليام رانسوم، جاثياً على ركبتيه، بسحب زوجته نحوه قائلاً: «ستيلا»، وهو يقبل جبينها: «أنا هنا، يا ستيلا، لقد أتينا لأخذك إلى المنزل».

قالت كورا: «لا تتركينا، عزيزتي، ليس بعد، لا تذهبي»؛ وأخذت يد المرأة البيضاء الصغيرة، وفركتها بين يديها. أخذت جوانا بطرف فستان والدتها الرقيق؛ لتغطية أقدامها الزرقاء: «اسمع، كأنها تتحدَّث، ألا يمكنك سماعها؟».

خلعت معطفها الخاص بها، وشدَّت ويل من كتفيه، وقاما بتغطيتها من الهواء البارد.

قالت كورا: «ستيلا، حبيبتي، هل يمكنك أن تسمعينا؟»، وكان يتخفَّى في محاولتها اليائسة إحساس معتاد ومؤلم بالذنب، «نعم، نعم، إنها تستطيع ذلك». وحينها تحرَّكت الجفون الداكنة، وارتفعت إلى أعلى، وظهرت عيناها اللامعتان؛ مثلما كانت في أي وقت مضى. قالت ستيلا: «كنت بلا خطيئة أمام مجده، ووقفت على باب قاعة ولائمه، وأسدل عليَّ لافتة فحواها الحب». لم تكن تتنفَّس بشكل عميق، وتنتفض من السعال الذي ترك الدم في زاوية فمها، وقام ويل بمسحه بإبهامه قائلاً: «ليس بعد، لا يزال الوقت مبكراً، فأنا أحتاج إليك يا عزيزتي، وقد تواعدنا ألا يترك أحدنا الآخر، ألا تتذكرين؟». لقد شعر بالفرح، وأفرط في

مشاعره السعيدة، هنا كان الخلاص، هنا على الحصى، ولم يفكِّر في أي شيء آخر غيرها، ولسان حالها يقول: «إنها نعمة، مرة أخرى! نعمة عظيمة لكبير المخطئين!».

قالت مبتسمة: «سنخرج في نفس اليوم، مثل الشموع التي تُركت بجانب نافذة مفتوحة، أتذكر! أتذكر! ولكن كما ترى، سمعتهم يستدعونني إلى مثواي، وكان شيء ما هنا في الماء، يهمس في الليل، وكان جائعاً، وفكرت أنني سوف أذهب إلى النهر، وأكتب معاهدة سلام معه، من أجل ألدوينتر». في هذا الوقت، اعتدلت بين ذراعي ويل، لتتطلَّع نحو النهر، حيث أظهرت السماء الصافية نجمة المساء اللامعة، وقالت: «هل حدث لي ذلك، هل حدث ذلك؟».

قال ويل: «لقد ذهب، لقد أرسلتِه بعيداً بشجاعة تضاهي شجاعة الأسد، تعالي إلى البيت معنا الآن، تعالي إلى البيت». وكم كان من السهل أن يرفعها، وساعدته كل من جوانا وناعومي على الوقوف، كما لو أنها بالفعل بدأت تتلاشى في الهواء الأزرق!

قالت ستيلا: «كورا»، ونادتها بهدوء، مادَّةً يدها إليها: «كم أنت دافئة، ودائماً كنت كذلك. أخبري فرانسيس أن يأخذ أحجاري، وقطعي، ويتركها كلها وراءنا، وأن يمنحها للنهر، ليحوِّل بلاك ووتر إلى اللون الأزرق».

نوفمبر

على منعطفات العالم المائل، وبينما يجوب صائد النجوم سماء إسكس، ويتبعه كلبه في أعقابه، يقاوم الخريف الشتاء العنيد، حيث إن هذا الشهر صافٍ ودافئ، وبه كثير من الجمال المتوحِّش. وتلمع أشجار البلوط في ألدوينتر؛ كالنحاس في صفرة الشمس، والسياج مصطبغ بلون التوت القرمزي، كما رحلت طيور السنونو، ولكن ظلت طيور الإوز بالأسفل، تزعج الكلاب والأطفال في الجداول الصغيرة. أحرق هنري بانكس قاربه المحطَّم على ضفاف نهر بلاك ووتر. أضرمت النيران في الخشب الرطب، وأخذ الطلاء الأسود في التشقُّق. صاح قائلاً: «جرايسي، أنت هناك منذ البداية»، وبجانبه كانت ناعومي تقف بشكلٍ مستقيم، تراقب بحذر المد والجزر المتعاقبين. شعرت أنها مكبَّلة عن الحركة، وقفت لحظة وهي تضع قدماً في المياه والأخرى على الضفة، وكانت تفكر قائلة: «ماذا الآن؟ ماذا الآن؟». وفي عمق لحم يدها، ما بين الإبهام والسبابة، كانت تمسك بشظية سوداء من هيكل القارب، كتعويذة تلمسها، وانتابتها رهبة من كل ما اقترفته يداها.

تستسلم لندن بسرعة كبيرة، وتعلِّق راياتها البيضاء، أتى منتصف نوفمبر؛ جالباً معه الصقيع على نوافذ الحافلات المتوقِّفة في شارع ستراند. وجد تشارلز أمبروز نفسه يلعب

دور الأب مرة أخرى. هناك تجلس جوانا دائماً على مكتبه، بذوقها السديد نحو أقل كتبه ملاءمة، وهناك جيمس؛ الذي وجد أثناء الإفطار زوجين مكسورين من النظارات في القناة، وصنع منهما ميكروسكوباً بحلول موعد العشاء. إنه يخفي ولعه الخاص بجون؛ الذي يرى نفسه فيه بشغفه وطبيعته الطيِّبة المسالمة. كان يرقد على معدته، وهو يلعب الورق، كما مزَّق معطفه في ليلة جاي فوكس، دون أن يلقي بالاً لذلك، وفي المساء؛ تلتقي عيناه عيني كاثرين، ثم يهزان رأسيهما، فوجودهما في منزلهما المرتب؛ الذي ينم عن الذوق الرفيع، مع هؤلاء الثلاثة، يعتبر بغرابة الأعداد التي لا حصر لها من الحيوانات التي ينقلها النهر.

تنتقل الرسائل بين لندن وألدوينتر بدوام وسرعةٍ فائقين، حتى إنهما يتبادلان المزاح في ما بينهما، بأنه يوجد قطار ليلي ينتظر في المسار الجانبي، مخصصاً فقط لهذه الرسائل. يصدِّق جون هذه المزحة، حتى إنه يتساءل هل يمكنه أن يخبز كعكة، ليستحثَّ سائق القطار على الاستمرار في المسير.

تلقَّى تشارلز رسالةً من سبنسر. كان ينقصها حيوية جهوده السابقة، بالطبع؛ ما زال يحتفظ بالتزامه الأخلاقي تجاه سياسة الإسكان الأفضل، ولكنه يركِّز في الوقت الحالي على الاستثمار الحكيم لثروته الباهظة جدّاً. العقارات ربما، على حد قوله (بغموض، ولو أنه ليس بحاجة إلى التوسع في ذلك) العقارات هي الاستثمار الأمثل هذه الأيام، وتشارلز ليس من النوع الذي يمكن خداعه؛ ولو للحظة. قريباً في بيثنال جرين يوجد مالك جديد، كان يراهن بقلب طيب، وبالتالي؛ كانت خبرته التجارية ضعيفة.

لـم يعـد إدوارد بورتـون بعـد إلـى العمـل، كان ينظـر مـن فـوق مخططاتـه؛ ليـرى مارثـا تجلـس علـى الطاولـة. كانـت كـورا سـيبورن قـد أهدتهـا آلـة كاتبـة، وهـي تصـدر ضوضـاء طفيفـة، لكنـه لا يبالـي. كيـف استطاع ذلـك؟ تحـوَّل فـي غضـون شـهر؛ مـن مشرَّد مهدَّد، إلـى درجة مـن الأمـان والسـلام، يربكانـه عندمـا يتجـوَّل فـي الصبـاح، حيـث اشـترى مجمـع الشـقق بكاملـه أحـد مـلاك الأراضـي، وقـام بتعييـن موظفيـن لمراجعـة حسـابات كل منـزل. جـاؤوا مـع آلـة التصويـر، ورفضـوا تنـاول الشـاي، لاحظـوا إطـار النافـذة الرطـب، والبـاب المنبعـج، ودرجـة السـلم الثالثـة التـي تَصِـرُّ. وفـي خـلال أسـبوع، تـم إصـلاح ذلـك، واكتسـب الشـارع رائحـة الجيـر والجـص، فيمـا كان يعـد عمـال المصانـع والممرضـات والموظفـون والأمهـات والعجائـز، أنفسـهم فـي أوقـات الإفطـار والعشـاء، مـن أجـل تلقي ارتفـاع تأديبي في أسـعار الإيجـارات؛ التـي لـم تـأتِ أبـداً، أمـا الآن، فيجتمـع الجيـران علـى درجـات السـلالم، ويخدشـون رؤوسـهم، ويتفقـون جميعـاً علـى أن الرجـل ليـس سـوى رجـل أحمـق. كان هنـاك نـوع مـن الاسـتياء يسـري بيـن العـوام، وعبَّـر أكثـر مـن مسـتأجر بعنـاد بالقـول: «أنـا أتحمـل الوضـع دون أي حاجـة للإحسـان»، فيمـا كانـوا سيباركون اسـمه خلـف الأبـواب المغلقـة، إذا كانـوا يعرفونـه.

تحتفـظ «مارثـا» فـي جيبهـا بمذكـرة مطويـة مـن سبنسـر، يتمنَّـى لهـا فيهـا السـعادة «لمـدة طويلـةٍ مضـت كنـت أتسـاءل مـاذا كانـت فائدتـي، مـع التوصيـة بـي، التـي تتـم بالمـال فقـط. لقـد قمـت بـدور الطبيـب الجـراح فـي البدايـة؛ لأنهـا كانـت طريقـة محترمـة لتمضيـة الوقـت، فيمـا اسـتهواني الأمـر يومـاً مـا عندمـا كنـت صغيـراً، ولكـن قلبـي لـم يطاوعنـي حينهـا، ويعلـم الـرب أننـي

لست لـوك غاريـت، بسببك وجـدت هدفاً يجعلني أنظـر إلـى المـرآة، دون أن أزدري نفسـي. كنـت أتمنـى لـو أنـك أحببتِنـي، ولكنـي أشـكرك لمسـاعدتي علـى إيجـادي طريقـة أحبـك بهـا، ومحاولـة إصـلاح أخطائـي التـي أريتِنـي إياهـا». إنـه متواضـع جدّاً، وطيـب للدرجـة التـي جعلتهـا تتسـاءل، هـل مـن الأفضـل أن تعبر طريقها معه جنباً إلى جنب، لكـن لا، في غياب كـورا، مـا تريـده حقّـاً هـو إدوارد بورتـون؛ بصمتـه الحميـم، ويديـه الماهرتيـن مـع رفيقتهـا وصديقتهـا.

مـن الغريـب أن شـوقها إلـى كـورا فـي بيثنـال جريـن ليـس كبيـراً، عمـا كان عليـه فـي شـارع فوليـس بكولشيسـتر، فـي البيـت الرمـادي المنطقـة العامـة فـي ألدوينتر. إنـه ثابـت كالنجـم القطبـي، وهـي ليسـت بحاجـة إلـى البحـث عنـه، كمـا أنهـا لا تسـتاء مـن سـنوات رفقتهمـا، فهـي تتفهَّـم التغييـرات التـي يحدثهـا الزمـن، وأن مـا كان ضرورياً فـي وقـت مـن الأوقـات، قـد يصبـح بـلا فائـدة فـي مـا بعـد. بالإضافـة إلـى أنهـا امـرأة ضعيفـة يقتصـر طموحهـا فقـط علـى أن تُحـب (فكَّـرت، وهـي تنظـر مـن فـوق آلتهـا الكاتبـة؛ لتـرى إدوارد يقطـب جبينـه فـوق مخطَّطاتـه، ويلمس الجريـدة التي نشـرت عمله مؤخـراً)، فهي لديهـا أشـياء أفضـل لتسـتمر فـي العمـل عليهـا.

فـي غرفـة لـوك غاريـت، بشـارع بنتونفيـل، حـدث تـزاوج بيـن العقـول الحقيقيـة. توجـد لحظـات يتمنَّـى فيهـا الطرفـان أحدهمـا الآخـر مـن صميـم قلبـه، فـي منطقـة بـلاك ووتـر، ولكـن لا يمكـن العثـور علـى زوجيـن أكثـر إخلاصـاً مـن أول ضفـة نهـر التيمـز، وحتـى الضفـة الأخـرى.

في أوائل نوفمبر، غادر سبنسر منزله في كوينز جيت (حيث كان يعتبر الأمر أكثر إحراجاً)، وأقام مع صديقه. كان لوك يشعر بأن من واجبه الاحتجاج بشكل ما (هو لا يحتاج إلى ممرضة، شكراً، ولا يريد أن يقابل أحداً على الإطلاق، حتى إنه يجد صحبة سبنسر مزعجة أكثر من المعتاد)؛ لكنه سعيد في حقيقة الأمر، والأكثر من هذا كله، أن سبنسر كشف عن حكمة عتيقة، حول إنقاذ الحياة، ويشير بشكلٍ شبه منتظم، إلى أنه منذ أن أنقذه لوك من الموت، أصبح سبنسر الآن بحيازته، وتحت مسؤوليته، يردِّد على سمعه دائماً: «أنا عبدك في واقع الأمر»، كما علَّق صورة لوالدته بجانب لوحة لأجناتس سيملفيس.

لا توجد أي علامات تحسُّن في اليد المشوَّهة. تمت إزالة الغرز، ولا توجد ندبة أسوأ مما هو متوقَّع، ولا يوجد فقدان للحس، ولكن يوجد إصبعان ينحنيان بثبات نحو الداخل، ويطبقان على أي شيء، كما لو كانا شوكة. خضع لوك بشكل مطيع (وإن كان بأسلوب غاضب)، إلى سلسلة من التدريبات بشريط مطاطي، ولكن بأمل أكبر من التوقعات. كان شبح كورا يلازمه دائماً. كان يتعلَّق بسيناريو محتمل من بين اثنين؛ أولهما، أنه سوف يعاني من مرض تآكل العظام؛ الذي سيتركه عبارة عن صعلوك نتن ومتقيِّح، ما سيجعلها تندم طوال حياتها، وثانيهما، أنه سيجد طريقة لمعالجة جروحه، وسيجري عملية جريئة، تجعله يحقِّق شهرةً بين عشية وضحاها، ويحوز على عشقها البائس، ثم يزدريها على الملأ بين الأوساط الاجتماعية. بسبب الوعود التي قطعها يوماً ما، فإنه يفتقر إلى قدرة سبنسر على الحب بهدوء وتواضع، ودون أمل في

العـودة، واشـمئزازه العنيـد مـن كـورا، يجعلـه أكثـر إصـراراً مـن إلحــاح سبنسـر عليـه ليـأكل وجبـة إفطـار لائقـة «أنـت نحيـف، وهـذا لا يخدمـك بشـيء». سبنسـر أكثـر حكمـة مـن أي شـخص قـد منحـه الثقـة مـن قبـل، يفهـم مـا لا يدركـه لـوك، هـذه الفئـة الرقيقـة والهشـة، كورقـة نسـيج رقيقـة، تتأرجـح بيـن الحـب والازدراء، وأن كـورا تحتـاج إلـى لمسـة واحـدة فقـط حتـى تتجـاوز الأمـر.

ولكـن لـم تكـن العاطفـة والـولاء فقـط همـا مـا يدفعـان لـوك لتحضيـر ضلـوع الخنزيـر علـى العشـاء، أو مـا يجعـل سبنسـر يجبـر صديقـه تقريبـاً، ويدفعـه للخـروج مـن أجـل الدراسـة أو تنـاول الطعـام. هنـاك جانـب آخـر عملـي لترتيبهمـا، وهـو تملُّـق سبنسـر للـوك؛ ليعـود إلـى رويـال بـوروج؛ حيـث كان طبيبـاً ومريضـاً فـي الوقـت نفسـه، ويقـوم باقتـراح الحلـول. كانـت مهارتـه كجـراح، لا تقـارن بالنسـبة إلـى براعـة لـوك، هـذه حقيقـة، ولكنهـا جيـدة بمـا يكفـي، وهـي أفضـل مـن مهـارة البعـض. مـا يفتقـده سبنسـر (اعتـرف بمـرح)، هـو شـجاعة وبصيـرة صديقـه الـذي يعامـل كل جـرح ومـرض، علـى أنـه لا يشـكِّل تهديـداً، بقـدر مـا يقـدم فرصـة لإظهـار مهارتـه. هـذه هـي القضيـة، علـى حـد تعبيـره، لذلـك لا يمكـن أن يكـون بينهمـا أي نـوع مـن الوهـم، هـل يمكـن أن تكـون يـداه بديلتيـن ليـدي لـوك؟ وقـال: «أعـد بـألا أفكـر فـي ذلـك فعليـاً، لقـد كنـت تقـول دائمـاً إننـي لسـت جيـداً فـي هـذا». ودفـع البـاب ليفتـح غرفـة العمليـات بانتصـار، آمـلاً أن يشـكِّل المشـهد إغـراءً لا يقـاوم، وكان كذلـك؛ رائحـة الكربوليـك، بريـق المباضـع فـي صوانيهـا الحديديـة، الكومـة المغسـولة مـن الأقنعـة القطنيـة، أحدثـت أثرهـا فـي لـوك؛ كمـا لـو أنهـا شـحنته بشـحنةٍ كهربائيـة أسـفل عمـوده الفقـري. منـذ أن خضعـت يـده للخياطـة، لـم يضـع

قدمه هنا قط، كان يعتقد أن الوضع يشبه تقديم طبق طعام إلى رجل يتضوَّر جوعاً، ولكن بعيداً عن متناوله، وعوضاً عن ذلك، أصبح مفعماً بالحياة، ظل الكتائف المصنوعة من خشب البلوط، التي تبدو متلاشية دائماً عند قدميه، يبدو أن الجسم شبه المنحني، يمتلك مجدَّداً مخزوناً مرعباً من الطاقة الكامنة، ثم أخذ يدور، ويداعب لحيته، وتلتقي عيناه أعين سبنسر. قال بصراحة، كما لو أن الفكرة واتته للتو فقط: «هناك كسر مركَّب بقصبة الساق حدث للتو، محدثاً قليلاً من الفوضى، وأخشى ألا يستطيع الرجل تحمل ذلك. لا يفترض أن يغادر أحد منكم؟».

أتى يوم الأحد، وكان وليام رانسوم على منبر الوعظ الخاص به، وقد لاحظ وجود لوح زجاجي مكسور في النافذة الغربية، ثم كتب ملاحظة أنه وجد المقصورة الداكنة بذراع مشقوقة، ثم نظر بعيداً. إنها أبرشية هزيلة، لا تدفعها الهمسات المرعوبة إلى كرسي الرحمة، ولكن المبهجة هي ما تفعل كل ذلك، دعونا الآن بعقل سعيد. قاموا بالغناء، راغبين في التلطُّف مع جيرانهم. تم استخلاص حدوات الأحصنة من خشب البلوط بمنطقة تشارلز الخائن، وحفظ واحدة عالية جدّاً في الفروع، ومن المحتمل أن تعلق هناك لفترة طويلة، بحيث لا يستطيع أحد تذكُّر الغرض الرئيس الذي علقت لأجله. ذكر الأفعى مرة واحدة فقط، والوهم المزدوج حولها، وزيف خوفهم، وإخفاءها في عظة دينية جيدة بخصوص جنة عدن. لم يدعوا أي مجال للشك في كونهم حمقى، ولكن بشكلٍ مفهوم، من أجل إيجاد حل وحفظ ألسنتهم.

نـزل مـن أسـفل درج منبـر الوعـظ الضيـق (مفضـلاً اسـتخدام ركبتـه اليسـرى، التـي آلمتـه مؤخـراً، خاصـةً فـي الصبـاح)، وكانـت تحيـة خاطفـة، تلـك التـي أهداهـا إلـى مَـنْ انتظـروه علـى البـاب، ومَـنْ توقَّفـوا قـرب البوابـة الخشـبية، وقـال لهـم: «حتمـاً سـوف آتـي يـوم الأربعـاء فـي وقـت العصـر، لا، ليسـت الترنيمـة رقـم 46، ربمـا تفكـرون فـي الترنيمـة رقـم 23؟ إنهـا ترسـل حبهـا، وتتمنـى لـو كانـت تسـتطيع أن تكـون هنـا»، ولكـن كل شـيء قـد أُفصـح عنـه.

لقـد صـار مدلـلاً الآن أكثـر مـن ذي قبـل، ومـا زال النـاس يتحدثـون عـن السـيدة اللندنيـة التـي لـم تكـن تبـارح بابـه منـذ وقـت ليـس بالطويـل، وهـم يدركـون فـي الوقـت نفسـه، كيـف كان يدلِّـل زوجتـه قـرب المسـتنقع. هـم يدركـون أن سـمعته تلطَّخـت، وهـو مـا يجعلـه أصبـح باهتـاً فـي نظرهـم، إنـه ليـس مـن حديـد، بـل هـو فضـي، وإلـى جانـب هـذا؛ فهـم يدركـون مـا الـذي ينتظرهـم وراء بـاب كاهـن الأبرشـية، ولمـاذا يسـرع عائـداً إلـى البيـت، الزوجـة ذات الأعيـن الزرقـاء، التـي تأتـي كل أسـبوع أو نحـوه إلـى المنطقـة العامـة، وتكـون متدثِّـرة حتـى أذنيهـا، وتستنشـق الهـواء، وترحِّـب بالجيـران، ثـم تعـود وهـي منقطعـة الأنفـاس لغرفتهـا التـي أسـدلت سـتائرها. تركـوا الهدايـا علـى عتبـة البـاب، متمثلـة فـي عصيـر وردة المسـك، وبعـض الجـوز الـذي لـم يُقشَّـر بعـد، وتركـوا الكـروت والمناديـل الصغيـرة جـدّاً والجميلـة؛ التـي لا تفيـد فـي شـيء أبـداً.

خلـع ويـل ياقتـه، وألقـى بمعطـف رجـل الديـن الأسـود، حيـث اعتـاد فعـل ذلـك دون صبـر هـذه الأيـام، رغـم أنـه يسـرع دومـاً فـي ارتدائـه مـرةً أخـرى. كانـت سـتيلا تنتظـر، وهـي متكـوِّرة مثـل قطـة صغيـرة تحـت الدِّثـار وتمـد يديهـا،

وقالت: «فلتخبرني من الذي شاهدته، وما الذي قاله لك؟»، وكانت في إحدى حالاتها المزاجية التي تميل إلى النميمة. ربتت على السرير، وأشارت إليه ليقترب منها، وصارا مثل الأطفال مرةً أخرى أو أشبه بهذا، وشرعا في الضحك ومناقشة أمور الآخرين كلهم، وكانت عباراتهما نصف مكتملة، وتبدو للسامع بلا معنى، ولكن لم يسمعها أحد سواهما، بالطبع، فالبيت فارغ، والأطفال رحلوا لبعض الوقت، وبدت الفرصة مواتية للأساطير، وقد اعتادا القول: «فلتتذكر جو، تذكر جون وجيمس»، وتمتعا بالألم الناجم من أنهما يريدانهم، بما أن الحزن الهادئ هو ما لا يمكن تخفيفه بتذكرة قطار، أو ختم من الدرجة الأولى. ويل دوماً ما شعر بالاختناق في الغرف الصغيرة والأسقف المنخفضة، وبدت عضلاته متيبِّسة من الألم، وصار يقوم بعمل الخادمة والأم معاً، وأحياناً ما يرتدي مريلة، ويدهشهم بموهبته في طهو اللحم المشوي، وغسل الملاءات حتى تصير نظيفة، أما الدكتور باتلر، فإنه قد عاد من لندن، وعبَّر عن سعادته الغامرة، وشرح لهم أن الأمر لا يعدو كونه «مسألة حسن إدارة»، والأفضل القيام بها هنا، عن فعلها في أي مكانٍ آخر، ومع اتخاذ المحاذير اللازمة، وغسل يديه بصابون كاربوني، وقال لهم: «هل تمانعون أن تفعلوا مثلي؟».

ظلت ستيلا سعيدة، ربما أكثر سعادة منهما هما الاثنين، وشعرت أنها تحرَّرت، وتبحر مع الرياح المواتية، وتألَّمت من أجل أطفالها، وأحياناً لم تكن تدرك إن كانت تلك المشاعر مشاعر حب حقّاً، أو مرضاً تركها تمسك بحافة السرير، وهي تشعر بالذعر وتلهث، ولكنها (على حد قولها)، تحصي كل

خصلة شعر على رؤوسهم، وإن كان أبوهم في السماء يعلم مكان هبوط كل عصفور، كيف علمت أنه سوف يهتم بألا يترك جون يعدو صوب طريق حافلة لندن؟

وحينما تفكِّر في أفعى إسكس، وهي عادةً ما تفعل هذا، وإنْ بشكل نادر، فإن الشعور الذي ينتابها هو شعور بالشفقة، ونسيت أنه على أي حال، لم يكن الأمر سوى لحم وخشب وخوف، وفكرت قائلة: «يا له من وحش مسكين، لا يناسبني أبداً»، أحياناً ما يصبح وجهها عابساً، وتستمر في البحث عن دفتر مذكراتها ذي الغلاف الأزرق والحبر الأزرق، ولكنها ذهبت مع المد الصاعد من مصب النهر، وذابت الألياف والخيوط في مياه بلاك ووتر.

واعتاد ويل يوميّاً أن يسير ما بين الحقول؛ حيث تنشر سنابل القمح بذورها اللامعة بشكلٍ رائع وناعمٍ جداً، وربما يُخيَّل للمرء أنه يسير ما بين طيات نسيج مخمليٍّ أخضر اللون، وأحياناً ما اعتقد أن قلبه سوف يتوقف يوماً ما، ونحَّى التفكير في كورا جانباً من وقت طويل، طالما بقي تحت سطح بيوت ألدوينتر، واصطحبها مرةً أخرى إلى الغابة المكشوفة قرب شارع كولشيستر، ونحو المستنقعات المفضية إلى بلاك ووتر. أحضرها إلى الخارج، كما لو أنه كان قد خبأها تحت معطفه، ورآها في ضوء النهار، وتحت الأشعة اللؤلؤية لقمر الخريف، وأخذ يتفحَّصها، ما الذي تعنيه بالنسبة إليه، على أي حال؟ لم يستطع أن يصل إلى رأي حاسم، فهو لا يفتقدها، بما إنها كانت دوماً حاضرة بإلحاحٍ، قرب نبات الطفيليات الصفراء؛ التي تغلف الأغصان المكشوفة لشجر الزان، ورؤية العاسوق الذي شاهده ذات مرةٍ وهو يقفز قرب أشجار

البلوط، ويبدو ذيله مرتعشاً وممتداً. وبالحديث عن الدرج الأخضر الذي تلاشى لونه الآن، والسجادة الملطخة بالطين، كان يفكر في يديها المتعجلتين، اللتين تضعهما على حاشية تنورتها، ومذاقها حينما يأتي هو ليغويها، وبالطبع؛ هو يفعل ذلك، ولكن ليس هذا هو كل شيء أو ذروته. يا له من أمر بسيط، ويا له من وضع مهين!

ولكن الواقع (وهو دوماً من أتباع الحقيقة والواقع)، أنه رغم محاولته الدائمة لمعرفة ما شعوره هذا، لم يستطع إلا أن يقول لنفسه، وبشيء من الأمانة البالغة: «إنها صديقتي!».

ولهذا السبب لم يكتب، وكان بالكاد يشعر بالحاجة إلى القيام بهذا، فهي تشير إليه فوق ذيول الخيول العالية، وفي العبارات المجازية التي استعارتها وأعارتها لغيرها، وفي الندبة الملتفَّة فوق وجنته، وبالوسيلة نفسها، تخيَّل نفسه يرسل إليها رسائل ما، وأن أحاديثهما لم تنتهِ، وبصمتٍ قرب فروع شجر الجميز.

كورا سيبورن
11 شارع فوليس
لندن منطقة ويسترن وبادنجتون 1

عزيزي ويل،

ها أنا مرةً أخرى في شارع فوليس.. وحيدة.

ذهبت مارثا إلى إدوارد الآن، وهي نصف زوجة ونصف متآمرة، ولكنها لا تزال هنا، في رائحة الليمون على وسادتي، والطريقة التي رصَّت بها الأطباق. فرانكي في المدرسة، وهو يجيد الكتابة، وهذا أمر لم يحسنه من قبل، ورسائله مع هذا قصيرة، وخط يده منمق وجميل، مثل طباعة ورق الصحف، ويوقِّع «ابنك فرانسيس»، كما لو أنه يعتقد أنني نسيت. يتماثل لوك للشفاء، ورغم أنه يقوم بهذا من أجل سبنسر، وليس من أجلي، وآمل أن أراهم كلهم قريباً.

أذهب من غرفة إلى أخرى، وأنظِّف الأتربة والغبار من الأثاث، وأضع يديَّ على كل طاولة وكرسي، وأقضي أغلب الوقت في المطبخ، حيث يكون الموقد دائماً مشتعلاً. أرسم وأكتب وأصنِّف العيِّنات الثمينة التي جمعتها من إسكس، وهي أشياء بسيطة؛ حفريات الآمونية، وأجزاء من أسنان، وصدفة محار بيضاء تماماً، ولكن من يعثر على شيء يصير ملكه، وهي كلها ملكي بالطبع.

أنا أتناول بيضة في العشاء، وأشرب معها شراباً ما، وأقرأ روايات برونتي وهاردي، وأشعار دانتي وكيتس، ومؤلفات

هنري جيمز وكونان دويل، وأعلم الصفحات وأقرأ مرةً أخرى، ما وضعت عليه علامات؛ حيث ألحظ أنها سطور ربما كانت لتروقك، وستقوم بتظليلها بدورك، ثم أرسم في الهوامش أفعى إسكس، وأرسم لها أجنحة قوية، كي تطير بها.

تناسبني الوحدة جداً، وأحياناً ما أرتدي حذائي القديم ومعطفي الرجالي، وفي بعض الأوقات أرتدي زياً من الحرير، ولا يعتبر أي إنسان أكثر حكمةً مني، وحتماً أنا لست حكيمة.

سرت صباح أمس نحو كليركنويل، ووقفت قرب الحاجز الحديدي؛ حيث تسير السفن، وتخيلت أنني سمعت خرير مياه كل الأنهار التي أعرفها، مقدمة الأسطول في هامبستسد، حينما كنت ألعب وأنا صغيرة، ونهر التيمز الواسع، وبلاك ووتر، ومعه كل أسراره التي تستحق المحافظة عليها.

وبعدها؛ تذكَّرت شاطئ إسكس، وكل مستنقعاته وأهواره الخشبية، وتذوَّقت بلساني الهواء المالح الذي يشبه في مذاقه أيضاً المحار، وشعرت بقلبي وهو يتمزَّق؛ كما كنت أشعر تماماً قرب الغابة الحالكة على الدرج الأخضر اللون، ومثلما أشعر الآن تماماً، وكان هناك شيء ما مبتور، وشيء ما متصل.

أما الشمس؛ فقد لفحت أشعَّتها ظهري عبر النافذة، وبدا الجو دافئاً، وتنامى لأسماعي صوت طائر الصغنج وهو يغني، ولطالما شعرت بالتمزُّق، لكنني أيضاً تصالحت مع نفسي، فأنا أريد كل شيء، ولا أريد أي شيء في الوقت نفسه، أنا أحبك، وأنا أيضاً مسرورة دونك.

وبرغم هذا، فلتأتِ سريعاً!

كورا سيبورن

كلمة المؤلفة

أنا مدينة لعدد من الكتب؛ لكونها قد فتحت الباب لعصر فيكتوري كهذا، وأنا على يقين من أنني أتذكرها.

يتحدى كتاب ماثيو سويت، اختراع العصر الفيكتوري (2002)، مفاهيم عصر متحفِّظ، مستعبد بالدين والأخلاق غير المفهومة، وبدلاً من ذلك، فإنه يُظهِر لنا في القرن التاسع عشر، المتاجر الكبرى، والعلامات التجارية الكبرى، والرغبة، وسحر الغرابة.

كتاب غامض لقس مجهول من إسكس، عصر الرجال في العالم، وفقاً للكتاب المقدس والعلوم (1865)، يقترح على رجال الكهنوت ألا يروا الإيمان والعقل كطرفين متبادلين على نحوٍ مخصوص. إنها تسرُّني أن أفكر فيها، وهي على رفوف ويليام رانسوم.

في المنازل الفيكتورية (1974)، يجمّع ديفيد روبنشتاين الروايات المعاصرة عن أزمات الإسكان، ومالكي الأراضي المرتشين، والإيجارات التي لا تطاق، والحيل السياسية، حيث لم يتطلعوا إلى مكانٍ في صحف الغد. أعد القس أندرو ميرنز، البكاء المر على لندن المنبوذة (1883)، وهي

متاحة الآن على الإنترنت. إنها توجز أوجه الشبه الزائفة بين الفقر وانعدام الفضيلة الأخلاقية؛ التي قد تضرب القارئ، كما هو مألوف، من الخطاب السياسي الحديث.

إن أولئك الذين اعتادوا تصوير المرأة الفيكتورية مستسلمة للأبد لزخّات من أبخرة ذوي اللحى من الأزواج المخادعين، ليس باستطاعتهم سوى قراءة سيرة ريتشل هولمز لإلينور ماركس (2013). ففي مقدمة الكتاب، يقول المؤلف: «بدأت الحركة النسوية عام 1760 وليس 1970».

في البحث عن علاج السل، ولا سيما آثاره في العقل، أشعر بالامتنان لهيلين بينوم، سواء في المراسلات أو في كتابها بصاق الدم (2012). في هذه الأثناء، يلوح ريتشارد بارنيت بالجمال المزعج؛ الذي يمكن أن يوجد في المرض والمعاناة في كتابه الوردة المريضة (2014).

كان عمل روي بورتر المهيب، أعظم فائدة للبشرية: التاريخ الطبي للبشرية من العصور القديمة حتى الوقت الحاضر (1999)، يوضح نظرته العامة للتاريخ الجراحي الدم والأحشاء (2003)، والثورة الجراحية (2007) لبيتر جونز، كلها كانت قيِّمة، ولا تقدَّر بثمن في تشكيل عقل وعمل الطبيب لوك غاريت. إن عدم الدقة والحذف في الجوانب الطبية لهذه الرواية، كما هو الحال في سائر الحالات الأخرى، هي مني وحدي بالطبع.

لقد تأثرت طبيعة مرض السل الذي تعاني منه ستيلا رانسوم؛ تأثراً عميقاً بزرقة النبات البروتيني لماجي نلسون، وهو تأمُّل رائع في الرغبة والمعاناة، تمَّت تصفيته من خلال منظور الحزن.

أخبار غريبة من إسكس، فإن الكتيب الذي ينبه القرويين في هينهام أون أون ذا ماونت، إلى وجود أفعى إسكس، هو كتيب حقيقي. قد تشاهد كلاً من الأصل لعام 1669، ونسخة طبق الأصل لميلر كريستي لعام 1885 في المكتبة البريطانية، وتوجد نسخة أصلية أيضاً في المكتبة في سافرون وولدن، في إسكس، حيث تمت طباعتها لأول مرة. إن عناوين كل جزء من الأجزاء الأربعة لهذا الكتاب، مأخوذة من نص الكتيب.

يُعرض «تنين البحر» لماري آنينج في متحف التاريخ الطبيعي في لندن.

شكر وتقدير

أولاً، أشكر بكل حب، عزيزي روب، فصحبته لا تنضب من رقة واهتمام، وقد كان أول من أخبرني بأسطورة أفعى إسكس.

إنني ممتنة للغاية، كما هو الوضع دائماً، لحنا ويستلاند وجيني هيوسن؛ لنصحهما ودعمهما، ولعادتهما الخارقة للعادة في معرفة في ما أفكر أكثر مني شخصيّاً. إن العمل معهما امتياز ومرح. أتوجه بالشكر أيضاً إلى آنا ماري فيتزجيرالد، وفلورا ويليس، وروث بيتري، وإميلي بيري، وزوي فالدي ولكسي هامبلين، فجميعهن قد فعلن الكثير من أجلي، ومن أجل هذا الكتاب.

أشكر عائلتي؛ التي كانت لطيفة معي، وأخص إيثان وأميلي، المسافرين الشجاعين عبر الزمان والمكان، والشكر موصول للملهمين الثلاثة الصغار: دوتي وماري وأليس.

أشكرك: لويزا ياتيس، أول قرائي ومعلّمتي. وأتوجه بالشكر أيضاً إلى هيلين بينوم التي كانت لطيفة معي، بما يكفي لإسداء المشورة لي بشأن جوانب السل، ولهيلين ماكدونالد، لتوجيهها في مسائل الأزهار والطيور. تمت صياغة جزء كبير

من هذا الكتاب في مكتبة جلادستون، المكان الذي أعتقد أن جزءاً من ظلالي يعيش دائماً فيه، في المقعد نفسه: أشكر جميع أصدقائي هناك، وخاصةً بيتر فرانسيس.

ولصبرهم وصداقتهم وحكمتهم، أقدم حبي وشكري لميشيل ولفندن، وتوم ولفندن، وسالي رو، وسالي كرايتورن، وهولي أونيل، وآنا موسر، وجون وينديت، وبن جونكوك، وإيلي إيتون، وكيت جونز وستيفن كرو. إنني ممتنة إلى ما لا نهاية؛ لما رأيت من لطف ودعم من الكُتَّاب الذين أعجبت بالكثيرين منهم لسنوات، وأخص بالشكر، سارة ووترز وجون برنسايد وصوفي حنا وميليسا هاريسون وكاثرين إنجيل وفانيسا غيبي، والشكر موصول إلى نساء جمعية الخوف من الولادة، فقد كُنَّ أول من سمعنني أقرأ من هذا الكتاب؛ لكم حبي.

لم أكن لأتمكَّن من تأليف تلك الرواية، دون دعم من مجلس الفنون، وأنا ممتنة للغاية لمساعدتهم، ولدعم سام رودوك وكريس جريبل، في مركز كتاب نورتش.